

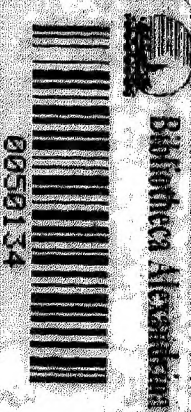
سير شارلز ويلسون

لوحات

من القرن التاسع عشر

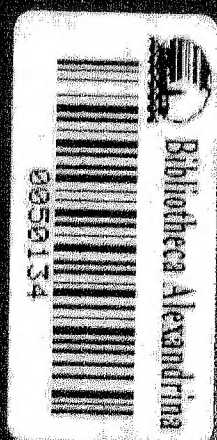
لبنان - فلسطين - سيناء

١٥٠ لوحة/وثيقة مع نص مونوغرافي متميز



لوحات من القرن التاسع عشر

حرره وأعدّه
سير شارلز ويلسون



لوحات
من القرن التاسع عشر
لبنان، فلسطين وسيناء

لوحات
من القرن التاسع عشر
لبنان، فلسطين وسيناء
١٥٠ لوحة / وثيقة مع نص مونوغرافي متميز

حرره وأعدّه
سير شارلز ويلسون

ترجمة
د. محمد شيا

شركة المطبوعات



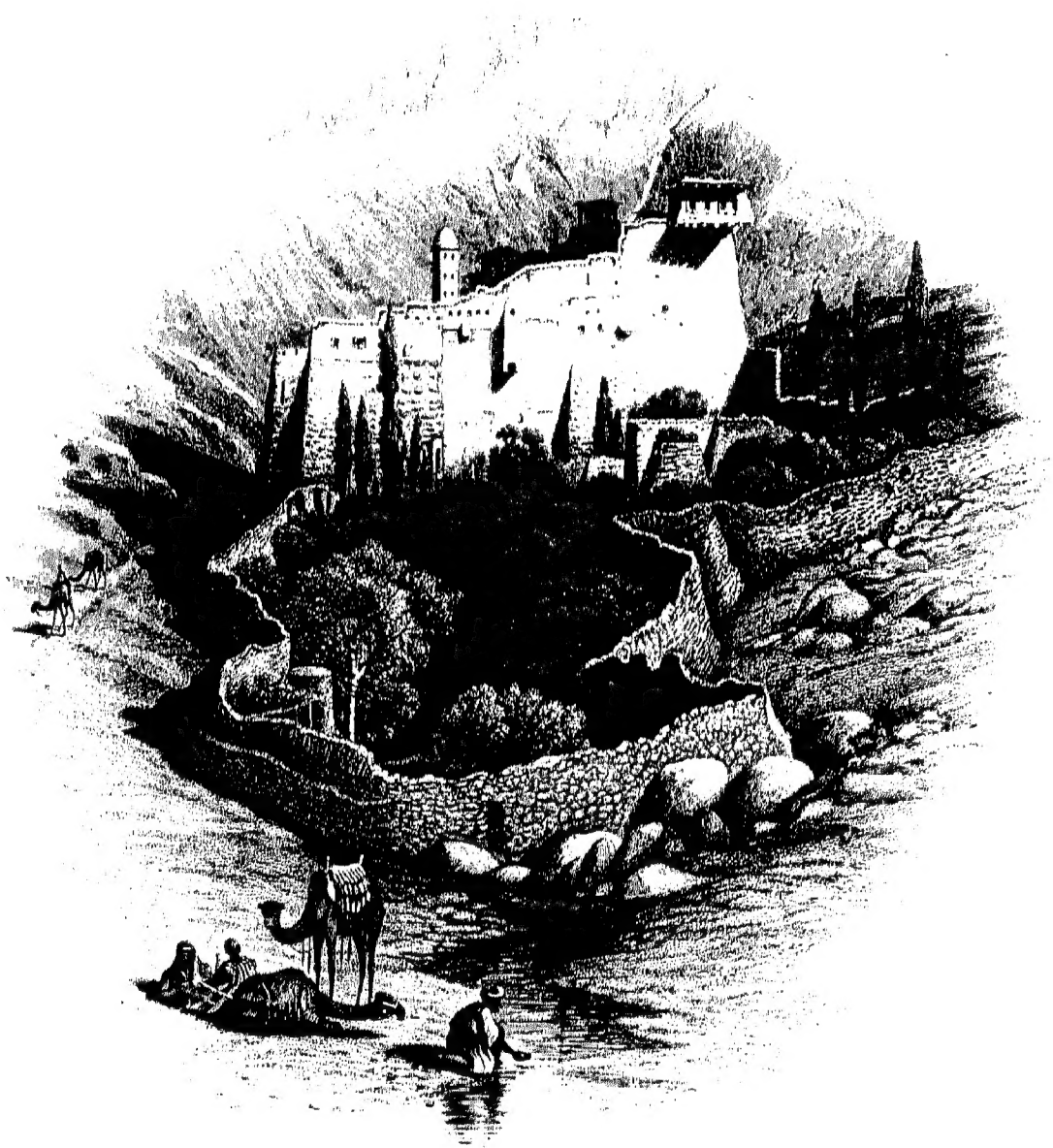
للتوزيع والنشر

بناية الوهاد . شارع جان - دارك
ص.ب. ٨٣٧٥
بيروت - لبنان

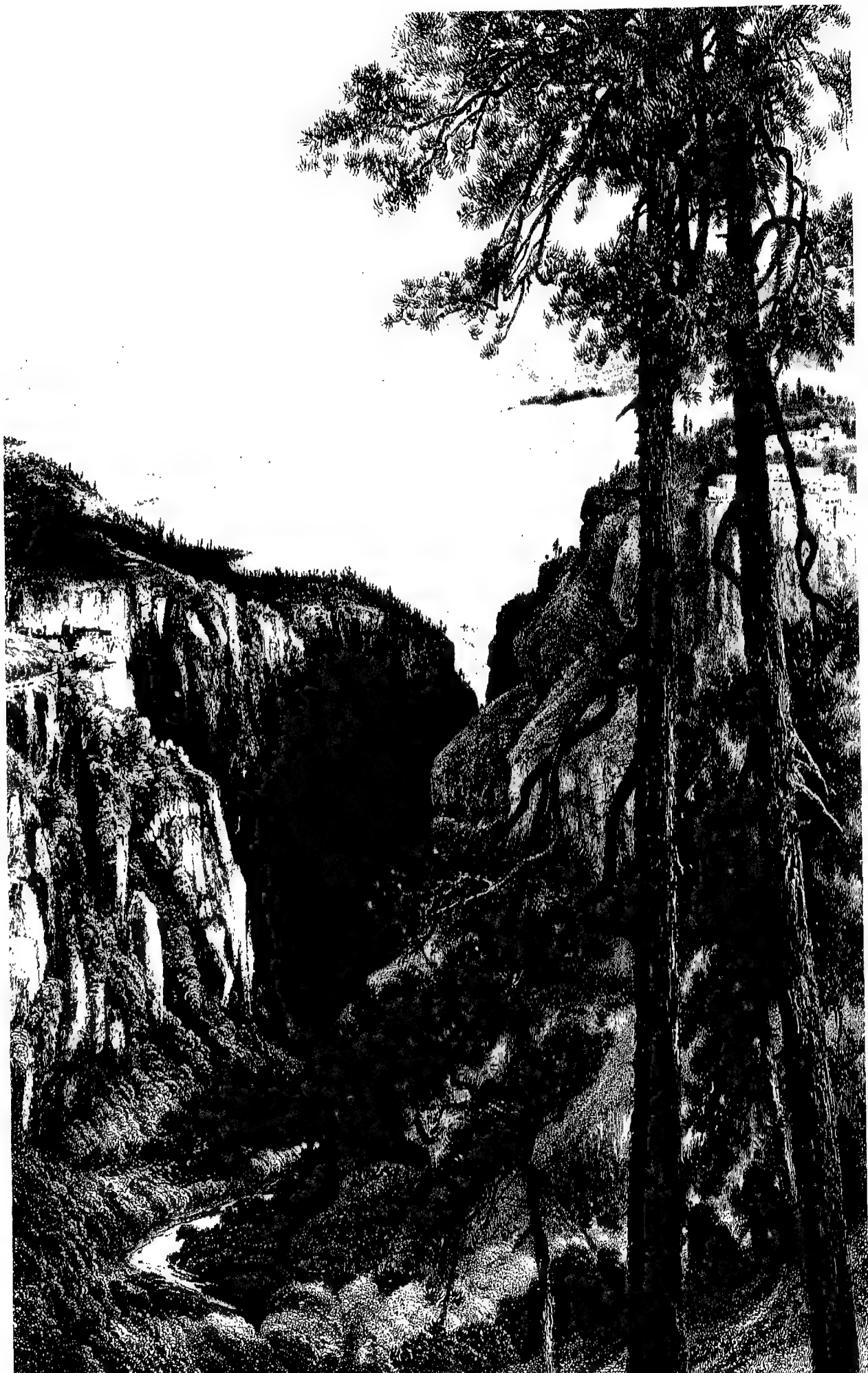
هاتف: ٣٤٤٢٣٦ - ٣٤٥٤٦٠ / ٢ - ٣٥٠٧٢١
فاكس: ٥٢٢١٠٧ - ٩ - ٣٥٧ / ٢٩ - ٦٠٢٠٢٩ - ٩٦١١
تلكس: ٢٢٦٦١

الطبعة الاولى ١٩٩٥ م

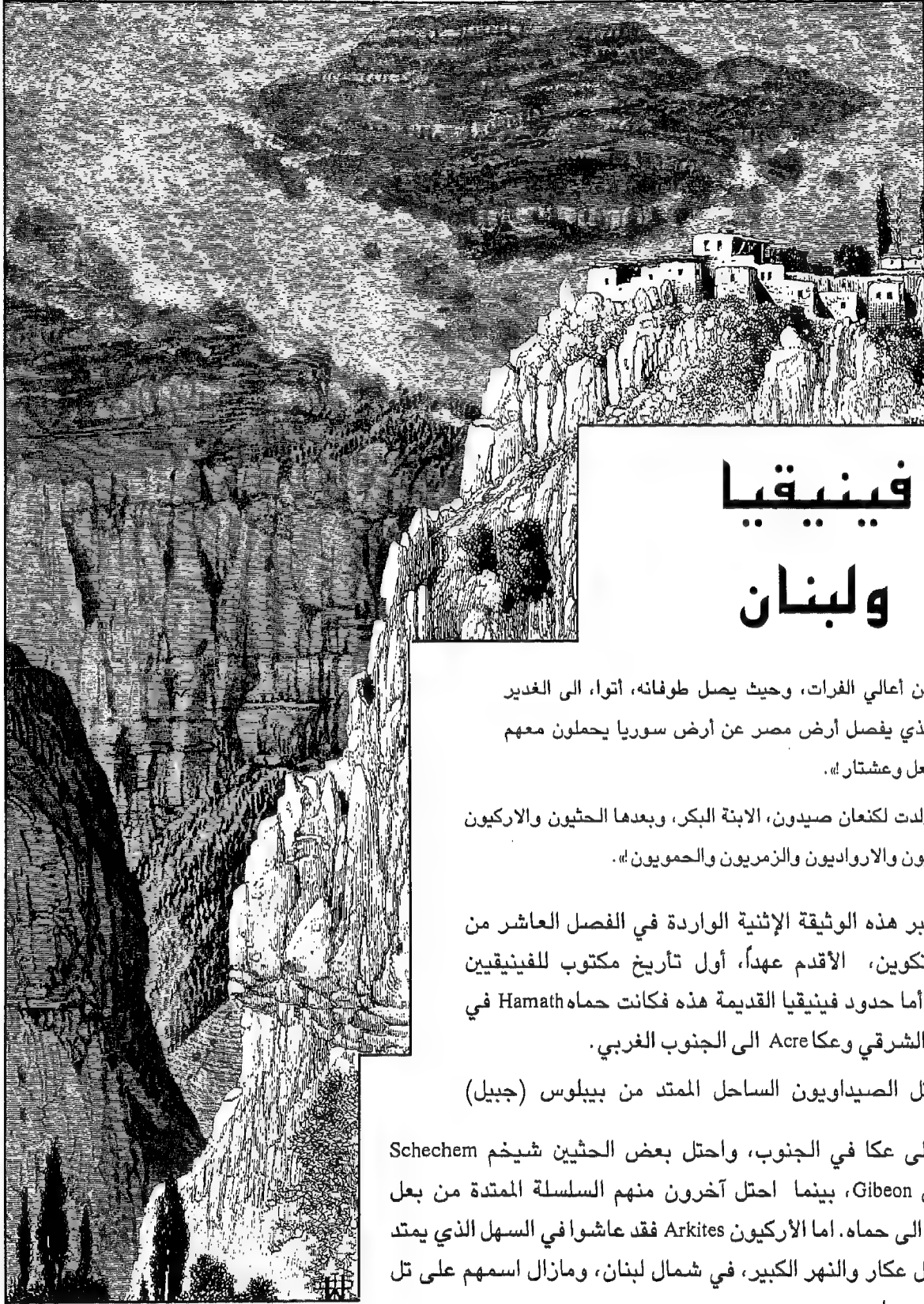
الاخراج الفني: منى التالى



دير سانت كاترينا في جبل سيناء







فينيقيا ولبنان

من أعالي الفرات، وحيث يصل طوفانه، أتوا، الى الغدير
الذي يفصل أرض مصر عن أرض سوريا يحملون معهم
بعل وعشتار!.

«ولدت لكتعان صيدون، الابنة البكر، وبعدها الحثيون والاركيون
والسينويون والارواديون والزمريون والحمويون».

تعتبر هذه الوثيقة الإثنية الواردة في الفصل العاشر من
سفر التكوين، الأقدم عهداً، أول تأريخ مكتوب للفينيقيين
الأوائل. أما حدود فينيقيا القديمة هذه فكانت حماه Hamath في
الشمال الشرقي وعكا Acre الى الجنوب الغربي.

احتل الصيداويون الساحل الممتد من بيبيلوس (جبيل)

شمالاً الى عكا في الجنوب، واحتل بعض الحثيين شيخم Schechem
وجيبون Gibeon، بينما احتل آخرون منهم السلسلة الممتدة من بعل
حرمون الى حماه. اما الأركيون Arkites فقد عاشوا في السهل الذي يمتد
بين جبال عكار والنهر الكبير، في شمال لبنان، ومازال اسمهم على تل
عركة ونهرها.

والى الشمال من ذلك، فان أحد أهم المواقع الأثرية في شمال سوريا
هي «قلعة قدموس»، على مسير اثنتي عشرة ساعة جنوب شرق
اللاذقية، والتي ربما كانت الموطن الاصلي لقدموس الذي أدخل الحرف،
لأول مرة الى أثينا... هوذا الحد الشمالي لرحلتنا في بلاد فينيقيا.

حصرون، قرية مارونية
في شمال لبنان، على قمة صخر عال في الجانب
الجنوبي من وادي قاديشا (النهر المقدس)
وادي قاديشا (النهر المقدس)

وكي نتمكن من انجاز رحلتنا العتيدة هذه، كان لا بد من أن نبدأ من أقصى الشمال ثم نتجه جنوباً، وفي رفقة الأب س. غصوب من طرابلس، والبروفسور دودج Dodge من الكلية [الأميركية] في بيروت. وكانت البداية في آثار العمارة الفينيقية القديمة في شمال سوريا المسماة «حصن سليمان» والتي لم تكتشف معالمها الا حديثاً. وقبل ذلك كنا قد قضينا ليل الثلاثاء في مهاردي Mahardee بالقرب من قلعة سيجار Sigar على العاصي (Orontos)، شمالي غرب حماه؛ ثم انطلقنا صباح الاربعاء نحو الجنوب الغربي لنبلغ محيط جبل النصيرية، وتسلقنا بعد ذلك منحدرًا صخريًا حادًا يرتفع بضع مئات من الاقدام، وسط غابات من شجر السنديان وصولاً الى القمة قرب المنطقة التي تدعى «عين شمس»؛ وانحدرنا بعد ذلك غرباً في وادٍ ضيق نحو «عين الذهب» ثم انحرفنا جنوباً فوق هضبة مستديرة عالية، لنصبح بعدها مباشرة أمام وادٍ أخضر منغلٍ تقوم في وسطه تماماً آثار «حصن سليمان». تبدو آثار الحصن، الذي لا يعرف مصدره أو تاريخه على وجه الدقة، مغلّة في القدم فهو يحتوي، كما قلعة بعلبك، على ثلاثة أنواع من العمارة: الفينيقية الضخمة واليونانية والصليبية. وأول ما يلفت النظر في آثار الحصن قاعتان فسيحتان مربعتا الزوايا قريبتان الواحدة من الأخرى ولكن غير متصلتين. تمتد القاعة الجنوبية، وهي الاوسع، على شكل مستطيل كبير في ٤٥٠ قدماً طولاً و ٢٨٠ قدماً عرضاً مع حائط علوه الأصلي حوالي ٤٠ قدماً. وفي وسط كل جانب من جوانب القاعة بوابة ضخمة في عرض ١٠ اقدام وفي ارتفاع يبلغ ٢٠ قدماً وبسماكة ٨ اقدام. وفوق قنطرتي البوابتين الشرقية والغربية يقوم تمثال لنسر هائل بين مخالبه صولجان، ويحفّ به من الجانبين ساقيا خمر يونانيان. تشبه آثار الحصن آثار بعلبك ولكن دونها بكثير فخامة ودقة وزخرفة. امضينا في «حصن سليمان» حوالي ست ساعات في نقل تصاميم تلك الآثار لصالح جمعية الآثار الأميركية الفلسطينية APES، وكانت هذه التصاميم والتخطيطات أولى الصور التي تنشر في أوروبا وأمريكا لتلك الآثار. فوق البوابة الشرقية عتبة ضخمة بطول ٢١ قدماً وعرض ١٠ اقدام وارتفاع ٥ اقدام، يبرز منها إفريز تزخره منمنمات وزهور منحوتة بينما مجسم رأس الملك يتوسطها جميعها. وعلى كل طرف تمثال شخص مجنح، نافر وعالٍ وتتكرر ثنيات رداء يبدأ من الخصر نزولاً، ويسند الجزء العلوي من الإفريز بكتفه والساعدان الى فوق، وعلى أسفل الإفريز كتابة منقوشة باليونانية تقول ما معناه: «هو ملك ثيوباتيوس، بناه عماله وخدمه في سنة ٦٨ الثانية». أما إفريز البوابة الغربية فيحتوي على منحوتات وازهار ومنمنمات ووجوه بارزة أو نافرة. والعتبات تلك هي في حالة انشطار أو انهيار، ولم تسلم غير عتبة البوابة الشرقية التي بقيت في حالة كاملة، بينما انشطرت عتبة البوابة الغربية الى شطرين والشمالية الى ثلاثة، وانهارت الجنوبية تماماً. وداخل البوابة الشمالية وعلى لوح ارتفاعه ٦ اقدام وعرضه ٣ اقدام كتابات يونانية ولاينية ويفيد النص اللاتيني، كما ترجمه د. ورد Ward، ان الامبراطور فاليريانوس وابنه غالينوس وحفيده سالونيانوس قد اعتمدوا اركسوس واوريوس (وآخرين) على مقاطعات آسيا وأمروهم بالقضاء على تمرد باريتانوس في المقاطعات البعيدة. وتاريخ الكتابة هو بين ٢٥٣ و ٢٥٩ م. الا ان تاريخ الكتابة يبدو متأخراً الى حد كبير عن تاريخ البناء نفسه، ولعله مقتلع من مكان آخر، اذ ان كتابة أخرى عليه تبدو ممحية.

يقوم الحصن على شكل مستطيل مبني من حجارة ضخمة يقوم أضخمها في الركن الشمالي الشرقي في طول يبلغ ٣٠ قدماً، وارتفاع ٩ اقدام و ٩ انشات، وعرض ٤ اقدام وسبع انشات وتعلو عن الأرض من جانبها الداخلي ٣٠ قدماً. ومعظم الحجارة متساوية الطول الا أن بعضها أكثر سماكة من بعضها الآخر، كما أن بعضها أقصر وأعرض من البعض الآخر. أما الحجارة الواقعة في الجانب الجنوبي فعريضة، خشنة، وتبدو غير منتهية الصنع، اذ ان آثار النحت بادية على سطوح بعضها.

أما المحجر Quarry فعلى منحدر الهضبة على مسافة بضع قصبات* عند الزاوية الشمالية الشرقية، وفوق هذه الزاوية منحوتة أسد بدائية بارزة فوق الجانب الشمالي. وفي الزاوية الشمالية الغربية المقابلة منحوتة أسد يستريح تحت شجرة سرو. والنمط البدائي هذا غير الدقيق أو المتقن من منحوتات الأسد ما زال الى اليوم يزين مداخل المنازل السورية الحجرية، بل تستعمله النساء العربيات في زخرفة الحيطان الطينية الداخلية لمنازلهن البدائية. وعلى الجانبين

* وحدة قياس قديمة تساوي ٥,٢٩ متراً [م].

الداخلي والخارجي من البوابة الشمالية مشكاة فارغة تظلها سعة عالية. وعلى الجانب الداخلي من حائط القاعة آثار رواق كان يمتد باتساع ٤٥ قدماً وعمق ١٧ قدماً، سقفه وأعمدته متداعية ومعظمها مطمور تحت الركام. وتعود قواعد الأعمدة على الجدران الأساسية إلى النمط الكورنثي الأول.

وفي الجزء الجنوبي الأوسط من المستطيل يقوم الهيكل الأيوني Ionic في ٧٥ × ٤٥ قدماً. وإلى جانب منه مجموعتا أدراج في عرض واجهة الهيكل وبطول ٦٠ قدماً شمالاً. وبُني الهيكل من الصخر الكلسي نفسه الذي بنيت منه القاعة، إلا أن حجارته أصغر حجماً بكثير وهي تتدرج من ٦ إلى ١٠ أقدام طولاً ومن ٣ إلى ٤ أقدام عرضاً وارتفاعاً، وهو محاط بأعمدة نصفية تصبح في الزوايا أعمدة ثلاثية أو رباعية، أربعة منها في طرف الهيكل الجنوبي وخمسة على كل جانب، وجميعها على ٣ أقدام و ٥ انشآت في قطرها و ٢٧ قدماً ارتفاعاً. وإلى الداخل بقايا صفوف غير منتظمة من الأعمدة النصفية. كما تجري شتاءً عين ماء من تحت الهيكل، وهي كانت كما في نبع فيجي أو أفقا كما يبدو، مراكز جذب متصلة بعبادات تلك الأيام والتي ما زالت تفاصيلها سرّاً مغلقاً. ومياه العين تلك باردة صافية، سلسلة، تنبع من تحت الحائط الغربي من السور، أما منبعها الأصلي فغير ظاهر ومطمور تحت الركام.

والآثار الشمالية من الحصن مستطيلة كذلك، تقع إلى الشمال الغربي من القاعة الكبرى لتشكل زاوية معها. وهي تضم مجموعة معابد صغيرة، واحد على الزاوية الشمالية الشرقية، وواحد على الزاوية الجنوبية الغربية، وآخر خارج الحائط الغربي قياسه ١٥ × ٥٥ قدماً. ووراء الساحة عند الزاوية الجنوبية الغربية قواعد أعمدة كثيرة كانت، ربما، تحيط بالمعبد ويمتد فوقها رواق طويل. وللمعبد الصغير في الزاوية الجنوبية الشرقية رواق يرتفع ١٠ أقدام وقياسه ٢٦ × ٣١ قدماً، مع ردهة مساحتها ٢٦ × ٤٠ قدماً. والبوابة بينهما، وهي ركام الآن، عرضها ٧ أقدام وارتفاعها ١٠ أقدام، بينما تمتد العتبة التي فوقها ١٣ قدماً طولاً وعليها محفورات ومنحوتات غير مكتملة لزخرفات وأزهار شبيهة بتلك التي على بوابتي القاعة الكبرى مع حمالة باسطة جناحيها. والحجر الذي على العتبة هو في ١٥ قدماً طولاً أما الحجارة فمرصوفة، من دون مؤونة وتتصل بشكل جميل وعلى نحو يشبه نمط بعلبك وبالميرا Palmira (تدمر). والبناء الوحيد الذي جرى استخدام المؤونة في رصف حجارته هو الكنيسة الصليبية على الجانب الشرقي وبخاصة في الجزء النائي منها صوب الشمال الشرقي. لكن اللافت هنا هو أن أي إسقاط Projection نصف دائري لتخطيط الحائط الشمالي يؤشر مباشرة إلى نتوء سابق في صرح أكثر ضخامة كان قائماً في المكان نفسه.

وتبقى طبيعة الموقع الأثري برمته سرّاً من الأسرار إلا أنه يتضح أنه كان أحد أماكن Arvadites المقدسة، كما كان حصناً في الآن نفسه. وفي تقريره حول بقايا العمارة الصليبية العسكرية في سوريا يصنف مسيو راي، من باريس، هذا الموقع باعتباره الأكثر أهمية في سوريا. ويشير اسمه الشائع «حصن سليمان» إلى أصله، ربما، وحسب ما هو سائد من الروايات. فلقد نسب العرب بناء هياكل بعلبك، وتدمر/بالميرا إلى عمل سليمان، بمساعدة الجن، وهو ما ينطبق وفق الروايات على هذا الموقع الفينيقي وربما كان قريباً من المنطق الافتراض أن سليمان وقد بلغ حماه Hamath Zoba قد رغب ببناء أماكن أو مراكز لخزن الحنطة في المنطقة فأمر عماله ببناء هذا الحصن ولقطة حماه Hamath تعني الحصن - وشهرة سليمان طبقت مناطق حكمه بأسرها قبل أن يسكنها الفينيقيون والحثيون - ولعله جرى اختيار هذه البقعة النائية مكاناً لبناء موقع قوي حصين تخزن فيه الحبوب لسكان شمال سوريا، بالإضافة إلى وظيفته كحصن عسكري. أما المعابد الصغيرة فيبدو أنها أضيفت في أزمنة لاحقة.

بعد مغادرتنا الوادي الجميل هذا، قصدنا «برج صافيتا»، أو القلعة البيضاء، التي بناها الصليبيون والتي تشغلها الآن كنيسة أنجيلية ومدارس. وتشبه القلعة، كما يوحي اسمها، بقعة بيضاء على صفحة جبل قاتم اللون. وفي الأول من حزيران، انحدرتنا نزولاً لحوالي ست ساعات عبر الهضاب الطباشيرية نحو الساحل ولنصل مباشرة إلى مدينة طرطوس الحديثة، التي تقوم اليوم مكان انتارادوس Antaradous الفينيقية القديمة. تضم البلدة اليوم حوالي ١٥٠٠ ساكن، أربعة أخماسهم مسلمون والباقيون أرثوذكس. وتعيش غالبية السكان داخل جدران القلعة، وهي مبنى حصين حيث الأسوار والأبراج التي بناها الصليبيون لاتزال في حالة ممتازة. وتحاذي القلعة الشاطئ، يحميها من مد البحر

أعمدة وحيطان ضخمة تتدرج صعوداً . أما لجهة البر فهي محاطة بحائطين يتخللهما خندقان، واحد من الداخل وآخر من الخارج . ولا يزال معظم هذه التحصينات في حالة حسنة وبخاصة في الجهة الشمالية الشرقية، وتبدو العمارة القديمة هذه جميلة وقوية خصوصاً إذا ما قورنت بهزال معظم الإضافات الأحدث عهداً.

واستقلينا من طرطوس مركباً شراعياً، أو «الشختورة» العربية عبرنا بها مسافة الميلى ونصف الميل نحو الجزيرة القديمة أرواد، توأم طرطوس. يزيد محيط الجزيرة عن ثلاثة أرباع الميل ويقطنها حوالى ألف ساكن وكانت الجزيرة، في ما مضى، محاطة بسور يمتد حولها من حافة الماء، يحميها من البحر من جهة ويصلح حصناً عسكرياً من جهة ثانية ولا تزال بعض بقايا ذلك الجدار قائمة. وهي تتألف من حجارة صخرية قد يبلغ بعضها الخمسة عشر أو العشرين قدماً طولاً. وشكل هذه الحجارة الضخمة غير المصقولة يشير الى أصلها الفينيقي. أما داخل الجزيرة فقد حفرت خزانات في الصخر بهدف حفظ المياه لسكان الجزيرة؛ كما أن في بعض صخور الجزيرة نقوش يونانية تبدأ بكلمات: «الشيخ Senate والسكان ...». يقع مرفأ الجزيرة في الجهة الشمالية الشرقية ويحميه من أمواج البحر حاجزان مكونان من حجارة ضخمة جلبت من مقالع في عمريت Amrit ومعظم سكان الجزيرة اليوم صيادون تحمل مراكبهم السمك الى اللاذقية وطرابلس، وربما بلغت كذلك بيروت. كما قد تشحن الخشب من سفوح الجبال المجاورة الى مدن فينيقية الجنوبية. تحالفت أرواد مع صيدون لكنها احتفظت بملكها الخاص يمثل التاج الفينيقي فيها. وبحارة هذه الجزيرة شجعان، قساة، وقد نافسوا الصوريين والصيداويين في التوغل في المتوسط والبحار السود. ويعود للبحارة هؤلاء فضل بناء المدينتين المقابلتين على الشاطئ انتارادوس (أو طرطوس الآن) وماراتوس (أو عمريت) حيث نجد فيها بقايا العمارة الفينيقية في أبهى صورها وأكثرها أهمية. والرحلة من طرطوس الى أرواد هينة ممتعة صيفاً كما في معظم أيام الربيع، إلا أنها ورغم مهارة بحارة أرواد أكثر صعوبة وقسوة في باقي شهور السنة.

ومن طرطوس وبمحاذاة الشاطئ نحو عين الحية وعمريت وكان موسم الحصاد على الأبواب والبلاد بأسرها في حلة ذهبية قشبية، حيث الهضاب تموج بالسنابل، والثيران بدأت تدور وتدور على البياض المستديرة الشكل تدرس أكوام الحنطة وتفصل الحب عن القشور. وإلى الجنوب الشرقي من طرطوس تقوم كاتدرائية الصليبيين وهو مبنى جميل يقع في ١٣٠×٩٢ قدماً ويفصل الصحن عن سائر الكنيسة صفان من الأعمدة المتقاربة. والكاتدرائية الآن وكما الحال في سائر المدن السورية، في تصرف المسلمين، وقد شاهدنا فيها شيخاً مسلماً يعلم أطفالاً صغاراً قراءة القرآن، وقد افترشوا جميعاً حصيرة بسيطة. ورغم أن البناء هو جزئياً من دون سقف، إلا أنه لم يتداع؛ والمنظر محزن ولافت لكنه شائع ومألوف في المنطقة الواقعة بين حلب وطرابلس. فمعظم القلاع والابنية التي شادها الصليبيون، وبخاصة الفرنسيين والانجليز، بكنائسها القوطية وجدرانها العالية هي اليوم إما حطام وحطائر، أو أمكنة لاستخدام عمال الاترال وموظفيهم وخدمهم.

وبعيد تركنا كاتدرائية طرطوس بلغنا بعد مسيرة ساعة أو يكاد، آثار عمريت Amrit، والتي اكتشفها م. رينان Renan وأبان تفاصيلها وجمالاتها بكثير من العمق والتعاطف في عمله المنشور تحت عنوان "Mission de phoenice". واثار عمريت (أو تل عمارة) أخاذه ولافته، وهي أكثر بقايا العمارة الفينيقية في سوريا كملاً تنتصب في ثلاثة تماثيل شامخة ضخمة، أولها على قاعدة مساحتها ١٦ قدماً وتعلو ١٦ قدماً مع اسود منحوتة على الزوايا، وترتفع فوقها مسلة الى ١٤ قدماً. والثاني على قاعدة مساحتها ١٥ قدماً وارتفاعها ١٠ أقدام، تقف عليها منحوتة حجرية اسطوانية الشكل ضخمة، وجميعها محاط بصخرة مخروطية الشكل يبلغ أقصى علو لها ٣٣ قدماً وتحت كل واحد منها غرف محفورة في الصخر، تتفرع الى غريقات صغيرة مساحة كل منها ٨ ١ / ٢ × ٣ ١ / ٤ قدماً. أما النصب الثالث فمدمر. وحسب لينورمانت Lenormant فإن الأنصاب المخروطية تحمل معاني معينة في عبادات البعل القديمة. «ففي بافوس Paphos الحجر يمثل عشتار* هو مخروطي الشكل، وكذا في مالطة، في أحد المواقع الفينيقية، «قدس المقدس» النصف

* اله الخصب عند الفينيقين

الدائرية، جيجانتيجا Gigantega صخر مخروطي، كما في بافوس، رمز لطبيعة الاله و لعبادته» ولا معنى هنا للدخول في شروحات المضمون الأصلي المتضمن في الرمز المخروطي وقداسته. «فقد كانت هناك مسلتان متشابهتان تنتهيان الى مخروطين، أو رأسين مستديرين، دعاهما العرب «مغازل» موضوعتين على مدخل معبد اتارغاتيس Atargatis في بامبيس Bambyce ويحتل أن بعضاً منها أو مايشبهه كانت يقوم أيضاً في معبد ملكارت في صور. وفي معبد اوروشليم، وفي مسعى لإزالة كل بقية رمزية تنقض روح تعاليم الرب، استبدلت المسلتان بعمودين على قاعدتين برونزيتين، جاسثين Jachin وبواز Boaz ويمكن الى اليوم مشاهدة ثلاث مسلات من هذا النمط وسط آثار عمريت».

ويصعب على المرء اليوم بالتأكيد تحليل النوع الاخلاقي الديني القائم في روح ونسيج عبادة البعل الفينيقيّة القديمة: «كان بعل وعشتار ومعهما الالهة الوثنية كلها يقفون امام جرائمهم الوحشية الاكثر سوءاً».

ففي نظامهم الديني، أو في الممارسات التي تكوّن هذا النظام أو تتبعه، تجتمع على نحو بدائي، ولكن رمزي، مجموعة من الطقوس المرعبة، منها المآذب والبغاء على شرف المقدس، وكما هو الحال في سائر الأديان الطبيعية القديمة وينقل لينورمانت عن كريزور قوله «ويسكت هذا الدين المشاعر السامية كلها في الطبيعة الانسانية، ويحقّر عقل الانسان بطقوس فجّة، متهتكة، وعبثاً نبحث في هذه الممارسات عن معنى للخير». وتضحيتهم بالبشر وسواها لبعل مولوك Moloch كانت تعقبها احتفالات ومآذب يتعاقب فيها على نحو فطري قبيح الحزن الشديد والفرح الشديد. ولطالما وصف المؤرخون القدامى الفينيقيين بالعناد والاسترقاق، بالقسوة والوحشية، بالفساد والتهتك. بالانانية والنهب وبالخلو من الايمان. لا نستطيع بالتأكيد إلا أن نتذكر هذه الخصوصيات المعتقدية والسلوكية بينما نتقدم جنوباً بين مدن الساحل التي بناها هذا الشعب، أو بين مواقعه الجبلية الحصينة وهاكله الكثيرة.

والى الشمال تماماً من المسلات المخروطية الثلاث في عمريت يقوم معبد لافت محفور في الصخر في «عين الحية» والاسم يناسب المكان تماماً. اذ لا مكان آخر في سوريا تملأه الافاعي السامة أكثر مما هي عليه في هذه الهضاب الاروادية. ففي كل نقلة لنا في المنطقة كانت تطالعنا روايات هذه الافاعي السامة. وفي واحدة منها بينما كنت اتقدم المرافقين سمعت خربشة بين سنابل القمح، ثم جفل حصاني الى الخلف لأرى أفعى ضخمة في سماكة الزند وطول يزيد على القدمين تبتعد ببطء نحو رجمة قريبة، وقبل أن يصرخ الولد المرافق لنا «انتبه أفعى». لقد كانت تلك إحدى أكثر أنواع الافاعي سمّاً وخطراً. ومن المفيد هنا أن نذكر ما رواه ميشو في تأريخه للصليبيين أنه حينما وصل الجيش الصليبي الى ضفة النهر الكبير على بعد حوالي ١٥ ميلاً جنوب عمريت، بقي هناك مخيماً لثلاثة أيام هوجم في أثنائها من أفاعي سامة تدعى تارنتا Tarenta حيث لسعة الواحدة تجلب الموت مما أثار دهشة الجنود الصليبيين وهلعهم؛ إلا أن ما كان أكثر دهشة هو طريقة معالجة السكان المحليين لهذه الحالات: كان العلاج للسع الأفعى على قدر من القذارة مما يذكر بعبادات البعل البائدة التي كانت تمارس في هذه السهول بالذات.

والى الشمال الشرقي من العين هيكل صخري يبلغ طوله حوالى ربع الميل ينتهي في اعلاه الى حوالى ٩٠ قدماً قبل أن يهبط في درجات نحو الاسفل. يتألف الهيكل المحفور في الصخر من قاعة مساحتها ١٥٠ قدماً مربعاً، حفر منها ٩ أقدام تحت الارض ومفتوحة للناحية الشمالية لتشكل ممراً نحو ساقية الماء. وفي وسط الفتحة الشمالية حجر صخري مربع محلي المصدر مساحته ١٦ قدماً ونصف مربعاً وارتفاعه ٩ أقدام. وتقوم على الحجر أربعة أحجار أخرى: واحدة على كل جانب وأخرى خلفها، وفوقها حجر بمثابة سقف صخري مساحته ١٤ × ٢ / ١ / ٢٢ قدماً مربعاً، وسماكته ٧ أقدام. قعره تجاه الاسفل بما يشبه التعريشة أو التاج. وداخل هذه المشكاة أو التجويف كان هناك في الماضي، كما يبدو، تمثال لآله أو معبود الارواديين وحول الآثار تلك بقايا نواويس وجدران وإشارات الى مدينة قديمة. والمكان جميل اجمالاً فالى جنوبه سهل عكار الأخضر بمحاذاة الخليج والى مسافة بعيدة وصولاً الى مدينة طرابلس وجزرها على بعد حوالى ٣٠ ميلاً. ووراء الى الجنوب الشرقي، ترتفع القمم الثلجية الشاهقة لشمال لبنان بينما تتلأأ غرباً مياه بحر الروم الزرقاء (البحر الأبيض المتوسط اليوم).

على مسافة ثلاث ساعات جنوبي طرطوس تقوم عين ماء رائعة تنبع من ثغر لا يبعد أكثر من عشرين قصبة عن الشاطئ تجري غزيرة قبل أن تلتحق بالبحر ويعرف المكان بـ «عين الهيشي Ain el Hishi». وقد اشتهر طويلاً بكونه ملجأ للعصاة وقطاع الطرق الذين يجدون في مغاور الشاطئ مخابئ لهم تمكنهم من الانقضاء على طرائدهم ثم العودة إلى ملاجئهم. وكان رجال البريد التركي والمسلمون هدفاً دائماً لغارات قطاع الطرق النصيريين في هذه المنطقة الوعرة. إلا أن ما يلفت هو أن تاجراً يونانياً كان يبني في أثناء مرورنا بالمنطقة بيتاً له هناك، بهدف الإقامة. كما أننا صرفنا ليلة لنا في ذلك المكان من دون أن نصادف ما يعكر صفو مقامنا. والأكثر إثارة من المنطقة هم سكانها أنفسهم والذين يسمون النصيرية. فهم يتحدرون عن الكنعانيين القدامى وهم لا ينتسبون لليهودية أو النصرانية أو الإسلام بل يحتفظون بعبادة الكنعانيين للنجوم والبعل، مع شعائر سرية تقام على القلال العالية، إلى إضافات أخرى دخلت من الأديان الكبرى الثلاثة. وإلهمهم على حد قولهم هو عليّ وحينما يقولون الله فهم يعنون عليّاً. ولهم احتفالات في الختان تقدم فيها، الخمرة في شعائر خاصة سرية ومقدسة، وتعاليمهم هي أساساً مجموعة تجديدات ولعنات ضد الفرق الأخرى. أما اسمهم الحالي فهو مشتق من أبي شعيب ابن نصير ٨٦٠ م. وقد بدأوا كجمعية سرية مع إشارات سرية ومفاتيح اصطلاحية خاصة بهم. وحينما يموت الواحد منهم فالشائع عندهم هو الإيمان أن المريح أو جوبيتر قد نزل فأخذ روحه إلى السماء لتغدو نجمة في درب التبانة. وهم يؤمنون بالتناسخ، أو انتقال الأرواح، ولكن على طريقتهم إذ إنهم يعتبرون أن أرواحاً تذهب إلى الحمير، وأرواحاً إلى الخنازير، وأخرى إلى القروء، بينما تنتقل أرواح الموتى النصيرية إلى أشخاص آخرين. وليس مسموحاً للنساء عندهم الإطلاع على تعاليمهم السرية ولا حتى حضور احتفالاتهم أو شعائرتهم المقدسة. فقد خلق الشيطان من آثام الرجال والنساء من آثام الشيطان. والروح تترك الجسد من الفم ولهذا يثير الاعداء شنعاً الرعب. ولهذه الأسباب وتحت دعوى أنهم كفرة، شن عليهم الاتراك حملات قمع، وبأساليب بالغة الوحشية أحياناً وإلى حد الإفناء. ويصرّ بعض الكتاب المحليين، ومن قبيل المبالغة والاثارة، أن شيوخ النصيرية يقدمون نساءهم لضيوفهم حينما يزور بعضهم بعضاً لكننا لم نجد أي تأكيد لذلك عند أكثر من شاهد ثقة. وعلى المستوى الفيزيولوجي، السلالة النصيرية نبيلة ولكتير من شيوخهم طلة رائعة، كما أن صبيانهم وبناتهم يتلقون اليوم العلم في المدارس المسيحية في اللاذقية وسواها، كما سائر أطفال العرب السوريين، لا يقلون عنهم ذكاء أو قدرات.

لم نصادف جنوب طرطوس غير قرى نصيرية قليلة أما بعد دخولنا المنطقة اللبنانية، بعد طرابلس، فلم يكن هناك غير مسلمين ونصارى ودروز.

بعد عبورنا سهل عكار الفسيح نصل إلى تل عرقه Arka، على نهر يحمل الاسم عينه حيث آثار الأركيين Arkites، والتل، كما يبدو، هو موقع العاصمة الأركية القديمة. وتتناثر في الوادي الصخري الذي يجري فيه نهر عرقه، وعلى المنحدر بقايا أعمدة ونواويس وآثار أخرى.

وعلى مسافة أربع ساعات من هذه البقعة تأخذنا الطريق الساحلي عبر نهر البارد إلى «عين البداوي»، أو «شيخ البداوي» والمعروفة بـ «جامع السمك المقدس» ففي الطرف البعيد لسهل طرابلس الخصب الذي يتصل بمنحدرات خضراء جميلة، تقوم بركة مياه كبيرة تصب فيها عين ماء حلوة نقية وقريبة. يبلغ قطر البركة حوالي ١٠٠ قدم وعمق الماء فيها بين قدمين وثلاثة أقدام، وينتشر فيها بكثافة سمك، سمين، ملون، يصل طول بعضه إلى ٢٠ انشاً، ويطعم السمك زوار المسجد القريب الذين يتقاطرون من طرابلس، على بعد ثلاثة أميال أو من المناطق القريبة، لزيارة ضريح «شيخ البداوي» في المناسبات أو للتبرك بالسمك المقدس. ويشيع الاعتقاد أن أرواحاً بشرية تسكن هذه الأسماك وقتلها جريمة بالتالي. ومن الاعتقادات المتصلة بذلك أنه في أثناء حرب الاتراك مع روسيا اختفى عدد غير قليل من هذه الأسماك وغار تحت البحر لمحاربة الروس. وفي اعتقادهم كذلك أن من يأكل من لحم هذه الأسماك يموت سريعاً. إلا أنه في وسعي التأكيد وبعدم أكلت من لحمها في بيت عائلة ارثوذكسية أرستقراطية في طرابلس قبل عشرين عاماً أن الاعتقادات تلك ليست غير خرافات.

أما الرحلة بعد ذلك نحو طرابلس نفسها، فأمر يبعث على البهجة والسرور. فالطريق معبد بالحصى، حسن الرصف؟ ويشق السهل الفسيح بين بساتين الزيتون الى اليمين، لجهة البحر، وبساتين التين والتوت الى اليسار. وإذا نتقدم أكثر بدت بيوت طرابلس أمامنا بسقوفها البيضاء ومناراتها ترتفع رويداً رويداً. ومع وقع كانت حوافر أحصنتنا تضرب في طريق باب التبانة المعبد، كنا اذذاك على مدخل طرابلس، وكان كل ما هو أمامنا يوحى أننا إنما ندخل مدينة ذات خصوصية شرقية واضحة.

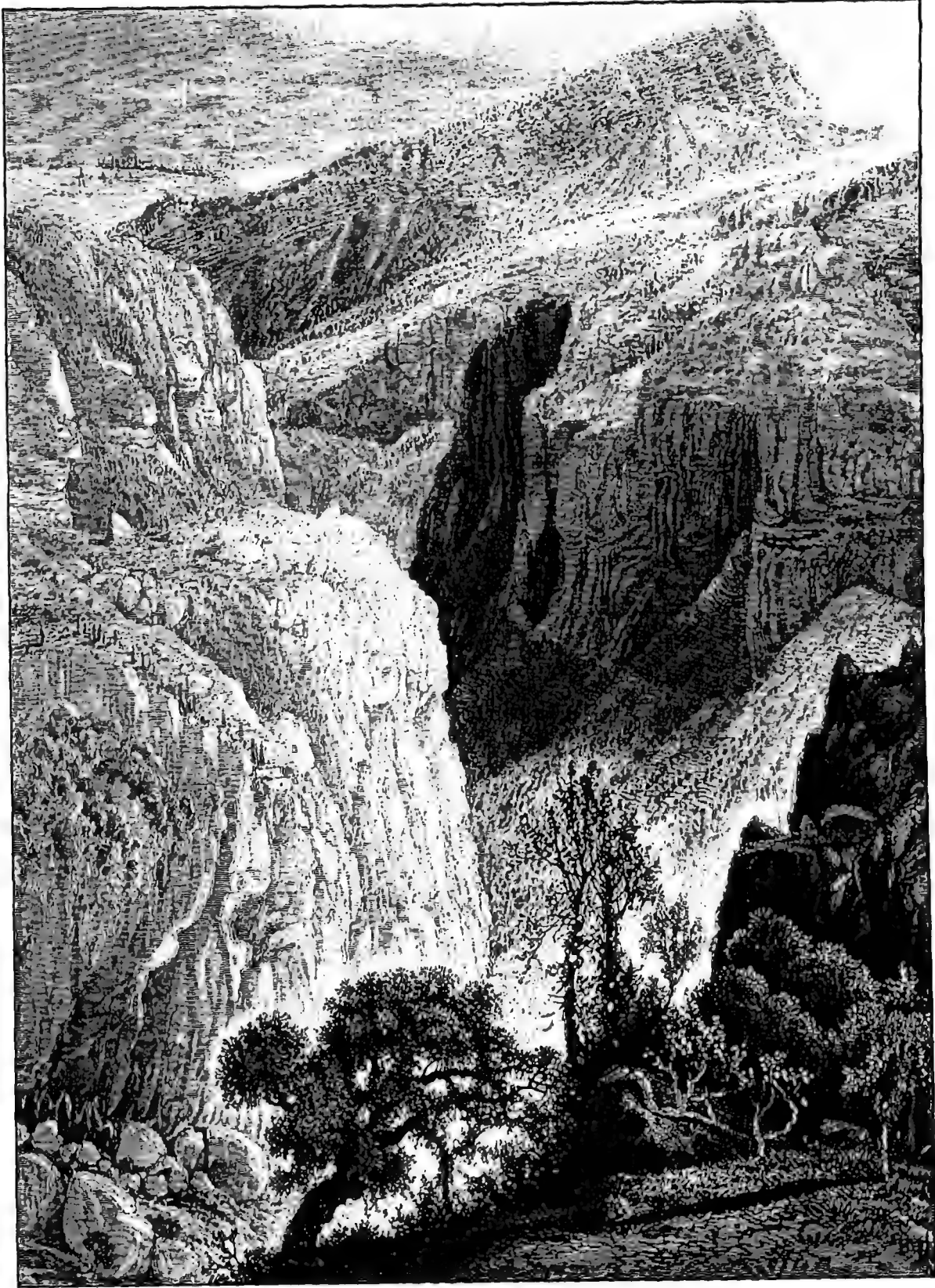
لايسع الداخل الى طرابلس اليوم إلا ان يقف مشدوهاً أمام هذا الانتقال السريع والغريب من الخانات القديمة والمزارات الاسلامية والاسواق المقببة وقوافل سائقي الجمال البدو، الى الحافلات اللامعة المزخرفة على خط ترامواي طرابلس، والذي يبلغ هاهنا آخر محطة له شرقاً، إنه التقاء الشرق بالغرب او سوريا الماضي بسوريا المستقبل.

انشتت طرابلس في حوالى سنة ٧٠٠ قبل الميلاد الا أن تاريخها جرى على تقطع. فقد أقام الحاكم ديميتروس الاول قصرًا له هناك ثم تبعه عماله الرومان الذين اقاموا قصوراً جميلة وأنشاءات أخرى. لكن الزلزال عاجل طرابلس آنذاك فازال معظمها ولم يبق غير القليل من المدينة القديمة. ثم كانت نهضتها الكبرى مع الفتح الاسلامي. ومع مطلع الحملات الصليبية على الشرق، لم يتمكن الصليبيون من دخول المدينة الا بعد خمس سنوات من احتلالهم لانطاكية سنة ١١٠٤. مع دخول الجيش الصليبي المدينة جرى تدمير احدى أعظم مكتبات العصر، التي كانت تضم أكثر من مئة ألف مجلد، الى تحف ومخطوطات نادرة من ثقافات الفرس والعرب والمصريين واليونان. كان في المكتبة على الدوام أكثر من مئة ناسخ يعملون على استنساخ المخطوطات القديمة. وكان قاضي المدينة يرسل عماله الى سائر البلدان يحصلون منها على أهم الكتب وأكثرها ندرة. وما حدث بعيد الدخول الصليبي أمر مروع. فقد دخل أحد الرهبان التابعين للكونت برنار دي سان جيل غرفة في المكتبة جمعت فيها نسخ كثيرة من القرآن فما كان منه إلا أن أفتى أن مكتبة طرابلس لا تضم غير كتب محمد. وعليه فقد جعل ذلك الصرح العلمي الضخم طعماً للنيران. ويجعل ابن ابي طي عدد مجلدات المكتبة ثلاثة ملايين، وأن النصرى قد فعلوا بمكتبة طرابلس ما فعله العرب بمكتبة الاسكندرية بعيد دخولها. الا أن النوباري يثبت عدد مجلدات مكتبة طرابلس في حدود المئة ألف. والى ذلك، يروي المؤرخون أنه حين دمر السلطان قلاوون المدينة سنة ١٢٨٩ كان فيها ٤٠٠٠ نول لنسج الحرير، ومنها شهرة زنار الحرير الطرابلسي المعروف الى اليوم. دعا العرب المدينة طرابلس، وهو اسم مشتق من اسمها القديم تريبولي Tripoli اما الاتراك فقد دعوها «لوباك شام» أو دمشق صغيرة وهي تسمية في محلها تماماً.

تقع طرابلس عند الطرف الشرقي لسهل مثلث الشكل عرضه حوالى الميل الواحد وتستند قاعدته الى هضاب الكورة التي ترتفع من ١٠٠ الى ٣٠٠ قدم، لتبلغ أقدام سلسلة جبال لبنان.

يجري نهر قاديشا المقدس، وقبل ان يبلغ طرابلس من بشري على حافة أرز لبنان ويجري لاثنى عشر ميلاً في واد رهيب ثم يتلوى بين هضاب أقل وعورة ولثمانية عشر ميلاً، الى أن ينتهي في مجرى يضلله شجر كثيف يصل به الى سهل طرابلس حيث تنتشر المدينة على ضفتيه. ولشدة هديره في الشتاء دعاه المسلمون «نهر ابو علي»، يجري وسط المدينة وعليه جسران حجريان بالقرب من الجسر الحديث المخصص لمرو الترامواي. وعلى التلال الواقعة على الجانب الايمن من النهر تقوم منازل متواضعة للفلاحين الموارنة، أما القسم الآخر بين النهر وباب التبانة فيسكنه المسلمون. يقوم الجزء المسيحي من المدينة في أقصى شمال النهر، بينما يمتد الجزء المسلم من طرابلس وصولاً الى بوابة الحدادين الجنوبية. ويتألف سكان طرابلس من ١٢ ألف مسلم و ٤٠٠٠ روم ارثوذكس، و ٥٠٠ ماروني، وأعداد صغيرة من اليهود والانجيليين والروم الكاثوليك. وتعيش كل طائفة في حي منفصل؛ وكذلك تحتل كل تجارة، كما في دمشق سوقاً مخصوصاً بها.

وعلى بعد خمسة أميال الى الشمال الشرقي من طرابلس تجري المياه من قرب زغرنا في قناة ثم تقطع نهر قاديشا على بعد ميل من المدينة في قناطر البرنس (قناطر الامير) وهي التي انشأها ريمون دي تولوز الذي كان لفترة كونتاً على



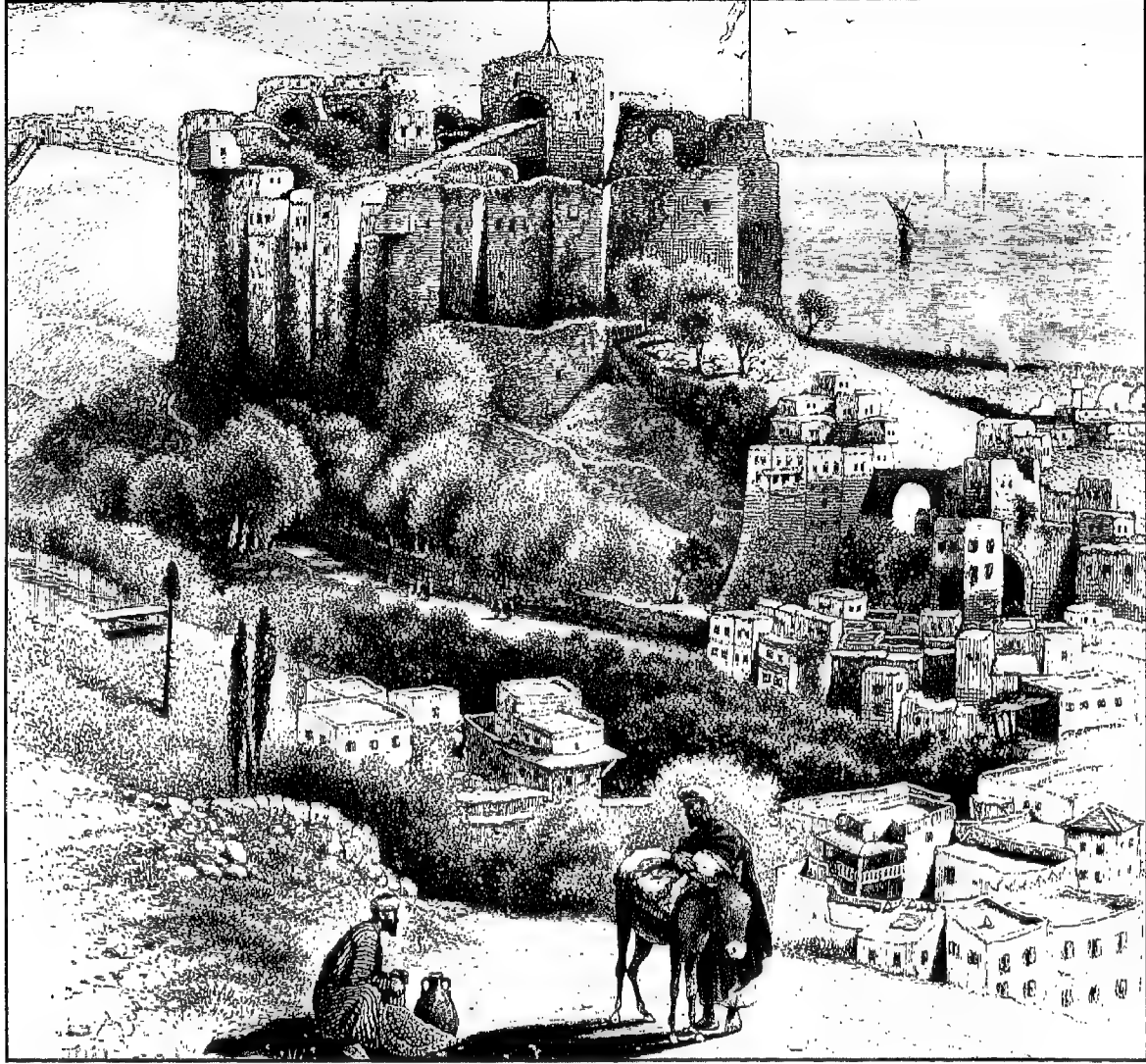
وادي قاديشا (النهر المقدس)
وفي البعيد البحر المتوسط وميناء طرابلس

طرابلس أيام الحكم الصليبي. ثم تصل المياه الى الخزان المركزي الذي يقوم في غرفة صغيرة تحت القلعة، فيها ثقب صغير في قعرها، قطر الواحد منها بضعة إنشات، توزع فيها مياه نظيفة تجري في أنابيب أرضية الى سائر أجزاء المدينة. وهكذا ففي كل منزل وجامع في طرابلس بركة تصب فيها المياه ليل نهار، مما يربط هواءها وينعش جوها صيفاً لكنه يغرقها بالسيول شتاء. ومعظم بيوت المدينة مبني من حجارة رملية صفراء مقتطعة من صخور الشاطئ بينما قليلها فقط مبني من حجارة الصخر العادية. وأرضيات معظم المنازل ترابية رطبة وبعضها مرصوف بالبلاط الصخري، وكل السكان ينامون ليلاً في الطبقة الثانية من منازلهم. وشوارع المدينة في معظمها حسنة الرصف، تعلو بعضها السقوف ذات القباب، ولتبدو أحياناً أشبه بسرديب، كما حال بعض أسواق بيروت وصيدا الداخلية. وتلفت الاهتمام عتبة صخرية فوق بوابة «الحمّام الجديد» في طرابلس حيث الحجر الوسطي في قنطرة العتبة والحجران على الجانبين مع حجر يتدلى من الوسط فوق الباب منحوتة جميعها في حجر ضخّم واحد. وآثار العمارة العربية في طرابلس لافتة وتثير الاهتمام وبخاصة القناطر والبوابات.

وبين آثار طرابلس اللافتة قلعة ريموند دي تولوز التي مازالت في حالة حسنة الى اليوم وقد جعلها مدحت باشا أخيراً سجنًا تابعاً للولاية. ويمكن أن تكون القلعة قد انشئت قبل العهد الصليبي، ولكن ريموند دي تولوز أعاد ترميمها. وإلى الخلف من القلعة نزولاً نحو مجرى النهر، وعلى مسافة بضعة دقائق فقط بين الشجر والزهر والمياه الدافقة، ودار المأوى، وبساتين الليمون بينما تلوح لبنان في البعيد تلامس الغيم. وإلى الغرب يمتد السهل فسيحاً يحاذي زرقة البحر تقطعه عند الشاطئ المدينة البحرية، أو الميناء والابراج الخمسة على امتداد الشاطئ الشمالي؛ وسقوف المدينة البيضاء والقباب والجدران والأسوار والمنارات تتناثر أمامك أو بين يديك. وفي وسع زائر طرابلس، إن أسعفه الحظ فأقام في نزل عمره سنوات وسنوات، أن يتمتع ناظريه وعلى الدوام بجمال البناء والبساتين المحيطة الغناء، وينعم بكرم هؤلاء الناس وضيافتهم.



دير الملاوية، طرابلس
ومن بعيد القمم الثلجية لجبال لبنان، وفي الاسفل مياه قاديشا،
التي تدعى كذلك نهر ابو علي. وعند البوابة
يمكن رؤية دولاب المياه وحجري طحن.



قلعة طرابلس، حصن صليبي قوي
وقد حوّلت الى مركز اداري ايام حكم مدحت باشا على
سوريا، وتقوم على هضبة ضيقة تنحدر غرباً صوب المدينة
وشرقاً صوب قاديشا.

والى الخلف من القلعة نزولاً نحو مجرى النهر، وعلى مسافة بضع دقائق فقط بين الشجر والزهر والمياه الدافقة تصل الى دار دراويش الملاوية، حيث يحيي الدراويش رقصاتهم الدينية المتميزة بعد ظهر نهارات الجمعة وفي مناسبات معينة. ولقد صادف ان رأيت جماعة منهم، الرجال في الساحة بينما النساء في الأعلى خلف الستائر، حيث بدأ ثمانية او تسعة من الدراويش، يرتدون ثياباً واسعة فضفاضة مدهشة، بالرقص والدوران حوالى الساعتين، ولم ينفرط الجمع الا بعد ان سقط الراقصون، واحداً تلو الآخر مغشياً عليهم. وهذه البقعة الخضراء الساحرة هي ملتقى الطرابلسيين في شهر نيسان حيث شذا زهر الليمون وعبق الرياحين يضيفان على المكان جواً ساحراً يصعب على زائره نسيانه.

وتنتشر على امتداد الشاطئ الشمالي بين مصب قاديشا والميناء، أبراج جميلة مبنية بالحجارة تقف كما الحراس

على طول ذلك الشاطئ. والأبراج هي برج رأس النبع، برج السبع، برج التكية، برج المغاربية، و برج الشيخ عثمان. ومن الواضح ان الأبراج يعود بناؤها الى زمن متأخر لكنها تقوم على أسس وقواعد من الغرانيت تعود الى الحقبين اليونانية والرومانية. الا أن هذه الأبراج تسير بسرعة نحو التساقط والزوال ويجري على قدم وساق سحب حجارتها لأغراض البناء الحديث في طرابلس.

أما سكان الميناء (راجع ص ٥) فهم حوالى ٧٠٠٠ ساكن، معظمهم من الارثوذكس الصيادين، او الغطاسين وراء الاسفنج؛ فيحصلون من ذلك ما يكفي احتياجاتهم الضرورية ويبلغ ثمن الاسفنج المستخرج حوالى ٢٠٠٠٠ جنيه سنوياً.

وتمر في بوابة الميناء سكة ترامواي طرابلس الفولاذية قبل أن تتجه نزولاً مع شاطئ البحر.

ويفخر الطرابلسيون كثيراً بحداثتهم الجميلة وبساتينهم المثمرة ومياهم المترققة، وبمناظر البحر والجبل الخلابة. كما أن نساء طرابلس السوريات الارثوذكسيات على قسط وافر من الجمال، والكثيرات منهن قد حصلن مقداراً عالياً من العلم في المدارس المسيحية، ويتمتعن بذكاء لافت كذلك تقدم مدارس الارشالية الاميركية تعليماً عالياً للصبيان والبنات، وتُكسب الشباب من الجنسين مستوى تعليمياً متقدماً وللإخوات الفرنسيات للاحسان، مؤسسة للبنات. كذلك افتتح الروم الارثوذكس مدارس عدة، كما أسس المسلمون جمعية «المقاصد الخيرية الاسلامية» لتوفير المدارس للصبيان والبنات. ويبقى أنه اذا اكتمل تنفيذ الخط الحديدي المقترح من طرابلس الى حمص ووادي الفرات Eu-phrates، فان ذلك كفيل بجعل طرابلس أهم ميناء تجاري على الساحل السوري قاطبة.

ومن طرابلس الى سلسلة جبال لبنان التي تمتد حوالى المئة ميل، والتي هي ثروة جيولوجية ونباتية واقوامية وأثرية لا تقدر بثمن. فالجبل اللبناني بهضابه العالية وقممها الشاهقة، بثرواته وبخيرات الجوفية، بينابيعه وشلالاته البديعة بأرزه الجليل، بكرومه وزيتونه، بآثار هياكله وعماراته القديمة والتي لا يُعرف تاريخها، بأديرتة، وكنائسه وخلواته (معابد الدروز)، بقصوره، بتركيبه الجيولوجي، بقراه الالف والمائتين وبساكنه الشرقيين الاقحاح يؤلف بفعل هذه العناصر جميعها حقل اهتمام ودراسة واستكشاف لا ينضب لعابر السبيل كما للدارس الأكاديمي المتخصص.

ولبنان أو جبل سوريا الأبيض يشتق اسمه من إشراقة بياض صخوره الكلسية، وقد قسم العرب لبنان الى ثلاث مناطق طولية: السهل، والوسط، والجرد.

السهل هو المنطقة الساحلية، او حزام النخيل يتدرج من مستوى سطح البحر الى ارتفاع ١٥٠٠ قدم وتقع في هذا الحزام مدن فينيقية الحديثة، وهي طرابلس، وجبيل، وبيروت، وصيدا، وصور، وعكا. وتربة هذا السهل هي الأكثر خصوبة، ومناخه معتدل ملائم أكثر فصول السنة ومناظره الطبيعية خلابة، وتكثر فيه زراعات النخيل والزيتون والتوت والليمون والصنوبر والمشمش والسنديان والخوخ والعنب والزناخت، الى الخضار كافة وعلى مدار السنة.

والوسط، أو المنطقة الوسطى أو ما يمكن تسميته بحزام الجوز، يتدرج من ارتفاع ١٥٠٠ قدم الى ٤٠٠٠ قدم فوق سطح البحر. وتتألف هذه المنطقة من هضاب عالية معروفة بقراها الكثيرة المتناثرة وبمعامل حريها وأديرتها وفي هذه المنطقة يقيم معظم السكان. اما مناخها فلطيف معتدل، صيفاً شتاء ولعله الأجمل والانسب في العالم.

والجرد أخيراً، وهو حزام من القمم الجبلية الجرداء عموماً يرتفع من ٤٠٠٠ الى ١٠٠٠٠ قدم فوق سطح البحر. ويمكن تسميته بحزام الأرز، اذ فيه غابة الارز والكثير من الينابيع الثلجية الباردة العذبة، الى مساحات جرداء واسعة وتمتد جبال هذا الحزام الى أكثر من مئة ميل من الشمال الى الجنوب. وبالرغم من ندرة الغابات في هذه القمم العالية، الا أنها تطل على بعض أجمل مناظر العالم.

كان لبنان ينقسم، قبل مذابح ١٨٦٠ الى قسمين: لبنان الشمالي يحكمه قائمقام مقام ماروني، ولبنان الجنوبي يحكمه الدروز. وكان ذلك ترتيباً دقيقاً موضوعاً بعناية ليضمن العدالة بين السكان والاستقرار في البلاد. لكن الأتراك

كانوا مصرّين على كسر هذا الترتيب الأوروبي فعملوا على ازالته وأحلوا بدلاً منه باشا عثمانياً على سائر لبنان. وكانت نتيجة ذلك حروب ومذابح في دير القمر وحاصبيا وراشيا وفي دمشق، والتي انتهت بتدخل أوروبي مباشر ووضع نظام جديد للبنان يضمن تعيين حاكم مسيحي على الجبل كله تحت حماية الدول الأوروبية الست ويلي الحاكم القائمقامون. وقد جرت العادة على اختيار قائمقام المنطقة من بين أفراد الطائفة المحلية الأكثر عدداً. ومن الواجب الإشارة هنا الى الحاكم الحالي رستم باشا (ثالث والٍ وفق النظام الجديد) لخصائل حسنة كثيرة فيه؛ من كرهه الشديد للرشوة الى عدالته وجهوده في سبيل إعمار البلاد وتمدين السكان وانشائه العديد من الطرق والجسور في جنوب لبنان ووسطه، وهو يعد بالمثل في هذه المنطقة الشمالية غير النائية.

وقبل التحول شرقاً والصعود باتجاه الأرّز العالي، تابعنّا تقدمنا في محاذاة الشاطئ بين الصخور الكلسية البيضاء لرأس الشقعة لزيارة وادي نهر الجوز وقلعة المسيحية. تمر الطريق الساحلية التي تصل طرابلس ببيروت في خلال هذا الفتق الصخري الحاد والذي دعاه الاغريق قديماً ثيوبروسوبون (أو الرأس الجليل). والطريق في جانبه الجنوبي متعرج خطر غير ثابت بل هو يستعين بالممرات التي شقتها سيول المطر والتي قد تتغير من سيل الى آخر او من سنة الى سنة. وفي أقصى طرف هذا المنحدر على الضفة اليمنى من نهر الجوز تنتصب كتلة صخرية مرتفعة، منعزلة متوحدة، دعاها الاقدمون قلعة المسيحية، أي حصن السلاح او المسلحين وترتبط التسمية بأعمال الذهب والسلب التي تجري في هذه المنطقة والتي لا يضاهيها غير وادي القرن الممر الجبلي الشرقي باتجاه دمشق. والقلعة هي أحد المواقع اللافتة في الشرق، ترتفع ككتلة صخرية متفردة عالية فتبدو وكأنها امتداد طبيعي للصخر نفسه، ويحيط بها شجر وارف وخرير المياه.

وانعطفنا بعد المسيحية نحو سهل الكورة ثم شرقاً باتجاه كوسبا فنهر قاديشا وتابعنّا مسيرنا صُعداً نحو اهدن البلدة الجبلية العالية. تقوم إهدن على مرتفع في الجرد ربما بلغ ارتفاع ٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، وتطل منها على بعض أجمل المناظر في لبنان وفي جوار إهدن تتدفق من نبع مار سركيس مياه عميقة غزيرة عذبة وشديدة البرودة تروي البلدة ومحيطها فتعلو أشجار الجوز والسرور والتوت والصنوبر والسنديان الى الخضار الصيفية والحنطة والبطاطا تزرع بكثافة. واهدن هي جنة الرهبان الموارنة حيث لهم وكما في بشري وحصرور وكسروان، سلطان لا ينافع مع أن صلاحياتهم وحدود سلطتهم قد تقلصت في عهد الحاكم المدني الحالي لتبقى في الشأن الديني حصراً.

لا تتسع هذه الجولة السريعة الى أكثر من إشارة مختصرة الى تاريخ الطائفة المارونية المسيطرة الآن في لبنان. يشق اسم الموارنة من مار مارون، الناسك الذي عاش في أقصى البقاع قرب نبع نهر العاصي، في القرن الخامس وكان مجلس بيزنطية قد أدان سنة ٦٨١ اتباع مار مارون باعتبارهم أصحاب عقيدة الطبيعة الواحدة، فطردوهم من مدن سوريا وبلداتها، فالتجأوا الى جبال لبنان. وفي سنة ١١٨٢ أعلنوا ولاءهم وانتماءهم الى الكنيسة البابوية، وهم اليوم فخورون جداً باخلاصهم لبابا روما لكن الأمر احتاج يومذاك الى قرنين آخرين اي حتى سنة ١٤٣٨، كي يشمل اعترافهم بسلطة البابا المسائل والطقوس الكنسية. وكهنة الأبرشيات عندهم متزوجون وهم يستخدمون اللغة السريانية في خدمة القدايس في الكنائس. ويدين بطركهم وهو اليوم بولس بطرس مسعد، ويتخذ اسم بطرس بمثابة لقب رسمي، بالولاء المعنوي للبابا شخصياً. وتحت سلطة البطريرك ١٣ مطراناً وألف كاهن، و١٢٠٠ راهب و٧١ ديراً. يبلغ تعداد الموارنة مئتين وخمسين ألفاً (٢٥٠٠٠٠) معظمهم أميون والاملاك الشاسعة التي تتبع الأديرة مكرسة لإعالة الرهبان، ويدفع من مردودها لقلّة تدبير الاملاك. أما عدد الأديرة الاجمالي، ولكل الطوائف، فهو ١١٧، وفيها ٢٥٠٠ راهب وراهبة.

وبالعودة الى اهدن نقول إنها قرية لبنانية نموذجية فيها عدد من الدور او المنازل الكبيرة تحيط بالواحد منها بيوت الفلاحين ذات السقوف الترابية. واهدن معروفة بكنائسها ذات الصوت الداوي، بديرها عند مار سركيس، بمياهها الغزيرة، بتنورها البدائي وهو عبارة عن حفرة في الأرض، وبشبانها الأقوياء وصباياها المفعمات بالعافية مع زينة فريدة على الرؤوس وحيث الحجاب الأبيض. ومعروفة كذلك ببيوتها الصغيرة الفقيرة حيث ينام الفلاحون على

الأرض غير بعيدين عن غنمهم وماعزهم، وأحياناً في غرفة كبيرة واحدة تتسع للأب والأم وأطفالهما.



قلعة المسيلحة
تقوم على صخر حاد قرب نهر الجوز، في وسط وادي
تملاؤه الغابات، وتسيطر على الممر المجاور. وكانت الى عهد
قريب ملجأ لقطاع الطرق.

ومن اهدن الى حصرون حيث جمال نسائها وبناتها لافت، بل ان الاكثر إلفاتا فيها هو الشعر الأشقر والعيون الزرقاء.

وبعد مسيرة ساعتين ونصف الساعة نزولاً، فوق ركام من الاتربة والحصى بفعل السيول تمتد شرق أهدن وبمناوبة طوق يحيط بسقف تلك الجبال الشاهقة، نصل الى بشري عند الطرف الشرقي لوادي قاديشا. وتعتبر بشري أكبر بلدات المنطقة سكاناً كما أنها عامرة بكنائسها وأديرتها، بمائها وشجرها، وتتفجر الى الشرق منها الينابيع الدافقة التي تغذي النهر المقدس. وإذا قيض لك ان تترك بشري وان تصعد أكثر نحو قمة ذلك الجبل فستغدو وجهاً لوجه امام غابة منعزلة متوحدة تضم أشجار الأرز أو ما يدعى بأرز لبنان أو أرز الرب.

وإذا كان مسيرك في نيسان فلا يسعك الا ابطاء الخطى فوق البقع الثلجية المتبقية او فوق الحقول الموحلة وكذا في آب فوق الأرض الجافة المغبرة والمشقة. تضم غابة الأرز تلك ٣٩٣ شجرة، عشر منها او اثنتا عشرة على اتساع ضخم رغم أن أعلى شجرة فيها لا تتجاوز الثمانين قدماً. والشجرات الاثنتا عشرة الضخمة، هي حسب اعتقادات الفلاحين، الرسل الاثنا عشرة. بل إنهم ليؤمنون أن الرب ورسله الاثنا عشر قد جاءوا هذه البقعة وتركوا فيها عصيهم فنبتت أرزات ضخمة في القرية، وفي الغابة معبد ماروني صغير، كما ان السلطة الوحيدة على الغابة المقدسة هي للبطريك الماروني. وتشيع الأوساط الكنسية الاعتقاد أن من يقطع شجر الارز تعاقبة العناية الالهية بالمرض، ولا يسع المرء الا ان يبتهج حين يرى أن واحدة على الأقل من بين الآف الأساطير التي تملأ سوريا تتضمن فائدة عملية للسكان، وتتمثل بالمحافظة على تلك الاشجار الثمينة*، وهناك ما يكفي من الأدلة للافتراض أن سلسلة جبال لبنان العالية كانت في وقت ما مغطاة بغابات الأرز. ولقد اتيح لنا زيارة إحدى عشرة غابة أرز في غير بقعة من هذه الجبال:

١ - غابة «ارز الرب» فوق بشري، ٣٩٣ شجرة أرز. ٢- غابة صغيرة عند نبع إهدن ٥٠ شجرة. ٣- الغابة الكبرى بين الحدث ونيجا تضم عشرات ألوف الأشجار وتمتد على مسافة ١٢ ميلاً مربعاً. ٤ - غابة أصغر حجماً جنوب ذلك الموقع، ٥ - أشجار أرز متناثرة فوق دوما. ٦ - غابة عين زحلنا، ١٠ آلاف شجرة قطعها مراد اكنيل، ويجري استنباتها من جديد. ٧ - غابة اصغر عند منحدر المدق El Meduk ٨ - مجموعة صغيرة قرب قلعة البزات Bizzet. ٩ - الغابة الجميلة عند «معاصر الفخار» تضم ٣٠٠ شجرة بعضها ذو أحجام ضخمة، ١٠ - غابة جرد الباروك وتضم آلاف الاشجار. ١١ - غابة الباروك الشرقية وتضم ٢٠٠ شجرة.

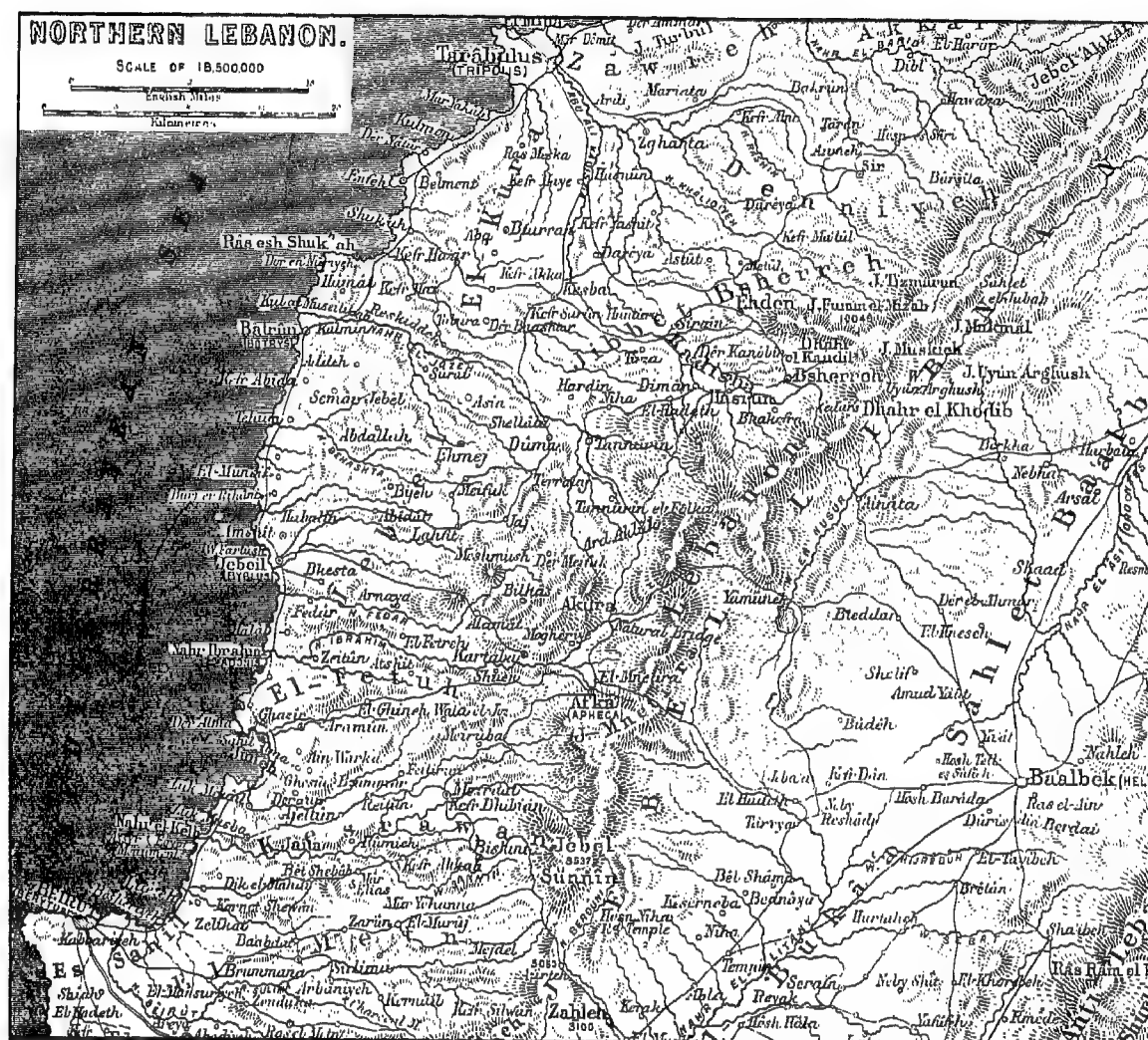
أما أول ذكر لأرز لبنان في التاريخ فيرد حينما ابتنى سليمان لنفسه قصرأ من خشب الارز (صموئيل) ثم أمر ان يبنى الهيكل ايضاً من خشب أرز لبنان فعمل ٤٠٠٠ حطاب في الجبال على قطع الاشجار التي كانت تسحب بحراً من جبيل الى يافا.

وفي سنة ٥٣٦ قبل الميلاد استأجر زروبابل Zerubbabel فينيقيي صيدا وصور «لجلب خشب شجر الأرز من لبنان الى بحر جوبا Joppa؛ كذلك استخدم الأرز قديماً في صناعة السفن وفي اقامة هياكل وتماثيل للالهة. وبعد انتصار حملات Tigath pilsner على Khatti والحيثيين واخضاع كرشميش، زار لبنان كيله شرغات Kileh shergat. للحصول على شجر الأرز لتزيين المعابد والقصور وهكذا أزيلت تقريباً غابات أرز لبنان قبل حوالي ٣٠٠٠ سنة من قبل ملوك البلدان المجاورة، الى درجة أن الجبال العالية تعرت تقريباً من غاباتها وتكفل بالباقي قطعان الماعز وإهمال الفلاحين الأمر الذي قضى على فرص استنبات غابات جديدة. وإذا لم تبادر حكومة لبنان الى اتخاذ خطوات عملية لحماية الغابات القليلة المتبقية فان الجبل بأكمله مهدد بأن يفقد ثروته الحرجية الجميلة.

يعود التكوين الجيولوجي للبنان الى العصر الثالث، العصر الطباشيري، مع طبقة من الصخري الرملي الهش تمتد

* من مآثر رستم باشا تسيجه بحائط حجري حماية لها.

من اقصاد الى اقصاد، تقطعها بين الحين والحين صخور وشقوق بركانية. وفي الصخر الرملي طبقة خفيفة من الفحم الحجري جرى استخراج بعضه في موقع بالقرب من بلدة قرنايل في المتن شرقي بيروت. ووجد البروفسور لويس من



خارطة لبنان الشمالي

كلية بيروت الكلس في غير بقعة ومكان ووجد في مجدل شمس على سفوح جبل حرمون بصيالات جوراسية تحتوي الامونيات المتبلور وغيره وبكميات كبيرة .

كانت الطبقة الصخرية في لبنان، خلال التاريخ عرضة لاضطرابات جيولوجية داخلية عنيفة، بحيث يمكن ملاحظة حدة زاوية انحنائها في أكثر من مكان. ففي عريض اكلوك* قمة تدعى جبل Akluk يبدو من بعيد كما

* يرجح انه اللقو [م]

لو كان حصناً بناه بشر. وإذا نزلنا غرباً، ثم الى الجنوب الشرقي، نصل بعد حوالي أربعة أميال الى العاقورة عند نهاية وادٍ عظيم هو وادي الحجرية وفيه بعض النقوش. والى الشرق من العاقورة يمكن مشاهدة حائط صخري يرتفع حوالي ١٠٠٠ قدم وينشق ليفتح طريقاً باتجاه الشرق وأخرى الى عين الرمة والأرز وبعليك عبر اليمونة. والعاقورة بلدة جردية صغيرة إلا أن جانبي الوادي تملأهما الخضرة والمزروعات الصيفية فيكثر الجوز والتوت والاشجار المثمرة الأخرى، الى حقول قمح وشعير.

وعلى بعد نصف ساعة جنوباً من كعب ذلك الحائط الصخري الهائل المعلق فوق الوادي تصل الى جسر العاقورة الطبيعي وتحت كهف طبيعي. نشأ الجسر من سقوط صخر عظيم كان في وقت ما سقفاً لدخل الكهف ثم انفلت ليغطي الآن قناة نبع الرويس التي تنبع من داخل المغارة. تركنا أحصنتنا على الجسر تحت الحائط الغربي، وحملنا عصينا وتسلقنا الدرج الصخري الذي يوصل الى مدخل المغارة ثم دلفنا الى الداخل مستعينين بمصابيح. يعلو سقف المغارة بين عشرة وعشرين قدماً وأمكن لنا أن نسير فيها الى مسافة ٤٠٠ قدم، اي الى النقطة التي تنشط



شبر العاقورة، في وادي المغيرية، لبنان
وقد زرعت كل زاوية يمكن زراعتها في الوادي،
وتملأ جنباته الاشجار المثمرة وحقول القمح.



جسر العاقورة الطبيعي
امام كهف واسع ينبع منه «نبع الرويس»، احد
روافد ادونيس (نهر ابراهيم).

المغارة عندها فجأة الى فرعين: الاول الى اليمين موحل وصعب والآخر
الى اليسار نظيف تحيط به من الجانبين وتعلوه اقواس وزخرفات
واشكال كأنما نحتت من الشمع، وداخل المغارة ساقية ماء تجري
صافية كالبلور والى الحد الذي جعلني أدوس في بركة في عمق قدم
واحد معتقداً أنها جافة. ونكمل طريقنا بين جنبات هذا المعرض

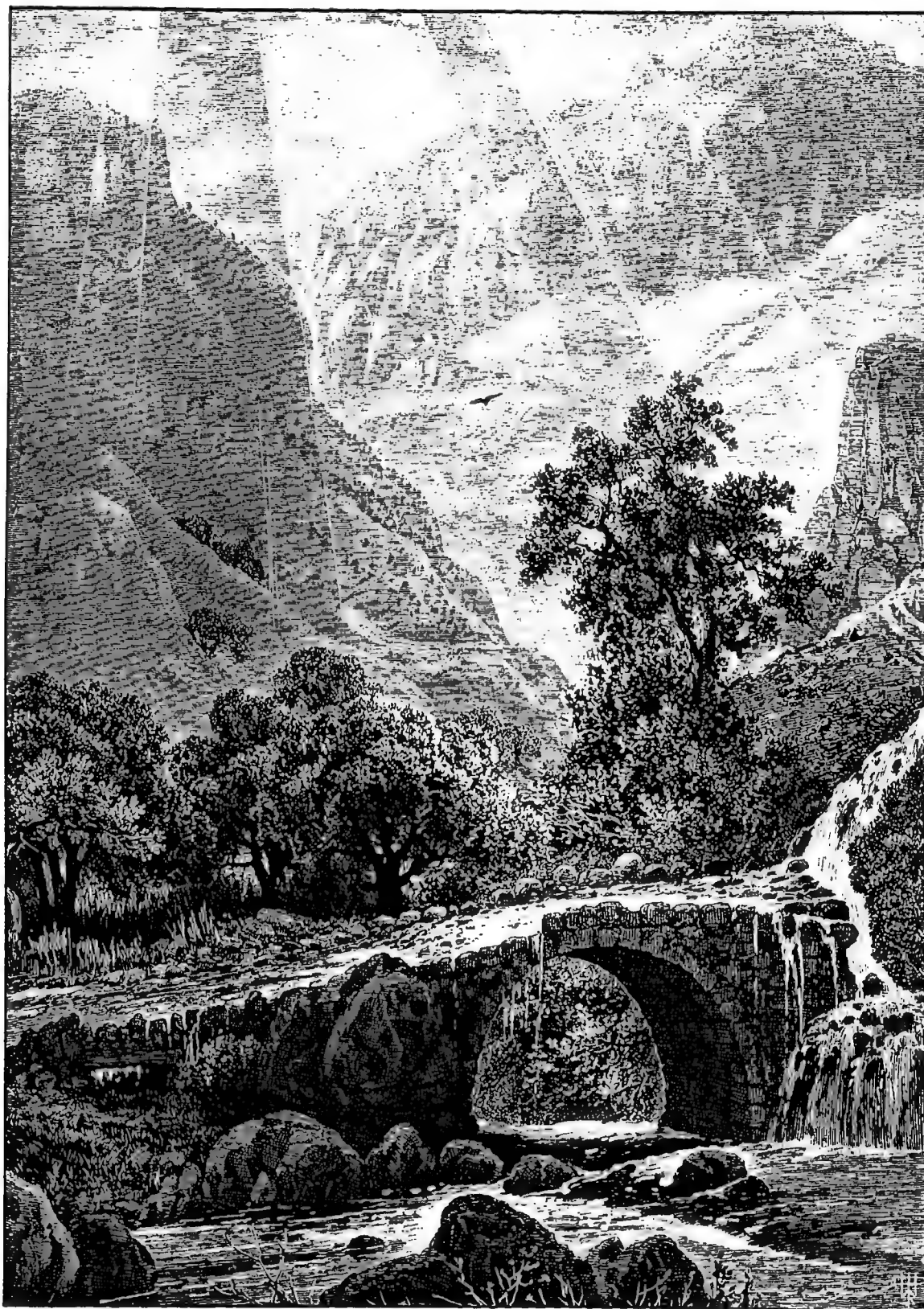


نبع أفقا

مصدر مياه نهر ابراهيم (ادونيس). وبالقرب من هذا المكان اثار هيكل فينوس المعروفة، والذي دمر بأمر من (الامبراطور) قسطنطين.

الطبيعي الرائع لحوالي ٤٠٠ قدم أخرى حيث نصل الى قاعة مقفلة، حيطانها عامودية حادة، ولا يمكن النفاذ منها إلا بتسلق أحد جدرانها المفضية الى مغارة أعلى واسعة لكن ذلك كان متعذراً من دون سلالم فعدنا أدراجنا الى المدخل من حيث أنطلقنا.

بين العاقورة ونبع افقا مسافة ساعة ونصف الساعة تعبر خلالها مسطحاً يعلو الوادي الذي تملأه حقول القمح الى اشجار تتناثر هنا وهناك، ثم نتجه في طريق



نبح أفقا على الجسر القديم

صخري متدرج، نحو الجنوب الشرقي، الى المنيطرة، البلدة المارونية التي تواجه النبع من جهة الجنوب. يخرج نبع أفقا التاريخي من المغارة وتحديداً من الطبقة الصخرية تحتها، والذي يتدرج نزولاً كما السلم نحو وادي نهر أدونيس العميق (نهر ابراهيم) ويرتفع الشير او الحائط الصخري فوق النبع من ١٠٠٠ الى ١٥٠٠ قدم ويتفجر الماء من فجوات او شقوق نشأت من انحراف الحائط الصخري من الشمال الى الجنوب، باتجاه الغرب ثم تندفع نزولاً الى بركة في الصخور على عمق حوالي ٥٠ قدماً ونعبر البركة فوق جسر يقودنا الى آثار هيكل قديم مساحته ١٠٠ × ٥٠ قدماً وهو على الأرجح معبد فينوس القديم الذي أمر الامبرطور قسطنطين بهدمه في القرن الرابع ولا تزال ساقية ماء تجري من تحت ركام المعبد وتظهر في أكثر من زاوية تحت ركام الهيكل مخارج عديدة للمياه. تشكل مياه النبع المصدر الرئيسي لنهر ابراهيم، او نهر ادونيس كما كان يعرف قديماً والمكان هذا هو مسرح أحداث أسطورة أدونيس وعشثروت القديمة وحيث كانت صبايا فينيقيات يبكين ادونيس في الاحتفالات السنوية. كانت اناشيد الصبايا ترتفع في ذلك الوادي «تعالوا نندب أدونيس، أدونيس الجميل مات، أدونيس مات، إبك ايها الآلهة» ادونيس هو آدون Adon او الإله البعل او الشمس وهو عين معنى مفردة تموز عينه، الاسم العربي لشهر يوليو شهر احتفالات أدونيس. ولا يزال هناك من يعتقد، الى اليوم، أن لون شقائق النعمان في لبنان هو من لون دم أدونيس.

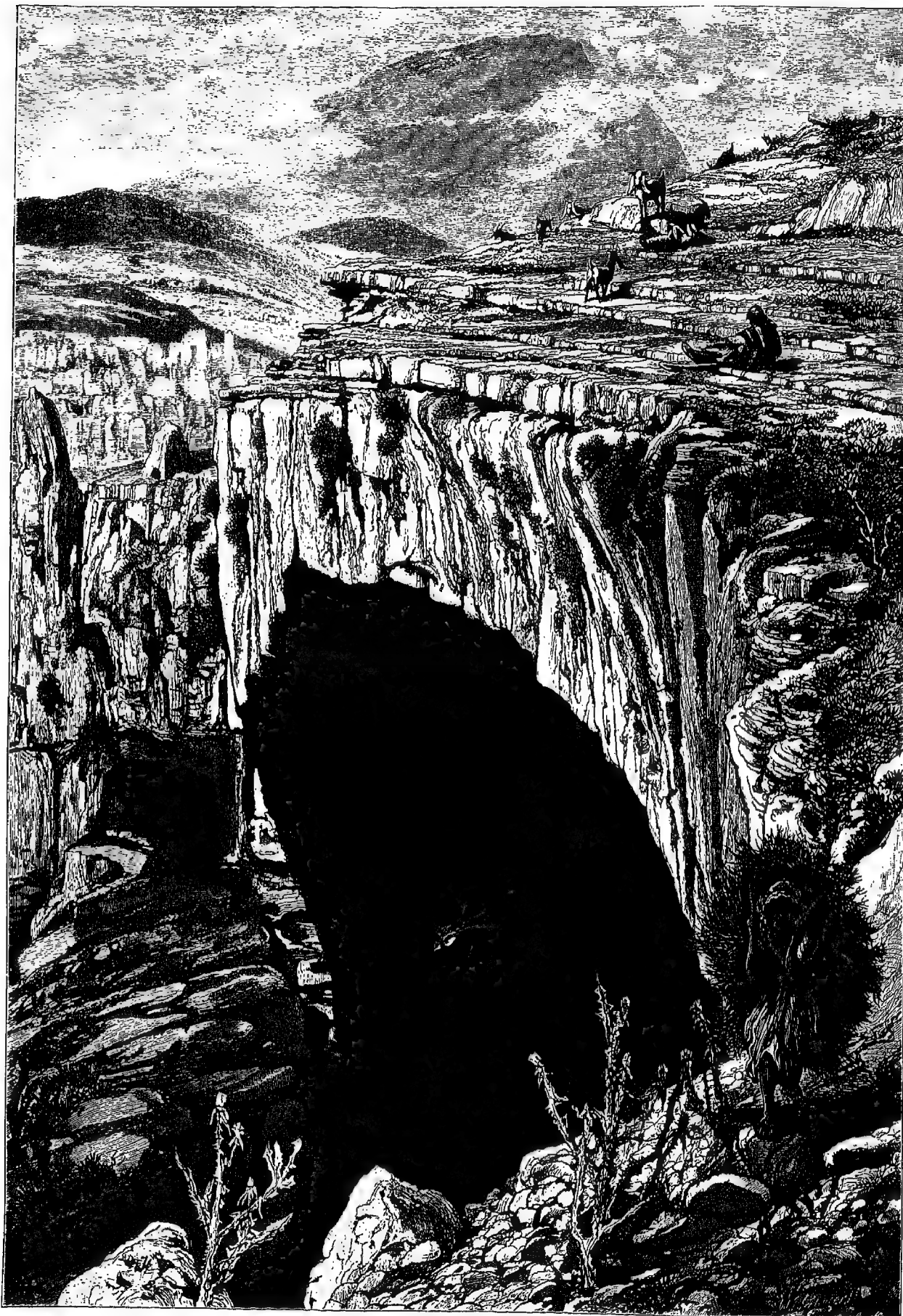


اذا تركنا النبع والهيكل في أفقا وصعدنا قدماً في اتجاه الجنوب الغربي، نصل الى «نبع الحديد» ثم «نبع العسل»، عند حافة تلك الهضبة، وهو المصدر الشمالي لنهر الكلب. يخرج النبع وسط كتل صخرية ضخمة، على حافة المنحدر الشمالي الغربي لجبل صنين، ثم تنساب مياهه الصافية غرباً بين ضفتين

الساحل اللبناني قرب مصب نهر ادونيس وفي الشتاء تجرف التربة الملونة بلون الحديد الى الماء، وتذهب مياه النهر الملونة الى مسافة كبيرة داخل البحر الأزرق. وهو ما يعطي الانطباع ان النهر قد اصطبغ بدم ادونيس، في ذكرى موته في كل عام.

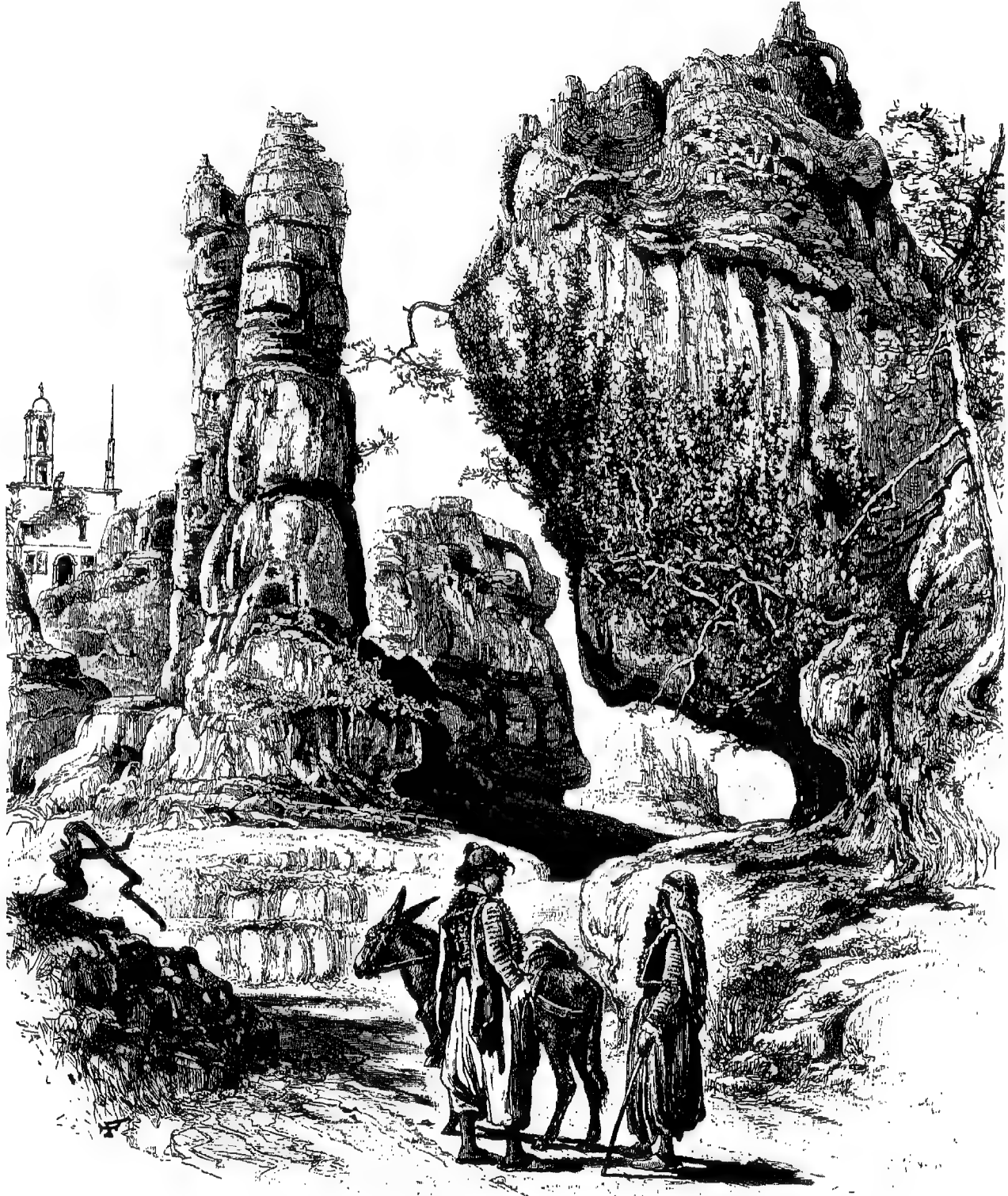
صخريتين خاليتين من الشجر. وفي الشتاء تغمر المجرى مناسف ثلجية عالية ويصبح الوصول الى النبع شبه مستحيل. وعلى مسافة نصف ساعة من نبع العسل يخرج نبع آخر هو «نبع اللبن»، وكانت العرب تقول «نبعا اللبن والعسل يذهبان الى مصب الكلب». على مسيرة نصف ساعة من نبع العسل، باتجاه الغرب، نصل الى «جسر الحجر» أكبر جسر طبيعي في سوريا يتدفق تحته نبع اللبن وقد يعبر المرء ذلك الجسر من دون ان ينتبه الى كونه جسراً، اذ أن سطحه هو في نفس مستوى الحقول المجاورة على طرفيه. ومن على الجسر تكفي نظرة واحدة لتكشف لنا عمق المنخفض الذي يشكل الفرع الجنوبي لنهر الكلب، ويحمل الماء من نبع اللبن الذي يقع على مسافة ١٥ دقيقة عند أسفل الجبل.

ونستدير حول الجسر نهبط الوادي من الجهة الجنوبية الغربية فيبدو لنا الجسر كاملاً مهيباً. يبدو الجسر كما لو كان قنطرة أو قوساً عالياً في نصف دائرة على امتداد ١٢٥ قدماً وارتفاع ٨٠ قدماً تقريباً. أما سماكة الصخر الذي يشكل القوس فهي ٣٠ قدماً، وعرض الطريق فوق الجسر هي في حدود ١٠٠ قدم. والقنطرة المستديرة عند الجانب الشمالي مكسورة قليلاً، أما المنخفض الذي ينحدر باتجاه وادي فاريا فتتناثر فيه اشكال مختلفة من الحجارة تعكس تعاقب الأزمنة على هذه المنطقة.



الجسر الطبيعي لبنان
ويدعى بالعربية «جسر الحجر»، وهو يمتد فوق الانخساف
الذي ينبع منه نبع اللبن، أحد روافد نهر الكلب

وتركنا الجسر الحجري نزولاً مع مجرى نبع اللبن المتعرج حتى أعالي كسروان ، ثم اسرعنا الخطى نحو دير عجلتون الكبير الذي يقوم منفرداً على تلة صخرية مكسوة. تقف التلة الصخرية عامودياً، وقد عرّتها الامطار



صخور كلسية، عجلتون لبنان
تقدم في المنطقة، والمعروفة بكسروان، جبال وعرة تخفي في الكثير من جنباتها مغاور
كما تعلو بعضها أشكال معمارية عجيبة ويبدو دير عجلتون الى اليسار.



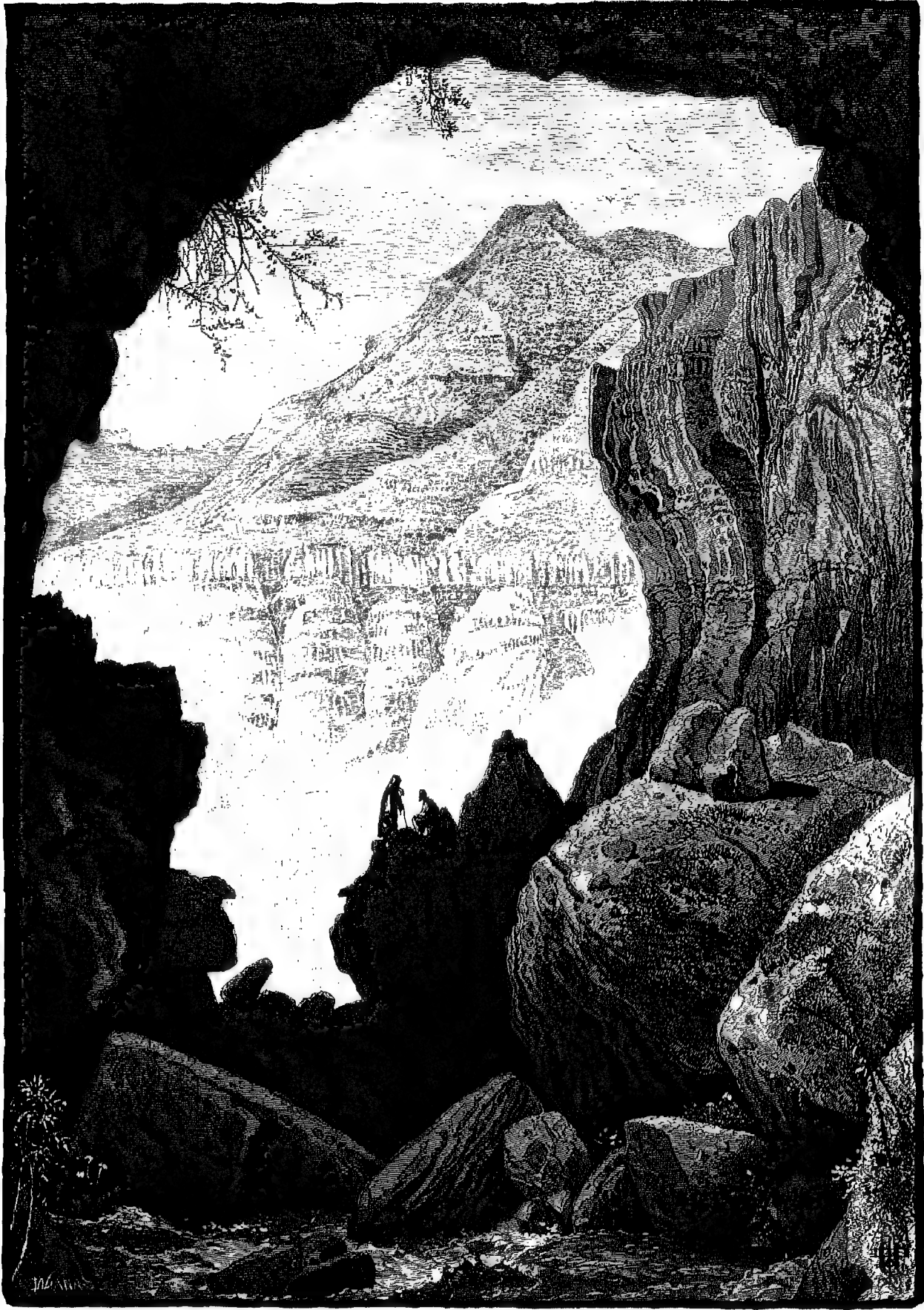
شق نبع اللين
فوق جسر الحجر تماماً

والعواصف من القشرة السطحية الناعمة، فلم يبق غير أضلع صخرية يرتفع الواحد منها الى ٤٠ أو ٥٠ قدماً. وتظهر هذه الأضلع في أشكال عجيبة تشبه الأعمدة، أو الحجارة المشذبة والمنازل، أو الأبراج المستديرة والمربعة، والقلاع والحصون؛ ويشبه بعضها القباب والمسلات، وتمر الطريق بينها ضيقة ومتعرجة. أما القسم الغربي من البلدة فبخلاف ذلك تماماً منطقة ملائمة للسكن، وكل حبة تراب فيها تقوم فوقها، ربما، شجرة توت، النتاج الرئيسي لهذه المنطقة في لبنان. والمنطقة هذه هي كسروان، أو «المنطقة المنكسرة» broken Region، وهي عبارة عن هضاب جبلية متقاطعة ومتداخلة شكلت على الدوام حصن الموارنة الحصين وجبلهم المقدس. وتملاً الأديرة والكنائس كل زاوية في كسروان. ومعظم الأراضي الصالحة للزراعة يملكها الرهبان بينما معظم السكان مرابعون عندهم. إلا أنهم كذلك حرفيون مهرة؛ ويتبدى ذلك في قطعهم الصخور، يعالجونها بكفاءة عالية ثم يبنون بها حيطاناً حجرية لا آخر لها تدعم وتحفظ ما تبقى من تربة جوانب تلك الجبال فينتزعون من تلك الأرض الوعرة ما يكفي حياتهم واحتياجاتهم. لقد دفعت القلاقل وفقدان الأمن في السهول الواسعة شرقي لبنان، وفي شماله الشرقي، الناس الى طلب الأمن في هذه الجبال المنعزلة. كذلك الحروب الأهلية في لبنان حيث هزم الدروز، جنوب طريق دمشق، الموارنة في كل مكان، فجعلت هذه الجبال ملجأ لا غنى عنه. والموارنة شعب لامع يستطيعون أن يتحولوا الى قوة فاعلة في الشرق شرط أن يتحرروا من الطغيان الكنسي للمطارنة والرهبان وأن تستخدم الأملاك الشاسعة للرهبان في خدمة ترقيتهم العلمي والتربوي. وهو تماماً ما يحدث اليوم تدريجاً، حيث يشقون طريقهم صعوداً ويتسمنون على نحو متزايد مواقع نافذة في سوريا ومصر.



جسر روماني قرب جونية
يعبر جدول ماء شتوي يدعى نهر المعاملتين
وينبع من التلال المطلة على خليج جونية الجميل،
ويحاذي الجسر خان سوري

ومن عجلتون نزولاً صوب البحر، عبر طريق صخري، على يسارنا وادي نهر الكلب العميق وأما منا على نحو عشرين ميلاً إلى الغرب المنظر الخلاب لرأس بيروت الداخل في البحر. وفي محيط نهر الكلب على بعد ثلاثة أميال من المصب، شمالاً هناك ثلاث مغاور تخرج المياه من اثنتين منها، ومنهما تأتي في الصيف معظم امدادات المياه بعدما تحوّل ينابيع نبع العسل لأغراض الري. وكان دكتور طومسون مؤلف «أرض الكتاب المقدس» هو أول من أشار إلى وجود المغاور الثلاث، إلا أن الكشف الكامل عليها لم يجر إلا في ايلول سنة ١٨٧٣ على يدي ي. ت. ماكسويل يعاونه ه. ج. هاكسلي، دكتور بلّس (رئيس كلية المرسلين البروتستانت في بيروت) ودكتور بريج ستوك Dr. Brig stocke. دخل هؤلاء حاملين قارباً صغيراً ورمّتاً من جلد الماعز، ومعهم تجهيزات اضاءة كافية وشريط ماغنيزيوم؛ وبعدما تجاوزوا المدخل الوعر بلغوا مجرى مائياً مسطحاً فامكنهم الدخول الى عمق المغارة الرئيسية مستخدمين قاربهم والرمّت، الى مسافة ٦٠٠ قدم فوق مياه البحيرة الداخلية الساكنة. وعند هذا الحد كان هناك صخر كبير بعلو ١٥ قدماً يسدّ المجرى. اضطر الفريق الى ترك قاربهم حيث هو ثم تسلقوا الصخرة ودفقوا منها الى مسافة ٧٠٠ قدم اخرى بين التضاريس الجانبية والنتوءات والقناطر الصخرية، ثم ليصعقوا بالمشهد الذي رأوه حينما أضيء سلك الماغنيزيوم ونترك الكلام لواحد منهم فيقول: «كانت رواسب تشبه الثريات المعلقة تتدلى من السقف ذي القناطر، او تخرج من الحيطان العامودية كما المنحوتات في ألف شكل، وكانت الصخور والنتوءات والأشكال يتداخل بعضها ببعض كأنما يد فنان ماهر قد حفرتها فابدعت الصنع، بينما تخرج من الأرض بين الحين والحين بقايا ورواسب صخرية وكلسية، وعلى نحو مخيف، ولتتصل أحياناً بالثريات المتدلّية من السقف».



تحت الجسر الطبيعي لبنان
ينحدر المجرى، بعدما يمر تحت الجسر، نزولاً على
جانب الجبل في وادٍ عظيم قبل يتكسر زبدًا على الصخر



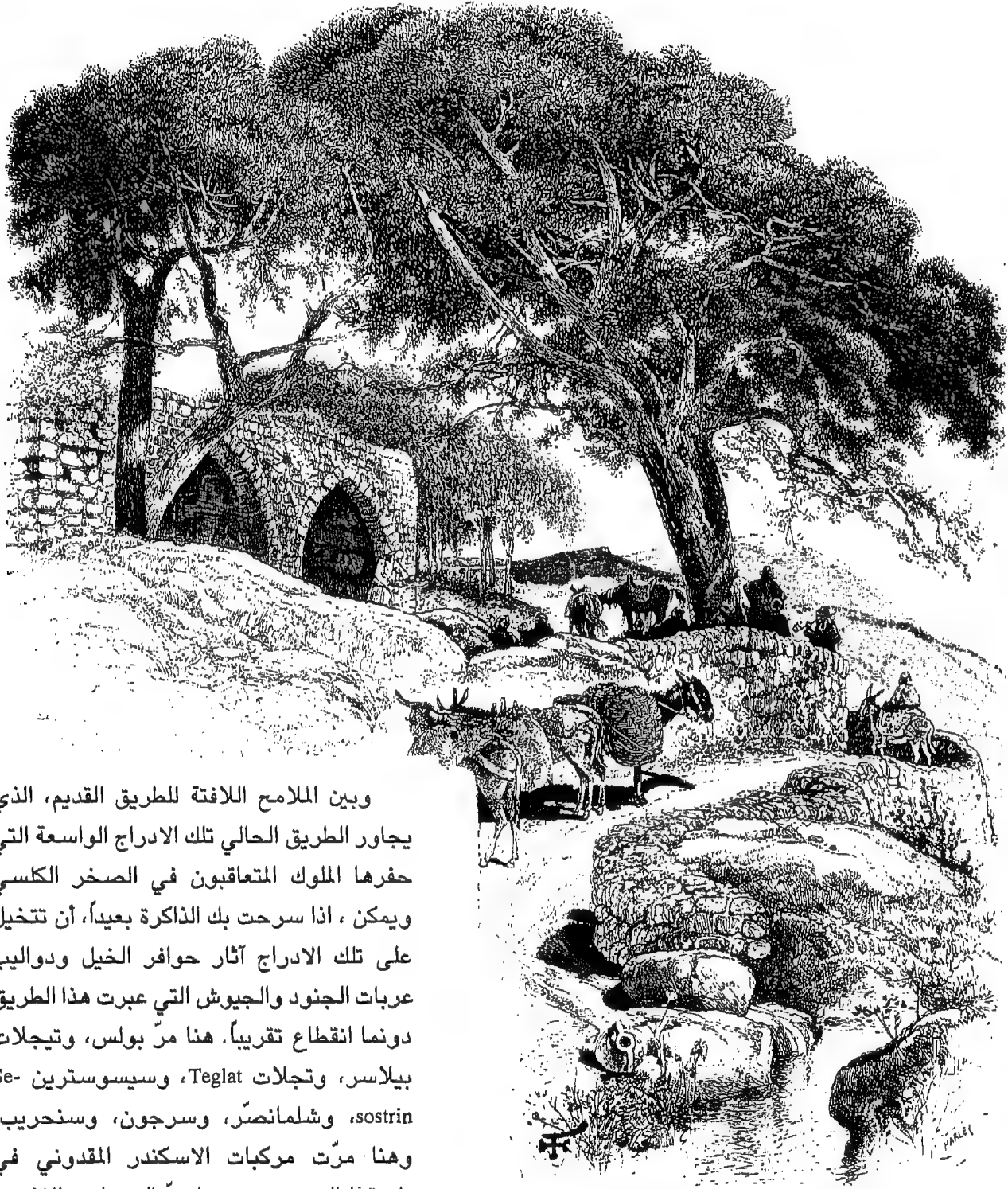
لوحات نهر الكلب وجدران صخرية.
ترتفع عند الرأس الصخري الذاهب بعيداً في البحر، ويصل علوها الى مئة قدم او اكثر



نهر الكلب
وجسر قديم يتصل بطريق الشاطئ المحفورة في
الصخر. ويمكن عبور النهر عند هذه النقطة صيفاً.

غادرنا المغارة وهبطنا مجرى النهر
بمحاذاة قناة الجر والسياج اللذين
انشأتهم شركة «أعمال المياه اللندنية» ثم
بمحاذاة القناة الرومانية القديمة على
الضفة الشمالية، حيث كان المهندس
المعماري الهولندي مستر لويدي Loyted
قد عثر قبل وقت قصير على اكتشاف
أثري هائل وذلك بمساعدة د. هارتمان من المستشارية
الالمانية. ففي خط غير بعيد عن الجسر الروماني القديم، وجد
لويدي وهارتمان سلسلة كتابات بابلية محفورة على صخر
طوله ٨,٤٠ م وارتفاعه ١٢ متراً، تمر فوقه القناة الحديثة. ولم
تجر الى الآن ترجمة كاملة لتلك الكتابات، إلا أن المؤكد هو أن
واحداً منها يعود الى عهد نبوخذ نصر، حيث يتردد اسمه أكثر
من مرة في تلك اللوحة. وإذا عبرت الجسر القديم من النقطة
تلك فستقع عينك على كتابة عربية تكاد تمحي على قاعدة
صخر طوله على الضفة الجنوبية، يفترض أنها للسلطان سليم
وتعود لسنة ١٥١٧ م. وإلى مسافة أبعد قليلاً ناحية البحر، إلى
اليسار من الطريق المعبّد محفورة لاتينية تعود لسنة ١٧٣ م.
حول قناة لوسيس حيث نهر الكلب فيها هو نهر الذئب. وهناك
كتابة لا تينية أخرى أقصر قليلاً لنانحية الغرب لجهة البحر
تعود لأنطونيوس. وعلى جانب الطريق الذي يمرّ بالرأس
الصخري جنوب نهر الكلب يمكن مشاهدة مجموعة لوحات

التاريخ	العمق	العرض	الارتفاع	الراس	النوع	أشورية ومصرية، ثلاث لوحات مصرية وست آشورية يرتبها مستري. ت. شاد بوسكوين كما يلي:
رمسيس الثاني مهداة الى Phtha آشور	٦	٨,٣	٧ قدم و ٦ انش	مربع	١- مصرية	
رسليم ١١٤٠ ق.م.	٤,٥	٥,٢	٧,٦	مربع	٢- آشورية	
تيجلات بيلاسر ١١٤٠ ق.م.	٥	٤,٢	١,٥	مربع	٣- آشورية	
أشورنا بيلارس ٨٨٥ ق.م.	٤ ١/٢	١ ١/٢	١,٦	مستدير	٤- آشورية	
شلمانصر ٨٦٠ ق.م.	٥	٤,٢	٤,٦	مستدير	٥- آشورية	
رمسيس الثاني ٧٠٢ ق.م.	٥ ١/٢	٩ ١/٢	٦,٧	مربع	٦- مصرية	
سنحريب ٧٠٢ ق.م.	٥ ١/٢	٨,٣	٣,٧	مستدير	٧- آشورية	
رمسيس الثاني مهداة الى آمون طيبا	٥ ١/٢	٨ ١/٢	٤,٧	مربع	٨- مصرية	
أسرحدون ٦٨١-٦٧١ ق.م.	٦	٨,٣	٦	مستدير	٩- آشورية	



وبين الملامح اللافتة للطريق القديم، الذي يجاور الطريق الحالي تلك الادراج الواسعة التي حفرها الملوك المتعاقبون في الصخر الكلسي ويمكن ، اذا سرحت بك الذاكرة بعيداً، أن تتخيل على تلك الادراج آثار حوافر الخيل ودواليب عربات الجنود والجيوش التي عبرت هذا الطريق دونما انقطاع تقريباً. هنا مرّ بولس، وتيجلات بيلاسر، وتجلات Teglal، وسيوسسترين Se-sostrin، وشلمانصر، وسرجون، وسنحريب، وهنا مرّت مركبات الاسكندر المقدوني في طريقها الى مصر؛ وهنا مرّ الرومان والاغريق المتأخرون والعرب والأتراك والصليبيون؛ وهنا مرّ كذلك التجار والرحالة.

نزل ومقهى لبناني، على ساقية جبلية، تظله اشجار غضة. موقع النزل دائم هو مكان استراحة وتخيم للمسافرين، لأنه غالباً ما يكون قرب سبيل مياه عذبة .



والى الجنوب من نهر أدونيس، عند الشاطئ، تعبر جسراً معبداً عالياً، وتمر بعدة خانات وقباب أضرحة تقوم الى اليمين من الطريق، ثم نزولاً حيث تمر بنتوات صخرية تدخل في البحر قبل خليج جونيه. ونمر بعدها في طريق

روماني قديم على حافة جرف عالٍ فوق الماء، يفضي الى شاطئ رملي يحاذي نهر المعاملتين. وتقوم فوق مجرى السيل هذا قنطرة رومانية لا تزال في حالة جيدة. هي تدعى المعاملتين، أي المقاطعتين، باعتبارها الحدود في ما مضى، بين ولاية طرابلس وولاية صيدا وقرب القنطرة خان سوري يقدم نزلاً مريحاً للعابرين واستراحة لبعيرهم .

عبرنا الشاطئ الرملي نحو نهر بيروت، في ما يشبه العدو، تشدنا اللوحات الطبيعية الفاتنة. فمناظر رأس بيروت تكلله البيوت ذات الحجر الرملي البني، الى القصور والكنائس والجوامع والكلليات والمدارس، تنتشر من حافة الماء الى أطراف الجبل تظللها غابات الصنوبر على الوهاد الشرقية للمدينة، مناظر لن تجد ما يدانية الا في خليج نابولي. وسان جورج او مار جرجس، كما يدعوه نصارى الشرق هو

قناة جرمياه حديثة البناء على نهر الكلب
اكتشف بجوارها حديثاً ألواح اشوريه
تعود الى نبوخذ نصر

القديس المفضل في الروزنامة السورية. والمسلمون يدعونه الخضر. ولإسم الخضر جامع او مزار قرب الجسر ذي القناطر السبع على نهر بيروت، حيث يعتقد أنه دفن، وأبعد قليلاً صوب المدينة برج مهدم الى الشمال من الطريق يقال أنه المكان الذي قتل فيه مار جريس التنين وغسل يديه من دمه الفاسد.

وندخل بيروت، مركز فينيقيا الحديثة، والمدينة الأكثر جمالاً والأكثر ثقافة فيها الآن. اما موقعها الجغرافي، على المنحدر الشمالي للرأس وعلى امتداد ثلاثة اميال من نهر بيروت الى رأس بيروت ففيه كل ما يمكن ان تتمناه. فتقلبات المناخ تجري مع الشهور المتعاقبة، تدريجية هيئة، حيث الخريف يسلم الشتاء دون ان تكاد تشعر بذلك، والشتاء نفسه



حمام ومقهى، بيروت
اعتني في السنوات الاخيرة كثيراً بالصيد على الشاطئ. ويمكن في ليالي الصيف مشاهدة الصيادين على الضخور عند الشاطئ مع مشاعل ومصابيح يقال انها تجذب أنواعاً معينة من السمك.

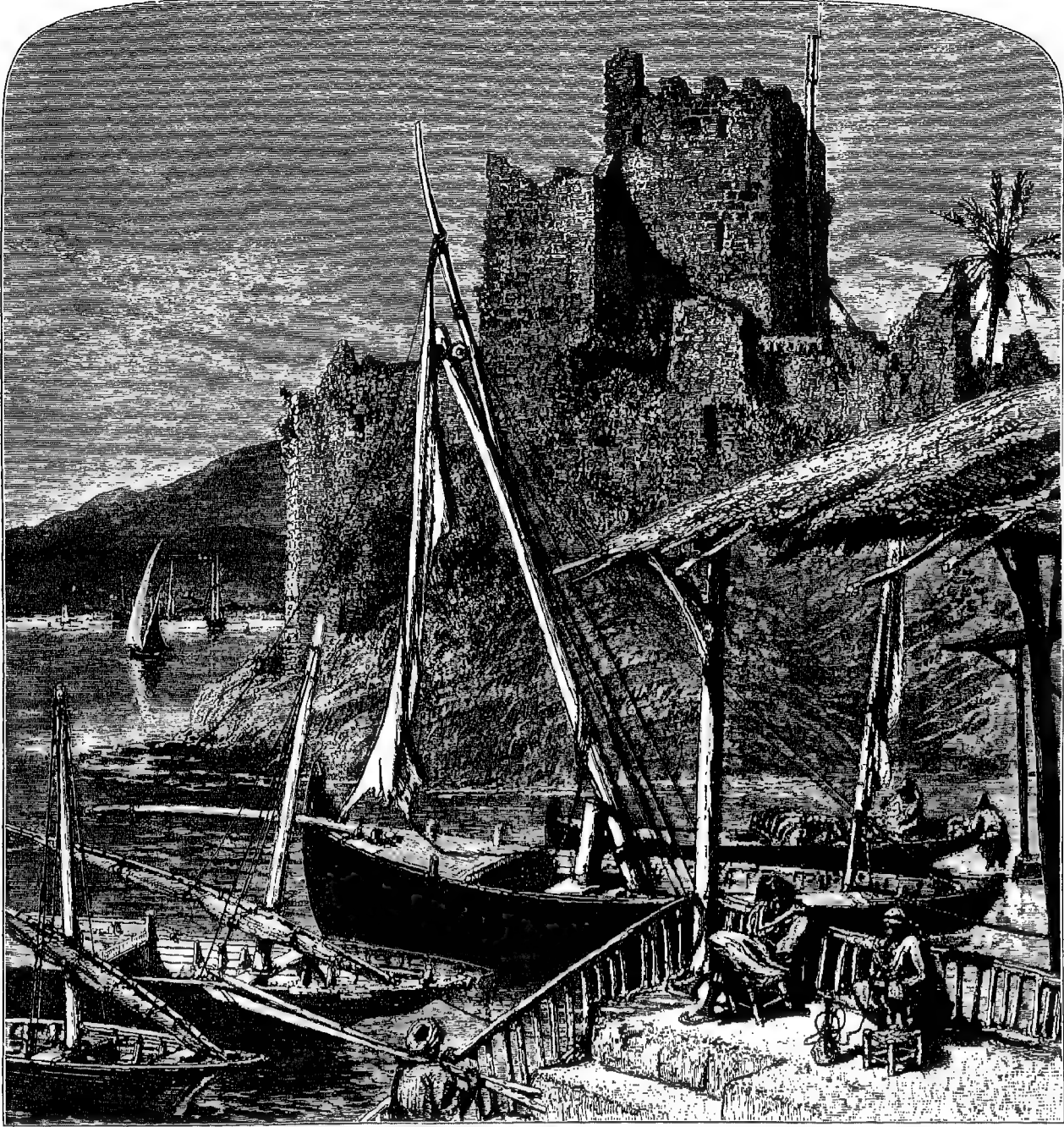
ربيع، والربيع يمهد للصيف حيث لا ترتفع الحرارة اكثر من نصف درجة في النهار الواحد. هنا باختصار كمال المناخ فلا تعجب بالتالي ان يدعوها الشاعر الاغريقي «حاضرة الحياة الهادئة».

وببيروت هي «بيريتس» Berutus عند الاقدمين، ويحتمل ان يكون الفينيقيون هم الذين أنشأوها. ومن المتفق عليه، عموماً ان اسمها مشتق من بئر أو آبار كانت تكثر في تلك البقعة لكن رينان Renan ينفرد في كتابه «رسالة فينيقية» بتفسير خاص، فيذهب الى أن بيريتس أو بيروت هي من بينتو Pinto أو الصنوبر. لكن ما من أحد يجاري رينان في رأيه. فالتشيد الذي يرجع له رينان (17 ; Canti) وفيه كلمة Chalde بيروت تترجم عند فاندل بالسرو. وروبنيسون يعني ببيروث السرو والصنوبر معاً وببيروت عرفت دائماً بابارها وصنوبرها في الأزمنة القديمة، في آن معاً. وإذا كان الصنوبر هو الأكثر إلفاً بالتأكيد. إلا أن وزن الآبار في الأزمنة القديمة أكثر وضوحاً وهو المرجح. ويذكر Starbo المدينة لأول مرة سنة ٤٠١ ق.م. حينما قام تريفون بتدميرها خلال حكم ديميتريس نيكاتار. لكن الرومان اعادوا بناءها واستوطنها متطوعو الفيلق الخامس المقدوني والفيلق الثامن الاغسطيني. وهنا حوكم ولدا هيرودس الكبير غيالياً وحكما بالموت من قبل والدهما القاسي وغير العادي والابن الاكبر أغريبا Agriba أحب المدينة فزينها بالمسارح والملاعب الرائعة، الى جانب الشوارع والحدائق وملاها بالالعاب والاحتفالات الضخمة، ومن ضمنها عروض المصارعة وفنون القتال الرومانية. وهنا ايضاً، وبعد تدميره اوروشليم، احتفل تيتوس Titus بعيد ميلاد والده فيسباسيان بعروض مشابهة حيث كان يضحي بالكثير من الأسرى اليهود.

وفي بيروت في منتصف القرن الثالث، أنشئت مدرسة القانون الروماني. وكان الطلاب يأتون المدرسة تلك من بلدان كثيرة، ومن أشهرهم غريغوريوس وتوماتيرجوس وآبيون Apion الشهير. وعلم أبو لونير «المبادئ» هنا، وذلك في القرن الرابع. وبعد وفاة جوليان الابوستاتي Julian of Apostate طلب الامبراطور جوفيان اعادة بناء كنيسة بيروت التي دمرها الماجنوس Magnus، على نفقته. كانت الفترة الممتدة بين ٢٥٠ - ٥٥٠ م، هي العهد الذهبي لبيروت فبلغت ثقافتها وآدابها الذروة في عهد الامبراطور جوستنيان، الذي خص بيروت برعاية خاصة. لكن التاسع من تموز لسنة ٥٥١ ميلادية كان يحمل أمراً آخر رهيباً لبيروت، فقد دمر زلزال مروع المدينة بكاملها، فتفرق من نجا من سكانها ولجأ قسم كبير من مثقفيها وعلمائها الى صيدون. وفي القرن السابع اي بعد ذلك بحوالى قرنين من الزمن، أمكن لخالد، «سيف محمد»، ان يدخل المدينة، فسقطت بيروت في أيدي المسلمين بسرعة وبكاملها.

وفي العام ١١١٠ احتل الصليبيون بقيادة بلدوين الاول، بيروت وظلت في ايديهم فترة طويلة مركزاً دينياً وعسكرياً مستفيدين من موارنة لبنان كحاجز حليف في وجه المسلمين في الشرق احتل صلاح الدين المدينة لفترة قصيرة، إلا ان الصليبيين لم يخرجوا من المدينة فعلاً إلا بعد معركة حطين سنة ١١٨٧. وساد بيروت من ذلك التاريخ والى عهد الامير الدرزي الشهير، فخر الدين، قدر كبير من الفوضى والغموض. اعاد فخر الدين بناء المدينة وأحاطها بأحراج الصنوبر. وفي سنة ١٨٤٠ ضرب الاسطول الانجليزي المدينة لإخراج جيش ابراهيم باشا المصري. وفي آب ١٨٦٠ احتل ستة آلاف جندي فرنسي المدينة، بعدما أرسلهم نابليون الثالث للمساهمة في وقف الحرب الاهلية والمجازر التي اندلعت في كل مكان. آثار بيروت الظاهرة محدودة تقريباً والسمة الغالبة عليها الأعمدة الغرانيئية أو البروفيرية، تتناثر في كل مكان، والقلعة القديمة على مدخل المرفأ. تبرز في بيروت الحجارة القديمة والتواويس وبقايا الأعمدة على أعماق بسيطة، في اساسات المنازل والابنية مثلاً، كما تجد في حالة سليمة أعمدة ثلاثة ضخمة قرب الكنيسة الروسية، وأرضيات موزاييك رومانية تكتشف هنا وهناك، كذلك هناك كتابة يونانية ما زالت في حالة جيدة فوق باب الديركي Dirkeh، وبقايا طريق روماني على بعد دقائق من الجسر الحديث فوق نهر بيروت الذي اقامه رستم باشا ويعثر الى ذلك باستمرار، على خزفيات وفخاريات وقطع زجاجية وحلي قديمة.

وكانت بيروت، وبفعل هذا التاريخ الغني زاخرة بالقصور والقلاع والاسوار والابراج. أربعة منها كانت ولا تزال حتى عهد قريب في حالة سليمة، أبرزها اطلاقاً برج عساف يقوم عند الزاوية الجنوبية الشرقية للمدينة القديمة، إلا انه بيع أخيراً الى متعهد محلي هدمه سعياً وراء بيع حجراته. والمستشفى العسكري يقوم على موقع برج مستدير قديم أما البرجان الآخران فكانا يحرسان مدخل المرفأ. ويبدو ان الصليبيين هم الذين بنوا هذه الابراج على أنقاض بيروت القديمة وقواعد هذه القلاع انما تقوم على أعمدة بيروت القديمة وحجارتها. إلا أن ما يبهج زائر بيروت هو بيروت الحديثة النامية باطراد، فقد عادت مدينة جوستنيان المفضلة القلب الثقافي والادبي لسوريا ومفخرتها في آن. ففيها تنهض اليوم المدارس العالية والكليات وتتأسس المستشفيات والكنائس والجرائد والمطابع.



قلعة بيروت
بناها الصليبيون، وجزئياً من حجارة ومواد كانت في انشاءات
أقدم عهداً، بدليل الاعمدة الغرانيتية التي وضعت في الاجزاء
السفلية من الأسوار

ففي الشأن التربوي سبق المرسلون الاميركيون سنة ١٨٢٠ سائر الارساليات والبعثات فامكن لهم بذلك تدريس
الآف الشبان وهم يديرون الآن ١٠٤ مدارس فيها اكثر من ٤٠٠٠ تلميذ، ولديهم مؤسسة طبية وثلاث مدارس للبنات
و ٨ مدارس للتعليم العالي (ثانوية) وهكذا ارتفع عدد سكان بيروت من بلدة لا يزيد تعداد سكانها عن ٨٠٠٠ الى
مدينة يقطنها ٨٠٠٠٠ ساكن. وممرات الصبيرة القديمة غدت اليوم شوارع مرصوفة تزينها منازل حسنة العمارة
مفروشة بالاثاث المحلي الصنع ينافس أحلى ما في أوروبا. وتبدو المدينة في حمى نهوض وتنافس تربويين بل أن
الطوائف الاكثر تحفظاً تجاه هذا التحول تبدو واقعة الآن تحت تأثير شبان وبنات متعلمين. ويتسابق اليوم المحمديون
والارثوذكس والموارنة الكاثوليك واليهود في تأسيس مدارسهم، كذلك افتتحت جمعيات كثيرة، مثل الجمعية السورية

البريطانية، جمعية قيصر بروسيا، وكنيسة اسكوتلندا مدارس عدة للبنات والصبيان. ففي بيروت اليوم ٣٥٠٠ طفل في المدارس البروتستانتية و٧٠٠٠ في المدارس الوطنية. ومن بين ١٢ صحيفة تصدر الآن في بيروت سبع منها في ايدي البروتستانت، واربعة أخرى للسوريين الوطنيين. وكل الطوائف والجماعات تمتلك اليوم جمعيات أدبية وخيرية وتربوية، وتبدو الروح الدينية القديمة الضيقة الى زوال. فالمحمديون يتبارون في تعليم بناتهم، كذلك أسست النساء الارثوذكسيات «جمعية الشابات الارثوذكسيات» بهدف تقديم فرص تعليم أوسع. وفي سوريا وفلسطين هناك اليوم ٢٤٤ مدرسة بروتستانتية فيها ١٣٠٠٠ طالب ويعمل فيها ١٢٠ مبشراً ومدرساً أمريكياً وأوروبياً، إضافة الى ٤٣٢ مدرساً محلياً. والقلب في تلك الحركة الغنية هي بيروت من دون أدنى شك. وأبرز معالم المدينة اليوم هي الكلية البروتستانتية السورية، مستشفى القديس حنا، معاهد اليسوعيين الموارنة ومدارس البنات المختلفة الى الأخويات الاميركية والبريطانية والالمانية البروتستانتية والكاثوليكية وسواها. بل إن عدداً غير قليل من الافراد الوطنيين البارزين اليوم، مدينون بمكانتهم لمركزهم التربوي او لاسهامهم في الحياة الأدبية. والمطابع تملأ البلاد بمواد للمطالعة بعضها منقول عن اللغات الاوروبية والبعض الآخر موضوع. وعلى العرب اليوم وكما في أيام خلفاء بغداد، أن ينبشوا كنوزهم العلمية والأدبية القديمة وأن يستخرجوها من اللغات الأوروبية.

وتقف الكلية البروتستانتية السورية في ذروة المؤسسات الأدبية في سوريا، ولغة التدريس فيها هي الانجليزية وهي تعد الشبان المناسبين في شتى الحقول الطبية والأدبية والعلمية ولأعلى المراتب في المستقبل. وإلى الانجليزية تدرس العربية جنباً الى جنب مع الفرنسية والتركية واللاتينية. وأحوال المناخ والرصد الجوي تنقل يومياً عبر اسلاك التلغراف الى اسطنبول ولندن وواشنطن. وتعد مدارس البنات الاميركية والبريطانية والالمانية البروتستانتية المئات من أفضل البنات السوريات. كذلك أسس اليسوعيون كلية لهم ومطبعة على قدر عال من الأهمية، وتقوم معاهد الموارنة والكاثوليك والارثوذكس والمحمديين بتدريس عدد كبير من الشبان بينما في جمعيات المحبة والأخويات أكثر من ٧٣٠ فتاة عربية يتدربن في حقول المعرفة والخبرة المختلفة.

لقد دفعت مجازر ١٨٦٠ آلاف المسيحيين من داخل البلاد الى الانتقال الى بيروت، وباتت المدينة للكثيرين منهم مكان الإقامة الدائم. فمناخها اللطيف ومياهها النظيفة، وتقديماتها التعليمية وأهميتها التجارية، إضافة الى الأمن من شر الحروب الأهلية ومجازرها جعل من بيروت الملجأ الآمن للطوائف والطبقات كلها. وتتصل بيروت بدمشق عبر طريق معبد اقامه الفرنسيون تنطلق عليه مرتين في اليوم قافلة من عربات الخيل.

وبالنسبة الى جهاز الادارة يعين السلطان المتصرف وكبار المسؤولين الاداريين والقضائيين، اما المجالس المحلية فمنتخبة من الشعب. ويزيد المسيحيون من الطوائف كافة، المحمديين بنسبة اثنين الى واحد. وهناك ايضاً، اقلية يهودية متنامية بالاضافة الى جاليات اوروبية صغيرة. عرفت بيروت لقرون طويلة. ببضاعتها الحريرية وصائغوها ونساجوها متفوقون اليوم في جودة انتاجهم الحرير وسواه مما تخرجه معاملهم مخرم موشى بالذهب او بالفضة، فباتت الموضة في العديد من البلدان المتقدمة؛ وكذا الستائر والوسادات والديوانيات. أما الستائر والثياب الحريرية الموشاة بخيطان من ذهب والمنسوجة في الزرق فهي تزين اليوم الكثير من قصور أوروبا نفسها. إلا أن الأهمية المستقبلية لبيروت تعتمد في النهاية على انشاء خط حديدي يمتد من المتوسط الى الهند. ولكن مركزها الثقافي، باعتبارها مندرجاً للامعين من ابناء سوريا، فيبقى أمراً لا جدال فيه. وابناؤها المتحدرون اساساً من طوائف لبنان المختلفة واعدون وقادرون على تحقيق الكثير. والمدينة تنمو يوماً بعد يوم، في جمالها كما في نفوذها في الشرق، ومؤسساتها تكاد تبز ما كانت عليه جامعتها المشهورة ايام جوستينيان الذهبية.

وعلى مسافة حوالى الميل جنوب غرب الكلية ينتهي رأس بيروت بقطع صخري عند الروشة وهي الاسم السرياني لرأس Head Land. وينشق القطع على تجويف صخري، او كهف عميق لا يمكن بلوغه الا بالقارب من جهة البحر. وفي مقابل التجويف الصخري تقوم لجهة البحر، وعلى قاعدة نصف الدائرة هذه، جزيرتان صخريتان شاهقتان رائعتا الجمال يسكنهما الحمام، وتحت اكبرهما نفق طبيعي وتضفي اسراب الحمام، الى السمك الكثيف عند



حافة الصخر، جواً رائع الجمال. كما تضفي طبيعة الصخر الكسبية بطبقاتها الطباشيرية البيضاء والسوداء يتدرج بعضها فوق بعض، وعلى نحو متماسك في الجزيرتين منظرًا لافتًا ومثيرًا للاهتمام. وفي زيارة حديثة له، وبينما عاصفة تضرب الشاطئ من جهة البحر، بدا المنظر مهيباً أقرب إلى الجلال وعلى نحو لا يبارى. كانت الأمواج العاتية تأتي من أعالي البحر، تضرب بقوة على حفاقي الجزيرتين وخلفهما، فترغو وتزيد وتغدو بيضاء في لون الحليب، ويعلو هديرها قوياً بينما رذاذ مائها يرتفع ليصل حتى رأس الجرف قبل أن يهبط ثانية إلى الخلف من حيث بدأ.

صخرتا الحمام، (الروشة) بيروت.
وتحت الحائط الصخري المقابل فجوات أو كهوف
صغيرة، كما هناك تحت الصخرة الأكبر حجماً نفق
تدخله الزوارق الصغيرة

وعند الجهة الجنوبية من المدينة، على نحو أربعة أميال من الشاطئ تقع كثبان الرمل المتحركة أو ما يدعى بـ «رمل بيروت» والتي ظلت تزحف ببطء ولأجيال، شمالاً وشرقاً مهددة بتدمير المدينة. وقد تقدمت في بعض المناطق خلال الخمس والعشرين سنة الماضية على حد علمي، إلى نحو من ١٠٠ قدم. كما أن الرياح القوية التي تهب من الغرب تدفع بالرمل من الكثبان القريبة للشاطئ الجنوبي الغربي فتراه ينتشر فوق المدينة في أشهر الصيف التي لا مطر فيها وكأنه حبيبات ثلج متساقطة.

لقد أزال الرمال منازل عدة وغطت عدداً آخر من الحدائق. وقد استحصلت بلدية بيروت الحالية المنتخبة الإذن من الباب العالي لإزالة الرمل أو على الأقل للحد من تقدمه ووقف انتشاره.



ونترك بيروت الى صيدا فنمر في حرج الصنوبر الكبير الذي زرعه الأمير فخر الدين وبالبساتين الواسعة الغنية

بالزيتون وأشجار الفاكهة، ثم نعبّر شاطئ القسس Kossis الى آثار خلدة، ثم لنصل الى الجسر الحديدي فوق نهر الدامور. ومن هناك الى خان النبي يونس حيث قبة ضريح بيضاء حيث دفعت الاسماك النبي يونس الى هذا المكان وفق اعتقاد المسلمين. ويعرف هذا الجزء من لبنان، الواقع بين بيروت وصيدا بلبنان الدرزي، نسبة الى الدروز، الشعب غير العادي Extra ordinary الذي يعيش هنا. يقوم دينهم على نظام ديني - سياسي سري، حيث الحاكم هو إلههم المخلص، وهم وان كانوا مسلمين في المبدأ الا أنهم يبقون دروزاً في قلوبهم. والدروز لطفاء شجعان متحدون ومهرة؛ وهم

بيروت، من جعيتا وهي قرية جميلة الموقع شمال نهر الكلب على مرتفع يطل على واد ضيق. وفي البعيد خليج مارجرس، كما يظهر الرأس الرملي لبيروت.

في سوريا الأحجية او المسالة التي لم تجد حلاً بعد . هم يتكلمون العربية الصافية لكنهم في السياسة انجليزيو الهوى .
وبعد مسير ثلاث ساعات بين الشطآن الرملية والشعاب الصخرية نصل الى نهر الأولي حيث يمكن الإطلالة على
مدينة صيدا القديمة بكاملها .

صيدون او صيدا

«آلهة صيدون صيدون الجميلة»

هاتان الاشارتان هما لشاعرين لاتينيين متأخرين، يسلمطان الضوء على ملمحين اساسيين في تاريخ صيدا، آلهتها الضاربة في القدم من جهة، وطبيعتها الجميلة من جهة ثانية. كانت صيدون هي المدينة المقدسة التي اعطت الآلهة للفينيقيين ومنهم لليونان وايطاليا وقرطاج. من صيدون أخذت اورشليم عبادة البعل وفي صيدون كانت تجري عبادة الثنائي المقدس في الديانة الفينيقية بعل صيدون وعشتروت، وهما نفسيهما تموز وعشتار في جبيل، وبعل هامون وتانيت في قرطاج، وشاد وشيدات عند الحثيين، وحداد واثارغات في دمشق. هذه هي بلاد:

«استورات التي دعاها الفينيقيون استرات [عشتار]،

ملكة السماوات ذات القرون، والتي يرفع لها ضوء

القمر كل ليلة، لها تغني العذارى الصيداويات»

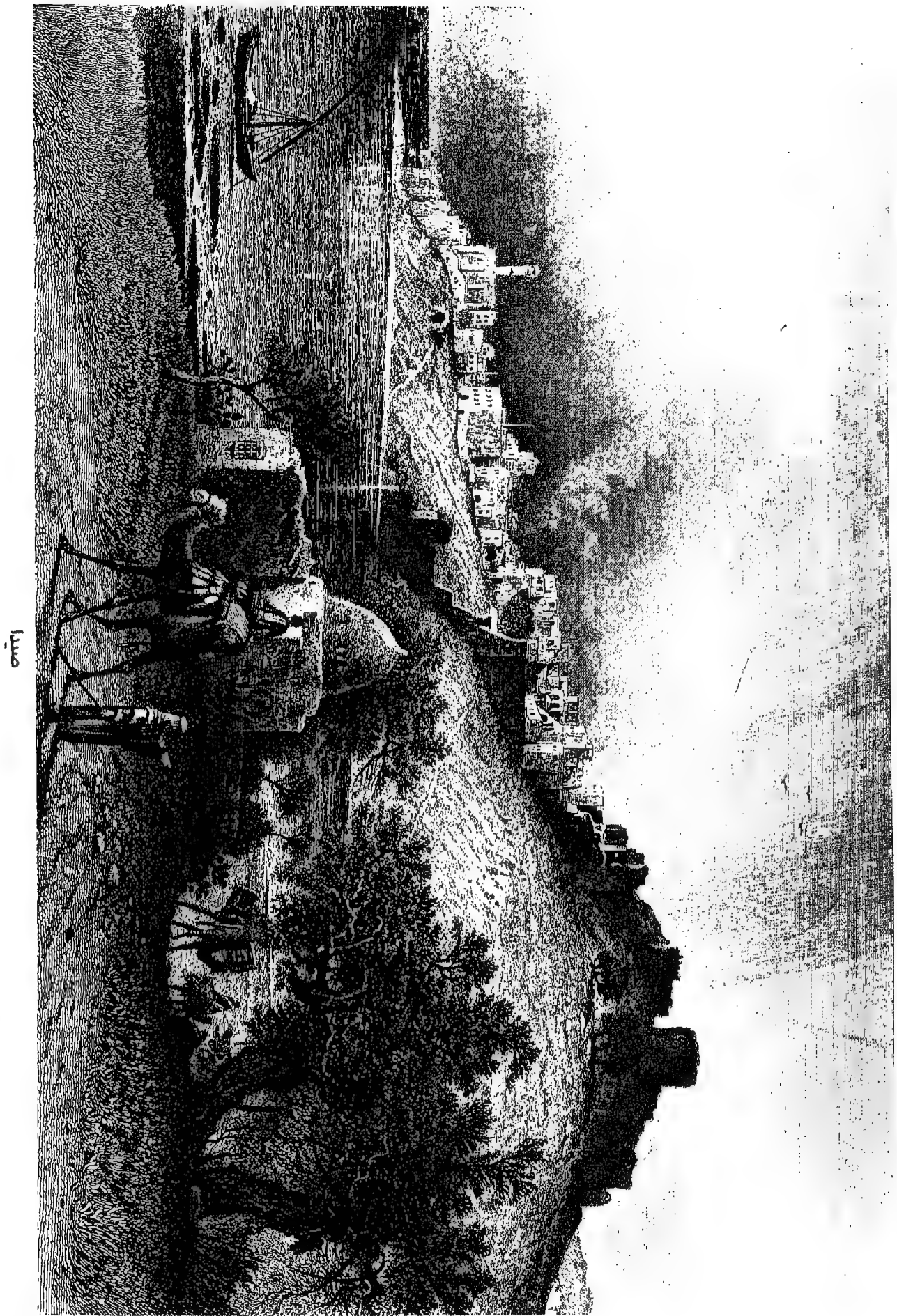
وحيثما كان بحارة صيدون وصور الاشداء يدفعون مغامرتهم قدماً نحو الاوكسين Euxine وأوجين Aegean ، والى ما بعد أعمدة هرقل، فقد حملوا معهم، في جملة ماحملوه، ديانتهم ومقدساتهم الخاصة. فغدت عشتروت أفروديت عند الاغريق ومعبد تاسوس في الأوجين انما كان لعبادة ملكارت، هرقل صور. ولم تزل محفورة في جزيرة مالطة نقوش وكتابات تتحدث عن «الاله ملكارت، بعل صور».

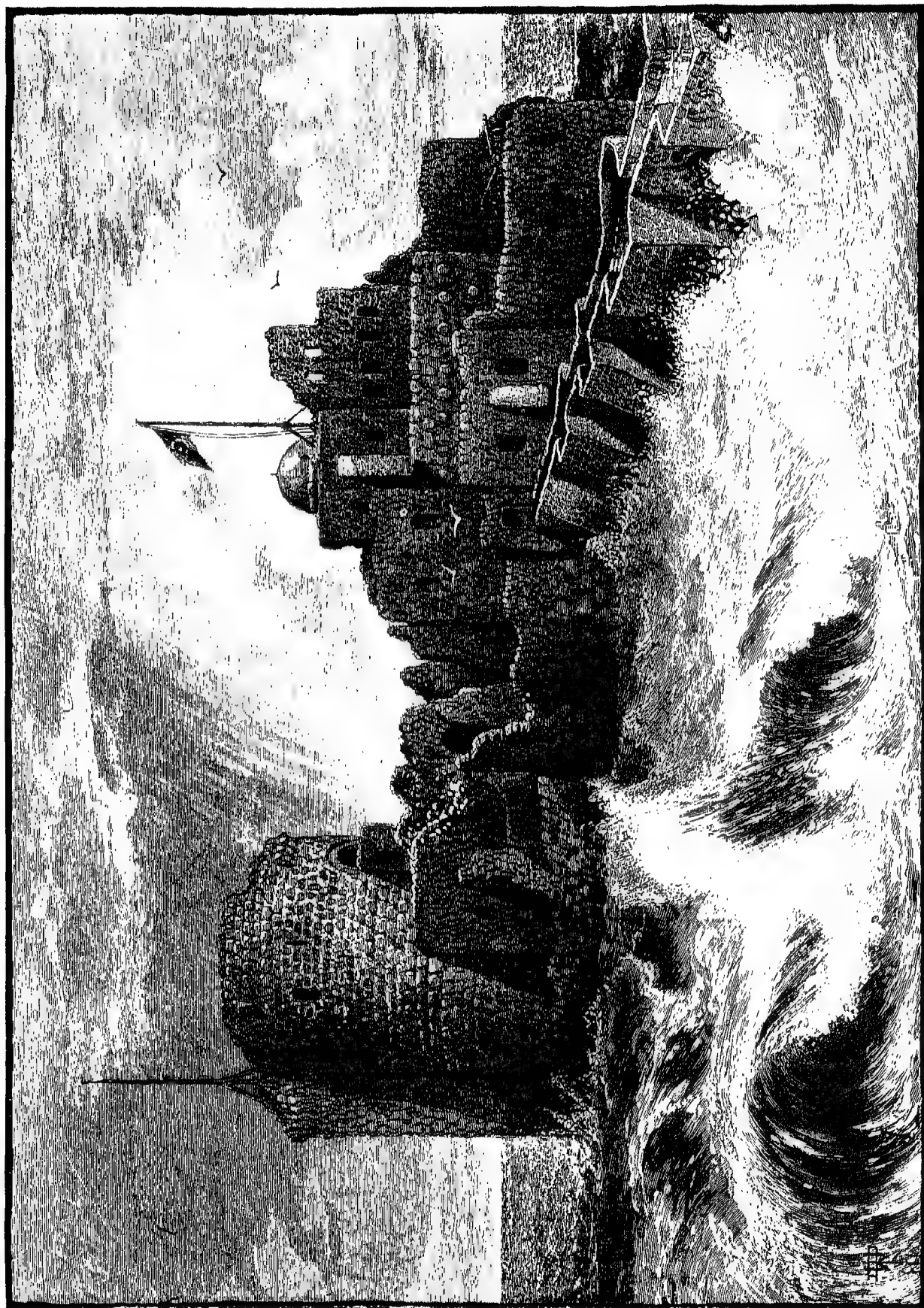
وصيدون القديمة، التي منحها اسمها Great Zidon جشوا Joshua، الابن الاكبر لنوح، ربما تكون المدينة الأقدم عهداً في العالم، وهي تستطيع الى ذلك أن تعترز لكونها ذكرت في سفر التكوين، كما في أشعار هوميروس. فهو ميروس يتحدث عن غنى صيدون بالمعادن النفيسة، كانت تجلب اليها من بلاد بعيدة في معظم الأحيان، باستثناء الحديد الذي كان يستخرج من الجنوب اللبناني. كان التنك يأتي من بريطانيا واسبانيا والقوقاز، والفولاذ من لولشيز Lolchis والذهب والنحاس من البحر الاحمر وقبرص؛ لكن الصيدونيين والصوريين كانوا صناعات مهرة في طريقة استخدام هذه المعادن وتصنيعها وبلغوا في البرونز خصوصاً شأواً متقدماً.

وحيثما طرد المصريون القدامى ملوك الرعيان، كان الصيدونيون شعباً تجارياً، وقد خضعوا للمصريين بين القرن السابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد. وفي صفحة بردي محفوظة في المتحف البريطاني رواية عن رحلة قام بها ضابط مصري الى سوريا في نهاية حكم رمسيس الثاني، وفيها اشارات الى بيروت وصيدون وصور بوصفها محميات مصرية آمنة.

زود الصيدونيون مصر القديمة ببحريتها التجارية والحربية، وبلغت تجارة صيدون في هذه الفترة حيث لم يكن هناك بحرية منافسة، ذروة توسعها وازدهارها. فقد أبحر تجار بيروت وصيدون الى ما بعد وادي النيل، على طول شواطئ افريقيا، فانشأوا كامب Cambe او قرطاج في ما بعد، وهي Hippo. كان المصريون يخشون البحر الى حدّ الرعب، باعتباره نحساً وميداناً لـ «ست» Set او إله الشر، عدو اوزيريس، اله الخير. لم يكن هناك، فعلياً بحرية مصرية، فقاد الضباط والبحارة الصيدونيين الاساطيل المصرية في المتوسط والبحر الاحمر، وتجارة سليمان بين أوثير وإيلات Elath وازيون جيبير Ezion Geber كان يتولاها الصوريون احفاد البحارة الصيدونيين القدامى. ولكن، يا للمفارقة، فصيدون العظيمة تلك هي الآن مجرد صيدا صغيرة أو مكان الصيد. وبحارتها القدامى العظام هم الآن بحارة سواحل لا أكثر يدورون بين موانئ الشواطئ السورية، بينما مرفأها الصغير يتسع بالكاد لشراع صغير.

والمدينة القديمة التي طالما بنيت وهدمت ثم أعيد بناؤها، هي اليوم بلدة كبيرة تضم حوالى ٩٠٠٠ ساكن، وهي في عيشها ونمط أعمالها مدينة شرقية بالكامل. لم يقهرها الاسرائيليون البتة، لكنها خضعت للمصريين والاشوريين



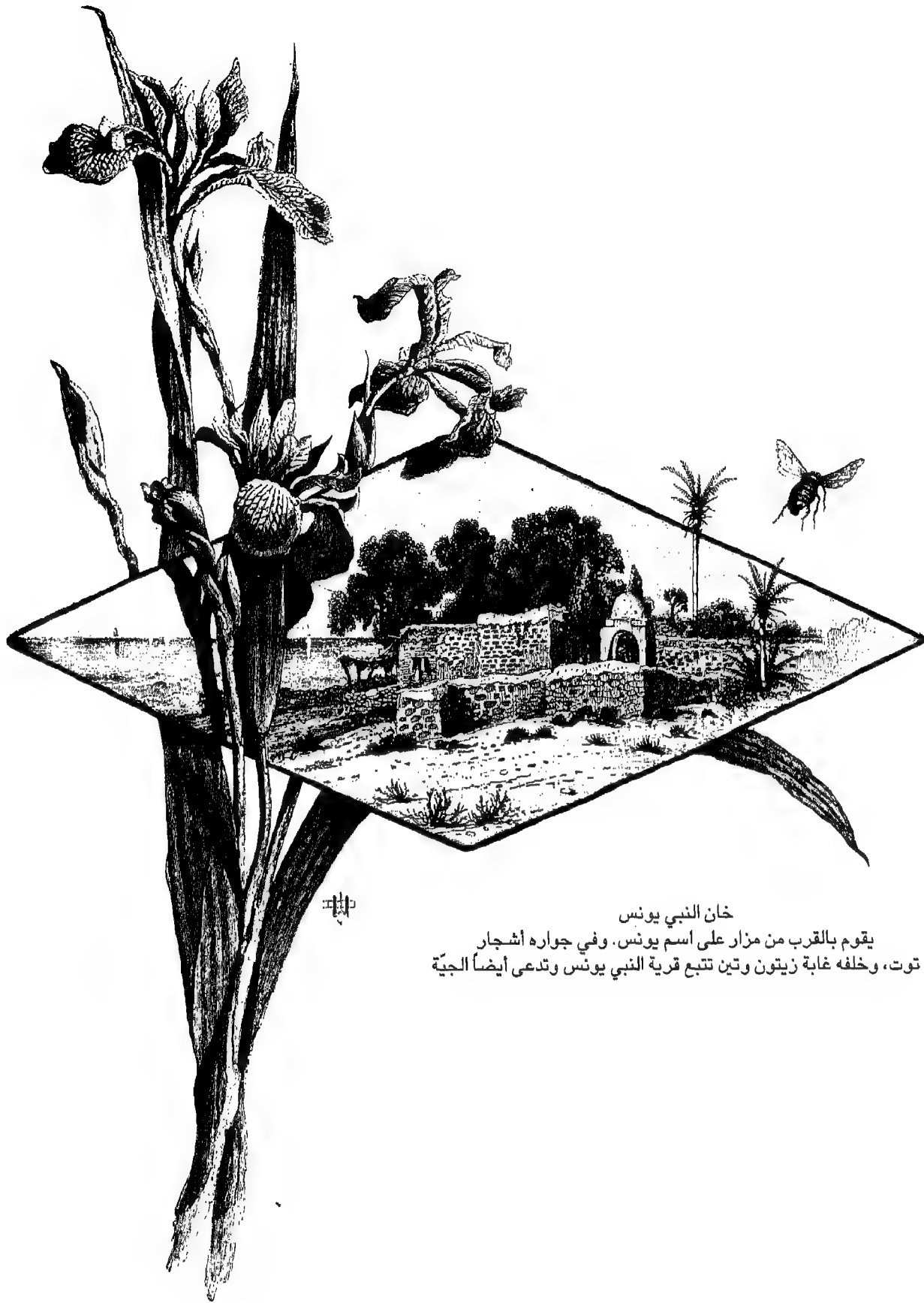


تسمى قلعة البحر. تقوم على جزيرة صخرية مقابل الطرف الشمالي الشرقي من المدينة، والتي اتصلت به بمر على اقواس حجرية.
قلعة وميناء صيدا، صيدون القديمة

والفرس، كما فتحت بواباتها لاسكندر ذي القرنين سنة ٣٣٢ قبل الميلاد. وفي ظل الرومان كانت صيدا مدينة غنية، وكذا في حقبة العهد الجديد، عندما زار يسوع الرب حدود صور وصيدا. ووجد القديس بطرس هنا رفاقاً له في المسيحية بينما كان في طريقه الى روما. كما ان مطرانها ثيودوروس كان عضواً في مجمع نيس لسنة ٣٢٥ للميلاد. وخلال العهد الصليبي تبادل الصليبيون والمسلمون احتلالها غير مرة، وعانت ما يكفي من بطش الجيوش المتقاتلة التي تبادلت عليها.

تقع المدينة على المنحدر الشمالي الغربي من الهضبة التي تهبط برفق الى ان تدخل البحر. وتنتشر امام واجهتها البحرية سلسلة جزر صخرية صغيرة من الشمال الى الجنوب كانت تحمي مرفأً كبيراً كان يتسع، في ما مضى لخمسين شراعاً، إلا أن الأمير الدرزي فخر الدين أمر بطمره بالصخور لمنع دخول المراكب التركية، أما اليوم فالمرفأ الحالي صغير الحوض ضحل المياه وعلى قياس مراكب «كوستا جيز» Jiz أو ما شابه. وتحيط صيدا الاسوار، وهي بخلاف بيروت التي خرجت من أسوارها وامتدت عدة أميال، ما زالت محصورة داخل الأسوار الضيقة. ويصعب تصور ازدهار مدينة في مثل حال صيدا اليوم، ليس فقط لأن أزقتها شديدة الضيق ولا تتسع لمرور جملين محملين اذا التقيا في اتجاهين متعاكسين، وانما كذلك لأن المنازل هي من الضخامة بحيث جعلت عقودها فوق الازقة؛ وبحيث يستطيع المرء ان يعبرها من حدها الى حدها في انفاق مسقوفة وشبه مظلمة. وفي المدينة خانات كبيرة يدعوها السكان الوكالات وهي ابنية ضخمة، مربعة الشكل مبنية الى ساحات واسعة مرصوفة، ترتفع الى طبقتين مع عدد من الغرف لاقامة وخدمة المسافرين والتجار وتجارة بيروت راهناً تفوق بما لا يقاس تجارة صيدا، والقوافل التي تجلب القمح والشعير من حوران الى بيروت وتعود بالمنتجات الأوروبية، لا تدخل صيدا بل تمر خارج الاسوار. ويتوزع سكان صيدا بين ٧٠٠٠ من المسلمين، و ٥٠٠ يهوداً. والباقيون كاثوليك وموارنة وبروتستانت. وفي صيدا مدرسة للبنات اقامتها الارشالية الاميركية تقيم فيها ٤٥ طالبة الى تسعين أخريات في النهار الى مدرسة عالية للصبيان. وأقامت أخوية المحبة الفرنسية مدرسة للبنات، واليسوعيون مدرسة للصبيان. كما اقامت المقاصد الخيرية الاسلامية مدرسة للصبيان أيضاً.

اما بساتين الفاكهة والاشجار المثمرة في صيدا فتمتد لأكثر من ميل ونصف الميل خارج الاسوار، وهي مفخرة الصيداويين، وتضم الليمون والحامض والليمون الحلو والتين والمشمش والتفاح والسفرجل والموز والرمان والخوخ والبرقوق واللوز وسواها. ومنتجات هذه البساتين تصدر بحراً الى بيروت والاسكندرية، او براً الى سائر مدن لبنان والى دمشق. ومنظر السهل في نيسان، من منطقة النبي يحيى على نحو ميل شرقاً منظر خلّاب تماماً. وخضرة هذه البساتين وجمالها لا تعدلها حتى المناظر الساحرة في جنوب انجلترا. لكن الخضرة لا تطل السهل كله بل هي تقتصر على الاراضي التي يرويها الأولي فتبقى خضراء نضرة طوال العام، بينما تحرق شمس الصيف اطرافه البعيدة والهضاب المجاورة فتغدو جرداء مغبرة.



خان النبي يونس
يقوم بالقرب من مزار على اسم يونس. وفي جواره أشجار
توت، وخلفه غابة زيتون وتين تتبع قرية النبي يونس وتدعى أيضاً الجية

وآثار صيدا الأكثر إلفاً هي بقايا المسطحات المرصوفة بالموزاييك شمال المدينة، وتل الموركس المكسور في الجنوب الغربي حيث كان يستخرج الصباغ الصوري الأرجواني والناكروبوليس Necropolis أو الأضرحة المشهورة جنوب شرق المدينة، أو مدينة الأموات، كما وصفها رينان. تحتوي المنطقة هذه على عدد كبير من الأضرحة والنواويس وفيها مغاور مستطيلة، هي الأقدم، تدخلها في درجات حفر على جوانب المنحدر فتقود إلى غريقات صغيرة حفر في الصخر كما عند المصريين وفي المغاور سلال صخرية وأفاريز للنواويس حيث لا يزال بعضها في مكانه. وفيها، إلى ذلك، مغاور مصقولة بالكس وتعود إلى النمط اليوناني الروماني، في بعضها كتابات يونانية. وفي مغاور أخرى نواويس رخامية من النمط الفينيقي القريب من شكل الإنسان على قياس جسد محنط وهناك كذلك نواويس من رصاص، عثر على العديد منها في القرى الواقعة شرق المدينة. أما الأضرحة ذات القبات، داخل البساتين فهي من الطين وهي مربعة الشكل، مزخرفة بالكاليل وغيرها من المنمنمات والمحفورات.

وعلى مسافة ١٠ دقائق جنوب شرقي بوابة عكا في صيدا يقوم كهف أبولون حيث اكتشفت سنة ١٨٥٥ نواويس بازلتية سوداء رائعة هي الآن في متحف اللوفر في باريس. واقتطعت الكتابة الفينيقية على جانب الضريح وجرى حفظها على نحو جيد، وهي تتألف من ٩٩٠ كلمة، وقد كان للباحثين الأوروبيين أكثر من ترجمة لها، إلا أن الترجمات تتفق في الخطوط الأساسية التي تذهب كما يلي:

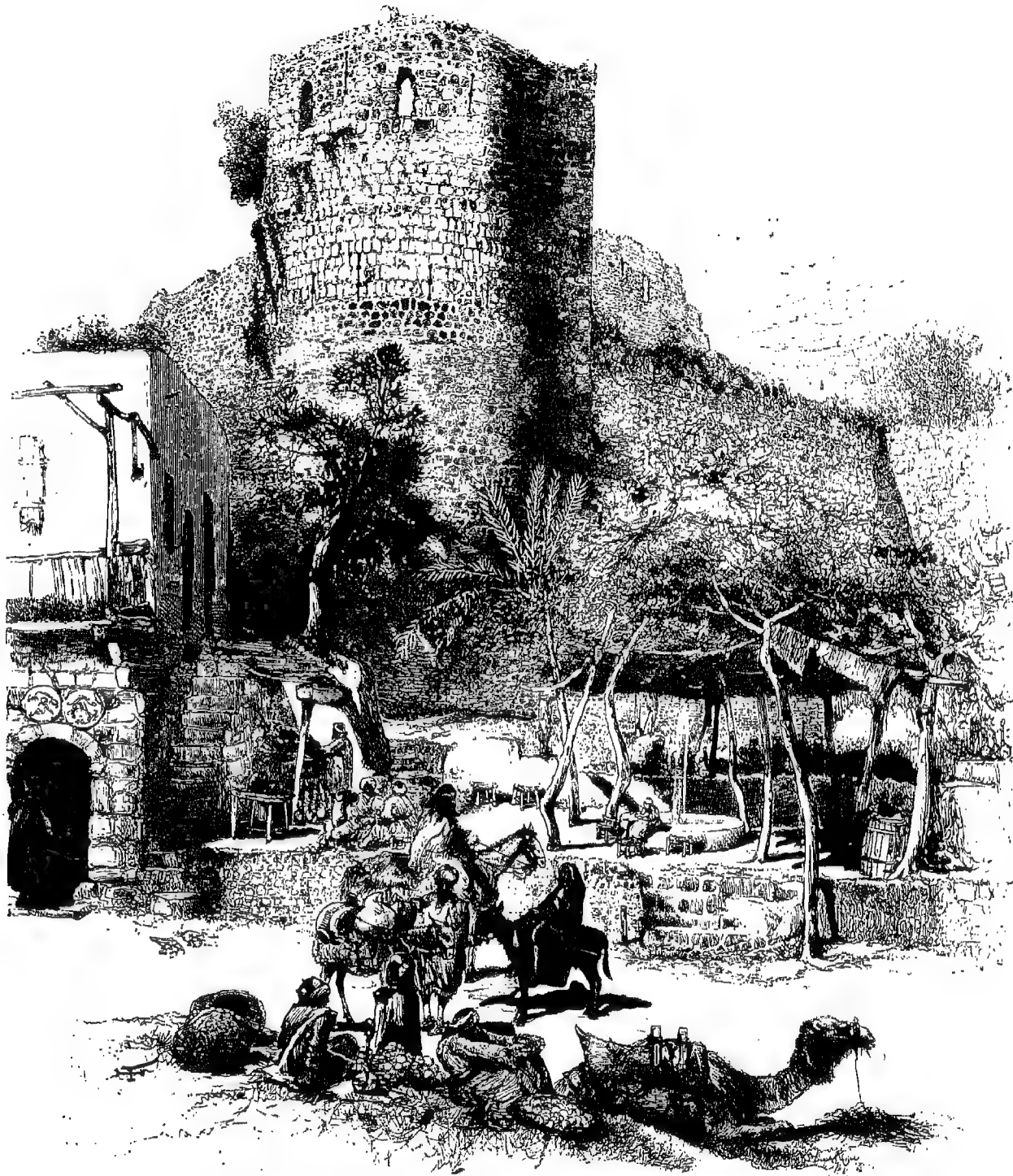
«في شهر بل Bu، في السنة الرابعة من حكمي، أنا اشمونزار، ملك الصيدونيين، انتزعت قبل الاوان مثل ماء النهر كل فرد من السلالة الملكية، وكل شخص، يفتح هذا المدفن، أو ينقله من مكانه، سوف لن يكون له مدفن يوم وفاته، ولن يكون له في قبره ذخائر مقدسة، ولن يترك خلفه ابناً أو ذرية... وسوف تقطعه الالهة المقدسة. ولن يزرع له جذر، أو يكون له ثمرة، لأنني اشمون نزار ملك الصيدونيين، ابن تابنيث ملك الصيدونيين، والدتي ايمياستوريت كاهنة عشتار ملكتنا المتوجة ابنة اشمون نزار، ملك الصيدونيين... نحن الذين بنينا هيكل الالهة في صيدون إلى البحر وجعلته الالهة عشتار الأعلى. ونحن الذين اصلحنا معبد اشمون، ومدافن آن دليل في الجبل... معبد بعل صيدون، ومعبد عشتار، مفخرة بعل سيد الملوك الذي منحنا دوراً وجوباً والأراضي على أطراف دان Dan....»

تحمل هذه النقوش بوضوح الروح الفينيقية، وهي إحدى أهم الكتابات الفينيقية المكتشفة، وتليها من حيث الأهمية كتابات مشا Mesha على حجر موبيت Mobite Stone أو لوح سيلوم* (أوشولوم) Siloam table وهي ذات أصل بيوني PUNIC. كان للمدن الفينيقية سجلات وأرشيفات منظمة، تحفظ بعناية ولأزمنة طويلة، أهمها السجل الفينيقي اليوناني لسكنونياثون البحّاة البيروتي، والذي قرئ على أبي بعل ملك بيروت. وفي رأي البروفسور سايس Sayce أن بقايا المكتبات الفينيقية يجب أن تكون موجودة في مكان ما في سوريا داخل المواقع الأثرية الكثيرة التي لم تكتشف بعد. ولطالما عثر بستانيو صيدا على كنوز أثرية في أثناء نكشهم الأرض أو حفرهم أسس أبنية جديدة. وفي صيدا برج قديم هو حصن أو قلعة المزيح MEIZCH، كما يدعوه العرب، ويقال إن الذي بناه هو لويس الرابع سنة ١٢٥٣. ويقوم بالقرب من قاعدة البرج نصبان اكتشفا حديثاً. أما قلعة البحر فتقوم على جزيرة صغيرة تتصل باليابسة بواسطة جسر

* لم يكن لوح سيلوم قد اكتشف بعد حين كتب كولونيل ويلسون وصفه لقناة سيلوم وبركها (راجع ص ١٠٢، ١٦٠) وعليه فإن بعض الأشياء يجب أن تضاف.

فقد اكتشف اللوح تلميذ للهر شيك، سنة ١٨٨٠، وهو مهندس معماري أقام طويلاً في القدس، فقد كان هذا يجول عند القناة التي تنقل الماء إلى بركة سيلوم العليا منذ نبع العذراء حينما زلت به القدم وسقط في الماء، وحينما كان يحاول الخروج من الماء لاحظ اشارات تشبه الكتابة منقوشة على الجانب الداخلي الصخري للقناة والتي لا يبلغ عرضها هنا أكثر من قدمين؛ بينما يبلغ طولها ١٧٨٠ قدماً في حين أن الخط المستقيم للمسافة بين العين والبركة هو ١١٠٤ أقدام فقط. ويعلو الركام في مواقع محددة مجرى القناة (راجع ص ٧٨، ج ١). وكان ضروريا تخفيض منسوب المياه في القناة لنسخ الكتابة، ثم أمكن ليشن وبروفسور سايس وليواتنان كوندور استنساخ نسخ منها وتوزيعها، من ثم جرت أكثر من قراءة لها لا يختلف كثيراً بعضها عن بعض. وتفيد الكتابة، وفق قراءة سايس وآخرين، أن القناة قد حفر من الجانبين في البدء ثم التقيا في الوسط؛ انظر للحفريات.. أنه تاريخ النفق وبينما كان عمال الحفر يرفعون القطع.. اندفعت المياه نحو البركة في مسافة ألف ذراع... M.E.R.

حجري يقوم على تسع قناطر. بنيت القلعة في القرن الثالث عشر، إلا أن حجارتها الضخمة تعود الى بناء أقدم عهداً. وكانت الجزيرة تتصل في ما مضى لجهة الغرب، والجنوب الغربي، بحائط بحري يحمي الميناء، ولكن مع ردم فخر



قلعة صيدا، صيدون القديمة
تدعى اليوم قلعة المزية Mezzeh تقوم عند طرف المدينة الجنوبي الشرقي
وفوق تل من الركام لا تزال تشاهد عليه بقايا الصدف الأرجواني.

الدين للميناء آل الحائط الى الخراب وانتزع السكان حجارتها لأغراض البناء، وباتت مياه البحر تصل، مع ارتفاع الموج، الى الشاطئ. المدرجات الفينيقية المبنية لأغراض فنية أو للمبادلات التجارية آلت بدورها الى الخراب والزوال. ولا

يذكر اليوم الا القليل عن تجارة صيدون، مثلها مثل ارواد وجبيل وصور، بينما تستأثر بيروت بتجارة سوريا. كذلك زال الى غير رجعة فن استخراج الصباغ الارجواني من أصداف الموركس، حيث يمكن العثور الى اليوم على الملايين من



إمراة فلاحه تخض جلد صنع الجبنة.
والكيس هو عبارة عن جلد ماعز اعيد إقفاله، يملأ جزئياً بالحليب وتقفل فتحتا الجنبين بإحكام، ويعلق في مكان ثم يربط بأربعة خيطان من مكان الساقين؛ ويخض بعدها بانتظام الى الامام والى الخلف، الى أن تكتمل العملي

بقايا او كسر الموركس على تل بالقرب من المدخل الجنوبي الغربي لصيدا. وكذا الفنون المتصلة بشغل الذهب والفضة، ونسج الحرير والصوف فقد تركت كلها صيدا وصور نحو الأسواق الاكثر اتساعاً في بيروت ودمشق.



موقع سريبتا

كانت المدينة في القرن الثالث عشر خراباً، ولم يبق منها اليوم غير بقايا قواعد أبنية فوق مرتفع يسمى عين القنطرة وعلى الشاطئ جنوباً ولحوالي الميل ويمتدح مؤرخو الاغريق والرومان الأوائل الخمرة التي كانت تنتج في سريبتا

السهل الفينيقي

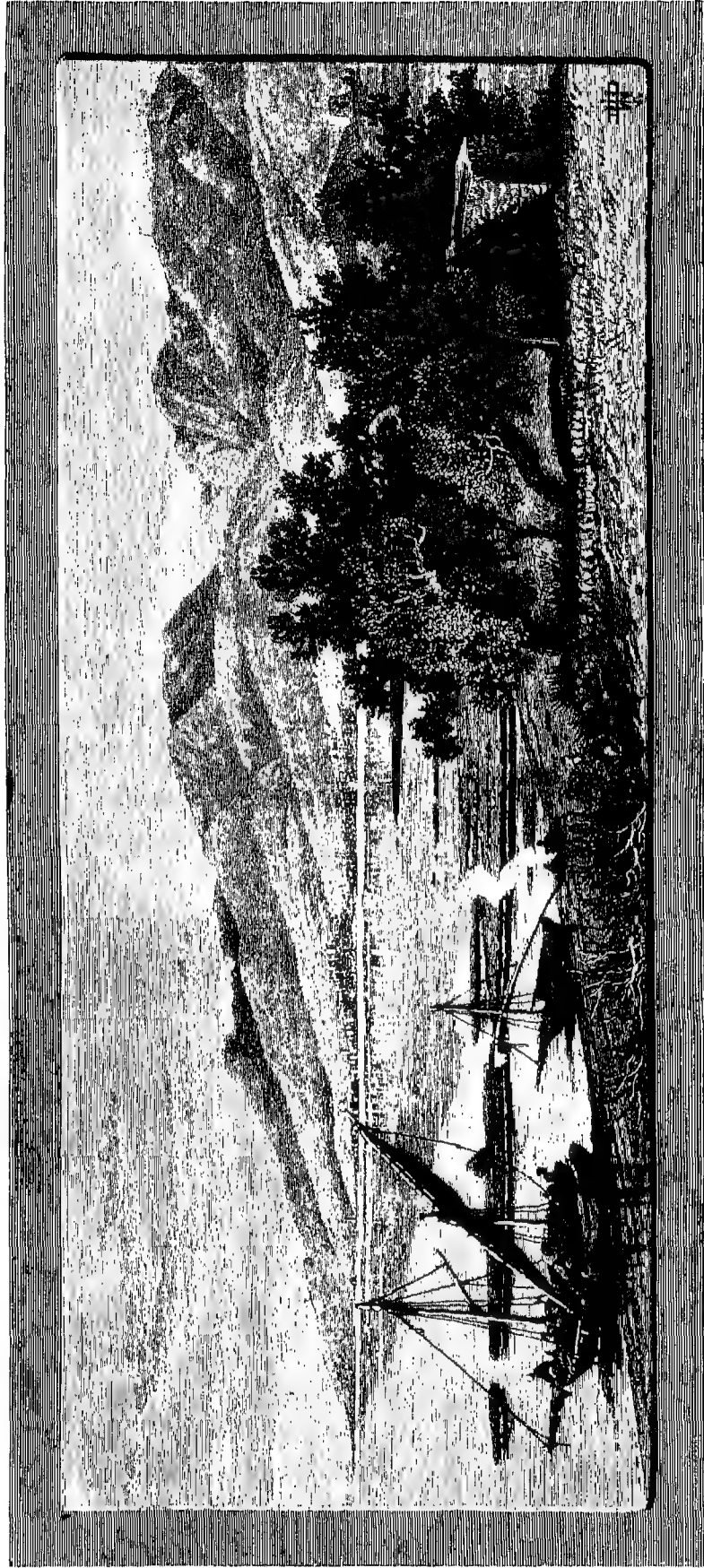
يمتد الطريق من صيدا الى صور على شاطئ البحر، وهو يخلو عموماً من الخضرة او مما هو لافت، الا انه يبدو في يسره وخلوه من الرؤوس الصخرية نقيضاً للطريق الساحلي في فلسطين. ورغم أنه ما من شيء يحجز ماء البحر الا ان الحزام الرملي على الشاطئ المتباين في سماكته استمر قائماً ويمتد الى ما لا نهاية. ووراء هذا الحزام الرملي يمتد السهل الفينيقي الضيق ولكن الغني بتربته وبمائه. فينابيعه وآباره كثيرة وتعطي في الغالب ماء عذبة صافيا رغم أن بعضها هو على مسافة بضعة أقدام من مياه البحر. وعلى أطراف السهل ترتفع التلال الصخرية الحادة. وتقطع السهل بين الحين والحين انهار او جداول اقيم فوقها ايام الرومان أو في عهود متأخرة، جسور كثيرة ذات قناطر ما يزال بعضها قائماً، بينما ذهبت بأكثرها سيول الشتاء والاهمال ولم يبق منها غير أعمدة او أجزاء تنتشر هنا أو هناك. وهذه الجداول غزيرة جداً في الشتاء ويصعب مقاربتها او السباحة فيها، مثل نهر الزهراني (سمي كذلك لزهرة الدفلي الذي كان يكسو ضفتيه)، وهي قبل الصرفند التي تقوم في مكان زارفييت Zarerpath في العهد القديم، او سريبتا Sarepta في العهد الجديد. واليوم لا شيء تقريباً يشير الى المكان القديم الذي اقام فيه لفترة اليشع والى الأرملة الطيبة حيث بارك الزيت في ابريقها. فالمكان القديم المفتوح من دون أي حماية طبيعية آكل منذ زمن طويل الى الخراب، وانتقل سكانه الى مكان جديد يبعد حوالي الميلى الى الداخل، في حماية التلال التي أعطوها اسمهم، بعيداً عن غارات خيالة البدو. وكل ما تبقى من زاربيت القديمة هو بضع أكوام من الحجارة، فالجزء الاكبر منها نقل الى بيروت لأغراض البناء. ومع هذا، فهناك مقام صغير لولي يسمى «الخضر»، أو الاسم العربي للقديس جورج، الذي هو قديس وولي للمسيحيين والمسلمين في آن، ويظن ان الولي هو الذي خلف الصليبيين على القصر الذي شادوه في المكان نفسه الذي كان بيتاً لأليشع. ويغدو الاهتمام بالمكان مضاعفاً حين نفترض (احتمالاً ودون اية مستندات تاريخية دقيقة) ان سريبتا هذه قد بوركنت ليس فقط بأليشع وانما بالرب نفسه حيث جرت فيها حادثة الرحمة بابنة المرأة السورية - الفينيقية. فما نعرفه تاريخياً هو أن القرية التي زارها هي في مكان ما على الشاطئ بين صيدون وصور. ولأن الرواية تقول أنها وراء صور، فسريبتا هي الوحيدة التي تمتلك هذه المواصفات. وأوليس طبيعياً الافتراض ان الرب قد زار المكان الذي اقام فيه أليشع

طويلاً؟ وفي كل الاحوال فإن سكان الصرفند المحدثين قد نقلوا معهم الى موقعهم الجديد المكان المقدس، اذ في وسعهم أن يسيروا اليوم إلى منزل الأرملة والمكان الذي التقى فيه الرب الأرملة السورية - الفينيقية. ويبقى أنه ما من شيء ثابت سوى ان المكان كان، حتى أيام الصليبيين في جوار الشاطئ.

ونتقدم، على طول السهل الساحلي الخصب ولكن القليل الزراعة، صوب صور. ويأخذك التاريخ بعيداً فتحار كيف أمكن لهذا المكان المقفر أن يكون أحد أهم المشاغل التي صنعت فجر الحضارة، لكن البربرية وشرعية القوة عادت بالفينيقيين نحو الجبال الصخرية، فبات على الفلاح، الذي غادر السهل الى الجبال سعياً وراء أمنه، ان يصرف نصف نهاره في قدومه الى السهل او رواحه منه عند المغيب حاملاً عدته على كتفيه.

تسير الطريق الى صور على حافة شاطئ البحر ومن دون ان تمر بقرية واحدة لاشيء سوى اضرحة واعمدة قديمة تطالعك بين الفينة والفينة. ونمر ببضع سواقٍ صغيرة الى أن نصل الى ضفاف القاسمية، او ليوننتيس Leontes قديماً، والذي مازال في جزئه العالي يحمل الاسم عينه، الليطاني. ننعطف عند القاسمية الى الداخل قليلاً لنمر في بقايا

طريق روماني باتجاه احد الجسور القليلة التي نجت من الاهمال والخراب. وبخلاف ما سبق، يبدو السهل والوادي عند القاسمية مستثمرين على نحو حسن، وتقوم حقول وبساتين وخضرة واضحة. وبالقرب من النهر خان بحالة جيدة، لخدمة العابرين، كما تنتشر في الوادي بضع قرى، احداها جنوب الجسر تماماً ولأن مجرى النهر عميق عند



المسافة المباشرة من سريبتا الى صيدا، هي عشرة أميال، عبر الخليج، الى اليمن يحجبها الشجر آثار على تل البراق Burak Tell، وقريباً منها خان البراق. وفي البعيد القمم المغطاة بالثلوج في جبل لبنان. ميناء صيدا من سريبتا

هذه النقطة والمياه غزيرة، كان وجود الجسر أمراً لا مفر منه، فكان من الضروري بالتالي إعادة بنائه وهو ما لا يحدث كثيراً في هذه البلاد.



جسر على نهر الليطاني (القاسمية)
على الطريق الروماني القديم، تمر عنده اليوم اسلاك التلغراف والقسم العالي من النهر
يدعى الليطاني.

ومن القاسمية لا يحتاج المسافر الى أكثر من ساعة واحدة من الزمن ليصل الى
صور Tyre ، العاصمة التاريخية للفينيقيين. إلا أننا أضعنا نهراً كاملاً في استكشاف

الجزء الوعر من مجرى الليطاني، حيث يشق النهر طريقه في سهل غني بزراعة الحنطة، ولعدة أميال، قبل أن ينعطف فجأة وفي زاوية مستقيمة بعد اصطدامه بهضبة صخرية هي جزء من الهضاب المسماة حائط الجليل. ومعظم السهل خالٍ من الشجر، بينما يملأ شجر الدفلي ضفتي النهر، إلا أن السهل غني بالحنطة وخصوصاً في الضفة الشمالية للنهر. وتقوم على أطراف السهل عند حفاقي التلال بقعة أخاذا يملأها شجر الزيتون بظلاله الباسقة بينما تقوم خلفها عند أقدام المنحدر قرية جميلة. ولا يحتاج الوصول الى التلة أكثر من نصف ساعة من المشي إلا أن تسلق منحدرها بدا صعباً على الخيل، وبشق النفس. ومع ذلك فالمشاهد الرائعة من على التلة كانت تستحق بالفعل هذا العناء؛ إذ تناثرت مجموعة قرى حول التلة، وأبعد قليلاً كان منظر السهل والشاطئ والبحر ساحراً. تبعد القرى تلك، واحدها عن الأخرى، ثلاثة أو أربعة أميال، واللافت أن أسماءها مشتقة من العبرية مثل راسية، وزرارية وزارا، وعتشيت، وشوكين وما شابه.

ورغم أهمية المنطقة، إذ استوطنتها قبيلة آشور، ومع ذلك ما من بحث قد كرس، حتى الآن لتعيين هويتهم خلا الاسماء القليلة التي وردت في كتاب جشوا. وتحيط بكل واحدة من القرى تلك غابة من شجر التين تمنح تلك الجبال بعض الخضرة في الصيف، لكنها تعود عارية شتاء، وفي ساحات العديد من تلك القرى بقايا حصون أو أسوار فينيقية قديمة.

كان كل ما في المنطقة، خصوصاً اذا تقدمنا أكثر، يوحي بأننا في جيرة الليطاني، ومع ذلك فقد خلا الكتاب المقدس من أي إشارة الى النهر، رغم أنه الأكبر بعد نهر الأردن. ينبع الليطاني بعيداً الى الشمال قرب بعلبك، وينابيعه كما ينبع

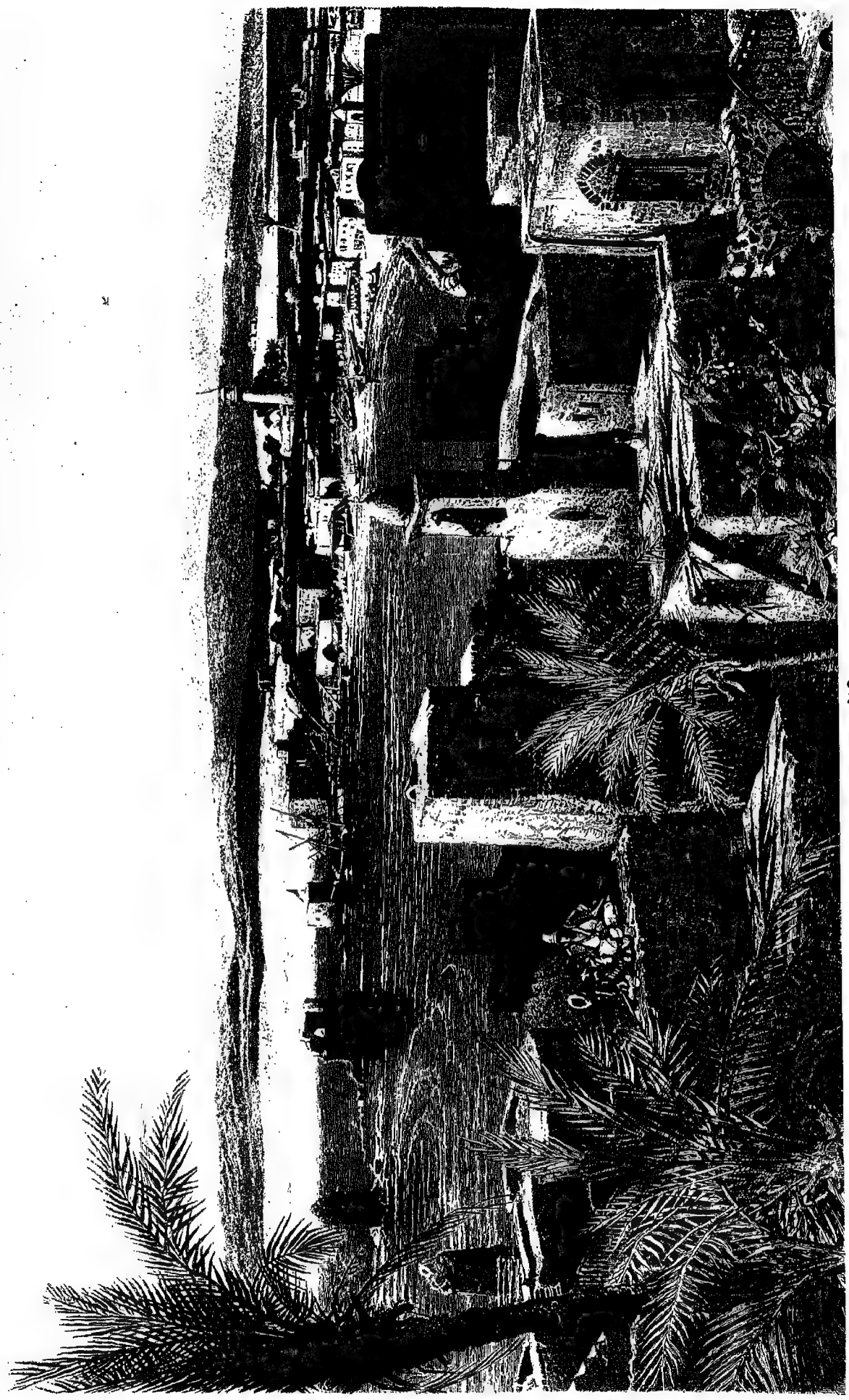


وادي الليطاني قريباً من الشاطئ ونهر القاسمية طليق
هنا ويصل البحر في مجرى عريض

الأردن والعاصي هي في ذلك السهل الفسيح
الذي يفصل بين سلسلتي جبال لبنان (راجع
الخارطة الصغيرة ص ١٢). وفي وسعك أن
تقف على قمة من قمم لبنان فتشاهد من المكان
نفسه منابع الأنهر الثلاثة معاً. ومع ذلك فما
من أحد يستطيع أن يفسر على نحو دقيق لماذا
تتجه مجاري هذه الأنهار، كل في اتجاه
مختلف. فالليطاني والأردن يجريان جنوباً

على نحو متواز أولاً، ولعدة أميال بينما يتجه العاصي، على نقيض
ذلك، شمالاً. والهضبة التي تفصل بينهما تعلو بالتدريج مكونة
حوضاً مائياً يفصل لبنان عن حرمون، وتمتد إلى أن تتصل

بالمحدرات التي يبدأ منها ما يسمى بحائط الجليل، حيث ينعطف الليطاني بعد اصطدامه بها غرباً. بعد أن يتجاوز النهر
واديًا عميقاً جداً وقبل أن يصل إلى قلعة الشقيف، يصطدم الليطاني بحاجز جبلي هو جزء من السلسلة التي تتفرع
شرقاً وغرباً. ولأن لا مهرب آخر للنهر الذي يصطدم على نحو مستقيم بالجدار العالي فهو ينعطف غرباً في زاوية
مستقيمة حافراً مجراه الضيق عميقاً وعلى نحو لا يراه العابر حتى يصل إلى حافته، في ما يشبه الاستدارة حول
الجبيل. وتخلو المنطقة التي تقع شمال النهر من التلال العالية أو الوديان العميقة وذلك بدءاً من الهضبة الواقعة فوق
مصب القاسمية (أو الليطاني في قسمه العالي، وهو الاسم الفينيقي الأصلي قبل أن يحرفه اليونانيون إلى اليوننتس)
وخارج الشقيف والسلسلة الجبلية التي تحتوي حوض الأردن.



صور

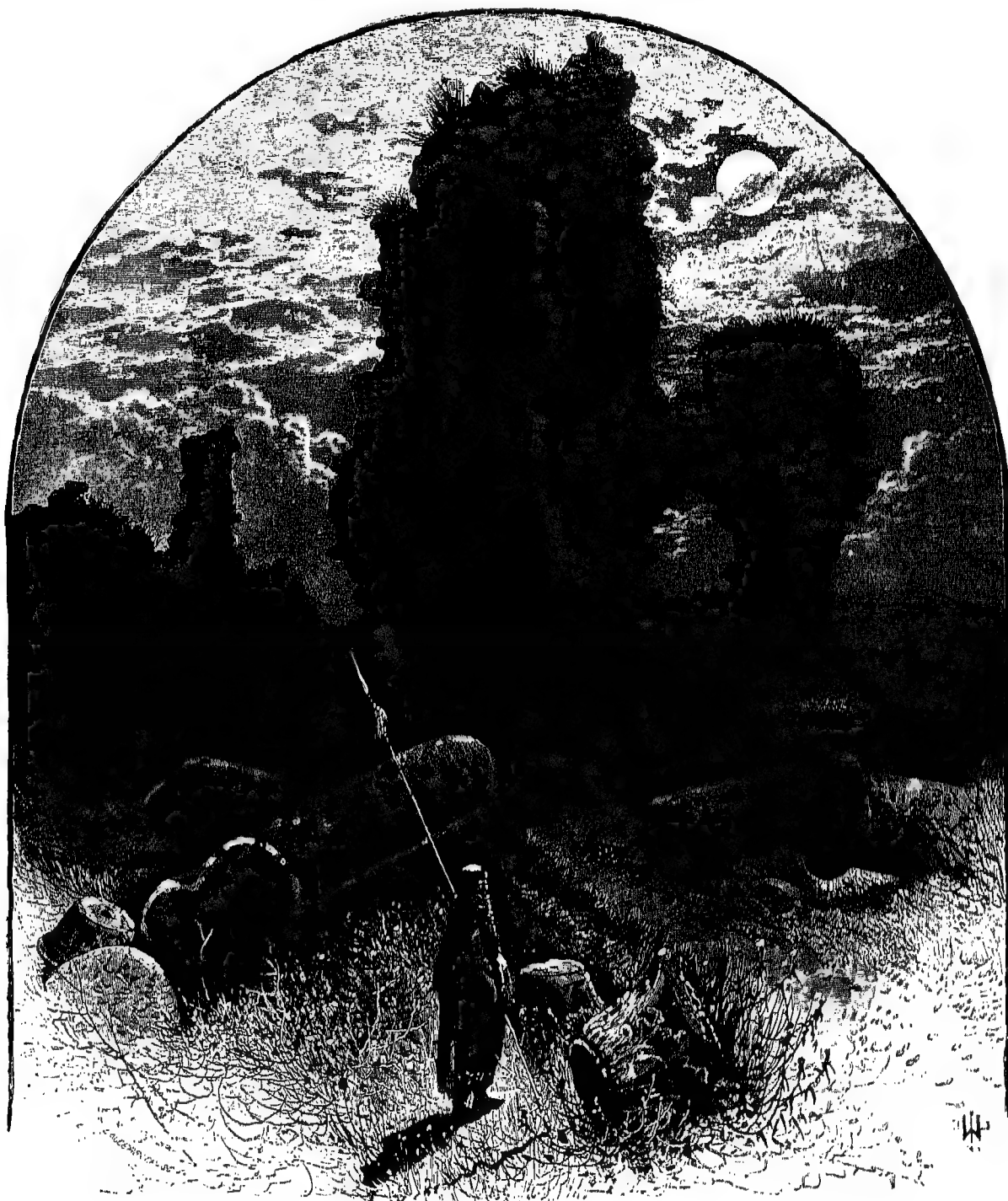
ونترك مجرى الليطاني الى السهل الفينيقي من جديد الذي يمتد الى حوالى ستة أميال أخرى على طول الساحل وبين كثبان رملية تتفاوت كثافتها. ولا يقطع هذا الشاطئ غير رأس سربتا شمالاً، يشكل أحد طرفي القوس بينما تشكل صور طرفه الجنوبي الآخر.

لم تعد صور جزيرة، كما كانت، وانما هي الآن شبه جزيرة تدخل في البحر، حتى الشمال، وأتى أتيها من الشمال أو من الجنوب. ويربط شريط من الرمال الميناء بالسهل، والذي غدا أخيراً واحة من بساتين التوت والليمون والأشجار المثمرة الأخرى، على خطى بساتين سهل صيدا. لكن الواحة لاتصل الشاطئ، بل تبقى الى يسارنا؛ بينما الشاطئ على يميننا ركام أعمدة وأخشاب وهياكل زوارق صدئة كأنما انواء بحرية عنيفة دفعتها الى الشاطئ. وفي مواجهتها تماماً ينبوع ماء يضلله مبنى قديم يقوم على قناطر ويحتوي على برك ماء يغذيها ينبوع، وهي منتزه هذه الجهة من المدينة. كانت صور قبل عشرين عاماً بلدة صغيرة خربة، مهمة؛ ورغم ان شيئاً من ذلك ما زال موجوداً إلا أنها أفضل حالاً في اسواقها ومتاجرها وفي تعداد سكانها الذين يبلغون الآن سبعة آلاف ساكن. وعلى جانبي المدخل الشمالي للمدينة، حيث دخلنا، محلات وورش حرفية صغيرة، كما يشاهد عدد من زوارق الصيد في الميناء الداخلي. ويمتد سوق لا بأس به فيه القماش، والجلد المدبوغ، والمطاحن من حوران، وهي تشكل مع التبغ عنصر التجارة الأساسي في صور. ومعظم الصوريين يجد رزقه في صيد السمك، وبعضهم يعمل في الدباغة، رغم ان الصباغ الصوري القديم لم يعد موجوداً كما انك لن تعثر البتة على الأرجوان الصوري. والشوارع في معظمها أزقة بائسة، خلال مكان هنا أو هناك يتسع فيه الطريق وتضلله سعف النخيل بينما تتناثر بين الاعمدة الغرانيئية والحجرية الضخمة أكواخ بلا نوافذ، ارضيتها من طين، وفي حال بادية من الفقر والفوضى. والشريط الرملي الذي يصل الميناء بالبوابة هو الممر الذي ربط به الاسكندر الكبير المدينة بالبر. فصور جزيرة في الأساس مساحتها ١٢٥ هكتاراً تقريباً، وتبعد عن الشاطئ حوالى الميل، حيث كان الجزء الأكبر من المدينة «باليو تيرس» Puleotyris. ويمكن الى الآن مشاهدة أجزاء من جدران المرفأين القديمين على جانبي شبه الجزيرة الشمالي والجنوبي، ويتكون معظمها اليوم من مساحات مترامية تصلح ان تكون، وبخاصة الى الغرب من المدينة الحديثة، مكاناً مثالياً تنصب فيه الخيم على بعد ياردات من الموج. وعلى حفاقي الاعمدة الغرانيئية والحجرية الضخمة التي تنكسر على صفحة الماء فتصل قعر تلك المياه الصافية.

وأثار صور البادية فوق المياه قليلة في الواقع، فخلا جدران المرفأين هناك القليل مما يذكر بعظمة ماضي صور الفينيقي وسلطانها، قبل أن يقهرها الاسكندر الكبير.

هناك بناء واحد، فقط يعيد الى ذاكرة العابر قصة سيدة البحار وملكة التجارة وام الممالك القوية. تحتل كاتدرائية الصليبيين موقعاً استراتيجياً عند الزاوية الجنوبية الشرقية للمدينة المنكمشة على ذاتها الآن. ورغم ان المبنى هو من دون سقف وطرفه الغربي مدمر، فإنه ما زال عموماً في حالة ممتازة نسبياً. والكاتدرائية هي أكبر الكنائس التي تركها الصليبيون في سوريا وهي أقيمت في موقع بناء أسبق عهداً هو باسيليكاً قسطنطين Pasilica of Constantine. وقد حصلت الحكومة الألمانية قبل بضع سنوات على حق حماية الكاتدرائية وكان ذلك أمراً حسناً وسبباً لحمايتها من العبث والتدمير. كما أنهم قاموا ببعض الحفريات، داخلها وجوارها، وجرى الكشف على مجموعة انجازات معمارية. ويضع كونت دي فوغ، واضع أول مرجع ثقة في العمارة السورية، تاريخ بناء الكاتدرائية في حدود سنة ١١٢٥، وموقوفة الى سانت مارك. الا ان تاريخ البناء يبدو أقدم من ذلك بكثير. فالكنيسة الأصلية بناها قسطنطين، حيث كان بولينوس مطراناً عليها، وحيث كان للمؤرخ اسبيوس، كما يرد في تاريخه الكنسي خطاب إحتفالي في مناسبة رسم بولينوس مطراناً يقول انه لتكريم شخص خاص ذي عقل منفتح. وفي الكنيسة تلك ترقد عظام الأب العظيم للكنيسة أوريجن Origen. ولكن الكنيسة القديمة آلت في سنوات الفوضى الى دمار ودون ان نعرف تحديداً ماذا حدث، الى أن أقام الصليبيون كاتدرائيتهم في الموقع نفسه. يبلغ طول المبنى ٢٥٠ قدماً وعرضه ١٣٦ قدماً ورغم اننا لم نتجرأ على نقض قرار دي فوغ، فإنه من الواضح لكل من يراها أن إعادة البناء انما تمت وفق خطوط الكنيسة القديمة ذات النمط اليوناني الباسيلي وليس على النمط اللاتيني. فهناك ثلاثة نقوآت بارزة عند الطرف الشرقي لا تستطيع الا الحكم انها

مثل الزوايا السفلية للحيطان، من بقايا البناء الأصلي لقسطنطين، وكانت الأكواخ، ولبضع سنوات خلت تملأ الفناء الداخلي لكنها أزيلت الآن ولم يبق سوى قطع الأعمدة الغرانيتية الحمراء التي كانت تحمل السقف. ويتراوح قطر هذه الأعمدة، وبعضها مزدوج، بين ٦ و ٨ أقدام وطولها حوالي ٢٦ قدماً، إلا أنها اليوم مجرد بقايا أو حطام ومما لاشك فيه أنها هي نفسها قد انتزعت من قبل قسطنطين من أبنية أو هياكل هي أقدم عهداً. ورغم أن بعض هذه الأعمدة قد أزيل، غير مرة، من قبل المسلمين، إلا أنها كانت دائماً أقسى من أن تكسر بسهولة واثقل من أن تحمل إلى أماكن أخرى. أما عن



آثار كاتدرائية صور

ويصف إيسبيوس البناء بأنه الأجل بين هياكل فينيقيا، وبين الآثار عامود مزدوج من الغرانيت الأحمر، إلى الأرض، مع تاجين متوازيين ضخمين.

موقع أوريجن القديم فما من شيء بقي منه أو يذكر به. ويعتقد أن بعض جثمان فريدريك بربروسا هو تحت إحدى هذه النتوءات. فقد مات الامبراطور في طرسوس Tarsus وجرى لجثمان هذا القائد الصليبي العظيم احتفالات دفن على طول الساحل السوري إلى أن دفن في انطاكية، لكن عظامه حملت لتدفن في مكان أبعد ضمن الأراضي المقدسة. قليلة هي بالتأكيد الكنائس التي تنافس كاتدرائية صور في تاريخها العريق هذا.

ومع هذا تبدو الكنيسة، اذا تسلقت أحد جدرانها القديمة وأطلت على كثبان الرمل والبحر وبقايا الأعمدة البنية الى يميننا، وكأنها تنتمي الى الأمس فقط قياساً بالتاريخ السحيق الذي يطل من كل زاوية هنا. فمصر وآشور أقدم عهداً بكثير؛ ولكن ما صلة ذلك بفينيقياً؟ أين ذلك الشعب الغريب العجيب؟ لم ينزل الفينيقيون اليابسة الا لماماً. فهم مثل بعض طيور البحر التي لا تقارب الشاطئ الا لتطعم صغارها، وقبل أن ترحل من جديد. لم يطلب الفينيقيون أرضاً ولم يستعمروا شعباً ومع ذلك فهم في كل أرض وعلى كل شاطئ. ونسأل أيضاً عن مستوطنات صور وصيدا اين هي؟ فعلى طول ذلك الشاطئ السوري المستقل طويلاً، رغم أنه ما من حاجز طبيعي يحميه، يمكن للعابر اليوم أن يتخيل روح التجارة والمغامرة التي ملكته في الأزمنة الخوالي، وأن يشتمها او يراها في وقع خطوة على الرمل هنا، او في عامود او بقية كتابة هناك، او في الجزر الصخرية التي تضرب عمقاً داخل البحر. وكما لقلق البحر وقف عليها الفينيقي او استراح عندها، لبرهة من الزمن بين مغامرة ومغامرة. ومثل صور في جزرها الصخرية وريفها البحري، مثل صيدون وبيروت وجبيل وبوطرسيس وتريبولي وارادوس (او صيدون وبيروت وجبيل والبترون وطرابلس وارواد في اسمائها الحديثة)؛ معظمها يتشابه في الموقع وثلاث منها جبيل، والبترون، وطرابلس، هي كصور في ريفها الصخري الضارب في البحر في موازاة الجبال خلفها. ورغم أن صور هي ابنة صيدون، الا انها نمت بسرعة فغدت سيدة الفدرالية الفينيقية. فبماذا لا تدين أوروبا في مدنيتهما لهذه القرى، اليوم؟ لنعد فقط الى سجلات إيزكيل Ezekiel لنرى المدى والعمق اللذين بلغتهما تجارتهم. كانت صور رائدة صناعة الزجاج فاحتفظت بسرهم وظلت سيدة هذا المجال لقرون. ومن صور حمل بعض الكهنة الحجاج من نورث او مبريا N.Ombrea الزجاج الى انجلترا، واستنبتوا على ضفاف الوير Wear أول أعمال الزجاج في الغرب في أيام السبعية السكسونية Saxon. ومن هنا جاء أعظم الصباغين الذين زخرفوا أقخم الحلل والثياب الملكية، ومن هنا جاء البرونز والحديد اللذان جهزا جيوش العالم القديم. حملت سفن فينيقية صناعاتهم الدقيقة هذه الى بحار لم يعرفها أحد من قبل، وعادت الى الشرق محملة بأخبار عالم يقع خلف أعمدة هرقل. شغل الصوريون مناجم اسبانيا وحملوا سفنهم بتلك كورنوال Corn wall. من هنا خرج الرجال الذين ارتادوا الشواطئ الغربية للمتوسط وزرعوها مستوطنات ومواقع لهم. انها أم قرطاج التي عادت فتفوقت على سيدة البحار، ونافست روما على حكم العالم رديحاً من الزمن. لكننا فوق ذلك كله مدينون بأبجديتنا لفينيقياً. فمن هذه الشطآن حمل قدموس الحرف الذي غزل به هوميروس أشعاره، وغدا الاطار التعبيري لكل لغة في أوروبا.

متى بدأت هذه المدينة العظيمة؟ لا نملك الا القليل لنجيب، إذ لم يبق شيء من أدبها المكتوب خلا بعض النقوش وإشارات على بقايا قطع من عملتها تخبرنا عن ماهية لغتها. في عهد إكسورس (٤٥٠ ق.م) كانت صور، كما يروي جوشوا (29 XIX Joshua) قوية؛ كما كانت معروفة، في عهد داوود، لا ببهارتها الشجعان فقط وانما بفنونها وحرفها كذلك؛ فقد حمل له بحارتها خشب الارز من لبنان وبنى قصره بناؤها ونجاروها. وفي عهد أقرب كان تفاهم بين حيرام وسليمان اللذين ارتبطا بمعاهدة تحالف وتجارة. وقدمت المدينة العظيمة المهندسين والايدي العاملة المهرة الذين اشتركوا في بناء الهيكل، الى مواد أخرى أيضاً. لكن شيئاً لم يبق من صور الايام الغابرة تلك خلا بعض جدران مرفأها القديم وحجارة منها. لقد نجت صور وشقيقاتها طوال فترة السيطرة الفارسية من التدمير ومن سوء المعاملة. فقد كان الصوريون اذكياء بما يكفي لتسيير تجارتهم، وعقدوا لذلك التحالفات والمعاهدات المناسبة، ونأوا عن كل مطعم في أرض او يابسة، فأمكنهم أن يكونوا منافسين شرفاء ولم يتحولوا قط أذلاء او تابعين. وحتى حين وقعت صيدا في يد الهكسوس، ظلت صور حرة والى ان سقطت في يد الاسكندر بعد حصار دام سبعة أشهر. والعدد الهائل من الاعمدة التي تنتشر على الشاطئ لتشكل وسادة للبحر انما تنتمي كلها لصور الثانية التي قامت من تحت الرماد لتزدهر من جديد حتى نهاية القرن الثاني حينما دمرها باسكينوس نايجر B. Naiger. ثم انتعشت وازدهرت ثانية ولقرون عدة وحتى مجيء الصليبيين. وتحولت صور مع الصليبيين الى أحد اهم مراكزهم الدينية وكانت كاتدرائيتها، كما رأينا بعض آخر مظاهر العمارة الصليبية في الشرق قبل انكفاء آخر وحدة صليبية عائدة الى أوروبا. وكان انبعاث صور الأخير مع الفتح العثماني لسوريا سنة ١٥١٦.

لكن التجوال بين روايات تاريخ صور هو في الحقيقة من باب الفضول الزائد، ففي خرابها وأعمدتها التي تملأ كل مكان شواهد تكفي للدلالة على ذلك الماضي، اما الأعمدة الأسعد حظاً فقد غدت محاجر لعدد كبير من أبنية الساحل وصولاً الى بيروت وعكا. هوذا قدر الأمكنة التي كانت مسكونة ومشغولة على الدوام ان تغدو آثار موتها شاهداً على الحياة التي كانت لها. والشواهد على حياة صور الضاربة في القدم ماثلة أمامك أنى اتجهت. فلو تقدمت أكثر على الشاطئ، وبخاصة عند الجهة الجنوبية للرأس، لبدت الارض كما لو أنها فرشت بقطع لا تنتهي من الفخار والحصى البحري الناعم، بينما الأعمدة العتيقة مرمية في كل اتجاه يعلوها الرمل او يعرش حولها الطحلب والعليق.

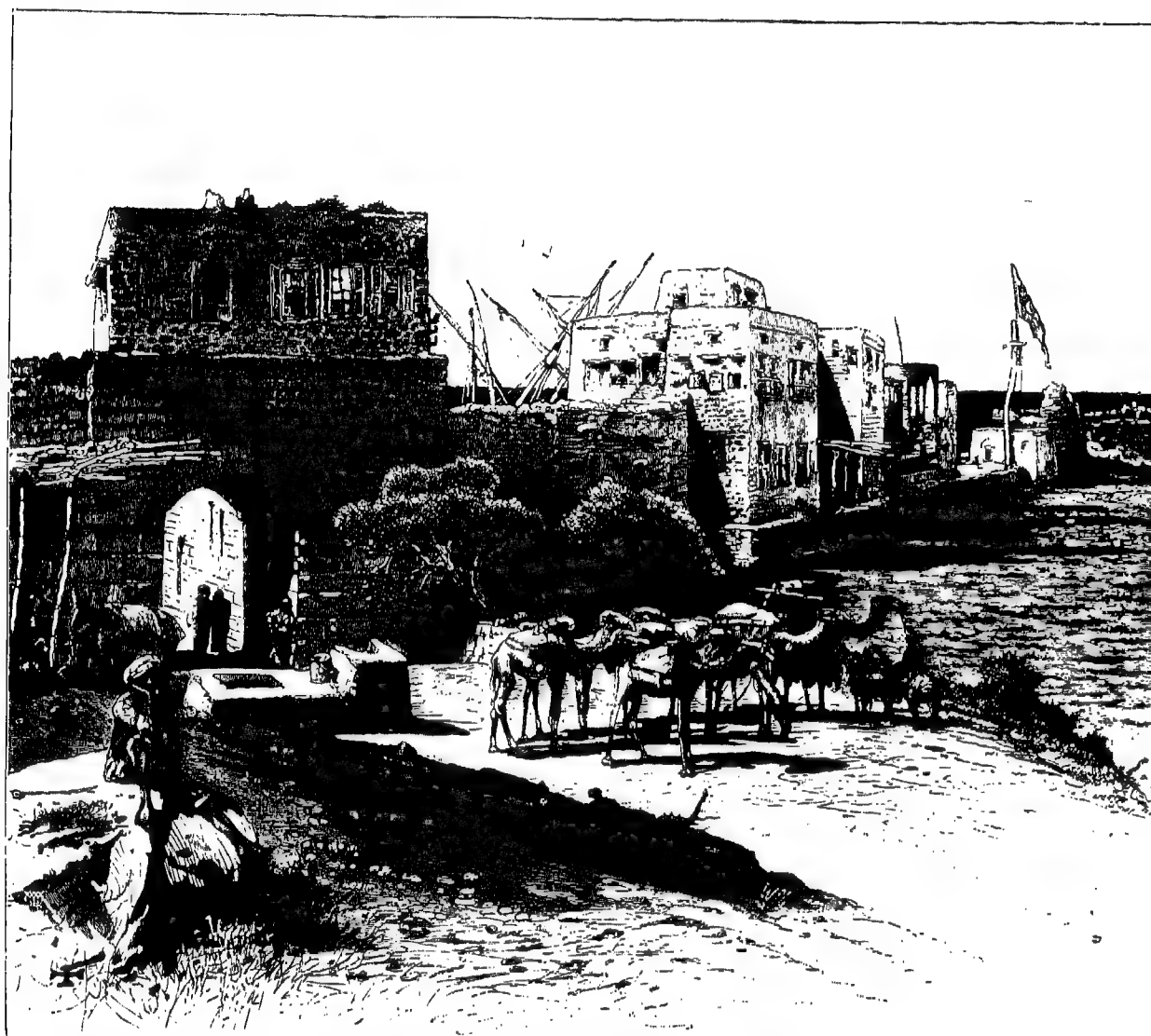


آثار من صور

تعطي مشاهد الجانب الجنوبي فكرة واضحة عن تصميم المدينة القديمة وموقعها حيث القواعد الضخمة والجدران الحجرية الهائلة التي كانت قائمة، وينشر الصيادون اليوم شباكهم فوقها بينما تلامس الأعمدة وقواعدها صفحة الماء كأنما «حجارتها وغبارها في وسط البحر». كانت الجدران الضخمة من هذه الجهة، كما يبدو، بهدف حماية الميناء المصري، كما كان يعرف والذي هو اكبر من الميناء القائم اليوم عند الطرف الشمالي من

الجزيرة، والذي كان يعرف بالصيدوني، ويحتمل ان الشريط الرملي الواسع القائم اليوم جنوب ممر الاسكندر انما كان أرصفة لرسو السفن ومنشآت لأغراض التحميل والتفريغ والخزن. وكان المرفأ في البدء شريطاً ضيقاً إلا أنه اتسع تدريجاً بفعل الركاب والاضافات والمياه الضحلة حتى غدا في اتساع الجزيرة نفسها او يكاد. حدث هذا التحول في زمن قديم مضى، إذ يقوم عند الزاوية الجنوبية الشرقية، وفوق ما كان يوماً بحراً، ما يسمى ببرج الجزائري وهو امتداد من التحصينات المتهدمة والتي كانت قد ابتليت من مواد مباني وانشاءات أقدم عهداً، رغم أنه هو نفسه يعود للحقبة

الصليبية بل ربما كان جزءاً من خطوطهم الدفاعية . ويحتمل أن البوابة الحالية تقوم هي أيضاً على موقع يعود الى العصر الوسيط، ورغم الحراسة التي مازالت عليها إلا أنها تبدو الآن رمزية أكثر مما هي واقعية، فأجزاء صغيرة فقط من السور المحيط بالمدينة مازالت قائمة، والمكان مفتوح في كل المواقع وإلى كل الاتجاهات، ويمكن القول أن كل شارع في صور ينتهي في الواقع إلى مخرج يقود إلى خارج السور. وإذا تجولت بين خرائب صور يمكنك أن تلاحظ فوراً أن



بوابة صور
هناك ينبوعا مياه عذبة عند الطرف الشمالي من شبة الجزيرة، احدهما بالقرب
من البوابة ويظن أنهما يتصلان بينابيع رأس العين .

هذا المكان قد استخدم جيلاً بعد جيل محجراً تقتلع منه الحجارة لأغراض البناء. ولقد رأينا بالفعل في موقع ملاصق للابنية الحديثة حفرة على عمق حوالي ١٠ أقدام استخدمت كمقلع لحجارة البناء. ورأينا عند هذا العمق جدراناً قديمة واعمدة مكسورة وعناصر أخرى من انشاءات أقدم زمناً، مما يعني ببساطة ان صور القديمة، صور احيرام وسليمان، لا بد من أنها مدفونة تحت هذه الجدران أو أعمق بقليل .

ثم تابعتنا جولتنا فلفتتنا أكوام على السهل غير بعيدة عن الشاطئ، فإذا هي أكوام من الاصداف البحرية من نوعين او ثلاثة أنواع Murex brandaris و Murex Trunculus ومن النوع الذي يستخدم في بلاد الشمال، في الدنمارك مثلاً، لأغراض الاستخدام في المطبخ، ولكن طبعاً من دون الاحساس العميق بالتاريخ. أما هنا فهذه الاصداف شاهد على صناعة متفردة كانت لصور. كان صباغ الأرجوان ينتزع من السمك او الحيوان البحري المقيم في هذه الاصداف، نقطة واحدة من كل صدفة، أو يكون غريباً بالتالي أن يكون هذا اللون غالي الثمن؟

ثم نسير في الجهة الجنوبية باتجاه برك رأس العين، حدود صور القديمة او باليوتيريس Palio Tyrus وكان الاعتقاد السائد دائماً أن صور البحرية هي الأصل، مع انه في وسعنا الشعور بعد جولتنا أن الجزيرة كانت مسكونة ومحصنة ومركزاً تجارياً رديفاً للمدينة البرية. تبعد رأس العين عن قلب المدينة حوالى أربعة أميال ونصف الميل أي



برك رأس العين وجزء من القناة الرومانية.
عند هذا الموقع كانت تقوم باليوتيريس والتي لم يتبق منها شيء اليوم فموادها جرفها الاسكندر
لبناء الممر الذي ربط صور البحرية باليابسة.



مسافة ساعة من الزمن. تنتشر المدينة البرية على طول الشاطئ في جانبه، لم تكن صور هنا مقفلة، بل كان هناك تداخل مع الضواحي، لذا كانت البساتين وأشجار الفواكه تنتشر باتجاه التلال. لكنها زالت كلها تقريباً والباقي مزروع بالحنطة أو مهمل. وفي إمكاننا أن نتبع اليوم القناة التي كانت تجر المياه من هذه الينابيع إلى الجزيرة. ورأس العين نفسها هي مجموع لوحات جميلة، من آثار ومطاحن مائية واكوخ وأشجار تنعش الجو والينابيع متعددة وغزيرة. ويبدو أن مجاري المياه الداخلية في طبقة الصخر الرملي في المنطقة تتركز باتجاه هذه البقعة لتظهر من ثم في قوة واندفاع. ويتجمع الماء في برك صخرية، الواحدة منها محفورة أو مبنية حول نبع كبير تصب فيها كميات ضخمة من المياه وباندفاع واضح. والهدف الأصلي من هذه الانشاءات، والتي تذكر ببرك سليمان قرب بيت لحم هو دفع المياه إلى أعلى، وتحديداً إلى ارتفاع يكفي، كي تصب في القناة الرومانية. ورغم أن القناة

قناة، رأس العين
سراسنية Sarsenic، على عقود مقوسة قليلاً
تكاثر الخضرة تخفيها.

مدمرة الان إلا أنه يمكن استعادة الخط الذي كانت تسلكه عبر السهل حيث تتجه أولاً الى المدينة البرية في مواجهة الجزيرة فتصل الى ما هو اليوم ركام ضخمة من الحجارة يحتمل أنه كان خزاناً آخر، تنطلق منه القناة من جديد غرباً صوب الشاطئ وحجارة القناة ونوع القناطر التي تستند اليها يدلان الى انها انشئت، على الأرجح، في الحقبة الرومانية، إلا أن خزانات المياه الضخمة يمكن أن تكون عائدة الى فترة أقدم عهداً فبعض الكتابات القديمة والوسيلة تنسب بناءها الى الملك سليمان بينما ينسبها محدثون آخرون الى الاسكندر. إلا أنه يصعب تصور أن الفاتح الكبير الذي عاندته المدينة طويلاً قد وجد من الرغبة او الوقت ما يكفي لإنشاء مثل هذا المشروع الضخم. عندنا، بالمقابل غير دليل على ان هذه الانشاءات هي شاهد صامت آخر على عبقرية الفينيقيين القدامى، كما اني لم أرَ عملاً مماثلاً شاده الرومان في اي مكان آخر. واحتمال أن الرومان هم الذين بنوا هذا الإنجاز المعماري، إحتمال يمكن قبوله على قاعدة أنه أنشئ على قناة سابقة، لأننا أكيدون ان العمل الذي كان ينجزه كل من يحاصر المدينة، مصرياً كان ام آشورياً، فارسياً يونانياً او رومانياً، هو تخريب امدادات المياه قبل التفكير بجرها. إلا أن هناك في الواقع قناة واحدة تعود الى حقبة متأخرة الى العهد الصليبي، وهي تبدأ من الخزان الرابع الأصغر، ولها قناطر ذات أطراف حادة، وكانت بغرض ري السهل اما الخزان الأكبر فهو سداسي الشكل قطره ٦٦ قدماً وارتفاعه ٢٥ قدماً وجداره مغطى بطين كثيف، ويميل الى الداخل بلطف من القاعدة الى القمة حينما يصعب عرض الحائط حوالى ٨ اقدام. وقد جرى تثبيت حجارة الجدار على هذا الارتفاع الهائل بأنقى وأقصى أنواع الطين المعروفة. كان الماء ينقع بالكس ثم تطلّى به حيطان الخزان، وكذلك الصواعد في محيط الحوض والدرجات وداخل قناة الجر. اما الاستعمال الوحيد المتبقي لتشغيل اليوم من ذلك العمل الضخم فهو دواب مائي لمطحنة حنطة مجاورة بينما تجري المياه عبر او فوق الاجزاء المتهدمة لتضييع في البحر. ولقد جرى ذكر هذه الينابيع للمرة الاولى في سجلات صور القديمة حين خربها شلمانصر بعيد ارتداده عن حصار المدينة مما يشير الى أهميتها في ذلك التاريخ المبكر. وكانت المياه تستخدم في العهد الصليبي، لري السهل بكامله الذي كان مزروعاً بمختلف انواع الاشجار المثمرة وخصوصاً قصب السكر وعلى نحو يخالف تماماً حال السهل الراهنة.

ولكن ما كان حال هذا السهل وحال صور القديمة في أيام اسرائيل؟ كانت حصون صور مبنية لا تغلب واساطيلها تحكم البحر، وقصور امرائها التجار تنتشر خلال السهل لأميال عدة نحو الجبال (لم تمتد التحصينات الى باليوتيريس) وحيث الثروة والفن لبناء وتزيين اجمل القصور والحدائق والممرات في صور التي «أكمل البناؤون جمالها» فبلغوا بها ما لم يجر بلوغه من قبل. الإبنوس والعاج، والجواهر من الهند، والحلي من الشرق والتنك من كورنوال Cornwall والذهب من ترشيش، التوابل من الجزيرة العربية والكتان من مصر، والفضة والحديد والرصاص من أقاصي الأرض، والمرجان والعقيق من سوريا، والقماش من بلاد ما بين النهرين، وغيرها وغيرها، من كنوز صور القديمة أم التجارة وزينتها. لكن صور تلك «أفلت شمسها آلان وشمس تجارتها ولم يبق غير آثار والاعمدة المنكسرة في البحر» ورغم هذا الشعور بالحزن الذي يسكنك بين أطلال صور فما من شيء ابهى، ربما، من نزهة ليلية، في ضوء القمر من رأس العين الى صور بينما الاشعة الفضية تتكسر بعيداً على صفحة الماء التي خلت الآن من عجة الاشرعة وصراخ البحارة ولم يبق غير الظلال السوداء للاعمدة الرخامية تحرس الشاطئ، أو تنوح، في ضوء القمر على عز المدينة الذي انقضى.

وتبقى زيارة قبر حيرام Hiram ويمكن أن تصله ببسرٍ من رأس العين أو من صور نفسها باتباعك مجرى القناة لحوالى الميلىن، ثم تنعطف باتجاه التلال التي تبدأ هنا بالارتفاع تدريجاً فوق مستوى السهل. وبالقرب من قبر حيرام، ناحية الجنوب تقوم قرية «حناوية» تحيط بها بساتين الفاكهة والزيتون مع أضرحة أخرى متناثرة على جوانب التلال. ولقد جرى العثور حديثاً في هذه الاضرحة على مقتنيات وقطع زجاج فينيقية، او على الاقل ما قبل رومانية وغثر هذه السنة بالذات، بينما كان يحفر عند جذع شجرة كبيرة، على أنية زجاجية رائعة، كما هي داخل ضريح صغير ولم تعبث بها الأيدي، مدفون تحت صخر طمره التراب والركام. وعلى كل زاوية من زوايا الضريح الأربع كان هناك مدمعة Lach-rymatory، أكبر من الطراز الروماني المتأخر مع عنق أكثر طولاً. وعند الجزء العلوي من الضريح ركز صحنان مسطحان

قطر أحدهما ستة انشات والآخر اثنا عشر انشاً، لأضحيات اللحم والخبز للميت وكأس قديمة فخمة للخمرة.



والأضرحة في هذه التلال تعد بالآلاف، إلا أنها وعلى توالي الأيام فتحت ونبشت مرة بعد مرة، وبعضها شغل في حقب متباعدة ومتعاقبة، إذ أننا نجد على سبيل المثال أضرحة فينيقية تعرف فوراً من نمط حجارتها أضيفت لها واجهة رومانية أو يونانية بأشكال مختلفة، وأفاريز للتماثيل، كلها مضافة إلى الأصل. وكشفت حفريات أرضيات بعض الكهوف عن أضرحة واسعة تتسع للجسم المدفون لكنها غير دقيقة النحت كما أن هناك اخدوداً رفيعاً على القسم العلوي من جوانبها بهدف تثبيت الغطاء الخارجي. وفي الضريح ناووس من الرخام النقي يعود إلى عهد متأخر. وحينما تفحصنا الضريح ثانية وجدنا إلى الإضافة السابقة، إشارات مسيحية تعود إلى حقبة مسيحية روما الصليب المتساوي الأضلاع مع رموز مقدسة في غير صورة وشكل (مثل هـ و وما شابه).

قبر حيرام
وخلفه قرية حناوية، ولحمة من شبه جزيرة صور
كما تظهر من هذا المكان.

إلا أن الأكثر أثارة للاهتمام هو بالتأكيد ضريح أو قبر حيرام Hiram ، كما هو شائع هنا، بالقرب من قرية حناوية الصغيرة. يقوم الضريح وحده إلى جانب الطريق عند حافة الهضبة، وخلفه حقول حنطة وأمامه بعض البساتين، ولا يملك أحد اثباتاً قاطعاً حول ما إذا كان هو حقاً قبر الملك الفينيقي أم لا. إلا أن الدليل الساطع على قدمه هو بساطة بنائه الزائدة

التي تختلف عن الأضرحة العائدة لعهود الإغريق والمشغولة باتقان ودقة. وبالمقارنة مع مجموعة النصب الموجودة في سهل عمريت Imrit في شمال سوريا، وماراثوس القديمة في مقابل أرواد، يبدو أنها تشترك جميعاً في خلوها من النقوش. ويثبت رينان أنها تعود كلها إلى حقبة أقدم بكثير من عهد الاسكندر الكبير. لكن ما يجمع النصب الأخيرة هو اشتراكها مع مواصفات تجعلها متأخرة زمنياً عن عهد قبر أحيرام، رغم أنها تستمد منه نمط بنائها الأصلي. والاستنتاج الذي يخرج به من يقارن لأول مرة أضرحة ماراثوس بضريح صور، هو أن بنائي أضرحة ماراثوس كانوا على بيئة من نمط بناء ضريح حيرام بينما هم سابقون للبناء الإغريقي أو السوري الإغريقي ولا فكرة لديهم عن شكل أو نمط منحوتاته. يتألف قبر حيرام ونحبه أن ندعوه كذلك، من ناووس حجري ضخم يقوم فوق قاعدة صخرية مكسية، ولكن من دون ذلك الميل المعماري الفينيقي أو اليهودي. ويقف القبر في مواجهة البحر وعلى مرأى من صور التي كان حيرام ملكاً عليها. تقوم قاعدة الناووس من ثلاث طبقات من الحجارة الضخمة بحيث تزيد الواحدة منها عن ١٢ قدماً طولاً و ٨ عرضاً و ٦ ارتفاعاً. والطبقة الثالثة، التي تقبع فوق الطبقتين الأولىين، هي الأضخم وعليها وضع الناووس؛ وفيه تجويف داخلي للجثمان؛ وفوقه حجر أصغر حجماً على شكل هرم Pyramid، يضيق كلما ارتفع إلى أعلى. طوله ١٢ قدماً وسماكته ٥ أقدام. وخلف الضريح صفان من الأدراج، أزبلا حديثاً، ويقودان إلى غرفة داخلية ليست تحت الضريح وإنما خلفه تحديداً. ولقد تفحص رينان هذه الغرفة لكنه لم يعثر فيها على نقوش أو تاريخ أو إشارة إلى غرض ما.

وعلى بعد نصف ساعة من قبر حيرام، في اتجاه الجنوب تقع قرية «قانا» التي مازالت تحتفظ باسمها منذ أيام جوشوا (يشوع) Joshua عندما كانت بلدة للآشر Asher. والمنطقة بكاملها ملأى ببقايا النواويس إلا أن هناك إلى ذلك منحوتات فينيقية مهمة وغير معروفة تماماً، على جانب تلة صخرية تتدلى من الشمال عند منتصف الطريق نحو قانا في ما يسمى بوادي العقاب أو الأفيد El Afid وتقوم في المكان مقالع حجازية كانت تستخدم في الأزمنة الغابرة، وتتوزع الصخور في غير مكان، وهي مقطوعة على نحو مستقيم على صفحة بعضها أشكال منحوتة غير دقيقة هي عبارة عن أطر تقترب من النمط المصري، ولكن داخلها يذهب في اتجاه نمط آخر. وعلى صفحة أحد الصخور شكل تسعة أشخاص في قارب، أضخمهم جالس في الوسط يحيط به أربعة وقوفاً من كل جانب، واللباس آشوري أكثرهما هو مصري. والأشكال محفورة على صفحة الصخر من دون أن تكون متقنة النحت أو دقيقة الصنع.

ومن قانا نتقدم أكثر باتجاه الداخل الذي يستحق أن يقضي فيه المسافر يوماً آخر أو يعكس اتجاهه نحو وادي آشور Asher ونفتلي Naphtal إلى أن يصل إلى قلعة تبين المهمة والتي يرجع تاريخ بنائها إلى العصر الوسيط. تمر الطريق على حافة وادي آشور، وادٍ ضيق مع منحدرات حادة متعرجة تتصل بالشاطئ، والممر فوقها صخري ضيق في منتصفه وإلى الحد الذي يصعب معه على راكب حصان أن يتجاوز جملاً محملاً بل في وسعه أن يلامس بعصاه جانبي المنحدر. والمنحدرات من الداخل حادة جرداء تغيب عنها الغابات ويقوم بدلا منها العليق والعشب وأشجار الجودس مزهرة جميعها مع بساط من أزهار متنوعة تختلف تماماً عن تلك الموجودة في اسدرادون Esdaradon والجليل، وتأخذ كثيراً من أنواع نباتات لبنان، وخصوصاً بعض العليق الموجود في شمال لبنان.

وعند نهاية الوادي ينبسط سهل صغير على صخور طرفه الشمالي بعض المنحوتات التي تثير الاهتمام. فعلى جانب المنحدر الصخري منحوتة منعزلة مساحتها حوالي ٣٢ انشاً مربعاً وسماكته ٣٠ انشاً، وهي محاطة بإطار يتصل بخمس درجات، عمق الواحدة منها انشان ومحفورة في الصخر وعلى الحائط الخلفي للإطار أو المشكاة قطعة في الصخر ذات نحت متقن لكنها متأكلة إلى حد كبير. وهناك مجموعة من ٥ أشخاص أو سطهم جالس واثنان واقفان من كل جانب، وفي وضع من يحمل أو يتقدم بهدايا، وفوق اللوحة رمز الأبدية المصري مع الجناحين المفتوحين والقرص والافاعي ورموز أخرى. وكما يلاحظ ففي الكثير من الآثار الفينيقية بقايا أو تأثيرات مصرية، وآشورية في بعض آخر لكنك لن تجد في أي منها ما يذكر أو يشبه بالنمط الحثي.

وحينما نصل إلى آخر وادي آشور Ashur شمالي قرية كفرا، تبدأ لك، إذا تسلقت التلة العالية، مناظر خلابة.



رأس البياض درج صور
من الجهة الجنوبية. يعلو الطريق الصخري بدرجاته المسطحة،
وفي أماكن معينة ما يقارب المئتي قدم فوق البحر



فتحتنا بحوالي ٣٠٠٠ قدم ينبسط الشريط الفينيقي، بينما صور في وسطه تخرج عنفها الرملي نحو المتوسط. وإن ادرت الطرف بدا حرمون وهضاب اللجا، من الشمال الى الجنوب، مع القلعة الكبرى في

منطقة الشقيف ترتفع كمنارة صخرية ضخمة جنوب غرب حرمون. وتلوح الى الخلف بقعة صغيرة من الثلج لتشير الى بداية سلسلة جبال لبنان بينما بدت قلعة تبين على تلة منعزلة لجهة الشرق تقوم كحصن منيع يشرف على منطقة واسعة.

ونعود من جولتنا بين تلك التلال الساحرة الى رأس العين، وبعد نظرة أخيرة على بركها واحواضها واقنيتها نتقدم جنوباً مع الشاطئ لنصل الى المنطقة الصخرية في «رأس البياض» White cape، الذي يشطر الساحل فيدخل حاداً في البحر مؤشراً بدقة الى حدود السهل الفينيقي. يعرف المرتفع الصخري الطباشيري هذا غالباً باسم «درج صور» Ladder of Tyre وهو كذلك فعلاً، لكن الأكثر إلغاثاً فيه هو أن الطريق قد «حفرت عند حافة الجرف الصخري تماماً ومن دون جسر او سياج، معلقة فوق البحر على علو ٢٠٠ أو ٣٠٠ قدم، وكأنه الاختبار الذي يسبق تثبيت رتبة الرهينة. ومن على حافة الجرف يتبدى الشاطئ الفينيقي مهيباً وباعثاً للذكرى. شاطئ رملي ضيق عارٍ، كما السهل خلفه، وإن

رأس البياض
يبدو الشاطئ الصوري شمالاً. وفي أقصى
الصورة برج حراسة تركي، حيث ترفع الرسوم،
وهو يسيطر على الممر في الاتجاهين.

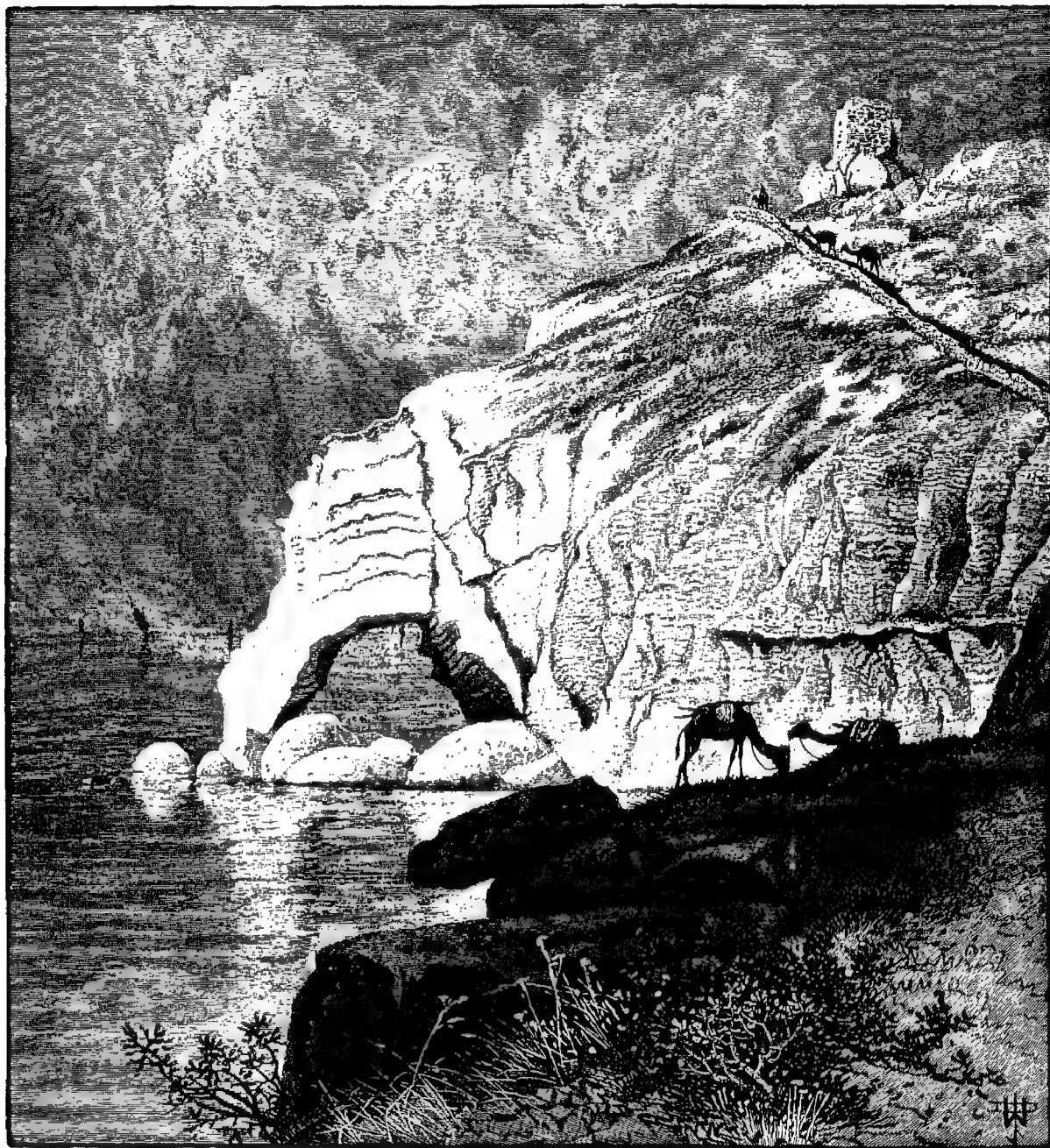
كان الأخير يخضوضر عند أوائل الصيف، وقبل أن يجري صعوداً باتجاه رأس صور. ثم يدخل ثانية في اليابسة ليرتفع تدريجاً حتى رأس الصرقد، الذي يشكل الطرف الآخر للقوس. وتندرج سلسلة التلال فوق رأس البياض بين اللون والنمل، من الأرجواني إلى الأحمر فالأصفر فإلى بياض رمادي حيث نقف الآن. بينما يلوح في البعيد جبل صنين وجبل



ناحية صور من الناقورة
وشجرة زيتون قديمة في مقدم الصورة، وخلفها ضريح اسلامي قديم .

الشيخ تكلهما الثلوج على مسافة تتراوح بين ٤٠ و ٦٠ ميلاً. وينبسط بعد درج صور مسطح صخري ضيق على شكل هلال الى نحو ستة اميال على خط مستقيم او نحو ثمانية أميال سيراً لينتهي عند المرتفع الثاني وهو رأس الناقورة حيث يقع خلفه مباشرة سهل عكا. وبين الرأسين، بعيداً عن الشاطئ قليلاً، تقوم آثار مدينة قديمة لا نعرف كثيراً عن تاريخها خلا أن الاسكندر الكبير قد أقام مخيمه فيها بعيد استيلائه على صور. فنشأت في مكان المخيم بلدة حملت اسمه وما زالت تسمى الى اليوم اسكندرونة. ويقطع شاطئ الخليج هنا مدرج صخري يرتفع تدريجاً نحو

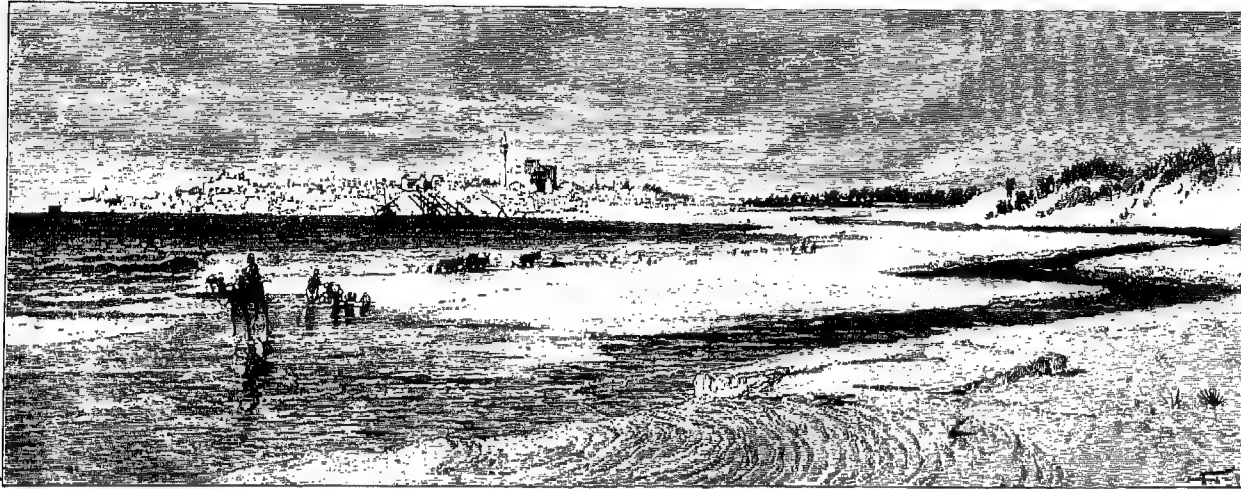
الهضاب. ويقف في خلاء قريب عامود دوريكي، وحيداً، مع بضعة تيجان أعمدة أخرى، كانت كما يبدو من بناء أو صرح ما. وفي مكان أبعد قليلاً تبدو شبه مطمورة عيون رخامية وممرات مرصوفة وبوابات وانشاءات أخرى الى



راس الناقورة.
جرى أخيراً تحسين هذا الطريق الذي يدعى ايضاً « درج صور»
والى الجنوب منها هناك عين ما تدعى « عين المشيرفة»

منحوتات مكسورة على بعض منها رموز عشتروت او الهة القمر. إلا أنه لا نقوش كتابية في المكان كذلك ليس هناك من ساكن على طول الخليج قبل الناقورة. ويمتد الطريق الصخري بمحاذاة الشاطئ ويرتفع رويداً رويداً حتى يداني مرتفع رأس الناقورة، او درج صور الثاني، كما يبدو في الصورة .

وحالما تصل الى قمة المرتفع تطالع العابر فوراً مناظر جديدة أخاذة. يتصل المسطح الصخري بجبل مشافة بينما ينبسط أمامك سهل عكا الفسيح، او على الاقل القسم الساحلي منه وحتى الكرمل. وعلى مدى النظر على مبعده حوالى خمسة أميال زيب Zib، او أشيزيب Achzib القديمة، البلدة التي كانت تشكل حدود آشر القديمة. وأبعد قليلاً الى الخلف بقعة رملية أخرى تتكوكب حولها أبنية عكا التاريخية، أحد الأماكن القليلة في سوريا التي ما انفكت محوراً للاهتمام على نحو متواصل ولأكثر من ألفي عام، والتي يرتبط كل جزء فيها بتاريخ حقبة معينة وتبدو وراء عكا وبالمناظر، بقعة



مدينة عكا من الجنوب.
مصب نهر نعمان، او بيلوس قديماً، ويروى أن صناعة الزجاج بدأت عرفاً هنا.

بيضاء وسط هلال أخضر يتصل بالكرمل وهي «يافا» المتنامية باطراد هذه الايام. أطلينا الآن، وللمرة الاولى، على الكرمل من جهة الشمال. ورغم أنه بالإمكان التقاط حجم الجليل كما هو، الا ان الكلام عليه يبقى دون الأصل جلالاً ومهابة، فبعدما ينحدر الجبل تدريجاً صوب البحر يعود يرتفع فجأة، لجهة الطول، مشكلاً حاجزاً يحجب الأفق لكن المنظر من قرب يبدو ألطف قليلاً، حيث تنتشر خضرة السهل لعدة أميال لتلتقي بغابات الزيتون التي تتماوج كسجادة رمادية زرقاء، وكل غابة منها تحضن قرية في وسطها، مما يعطي نقيضاً لوحشة الساحل الفينيقي.

يمتد الطريق الى عكا في محاذاة الشاطئ، ولكن لا داعٍ للعجلة فأشياء كثيرة تستحق التوقف والتدقيق. وأولى هذه المحطات Zib التي يكفي اسمها سبباً للتوقف عندها. وزيب قرية حديثة أقيمت على ركام من الآثار، عند نهاية واد، هو وادي القرن تجري فيه ساقية تحمل الماء قبل أن يضيق تقريباً في رمال زيب؛ والتي يعتقد أنها كانت قديماً خليجاً صغيراً تلجأ اليه زوارق الصيادين. وتأتي الساقية التي يكثر فيها السمك من هضبة تتصل بالسهل، كواحدة من هضاب الجليل، الا أنها تفصل عملياً سهل عكا عن سهل اسدرالون Esdraelon* وبعد مسيرة اربع ساعات ونصف الساعة من البسامه El Bussah نحو الجنوب الشرقي، نصل الى الحصن المسمى قلعة القرن، او المونت فورث، والذي يعود الى العصر الوسيط. ورغم أن عدد الذين يزورون الحصن محدود، إلا أنه يبقى أحد أهم المعالم الأثرية في فلسطين. هو واحد من سلسلة الحصون القوية التي تمتد من البحر الى حرمون، او الخط الدفاعي الذي أقامه الفرسان الصليبيون ضد اي هجوم يأتي من الشمال. والمونت فورث هو رأس المثلث الذي تشكل قلعتا صور وعكا طرفي قاعدته. والمسير منه لبعض النهار شرقاً ينتهي عند قلعة تبين. وعلى مسافة بضع ساعات منه تنتصب قلعة الشقيف (بلقوارت) التي تسيطر على مجرى الليطاني. والى الجنوب من الشقيف وتبين، ومن على التلة التي تقوم عليها اليوم قرية كوكب الهواء كان بلقوار يشرف على مجرى نهر الاردن والجسر جنوب بحر الجليل وحيث هونين الى الشمال تسيطر على سهل الحولة. وفي مدى النظر كذلك الحصن القوي في صبيح Subeibh فوق بانياس في حصن حرمون

* أو مرج ابن عامر، لكننا احتفظنا بالتسمية كما وردت في النصف [م]

ويحمي المداخل الشرقية باتجاه حوران. كان في وسع كل حصن من هذه الحصون، في معايير حروب العصور الوسطى، أن يحول إذا توفر له الجند الكافي، سداً منيعاً يقطع الطريق تماماً على محاولات الاختراق نحو الداخل.

ولكن ما من واحد من هذه الحصون، على تفاوت حالها اليوم يداني قلعة القرن في الحال الممتازة التي ما زالت عليها. على بعد سبعة أميال من الشاطئ وعلى ارتفاع ١٠٥٠ قدماً فوق سطح البحر و ٥٦٠ قدماً فوق مجرى النهر، يقوم لسان صخري بين فكين عاموديين بعرض لا يزيد عن ٢٠ ياردة وبطول يبلغ ٢٠٠ ياردة ويفصل بين اللسان الصخري والجبل خلفه خندق عميق جرى حفره، ثم جرى إلباس جوانبه، حين بدا ذلك ضرورياً، بالحجارة، كل صف منها منحني، عند اتصاله بصف آخر، إلى الداخل والصف الأخير متقدم إلى الامام بحوالي ٣ انشات، مما يجعل تسلق جدران الحصن أمراً مستحيلاً. وعلى سطح الحصن أربعة أبراج، كل منها موقع دفاعي يمتلك تحته خزاناً واسعاً مستقلاً يكفي حاجته من المياه ولمدة طويلة. ومن ملاحظة الطبقات السفلية من الحصن يتبين انها تعود إلى العهد الفينيقي، ثم جرى بعد ذلك تعزيزه وتوسيعه وربما أعيد بناؤه على أيدي اليونانيين - والسوريين، أو الرومان إلى أن وصل إلى فرسان الصليبيين. والحصن هو في الواقع أحد أهم بقايا تلك الحقبة التي كلف إنجازها أجدادنا العناء الكثير، ثم كلف الحفاظ عليها ما هو أكثر بكثير. ومع ذلك كان كل ما تبقى من تاريخ الحصن هو أن هرمان سيد فرسان التيتونيك قد بناها سنة ١٢٩١. وهم في الواقع انما عززوا الحصون والتحصينات التي كان قد أقامها من قبل الفاتحون الأول، مثل الفينيقيين اليونان، وبلاد ما بين النهرين وربما الرومان في أعمالهم المتأخرة كذلك.

ومن حصن أو قلعة القرن يمر الطريق إلى عكا، ولنحو أربع ساعات، في سهل متموج يملؤه الشجر ينتهي إليه نهر بيلوس في اسمه اليوناني القديم أو نهر نعمان كما يسمى اليوم. وتجري شعاب هضاب الجليل المنخفضة نزولاً تشكل



مدينة عكا من الشمال الشرقي

حاجزاً يفصل سهل عكا عند سهل أسدرلون ومن هذه الشعاب تجري الينابيع التي تغذي قناة المياه إلى الشمال. ويجري نهر بيلوس، بحوضه السبخي، من الجهة الجنوبية الشرقية نحو شاطئ البحر إلا أن مياهه تضيع تقريباً في الرمل وقبل بلوغ البحر.

والسهل حول عكا، وبخاصة عند حفاقي التلال المحيطة، مزروع بقري ذات بيوت طينية ما زال بعضها يحمل اسماءه القديمة ولكن من دون أن يحتفظ من هذا الماضي بأي شيء آخر. وهكذا فأنت تجد إلى الجنوب الشرقي من عكا كبول Kabal جشوا والملوك، وإلى شمالها أمكا Amka أو بيت اميك القديمة، سميريه أو شريفرون ميرون قديماً، عبدي Abdeh أو عبدون، جعفات أو جوتوبايس، إلى سواها وتبدأ شهرة نهر بيلوس من الرواية اليونانية القديمة أن صناعة

الزجاج انما اكتشفت لأول مرة وبالمصادفة على ضفتي بيلوس، وذلك حينما أقام بعض البحارة مخيماً لهم هناك واشعلوا ناراً حينما اتت على حبيبات الرمل والطين احالتها بفعل الحرارة الى قطع زجاجية لماعة. ورغم أنه لا أثر لأعمال مشابهة متبقية هناك لكننا نعرف أن السوريين القرييين جداً من هذا المكان كانوا الصانع الأول للزجاج، والروايات تحمل دائماً قدراً كبيراً من الحقيقة.

وفي وسع العابر أن يبلغ، بعد ينابيع نهر نعمان الى شفا عمر، إحدى اكبر بلدات المنطقة، وذلك عبر منحدر كثير الشجر، ولا نعرف شيئاً عن تاريخ البلدة القديم. إلا أن أهميتها برزت في عهد الصليبيين حينما اتخذها صلاح الدين في أثناء حصاره عكا مقراً لقيادته. وفوق تلة البلدة آثار قلعة كبيرة ذات طراز معماري Saracenic تعود الى العصر الوسيط. ويمكن الاطلاع منها على مناظر جميلة لعكا وحيفا والسهل وعلى التلة المقابلة، على مسافة حوالى الميل جنوباً، آثار قلعة أخرى أصغر حجماً هي البرج. ومعظم سكان شفاعمر مسيحيون وفيها كنيسة ومدارس للجمعية الكنسية التبشيرية.

ومن شفا عمر الى سوفيرا Sefurieh اوسفوريس القديمة، وديك كساريا عند الرومان وكيثرون جشوا، على بعد حوالى ٨ أميال، يحيط بها الزيتون، عبر طريق جميل تظله الغابات - ويبقى القسم الأجل على جانب نهر الأردن - إلا أن فؤوس المشحرين* تنذر باقناء هذه الغابات وفي سوفيرا آثار تشير الى الدور الذي كان لونيوس القديمة في تاريخ هيرودتس وفي الحقبة الصليبية. والجزء الاساسي من الكنيسة الصليبية في البلدة ما زال قائماً، وفوقها على التلة قامت القلعة لاحقاً حيث جزؤها الأسفل يعود الى عهد هيرودتس أو ربما أقدم ايضاً بينما البوابة والقناطر ذات الاقواس المحددة تعود الى الحقبة الصليبية. والمكان الذي كان يوماً جوهرة رومانية غدا اليوم اقرب الى الركام والقذارة. ويمكن من سوفيرا ان تتجه في طريق جميلة نحو نازاريا والشاطئ.

* اي الحطابين الذين يقطعون الشجر لصنع الفحم الخشبي



بوابة عكا .
المدخل الوحيد الى المدينة، قرب الطرف الجنوبي
للسور الشرقي البري قريباً من ميناء قليل العمق.

عكا او بوابة فلسطين

أنتى قاربته، من الشمال او الجنوب، من البحر في شارع، أو على ظهر مركب يدخل ميناءها في ليلة مقمرة خصوصاً، فعكاً بهية وفي منتهى الروعة .

وفي مواجهة البحر ترتفع الواجهة الغربية للمدينة كلها بأسوارها الدفاعية العالية وأبراجها المربعة ومنارتها على الطرف الجنوبي. ومن الجهة الشمالية تعلو مئذنة جامع جزار باشا الكبير تعكس على نحو جميل ضوء القمر وإلى جانبها قلعة المدينة الحصينة. ما من مدينة أخرى في سوريا وفلسطين تعيد للمرء التاريخ الصليبي والوسيط مثلما تفعل عكا وبخاصة حينما تنظر إليها من البحر: فلو لم تكن مئذنة جامع الجزار الشامخة لتذكرنا بإسلام المدينة وهويتها لكان خيل إلينا اننا ندخل حصناً قوياً لا يزال في أيدي ملوك الصليبيين وفرسان القديس حنا - ولا يزال هنا في عكا مكان يحمل اسمهم. ثم ننسل حول الحصن المنيع عند الطرف الجنوبي لرأس المدينة أو الريف الصخري الذي اقيمت المدينة فوقه ولتتمدد آمنة ناحية الخليج جنوب الميناء في المياه الضحلة. وحينما تلف السهل في الليلة غلالة بيضاء من الضباب تبدو الهضاب المتدرجة للجليل لجهة الشرق البعيد، وكذا جبل الكرمل في الجنوب، عالية وأكثر مما هي بالفعل وكأنها هياكل تحوم من دون أساس لها في الأرض. وما ان ينجلي الصباح ويزول الضباب وخداع رؤاه حتى تقارب المدينة عن قرب وكما هي فعلاً.

أول ما يلفتك في عكا هو طابع العزلة الجرداء التي تحيط بها. وبخلاف واقع الحال الراهن، كما يتذكر بعض معمرى عكا، كان السهل شمال المدينة في السنوات التي تلت موت الطاغية الجزار سنة ١٨٠٤، مزروعاً بالصنوبر والحوار السريع النمو والمنتشر في سوريا وفلسطين، على بساط أخضر ناعم تزرره البساتين والرياحين في غير شكل ولون. غير أن الشجر كله، وحتى مسافة ميل وربع الميل من المدينة جرى قطعه بناء على أوامر عبدالله باشا (الذي خلف سليمان باشا على حكم عكا سنة ١٨٢٠) بحجة أن هذه الغابات قد تصلح مخابئ للغزاة الطامعين بالمدينة.

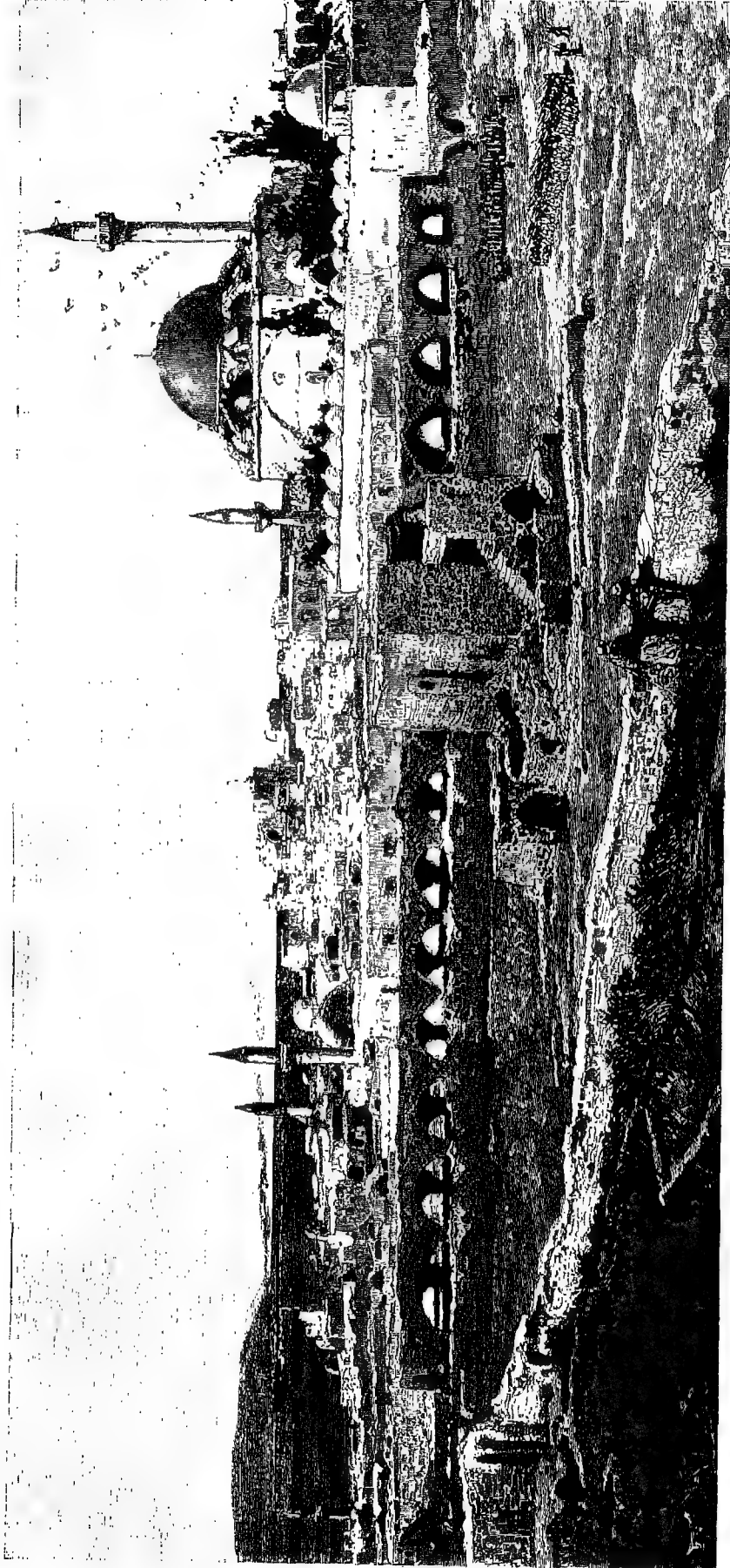


سهل عكا من منحدرات الكرمل
وفي الصورة غابة النخيل التي تمتد من حيفا وإلى
مصب نهر كيشون تقريباً.

والمساحة المقطعة باتت اليوم حقولاً لزراعة
القطن والبطيخ والخضار تروىها قناة جرّ من
الكوبري، بينما يتمدد شريط من المستنقعات الآسنة
قريباً من الشاطئ وتبقى المدينة رغم ذلك جميلة.

وفي موضوع الأسوار فالغالب اليوم على معظم
المدن المسورة في سوريا وفلسطين هو تمدد العمران في
هذه المدن إلى خارج الأسوار ولتفقد بالتالي طابعها
التقليدي. ففي بيروت تهاوت الأسوار كلها ولم يبق غير

جزء صغير عن الجهة الشرقية، وهو نتاج طبيعي لحال السلام والحبوكة. وحتى مدينة القدس فهي الآن في طور
تمدد سريع خارج الأسوار، ولكن صوب الجهتين الشمالية والغربية لحسن الحظ. ويصف كولونيل سير شارلز
ويلسون انطباعه بعد زيارته الأخيرة للمدينة فيقول: «كانت زيارتي للقدس هذه المرة مدعاة للحزن والألم. فعندما



منظر عام لعكا من الشمال الشرقي وجبل الكرمل في البعيد وتشغل الشكبات ومباني الحكومة نصف الأبنية داخل الأسوار، إلى اليمين مسجد جزار باشا، الكبير، يقبته المدعمة وسفن تقرب من حيفا عند أقدم جبل الكرمل.

تركنتها سنة ١٨٦٦م يكن هناك خارج الاسوار غير الدير الروسي وبيتين او ثلاثة. أما اليوم فالقدس الجديدة تكاد تكون في حجم القدس القديمة. لقد احببت دوماً القدس كمدينة ذات أسوار وبوابات تقفل ليلاً وتحيط بها بساتين الزيتون والتي لطالما فتنتني، وكنت اتوقع أي شيء الا أن أجد هذه الخطوط الحديدية المستحدثة في ضواحي تشبه مدينة ايطالية من الدرجة الثالثة».

ما يتحدث عنه سير ويلسون هو دخول المدينة من جهتها الجنوبية الغربية عبر خط العربات الآتي من يافا. لكن عكا تختلف تماماً، ليس في القريب على الأقل، فشكل المدينة غير منتظم ومساحتها تقدر بخمسين فداناً. واجهة عكا على البحر هي الأطول في المدينة، بل هي تجعل الناظر من بعيد يتوقع مدينة اكبر مما هي عليه فعلاً. اما لجهة البرّ شمالاً وشرقاً، فهناك خط من التحصينات المزدوجة مع خندق عميق. الخط الدفاعي الخارجي اقامه الجزائر سنة ١٧٩٩ وذلك بعيد تقهقر نابليون عن المدينة اثر حصار فاشل استمر ستين يوماً وثمانى هجومات فاشلة. وكان الاميرال سير سميث قد نجح في تضليل سفن النقل التابعة لنابليون والتي كان مقرراً ان تفرغ

معدات وتجهيزات ثقيلة لاستخدامها في دخول عكا. فكان أن افرغت في يافا ثم استعملت هي نفسها في الدفاع عن عكا ويتقدم السور الخارجي، والذي بدأه الجزار وأكماله وحسنه خليفته اللاحق عبدالله باشا سنة ١٨٢٠، عن السور الداخلي بحوالى ٤٠٠ قدم والسور الداخلي هو الذي انشأه الشيخ ظاهر العمر الذي اتخذ من عكا سنة ١٧٤٩ مقرأ له بعد سيطرته على وسط فلسطين ومن غير المستبعد ان يكون الخطان الدفاعيان قد ابتنيا على تحصينات صليبية سابقة. أما السور البحري جنوب المدينة فهو متين للغاية، مبني من حجارة ضخمة جداً مع أبراج متقدمة وعقود صخرية ناتئة وهي ميزة التحصينات الصليبية. أما الميناء فقد اقيم جنوب غرب المدينة عند تجويف في الريف الصخري الضيق والذي ابتنيت عكا فوقه، على خط مواز لتجويف في الجهة الجنوبية الشرقية المقابلة من الشاطئ وتبدو تحت المياه بقايا حائط قديم يمتد شرقاً من الطرف الجنوبي الشرقي للريف. ولكن متوسط عمق المياه عند هذا الخط لا يتجاوز الثلاثة أقدام. وسبب ذلك يعود جزئياً لتراكم الطين لكنه يعود أساساً لإقدام امير الدروز المتمرّد فخر الدين في القرن السادس عشر، والذي بسط سلطته الكاملة على سوريا وفلسطين بين ١٥٩٥ - ١٦٣٤، على ردم الميناء لمنع السفن التركية من الدخول اليه. واتيح للمدينة في عهد فخر الدين ان تزداد منعة وأن تنتعش تجارتها؛ وهو الذي بنى الخان الكبير قرب الطرف الشرقي للريف الصخري الذي يدعى خان الفرنج (لكثرة اشغاله من قبل التجار والجاليات الاوروبية). يمتد ميناء عكا حوالى ١٠٠٠ قدم من الشمال الى الجنوب، و ٧٠٠ قدم من الشرق الى الغرب الا أنه ضعيف الحماية قليل الأمان في أثناء العواصف والطقس السيء، وهو ما يجبر السفن على اللجوء الى الجهة المقابلة الآمنة على الخليج لجهة مرفأ حيفا، والذي يقوم على تجويف كبير داخل الشاطئ عند اقدام جبل الكرمل.

وفي هذه البقعة من حيفا تمكن ابراهيم باشا، ابن محمد علي والي مصر، وقائد الجيش المصري من انزال مدفعيته ونحائرها استعداداً لحصار عكا في نوفمبر سنة ١٨٣١. وكانت خيالاته والقسم الاكبر من مشاته قد عبرت الصحراء قادمة من مصر فدخلت فلسطين واحتلت من دون مقاومة غزه ويافا. وافى ابراهيم باشا جيشه في يافا على رأس اسطول ضخم قادماً من الاسكندرية يحمل عدة الحصار وباقي قواته، فنزل مع أركانه في يافا ثم تقدم شمالاً على رأس جيش تراوح عدده بين ٣٠ و ٤٠ الف رجل، ملتفاً حول رأس الكرمل ليصل مباشرة حيفا. وفي ظل الرعب الذي أحاط بأهالي المدينة تمكن الاسطول من الرسو في حيفا بسلام وانزل عدة الحصار واسلحته. ثم تابع ابراهيم باشا سيره نحو عكا قاطعاً الخليج بينما تقدمت عمارته البحرية مهاجمة المدينة من البحر، وتمكنت قواته البرية في اثناء ذلك من اخذ مواقعها حول المدينة فארضة عليها الحصار من موقع القوة والأفضلية وذلك في السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٣١.

ورغم عنصر المفاجأة، والأفضليات الاخرى، لم يكن الحصار سهلاً بالنسبة الى المصريين. فالاشهر الخمسة من الحصار والقصف المدفعي العنيف الذي طاول قلب المدينة، باكثر من ٣٥٠٠٠ قذيفة موقعا خسائر بشرية ومادية ضخمة، لم تؤد الا الى خسائر طفيفة في الأسوار والتحصينات. والاختراق الذي تم في شباط بعد محاولتين سابقتين فاشلتين أمكن معالجته وجرى ترميم الكسور فوراً. نفذ صبر محمد علي للتأخير الحاصل وللذخيرة المستهلكة من دون نتيجة فأرسل روزيت، وهو أحد كبار المهندسين الفرنسيين العاملين معه، الى عكا لإعادة تنظيم الحصار ولتسقط عكا من ثمة بعد ١٥ يوماً رغم الدفاع الصلب والشجاعة التي ابداهها عبدالله باشا. جرى الهجوم الأخير على المدينة في ٢٧ ايار ١٨٣٢ عند طلوع الفجر واستمر القتال عنيفاً طوال النهار ولم تستسلم المدينة الا في ساعات بعد الظهر المتأخرة بعدما سقط فيها مئات القتلى بنتيجة ثغرة نجح المصريون في احداثها في الاسوار. وكان ذلك بعد ستة اشهر تماماً من بدء الحصار. غدت المدينة بعدها عرضة للنهب والمجازر. خضعت المنطقة بأكملها لسلطة محمد علي، ثم سرعان ما نهضت عكا نفسها من بين الركام ولكن بوصفها الآن حصناً مصرياً. فأعيد ترميم المباني العامة والاسواق والبازار، واقام مستشفى عسكري على نفس الموقع الذي كان لمستشفى فرسان القديس حنا، كما عززت الأسوار فباتت اكثر منعة وأصعب على الاختراق. وجرى في الان نفسه تشجيع السكان الذين كانوا فروا من عكا في اثناء الحصار على العودة اليها واعادة تأسيس أعمالهم وحياتهم فيها. وأعطيت دفعة واضحة للتجارة. واختارت المدينة نخبة الجيش المصري وفي طليعتهم الكولونيل سيف (الذي عمل سابقاً مع الماريشال ناي) مكاناً للإقامة كما حفظت

فيها كميات كبيرة من الذخيرة والمؤونة تكفي لخمس سنوات. وعزز ابراهيم باشا السور البحري الغربي بحجارة ضخمة جلبت من حصن عتليت. وكان ارتفاع السور من ٣٠ الى ٤٠ قدماً، يقوم في وسطه برج الحديد والى الشمال برج آخر يعرف ببرج الكريم، بينما أقام ابراهيم باشا البرج الثالث، برج سنجد من حجارة عتليت أيضاً ليحمي الزاوية الجنوبية.

ولكن ما كادت المدينة تشفى من جراحها البالغة التي اصابها بنتيجة حصار ١٨٣٢ حتى كانت من جديد عرضة لقصف مدمر آخر. ففي الوقت الذي كان سكان عكا قد اعتادوا حكم ابراهيم باشا الصارم قدمت اساطيل انجلترا والنمسا وتركيا بغرض العمل على طرد المصريين من سوريا وفلسطين. ولكن الحصار لم يدم هذه المرة غير فترة قصيرة رغم انه ترك نتائج اكثر هولاً. فقد ظهر الاسطول البريطاني قبالة عكا في الثالث من نوفمبر سنة ١٨٤٠. فارتفعت الاعلام المصرية على الفور، فوق القلعة وبرج سنجد علامه التحدي والتصميم على النزال. كان الادميرال ستوب فوردي يقود العمليات من مركبه البخاري، والكولونيل نابيه Napier يقود الجناح الشمالي والكابتن Collier الجناح الجنوبي، فقاد الجميع سفنهم في مواجهة الحصن، وعند الساعة الثانية كان هؤلاء قد اخذوا مواقعهم في مواجهة الحصن تماماً تحت غطاء كثيف من بطاريات المدفعية. ولم يرد في خلد المصريين ان الاسطول قد يغامر ويتقدم الى مثل هذه المسافة القريبة من التحصينات، ولذلك كانت رمايات مدفعيتهم تنصب كلها الى مستويات أعلى من تلك التي أحتلها الاسطول. وبينما كانت السفن تصب نيرانها من مواقع قريبة، وعلى نحو مرعب، كانت مدفعية الابراج تذهب بعيداً ومن دون أي تأثير. ثم حدثت الكارثة عند الساعة الرابعة، حيث وقع انفجار رهيب على اليابسة داخل التحصينات، فقد أنفجر مخزن يضم ٥٠٠ برميل من البارود وتجهيزات قتالية أخرى بين وحدات الجند، فقتل فوراً افراد وحدتين كانتا في الجوار تعدادهما ١٦٠٠ رجل على الاقل، وقتل كذلك عدد غير معروف من النساء والأطفال والحيوانات. ودمر كل شيء في مساحة ١٦٠ الف ياردة مربعة، وانفجرت مبانٍ قريبة وتطايرت الشظايا الى ارتفاعات عالية لتسقط على الاسوار والابراج محدثة فيها الدمار. وسرع الحاد في نتيجة المعركة المحتومة. ومع غروب الشمس توقف القصف من السفن والبطاريات وتراجع الاسطول الى عرض البحر. وبعد منتصف الليل بقليل تقدم زورق صغير قادم من الشاطئ حاملاً من بعض العيون في الداخل رسالة الى الاسطول تفيد أن المصريين يخلون المدينة بسرعة فتقدمت على الفور قوات الاسطول ونزلت على الشاطئ آخذة المدينة من دون مقاومة. وهكذا عادت عكا من جديد حصناً وموقعاً تركيا. وانقضى ذلك النهار على دمار وخراب لم تشهد المدينة لهما مثيلاً: لم ينج منزل في المدينة تقريباً من اصابة، وتركت في المدينة معدات حربية كثيرة من كل الأنواع وفي حالة ممتازة إذ ما من حصن قد جهز بأفضل مما جهز به حصن عكا من أسلحة وذخائر، لكن الانفجار الضخم والخسائر الجسيمة في الارواح كانت من الضخامة ما فاق قدرة المحاصرين على الاحتمال. كان مشهد الانفجار في مستودع الاسلحة والذخائر، في رواية شاهد عيان يشبه انفجار بركان ضخيم، ترك فجوة في الارض تقارب دائرتها الميل الواحد يحيط بها دمار من كل نوع وتنتشر الجثث الى مسافة بعيدة. كما حدث انفجار آخر في المكان عينه بعد يومين حينما انفجرت خمس وحدات ذخيرة على التوالي وطالت لسوء الحظ عدداً جديداً من الضحايا، من بينهم النساء اللواتي كن يبحثن عن جثث أزواجهن بين الأنقاض.

وكان هناك في البدء صعوبة كبيرة في حفظ النظام في المدينة بسبب فوضى الأوامر واختلاط اللغات، لكن الامور استقرت بعد ذلك وأمكن فرض السلطة والنظام تحت القيادة الحازمة للضباط الانجليز والترك فبدأت على الفور أعمال إزالة الاتقاظ وإعادة الحياة الى عكا من جديد. ولما بلغ خبر سقوط عكا محمد علي في مصر أرسل تعليماته على الفور الى ابراهيم باشا بالاخلاء الفوري لكامل سوريا وفلسطين، وهكذا عادت المقاطعتان الى السيادة التركية.

ونعود الى عكا، حيث لا يمكن الدخول اليها من ناحية البر الا من بوابة وحيدة عند برج كبي (برج البوابة)، قرب الطرف الجنوبي للسور البري الشرقي القصير الذي يتصل بالسور البحري في زاوية مستقيمة عند رأس الميناء. وبعد البوابة ممر فوقه قناطر على شكل حذوة حصان على الناحية الجنوبية من البرج، وبعد ان تمر تحتها عليك ان تتحول

الى اليسار، اي غرباً كي تستطيع الولوج الى داخل المدينة. وهذه عموماً ميزة مداخل المدن المسورة في الشرق حيث يندر أن يكون المدخل الى المدينة مباشراً. ومن بوابة عكا تنفتح طرق عدة، ولكن لا يصلح واحد منها لمرور العربات بينما هي ممكنة الى حد ما لمرور الخيل والبغال والحمير والجمال مع صعوبة اضافية في فصل الامطار والسيول. واولى الطرق التي تبدأ من عكا أو اليها طريق السهل القديمة من الشمال الى الجنوب، والطريق التقليدي من جنين عبر سهل اسدرالون ومن صفد وسوفيرا ولكن يبقى الطريق الالهة الآتي من حوران أهراءات القمح الرئيسية لتلك البلاد. يبلغ انتاج تلك المنطقة العالية الملازمة ثمانين فولداً Eighty folds قمحاً ومئة شعيراً (راجع ماثيو8، XIII) وقمحها القاسي نصف الشفاف ذو جودة عالية ومعظمه للتصدير، وفي الموسم تصل الى عكا الآف الجمال المحملة بهذا القمح. والطريق التي تربط حوران بهذه المدينة، مرفأ حوران الطبيعي، كانت قد استعملت بكثافة من قبل الرومان، وربما كانوا هم الذين انشأوها. وهي تمر جنوب الجولان أو الهضاب الجولانية، ثم تعبر نهر الأردن جنوب بحر الجليل وبعد ان تلتقي طريقاً قديمة من طبريا تعود فتأخذ خطأ مستقيماً نحو عكا. وفي فصول أخرى تتبدل الحمولة، فتحمل الجمال حجارة الطحن البازلتية من مقالع «اللجا» وهي منطقة صخرية من حوران ذات أصل بركاني تقع شرق الجولان شمال شرقي سهل الحنطة الذي ذكرناه آنفاً والذي يمتاز بجودة عالية لا تخطأ تربته بعناصر بازلتية ومعدنية ذات تركيب جيولوجي مغن.

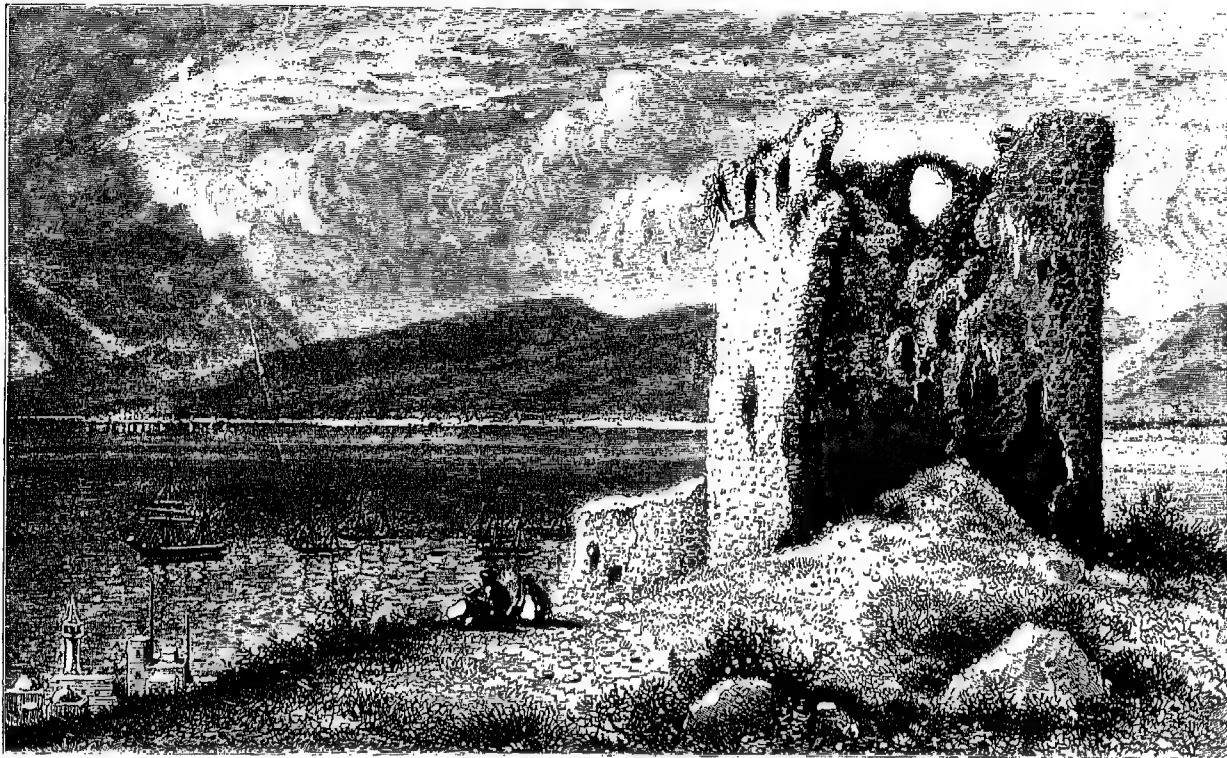
أما المطحنة فتحتاج، وبخاصة مع هذه المواد القاسية، الى مهارة واضحة. وحجارة المطحنة التي تدار باليد قطرها من ١٨ الى ٢٤ انشاً، اما المطاحن الاكبر فتدار بقوة الهواء أو الماء. وسطح حجر الطحن السفلي مقوس قليلاً وفيه تجويف مواز لتجويف الحجر الاعلى يسمى بالعربية الراكب Reke وهما مثقوبان في الوسط تماماً بحيث يثبت في الحجر السفلي عامود (خابور) خشبي متين يركب فوقه الحجر العلوي. وحين تكون امرأتان على الطحن تجلس احدهما مقابل الآخر تمسكان عتلة (مسكة) قريبة من حافة الحجر العلوي وتحركانه معاً على نحو دائري ثابت ومنظم. والمرأة التي تكون يدها اليمنى حرة تضع الحنطة بواسطة الكيلة (وعاء يشبه الفنجان) في وسط حجر الطحن وتثبت المطحنة أحياناً في الطين وفوق وعاء يجمع فيه القمح الذي يخرج مطحوناً من بين الحجرين. والحجر السفلي في العادة هو أكثر سماكة من الحجر العلوي، والمنطقة البركانية من حوران تقدم حجارة بدرجات سماكة متنوعة، ولكنها جميعاً عالية المتانة، والمطاحن المصنوعة من تلك الحجارة مطلوبة بكثافة لنوعيتها وجودتها وهو ما يبرر تكاليف نقلها العالية على الجمال (الجمال لا يستطيع ان يحمل غير حجري مطحنة واحدة) تنقل باعداد وفيرة الى عكا ومنها الى الخارج.

لكن اللافت ان الفلاحين في فلسطين لم يكن لديهم غير عدد قليل من الجمال للاستخدام في المواسم. وعليه فقد كانوا يستأجرون خدمات البدو الذين تعودوا الاقامة في مناطق شرق الاردن وثروتهم الاساسية الجمال التي لديهم والتي لا يستغنى عنها في القبائل البدوية. والجمال نوعان للشحن والتحميل أو الدحلول للركوب كالفارق تماماً بين احصنة الخدمة وأحصنة السباق. وتصل الى عكا في ايام محدودة قليلة من العام قوافل جمال تحمل الأرز من وادي الأردن. وتحمل البغال من مناطق أقرب بالات القطن ولسلال الزيتون وجرار الزيت الى أحمال أخرى من المدر ونباتات ومزروعات أخرى، كل منها في موسمها. لكن وعلى مدار السنة تقريباً في وسعك ان تشاهد كل صباح قوافل من الحمير والبغال ومعها الفلاحون يصلون من القرى والبساتين المجاورة يحملون الفواكه والخضار والبيض والحليب بينما يحمل الصيادون من البحر صيدهم ورزقهم تبعاً واعتماداً على المناخ وأحوال البحر.

ويكتب الحريري الشاعر* الاسلامي الأشهر صاحب المقامات الذي عاش الحقبة الصليبية الأولى في «مدينة البحر» كلاماً ينطبق على عكا فيقول «هو موضع اللقاءات المثالية، حيث تلتقي السفن بالجمال، والسقايات البرية بسماك البحر، وسائق الجمال والبحار، وحيث يروي صياد السمك لزراع الارض قصص البحر»

*نقلها هكذا كما وردت في النص والمقصود بالطبع الحريري صاحب المقامات [م]

تحتوى عكا، وفق تقدير راهن، على ٩ آلاف ساكن ٧٠٠٠ منهم مسلمون، ومن ضمنهم الحامية التركية وينتمي الباقون فعلياً أو شكلياً الى كنائس اللاتين والروم والكاثوليك، عدا قلة من اليهود والبروتستانت. ويشكل الكاتوليك أو الملكيون وهم قرييون من الكنيسة اللاتينية الاكثرية الساحقة بين هؤلاء. وخلال إقامة استمرت لسنوات في حيفا، مع اخي مستر إي. ت. روجرز نائب قنصل جلالته هناك، أتاحت لي الفرصة لزيارة عكا ومناطق مجاورة أخرى. وكنا نعبّر الخليج غير مرة، اما بحراً في رحلة تستغرق ساعة وربع الساعة، او براً بالدوران مع الشاطئ الرملي لساعتين ونصف



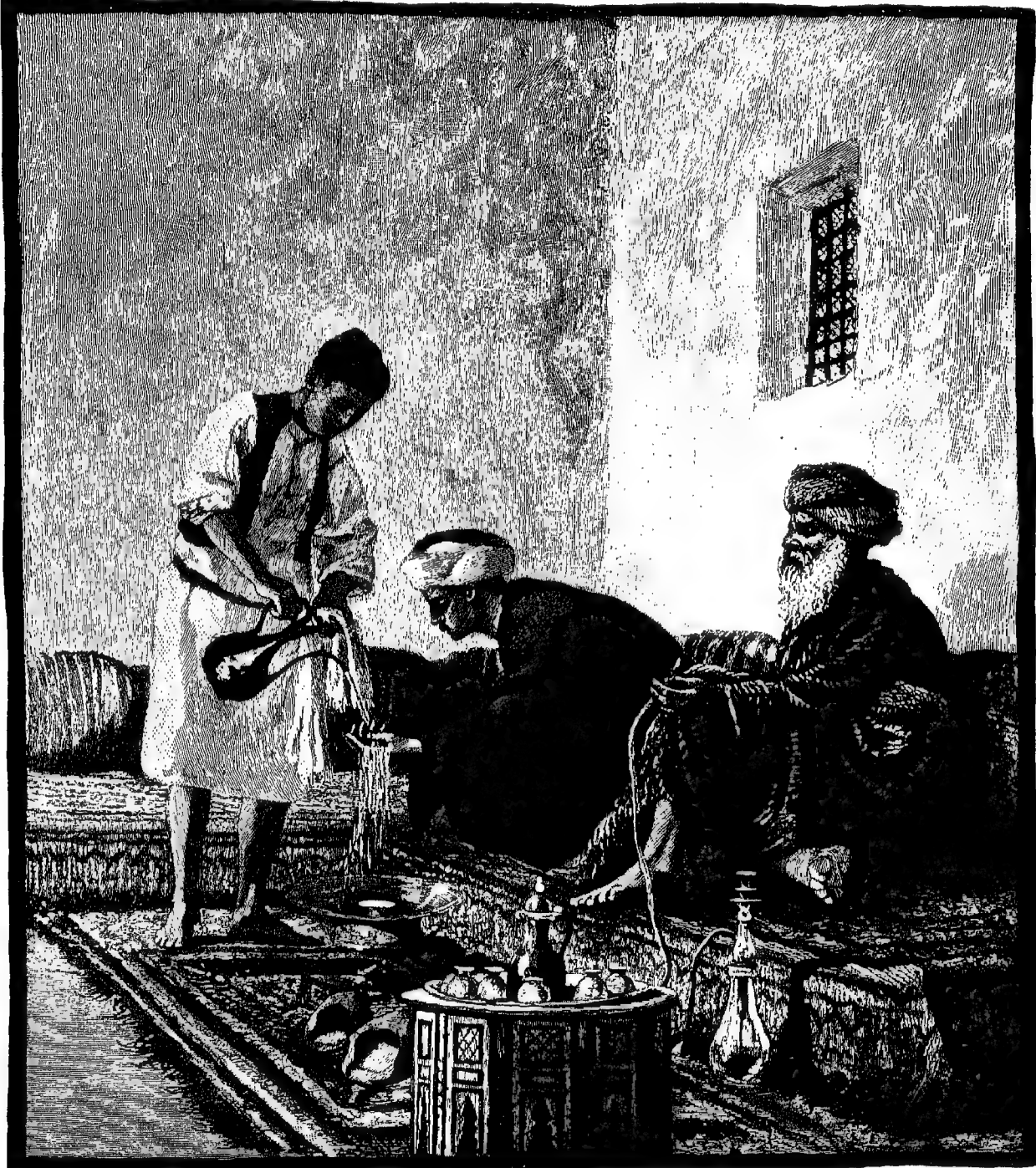
خليج عكا من منحدرات
الكرمل مع اثار قلعة حيفا وجزء من بلدة حيفا عند أقدام تل القلعة وفي البعيد مدينة عكا.

الساعة وحينما كنا نعبّر بوابة عكا، وحيث التجار والزبائن وحلقات دائمة من الناس، كان هناك على الدوام ترحيب حار بنا بغير لغة، بالتركية والعربية واليونانية والفرنسية والانجليزية (ركيكة لكن محببة). وفي جوار البوابة مباشرة سوق الحنطة الكبير والذي يكون أحياناً شبه مقفل بالأكوام الهائلة من الحنطة المذهبة والشارين الكثر والبائعين والجمال المحملة. وبعده البازار أو الاسواق، وأهمها سوق حسن البناء، مسقوف، يملأه الحرير الذي تنتجه أنوال حلب ودمشق، وقطن مانشتسر المصبوغ والملون، والزجاج والسكاكين، والأواني الفاخرة من مرسيليا وتريست والجواهر من القسطنطينية. وأسواق أخرى أصغر حجماً للبضائع والمنتوجات المحلية وبخاصة للحصر والسجاد والبطانيات. وتقوم هنا صناعة ممتازة للحصر لاغراض تغطية الارضيات والسقوف الحجرية او الطينية. وفي عكا منازل خاصة جميلة ومتقنة البناء والتصميم (وبخاصة للأجانب او للمواطنين المسيحيين) مفروشة بأسلوب شبه أوروبي يتلاقى فيها وعلى نحو محبب الذوق الشرقي والذوق الغربي. واذكر واحداً منها هو منزل السيد جرجس الجمال باطلالته المشرقة وصالونه المفتوح على مناظر البحر الجميلة، وحيث كنت ألقى دائماً الترحيب والاستقبال الحار.

أما في بيوت أو دور المحمدين فلا يقوم غير القليل من الإضافات أو الزوائد الغربية. وتعطي إيضاحات الصورة المقابلة فكرة واضحة لشكل غرفة الاستقبال في بيت شرقي عادي. فمن الميزات الدائمة لهذه البيوت هي جدرانها

العارية والنوافذ العالية الصغيرة المشبكة بالحديد، والديوان المفروش الواسع الذي يغطي ثلاثة أرباع الصالون يستخدم ليلاً كأمكنة نوم، وحيث الفرش واللاغطية الضرورية جاهزة على الدوام ومرتبّة بعناية في تجويف عميق في أسفل الحائط غطّي بالستائر*. لا يتضمن البيت الشرقي الأصلي غرفةً مخصوصة أو موقوفة للنوم بل تصلح أي غرفة أو السطح نفسه مكاناً للنوم وحسب المناسبة. والسرير هو عادة فراش يوضع أو يرفع (مارك iiiII) وعليه فلا حرج أن ينام أحياناً عدد كبير من الضيوف في المكان عينه.

ويقدم الغداء والعشاء وسط الغرفة، وموعد الأخير هو غروب الشمس، وهو الوجبة الأساسية. أما طاولة الطعام فهي صدر واسع من النحاس قطره قدمان أو ثلاثة، وتزيّن الزخرفة والنقوش بنسب مختلفة، وهو يوضع على قاعدة



غسل الأيدي بعد الغداء
وهو أمر لاغنى عنه طالما أن الأكل يجري بالأصابع بدل الشوك .

* هو «الليوك» في المحلية المستخدمة [م].

خشبية ترتفع حوالى ١٥ انشاً، جوانبها مرصعة بالعاج (كما في الصورة) وقد تصف عليها كذلك فناجين القهوة وفي وسطها إبريق القهوة ذو العنق العالي. وبعد الغداء أو العشاء يجد المرء ما يؤيد شهادة مارك في الشعوب الشرقية أن «لا طعام إذا لم يكن ممكناً غسل الأيدي» وهو أمر ضروري حينما نعلم أن الشوكة والسكين لا تستخدم هنا «وكل يغمس يده». بعد أن ينتهي الغداء أو العشاء، يجلب خادم وعاء معدنياً كبيراً (طشت TISHT) مع منشفة ووعاء خاص بالصابون في وسط الطشت ثم يضع الطشت أمام أعلى الحاضرين مكانة، أو أكبرهم عمراً، والذي يعالج الصابون بين يديه برفق من إبريق ذي زلومة طويلة، وحتى لا يتجمع الماء في الطشت توضع تحت الطشت قاعدة تجمع الماء المتساقط. وهكذا فحينما ينقل الطشت إلى شخص آخر فلا ماء يظهر فيه. والعملية نفسها قد تتكرر في العصرية أو جلسة ما بعد الظهر حيث تغسل الأيدي كذلك (العجوز الذي في ص ٧٩ أعمى وقد أعطي طرف نبريش النارجيلة وهو ينتظر اشعالها)، وتدار معها القهوة على الحضور.

والبناء القديم في عكا زال منذ فترة ما ومعظم الابنية الحديثة القائمة تدين في الواقع ل احمد باشا الملقب بالجزار المتوفي سنة ١٨٠٤ والذي يقارن عادة بهاروت Herot لقسوته البالغة من جهة ولانجازاته، ومنها المعمارية، من جهة ثانية. ويحتل الخان الكبير خان الجزار باشا، الموقع الذي كان يشغله دير الدومينيكان، حيث تستند شرفاته الى عدد كبير من الاعمدة الرخامية الحمراء والرمادية، ولذلك يدعى أحياناً خان الأعمدة. ويحتل جامع الجزار باشا الكبير الذي أعيد بناؤه وترميمه، المرة ثلث المرة، آخرها كان سنة ١٨٦٣، الموقع الذي كان للكاتدرائية. وابتني الجامع من حجارة ومواد ابنية قديمة، حيث الأعمدة الغرانيتية والرخامية المتعددة الأشكال والألوان جلبت من قيسارية وصور. والبناء ضخيم ومتقن لكنه يخلو من الجمال. ويقوم الجامع وسط ساحة مربعة مزروعة بالشربين والنخيل والكثير من العريش ذي الالوان المختلفة التي تضلل بعض الأضرحة الرخامية ذات القباب البيضاء. ويحيط بالساحة رواق مسقوف على اعمدة قديمة ومقسم الى اقسام لخدمة المصلين والزائرين والسقوف مقببة كما توضح الصورة في صفحة ٧٦. ويبقى اليمام ميزة الجامع الدائمة، حيث تحوم اسراب منه أو تحط فوقه بأمان وسلام، وهو منشأ المثل العربي «آمن كيامة في مسجد»

وتشكل تحصينات عكا التي لا يمكن الدخول اليها الا بأذن خاص من الباشا مكاناً ممتعاً يستحق الزيارة، ورغم انها زاخرة بكل انواع المدافع والاسلحة (وبعضها هو مما أسره سير سيدني سميث من سفن نابليون) فالمكان يبدو آمناً ومسالمًا بما يكفي بحيث أني لاحظت في اخر زيارة لي نباتات برية صغيرة تنمو بسلام في شقوق الأسوار، كما كانت نباتات الاكانثوس في ذروة تفتحها وجمالها.

مقاطع من تاريخ عكا القديم.

ورد في الأحكام (ج ١، ٣١، ٣٢) ان قبيلة آشور Asher التي ملكت عكا (Accho, Akka)، لم تنجح في إخراج «الكنعانيين» سكانها الأصليين منها، بل إكتفت «بالسكن في ما بينهم». ويمكن اعتبار بقايا البيوت التي اكتشفت هنا، وهي صغيرة ومشغولة بالطوب المجفف بأشعة الشمس مع مزيج من الرمل والطين Cement، ميزة البناء في الأزمنة القديمة، اثاراً للحقبة تلك. ورغم أن عكا لم تذكر بعد ذلك في العهد القديم، إلا انه أشير اليها من قبل المؤرخين القدماء كـ عكا Ake مدينة فينيقية، كذلك ذكرها ميناندر Menander التي أخذتها آشور وذلك حينما هاجم شلمنصر مدينة صور. وعكا Akkon هو اسم آشوري. ثم كانت المدينة محطاً للأنظار في حقبة احتلال الاسكندر الكبير لسوريا وفلسطين ومصر وانتزاعها من سلطان فارس سنة ٣٣٣ قبل الميلاد، بدليل العملات الذهبية والفضية الجميلة التي كانت تصك فيها. وحينما اقتسم قادة الاسكندر، وورثته، ممالك حكمه الشاسعة تولى بطليموس Ptolemy حكم مصر ثم دانت له عكا نفسها سنة ٣٢٠ ق.م. وظلت المدينة لفترة طويلة في عهدة البطالسة الذين توسعوا في بنائها وتزيينها واعطوها اسمهم بطليموس Ptolemais. لكن شيئاً من بقايا هذه الحقبة، التي ربما كانت الأبهى لم يكتشف خلا القطع النقدية البطليموسية التي صكت هنا. وتتميز هذه القطع النقدية عن سواها من القطع النقدية للبطالسة بكونها تحمل على صفحتها الحرفين الأولين من بطليموس PT. لم يكن حكم البطالسة على عكا ثابتاً ودائماً بل متقطعاً فكانوا يخسرونها ثم يستعيدونها بحسب تقلبات صراعاتهم مع الملوك السلجقة Seleucidae في سوريا (راجع ماكايز I XI, XII) وسقطت المدينة أخيراً ولفترة طويلة في عهدة الرومان، فجرى تزيينها من قبل هرود Herod، رغم أنها لم تكن تحت سلطته، وحين مرّ بها بولس يوماً ما (الافعال XII) في طريقه من صور الى قيسارية، كانت عكا مستوطنة Colony رومانية وعلى قدر من البهاء والروعة. وتشير عملات خلفاء بطليموس على عكا إلى الحقبة التي تمتد من عهد كلاوديوس الى عهد سالونينا Aulonina (من ٤١ م. الى ٢٦٨ م.) ويحمل الوجه في تلك القطع المعدنية شكل رأس الحاكم وألقابه، أما الوجه الآخر فمحفورة Colptol وأهم الحفورات هي تلك العائدة لعملات تراجان Trajan وحديان Hadrian، حيث شكل امرأة تضع فوق رأسها تاجاً (رمز المدينة) وتجلس على صخرة، عند أقدامها نهر (بيلوس Belus) وفي يدها اليمنى سنبل قمح؛ وكذا عملات كراكلا Caracalla حيث معبد سداسي الشكل فيه السعد متوجاً بالنصر وقف على عامود الى جانبها. وكانت المدينة قد دخلت في زمن مبكر التنظيم الأسقي؛ وتشير الوثائق ان كلاريوس، اسقف بطليموس، قد حضر مجلس قيساريا سنة ١٩٨ للميلاد.

وفي سنة ٦٣٨ استولى المسلمون على بطليموس، فغدت عكا Akka تحريفاً لإسمها السامي الأول عكا Accho. والحدث التالي الرئيسي في حياة المدينة هو احتلال الصليبيين لها سنة ١١٠٤ بقيادة بلدوين الاول، حيث غدت حصنهم القوي وقاعدة لهم. وشغل الفينيقيون والجنديون والبيزيون* باغراض التجارة والتبادل التجاري، الى الإغراض الاساسية، فقدمت أساطيلهم الى ميناء عكا محملة بالحجاج والجنود والتجار والبضائع، وشهدت عكا بذلك انتعاشاً سريعاً وتوسعاً مطرداً. ولكن المدينة استسلمت، رغم ذلك، ودونما مقاومة لصالح الدين سنة ١١٨٧ بعد انتصاره الحاسم في حطين. ومع وصول ريتشارد بلا نتيجنتو وفيليب اوغسطس على رأس حملة صليبية جديدة، أمكن للصليبيين إعادة السيطرة على المدينة سنة ١١٩١، ولتبقى في عهدهم مئة سنة تماماً، جرى فيها بناء الكنائس والقصور والكاتدرائيات والقلاع والابراج. كما أصلحت قنوات جر المياه القديمة وكانت عكا في هذه الاثناء مقر قيادة «فرسان القديس حنا المقدسيون» واستمدت اسمها الاوروبي منهم «عكا القديس حنا»

لكن الاكثر إلفاتاً وامتاعاً في هذه الحقبة هي العملات التي صكت في عكا والتي تستحق التوقف عندها ودراستها ملياً.

فقد عمد الفينيقيون، وهم صرّافو الصليبيين، بهدف تسهيل معاملاتهم التجارية مع العرب، الى صك عملات ذهبية تشبه، في قليل أو كثير، دنائير الخلفاء. وحدث ذلك غير مرة في طرابلس وعكا والقدس. كان على وجه القطعة النقدية اسم أحد الخلفاء ولقبه، وعلى الوجه الآخر شهادة الايمان المحمدي بالعربية وبخط كوفي. واستمر هذا التقليد

* نسبة إلى فينيسيا (البندقية)، جنوى وبيزا. [م]

فترة طويلة. ولاقت هذه العملات رواجاً كبيراً في المنطقة. وحينما زار إيدي دي شاتورد عكا ممثلاً للبابا المقدس الرابع وفي صحبته لويس التاسع، هاله أن يجد عملات تحمل عبارة «محمد رسول الله» تصك وتوزع من قبل الصليبيين. وهكذا صدرت تحريمات وعقوبات بابوية أخرى بحق «مرتكبي الآثام» هذه. لكن الطلب على تلك العملات الذهبية كان ملحاً فلجأ فينيسيو عكا إلى أساليب شتى للإلتفاف على التحريم البابوي. فقد أعادوا تقليد دنانير الخلفاء لكنهم استبدلوا العبارات المحمدية فيها بعبارات مسيحية فظهرت على واحدة من هذه العملات ضمن الإطار، الذي كان يجب أن يكون فيه اسم الخليفة، عبارة الآب الابن الروح القدس، إله واحد، وعلى هامشها عبارة «صك في عكا سنة ١٢٥١ على تجسد المسيح». وعلى الوجه الآخر منها صكت عبارة في «مجد صليب الرب يسوع المسيح والذي فيه خلاصنا وحياتنا وانبعاثنا ومنه الحياة والمغفرة». وعلى قطعة نقدية أخرى تعود للتاريخ عينه عبارة حُفرت في مربع: «إله واحد، إيمان واحد معمودية واحدة» مع صليب صغير في الوسط، وعلى وجهها الآخر إعلان الثالوث في الوحدة مع عبارة: «المجد لله، على مر السنين آمين»

انتهى الحكم المسيحي على فلسطين سنة ١٢٩١ حينما احتل سلطان مصر الملك الأشرف، ابن قلاوون مدينة عكا بعد حصار دام شهراً واحداً. وأعطى السلطان أوامره بإزالة أسوار المدينة وكنائسها، ولم تبق إلا بوابة إحدى الكنائس التي حفظت ونقلت إلى القاهرة رمزاً للانتصار. ويصف المقريني، المؤرخ العربي المعروف، المناسبة بحماسة جليلة ويسهب في بيان جمال البوابة فيقول: «هي أجمل ما صنعتها يد الإنسان، لرخامها الأبيض وأسلوب هندستها الجديد ودقة صنعها الفائقة، لقواعدها وأعمدتها وإطارها نقلت جميعها إلى القاهرة». وهي تشكل اليوم بوابة جامع الملك الناصر محمد، شقيق الملك الأشرف خليل (١٢٩٠ - ١٢٩٣) وخلفه (١٢٩٣ - ١٣٤١) وذلك على أحد أهم شوارع القاهرة سوق النحاسين، وهي غالباً ما تحير الزائر الذي لا يعرف تاريخها. وأهمية هذا الأثر إنما يكمن في أنه الأثر الكامل الوحيد المتبقي من جملة الكنائس التي ابتناها الصليبيون في عكا.

وفي رواية لمسافر في فلسطين في القرن الرابع عشر (هو اودولف دي ساشم L. Des Suche) أن عكا كانت فارغة، موحشة إلا أن كنائسها وأبراجها وقصورها لم تكن قد دمرت بالكامل، وأن حوالي ٦٠ مقاتلاً مسلماً (Saracena)* كانوا قد تركوا لحماية المكان والميناء؛ وأن هؤلاء كانوا يعتاشون من إنتاج الحرير وبيع الحمام والحجل اللذين يكثران هناك. وظلت المدينة على خرابها هذا إلى أن احتلها السلطان سليم الأول سنة ١٥١٧. ولم تنهض من جديد حتى القرن السابع عشر. والآثار الصليبية المهمة الوحيدة المتبقية هي المستودعات الواقعة تحت المستشفى العسكري الحديث، وهي عبارة عن سلسلة من القاعات والممرات ذات العقود المقوسة تحت انقراض كنيسة سانت اندرو وسانت جون وأجزاء من سور المدينة.

وعلى مسافة حوالي الميل شرقي عكا ينتصب «جبل تورون» الذي خيم عليه ريتشارد كور دي ليون سنة ١١٩١، وحيث زرع نابليون بطاريات مدفعيته سنة ١٧٩٩. يقف الجبل وحيداً منعزلاً، كما لو كان جبلاً اصطناعياً، ارتفاعه ٩٦ قدماً ويشرف كلياً على مدينة عكا ويطل على أجزاء من السهل. والاسم العربي للتل هو «تل الفخار» The hill of potter's clay، لكنه يدعى كذلك جبل نابليون أو يدعى أحياناً جبل أنتيكار Antikâr وهو الاسم الذي يعطى للملك ريتشارد في سجلات الحقبة الصليبية لدى المؤرخين العرب.

جبل الكرمل ونهر كيشون

تبلغ المسافة، خطاً مستقيماً بين رأس عكا وقمة جبل الكرمل (راس الكروم) ثمانية أميال يتراجع الشاطئ بين النقطتين وينحسر إلى الوراء إلى حد كبير ولتبلغ المسافة دوراناً مع الشاطئ أكثر من اثني عشر ميلاً. ويتفاوت عمق الخليج الذي يتشكل هنا بينما لا يزيد اتساعه عند عكا عن الميل الواحد، يتسع جنوباً ويليغ الثلاثة أميال عند مصب نهر

* مقاتلون من قبائل عربية اسلامية [م]



أعلى نقطة في جبل الكرمل
مع منارة على قمته. وتحت راس الكروم. ومدينة عكا تظهر من
بعيد مع جدران رأس الناقورة.

كيشون، حيث تبدأ تعرجات ميناء حيفا والتي
تشكل ملاذاً آمناً للسفن. ويفصل شريط
كتبان الرمل المتحركة الشاطئ الرمل الناعم
الممتد من عكا الى حيفا عن السهل الزراعي
الخصب، ويمتد هذا الشريط من جنوب نهر
بيلوس الى حيفا لا يقطع الا مصب نهر
بيلوس المتغير ابدأ على مسافة حوالي ٩
اميال. ويبلغ عرض شريط التلال الرملية هذا
في الوسط حوالي الميل الواحد. الا انه ليس
خالياً من الخضرة تماماً اذ تقوم فيه هنا
وهناك انواع من العشب ذات الجذور الطويلة
Psammarenaria الى شجيرات ناحلة او قصيرة
بين حلقات من الشوك والعليق. اما جنوب
كيشون فالشريط الرمل ينتهي الى غابة
كبرى من أشجار النخيل تظلل حيفا وتشكل
احد أجمل مناظر فلسطين. والى الشرق من
كيشون، على مسافة حوالي أربعة أميال،
يمتد السهل بين الكتبان الرملية حتى اقدام
التلال حيث تقوم عدة قرى تحيط بها غابات
الزيتون واجزاء كثيرة من السهل مزروعة

على نحو جيد وتنتج القطن والتبغ والقمح والشعير الى الخضار المختلفة، كما تنبت فيه أنواع من السوس البري. وتزهو أيام الربيع ضفاف كيشون وحفافي البرك فيه، بالقرب من نبع جدرو، بأنواع كثيرة من الزهر، من السوسن الأزرق والأصفر الى مساحات واسعة يزينها مع شباط بساط من الالوان الليلية والكحلية والارجوانية والزرقاء والبيضاء والقرمزية وسواها مع بقع من النفلة والخبيزة وزر الذهب هنا وهناك.

وتعلو سريعاً بعد الامطار مروج خضراء ذات عشب طويل يبلغ القدمين احياناً لكنه سرعان ما يلوي الى الأرض. وهو بعد أخضر مما لا ينفع في تحويله الى تبن للحيوانات. ومع ذلك فان خيلاً كثيراً ترسل من حيفا الى هنا بهدف الرعي في خلال فصول المراعي القصيرة هذه.

وتنتشر بساتين حيفا بين غابة النخيل التي ذكرناها ومنحدرات جبل الكرمل. وتمتد من البوابة الشرقية للمدينة الى وادي سلمان وتكثر حول مجاريها وبركها الكبيرة الخزامى والزيتون البري كما تعيش في البرك



بئر ماء في بستان في حيفا.
والساقية او الكة التي تستخدم لسحب الماء.

نفسها أنواع من السمك والبط ومالك الحزين. ويقع بستان شقيقي على مسافة ميل ونصف الميل من حيفا مقابل وادي رشميا Wady Rashmia. وهو كسواه ينتج أنواعاً مختلفة من الفواكه والخضار تميزه شجرة التوت البيضاء الواسعة جداً، ولطالما اعتليناها مع الأصدقاء لساعة من الزمن، قبيل مغيب الشمس، ونتلذذ بطعم ثمارها أو افترشنا حصيرة في ظلها في ساعة الأصيل أو قعدنا على الحافة الصخرية لبركة الماء المجاورة. وتنتشر أحواض الورد والقرنفل في محيط بيت البستاني حيث يعيش مع زوجته اللتين تبدوان في وفاق تام رغم أن الأولى امرأة بدوية كبيرة السن بينما الثانية فتاة مصرية يبدو البستاني في حاجة إليها كيدٍ عاملة ماهرة في زراعة الطماطم والباذنجان وسواها. وتذكرني الصورة المنشورة في ص ٨١ ببستان آخر هو أول ما زرت في حيفا وهو يقع الى الشرق من بوابة المدينة، ففي عصر يوم جميل من أيام أكتوبر قادتنا طريق ضيقة الى بستان إجازة يقوم في زاويته كوخ صغير من الحجارة والطين يسكنه بستاني وعائلته. كان البستاني وعائلته مصريين (والمصريون كما يبدو أكثر مهارة من العرب [البدو] في زراعة الأرض رغم بدائية تقنياتهم والآتهم). وكان في البستان اشجار تين وزيتون ورمال ولوز وحامض وليمون وصفوف طويلة من أثلام الخيار والخضروات الأخرى بينما تسيج البستان أشجار بلح. كانت الثمار تتدلى كالثرثبات المذهبة ولكن لسبب ما لم تكن ناضجة بما يكفي. وجذبنا صوت مياه قريبة كانت تجري الى بركة مبنية من الحجر دونما كثير تشذيب أو عناية، كان يجلس اليها جماعة من العرب ترتدي الطرابيش أو العقال تدخن وتتسامر وتأكّل القثاء الطويل ذي الطعم الطيب، رغم ملمسه الخشن، والذي ينتجه البستان على وجه الخصوص. كان الماء يندفع غزيراً الى البركة من قناة تفرغ الماء اليها سلسلة من الجرار الفخارية مربوطة الى حبل من ألياف البلح تدور حول دولاب خشبي دائري تتدلى الجرار منه الى البئر، ويتصل بساعد خشبي يتحرك بحركة بغلٍ معصوب العينين وحين يتحرك الدولاب تهبط الجرار الى البئر فتملأ حين تغطس في الماء ثم ترتفع مع حركة الدولاب وحالما تصل القمة تفرغ ما فيها في القناة، المرة تلو المرة وطالما البغل يدور في حركته الدائمة، يلكره بين الحين والحين صبي حافي القدمين في يده عصا طويلة. (تسمى هذه الآلة الساقية ويقال أن أصلها فارسي كما أنها شائعة الاستعمال في مصر) وفي جدار البركة فجوة مقفلة يجري فتحها في اوقات محددة من النهار فتندفع عبرها المياه في قنوات ترابية وأثلام تروي صفوف الخضروات أو الاشجار.

تأخذ مدينة حيفا شكل المتوازي الأضلاع Parallelogram فوق منحدر قليل الارتفاع يحاذي البحر، وتحميها أسوار حجرية قوية. ولها بوابتان واحدة على كل طرف في موازاة الشاطئ كما أن فسحة في الوسط تبين فيها الجمال وسائقوها في ضوء المنارة أو ضوء القمر وتوزع البيوت في المدينة عشوائياً، سقوفها عدا القليل مسطحة وغالباً ما يكسوها العشب الأخضر بعيد هطول المطر. أما دور القناصل والتجار الأجانب وأثرياء المدينة فغالباً ما تكون في طبقتين حسنة البناء ويحتوي بعضها على ردهات استقبال واسعة مرصوفة بالرخام وتستعمل الطبقة الأرضية في الغالب بمخازن أو اسطبلات. وتزداد أهمية المدينة يوماً بعد يوم وأسواقها. محلاتها مملأ بالبضائع، كما أن كثيراً من المنازل يبني الآن خارج الأسوار. لم يكن في حيفا، حين وصلت اليها للمرة الأولى سنة ١٨٥٥، مساكن خارج الاسوار، خلا أكواخ البساتنة في الحقول كما أن سكانها لم يكونوا ليزيدوا عن الألفي ساكن؛ أما اليوم فهم حوالي ٥٠٠٠ ساكن، نصفهم أو أكثر مسيحيون من كل الطوائف، والباقي محمديون مع عدد لا بأس به من اليهود. ويرتفع خلف حيفا، مباشرة، منحدر حاد هو واحد من هضاب جبل الكرمل، تتناثر فيه بقع من أشجار الزيتون والبطم وتقوم على قمته قلعة صغيرة تدعى «برج حيفا» وهي التي انصبت عليها قذائف المدافع الانجليزية سنة ١٨٤٠ (راجع مصور جبل الكرمل وصفحة ٨٣) ورغم أن المدينة والقلعة تبدوان قديمتين فإنهما حديثتان جداً في الواقع وتعودان الى العام ١٧٦١م وما بعده.

أما حيفا التاريخ القديم التي احتلها الصليبيون سنة ١١٠٠ ثم استعادها صلاح الدين سنة ١١٩٠ ثم احتلها ثانية لويس التاسع الذي أعاد تحصينها فهي تقع على مسافة حوالي الميل ونصف الميل الى الشمال الغربي من المدينة الحالية، وتمتد حتى رأس الكروم تقريباً. كانت حيفا عند الفاتحين المسيحيين seigneurie de Caiphas ومن الذين تعاقبوا على حكمها تنكريد Tancred حاكم انطاكية بعد ذلك، ورورجيوس Rorgius الذين كان لورد عبرون Lord of Hebron. ولكن مدينة الصليبيين تلك ضاعت وذلك حينما دمرها المسلمون بالكامل تقريباً عند نهاية القرن الثالث عشر. وحينما تولى ظاهر العمر حكم وسط فلسطين بدءاً من سنة ١٧٦١ وجد أن المدينة القديمة مكشوفة لغارات القبائل البدوية من

جهة سهول عتليت، فقرر اخلاءها نهائياً واستخدم حجارة أبييتها وأسوارها المدمرة لبناء أسوار المدينة الجديدة وابتنى، الى ذلك، السراي والقلعة. وكذا السكان الذين ابتنوا، كذلك، منازلهم وبنسب مختلفة من ركام الابنية القديمة. وظلت حيفا القديمة لقرن من الزمن مجرد مصدر حجارة مشدبة جاهزة لتشييد الأبنية والإنشاءات الجديدة. أما اليوم فموقع المدينة القديمة مغطى تقريباً بالبساتين أو الرمال المتحركة، إلا أنه تبرز هنا أو هناك بقايا اسوار قديمة وأعمدة مكسورة ومساحات مرصوفة، بينما تزرع الشاطئ في غير مكان حطام حجارة غرانيتية بروفيرية وقطع من الرخام المرقط وبقايا أخرى. كما أن هناك بقايا برج قديم تغسلها مياه البحر عند الشاطئ تماماً. ويروى أن «كنوزاً مدفونة» متفاوتة الأهمية، قد عثر عليها بين تلك الآثار. وأعظم تلك الكنوز قيمة هو ما عثر عليه قبل ثلاثين عاماً حينما عثر عامل كان يحفر في الأرض بحثاً عن حجارة بناء على جرة من الفخار تحتوي على ألف قطعة ذهبية تعود الى حقبة سابقة على الحكم الاسلامي على فلسطين. وعند منتصف الطريق بين حيفا الحديثة والآثار القديمة حينما يتسع الشريط الرملي بين منحدرات الكرمل والشاطئ الى أكثر من نصف ميل، تقوم مستوطنة ألمانية صغيرة لجماعة الهيكل تأسست قبل بضع سنوات وتتألف من مزارعين وعدد من أصحاب الحرف وقد عاش بعض هؤلاء في أميركا وهم يتحدثون الانجليزية. أما عددهم فقد بلغ سنة ١٨٧٧ ثلاثمائة وخمسين فرداً. وتتألف قريتهم من شارع طويل مستقيم يذهب صعوداً من شاطئ البحر الى أقدام التلال. ويقوم شارعان متوازيان، جنباً الى جنب؛ بينما البيوت، وبعضها ذات سطح قرميدي أحمر مائل، مبنية من حجارة مكسية أو بنية مقتلعة من الجبال القريبة. وتقوم الى جانب كل مسكن حديقته الخاصة وفيها بئر ماء وخزان لجمع مياه المطر. ومحيط الشارع مزروع بشجر التوت والجميز وأنواع أخرى، كذلك استصلحت حفاقي التلال القريبة وزرعت بالكرمة. وفي المستوطنة، كذلك، معبد وكلية تدرس غير لغة، ومنها العربية، ومكتبة وقاعة مطالعة، ويقوم عند الطرف الاسفل من الشارع فندق بسيط البنيان لكنه يقدم خدمة ممتازة للمسافرين والزائرين، وتقوم بالقرب منه نقطة حراسة ليلية.

ووراء المستوطنة، نحو الشمال الغربي يمتد السهل ليصل الى رأس الكرمل، بطول يقارب الميل وربع الميل ومتوسط عرضه حوالى ثلاثة أرباع الميل، أي بمساحة تقارب الستمئة فدان من الأراضي العالية الجودة والخصوبة. يملك الالمان أو يستأجرون نصفها، والنصف الآخر للعرب إلا انها كلها مستصلحة ومزروعة على نحو جيد وتنتشر بضع حلقات من أشجار الزيتون يملكها المستوطنون عند حفاقي الهضبة بينما عند الشاطئ أشجار تين وصبير الى اشجار فواكه أخرى. وشق المستوطنون طريقاً للعربات بين حيفا ونازاريا يستخدمونه لأغراض الشحن والتجارة، كما أنهم أقاموا معملًا للصابون ينتج أنواعاً جيدة ويصدر قسم من انتاجه الى أمريكا. ولدى كل عائلة بقرة أو اثنتان وبضع رؤوس ماعز ويتولى العرب رعايتها وأخذها الى المراعي يومياً. والمستوطنون ليسوا أغنياء، الا انهم يملكون ما يحتاجون إليه ويبدون سعداء. كذلك هم يعيشون بتفاهم وسلام مع أهل البلاد لكنهم ليسوا مبالين للاختلاط في ما بينهم*.

ويقوم قرب الشاطئ الصخري على أقدام الطرف الغربي لجبل الكرمل، حيث يضيق السهل الى أدنى نقطة فلا يزيد في ذلك الموقع عن ٢٠٠ ياردة، تل من الركام والآثار يدعى «تل السماق» وآثار حصن قديم أنشئ كما يبدو لحراسة الممر. والمكان كما يعتقد هو موقع سيكامانيا Sycaminum المدينة التي وصفها سترابو Strabo المتوفي سنة ٢٤ ميلادية. لم يكن للمدينة آنذاك غير اسمها الا انها كانت قبل قرن واحد من الزمن على مقدار من الأهمية بدليل العملات الذهبية الجميلة والكبيرة التي صكت فيها سنة ١٢٥ ق.م. (أو ١٨٧ في التقويم الروماني) على اسم كليوباترا، ابنة بطليموس السادس فيلوميتر Philometer التي تزوجت ثلاث مرات (وتروى قصة حياتها في مكابي ج ١، X, XI) ويروي جوزافوس Josephus ان بطليموس الثامن، لايتروس، الذي أتى من قبرص على رأس جيش من ثلاثين ألف رجل لحصار بطليموسة (عكا) قد نزل في هذا الموقع: «لقد أتى الى بلاد سكامانيا وأنزل جيشه على شاطئها». وأياً يكن الموقع الدقيق «للمدينة» فإن بلادسكامانيا كانت تشتمل على شاطئ الملاذ* المسمى زبولون Zebulun الواقع بين المنحدرات

* «مسيحيو الهيكل»، أو محبو اوروشليم، فرقة دينية المانية نشأت في بلدة ورتمبرج سنة ١٨٥١ من تلاقي بضعة افراد كرسوا حياتهم للشأن الروحي، فالفوا جمعية ازداد عدد افرادها بسرعة ثم اصدروا من سنة ١٨٥٣ صحيفة يحررها كرستوفر هوفمان الذي انتخب رئيساً للجماعة وأحد أهدافهم المساعدة في أحياء الأرض التي كانت تنضج يوماً ما حلياً وعسلاً وارسلت الجماعة سنة ١٨٦٨ متطوعين اختاروا أماكن للاستيطان في حيفا ويافا فوصلت طلائع هؤلاء المستوطنين في خريف ذلك العام كذلك اقيمت مستوطنة مشابهة بالقرب من اوروشليم.

* استخدمنا مفردة «ملاذ» مقابل Haven بمعنى مكان الامن الطبيعي الذي تلوذ به السفن وهو جزء من مصطلح المرفأ الحديث لكنها أكثر دقة واحسن وصفاً وتعبيراً [م]



الشمالية لجبل الكرمل. «كانت زبولون مكانا للسكن عند البحر وكانت ملاذاً للسفن» (التكوين، 13 . XLIX راجع ص ٨٣). وكلمة 𐤌𐤊𐤍 العبرية للمرفأ هي تحريف صوتي طفيف للفظة «حيفا» العربية أوÉ اليونانية .

ويتحدث ايسبيوس Eusebius المتوفي سنة ٣٣٨ م، كذلك، عن قرية سكمانيا «والتي تدعى حيفا أيضاً» مما يعني أن قرية سكمانيا الجديدة قد اُبتنيت على الملاذ نفسه التي تقوم عنده الان حيفا العتيقة (راجع الخارطة). وفي التلمود إشارة الى 𐤌𐤊𐤍 ، حيفا وسيكمونا Shikmonah.

ويسود الاعتقاد منذ زمن قديم أن جبل الكرمل، او جبل مار الياس كما يدعوهُ العرب هو مكان مقدس او «جبل الرب» ويظن ان مذهباً «لإله الكرمل» كان قد اُبتني في زمن تاكيتوس Tacitus ولكن لا اثار اليوم تدل عليه، وعلى هذا المذبح ضحى قديماً قسباسيان Vespasian حين استشار الكهنة في مستقبله وحظه .

وكانت كهوف جبل الكرمل ومنذ زمن طويل أمكنة للعزلة والعبادة والتأمل للكثير من القديسين، بل يروى

دير جبل الكرمل.
وتشاهد من على سطحه مناظر جميلة على طول الشاطئ شمالاً وجنوباً . والمبنى الى اليسار لإقامة الحجاج المحليين وفوقه منارة ترتفع ٧٠ قدماً فوق سطح البحر.



ان فيثاغوراس نفسه قد اعتزل هنا لبعض الوقت
 بهدف البحث والتأمل. وسكن هذه البقعة، بعد
 الانبياء والفلاسفة، النساك المسيحيون الأوائل.
 وفي سنة ٤٠٠ ميلادية أصدر بطريرك القدس حنا
 تشريعاً رسمياً لـ «صوامع جبل الكرمل» تمجيداً
 لاسم النبي مار الياس. (ويروي سكان حيفا الكثير
 عن هذه الصوامع ونسائها). وعن هذه الصوامع
 نشأ التقليد الرهبني الكرملّي الذي يعود الى أوائل
 القرن الثالث عشر. وابتنى هؤلاء، في رعاية
 الصليبيين، ديراً لهم زاره لويس التاسع سنة
 ١٢٥٢. وكان ادوارد الأول أحد كبار تابعي هذا
 التقليد، وبين أبرز كهنته سيمون ستوك، من كنت
 Kent انجلترا، الذي اعتزل لسته عشر عاماً في
 إحدى المغاور، وهي اليوم مقفلة في معبد يقع على واحد من
 منحدرات جبل الكرمل تحت المنارة تماماً توفي ستوك سنة
 ١٢٦٥ وتحفل ذكره مكاناً مميزاً.
 وتعرض الدير سنة ١٢٩١، بعدما خسر الصليبيون

الكهف المعروف «مدرسة الانبياء»
 ويحج اليها المحمديون على اسم النبي الياس
 والبيت الى اليمين حديث في موقع هيكل معبد قديم
 في مواجهة مدخل الكهف.

فلسطين نهائياً، للنهب والتدمير وقتل عدد من كهنته ورهبانه. دمرّ الدير تماماً واستمر على حاله لفترة طويلة ثم أعيد بعد فترة طويلة ترميم الكهف الذي يقع أسفل جبل الكرمل والمسمى «مدرسة الرسل» وذلك من قبل مجموعة كرملية صغيرة اشترته وأقامت لها سكنى قريبة منه كذلك ابتنى فرا بروسبيرو Fra prospero معبداً في المكان، لكن رهبان المعبد ذبحوا سنة ١٦٣٥ ووقع المكان في يد المسلمين والمكان من ذلك الوقت مزار لعدد كبير من المؤمنين والزوار ومن كل الطوائف. وتضاء فيه الشموع ليلاً على اسم النبي الياس ويقع الكهف في ٢٨ قدماً طولاً و ٢١ قدماً عرضاً وثمانية اقدم ارتفاعاً، وجزء منه مضاف ومشغول، وهو مقصود للدعاء والتبرك والزيارة. ولقد رأيت مرة فيه سرير طفل صغير قيل لي ان اماً جلبته رجاء البقاء لطفلها الوليد بعدما خسرت طفلين آخرين من قبل. وابتني منذ سنوات قليلة بيت صغير حيث كان معبد فرار بروسبيرو، وفي مواجهة مدخل الكهف تماماً. كما تنمو شجرة نخيل في الساحة الداخلية المحيطة بالكهف اما الدير الذي زاره نابليون سنة ١٧٩٩ واستخدمه مستشفى للجرحى من جنوده في أثناء حصاره الفاشل لعكا فقد دمره عبدالله باشا سنة ١٨٢١.

ورغم ان الدير الحالي او «دير جبل الكرمل» هو موقوف على اسم مريم العذراء فهو لا يعرف لدى العامة الا باسم دير مار الياس. يدين الدير الحديث ببناؤه للجهد الخارق الذي بذله أحد الرهبان وهو فرا (الأخ) جيوفاني باتيستا دي فراسكاتي الذي قام بجمع المال اللازم للترميم واعادة البناء ووضع الحجر الاساس له سنة ١٨٢٨ وبناء الدير متين قوي يحميه خندق من الجهة الشمالية، بينما القسم المتقدم من الدير، لجهة الشرق، هو نتوء المعبد القديم الذي كان ابتني في المكان الذي يقع فيه كهف مار الياس. وفي الداخل لجهة المذبح تمثال ضخم للنبي محفور من خشب تزيينه زخارف وخلخيل وعقود من الفضة وتتدلى من سلسلة عملة ذهبية نمساوية ذات خمس سفرنات* والزخارف هي أعطيات او نذور من فلاحي جبل الكرمل ومن بينهم الدروز. ويسكن الدير عموماً من ١٨ الى ٢٠ راهباً أحدهم جراح مجاز. وهناك دائماً مكان وأسرة جاهزة لاستقبال الزائرين الاوروبيين، حيث يحتفظ بثمان وعشرين سرير في حالة مماترة في الطابق الاول لهذه الغاية. أما الحاج المحليون فيمكن ان يبيتوا في فرش على الأرض او في البناء المجاور للمنارة غربي الدير، ويعنى الرهبان بزراعة بستان فيه أنواع مختلفة من الزهور والخضروات وكروم جيدة. وهم يقطرون من الاعشاب البرية المنتشرة في الكرمل أنواعاً جيدة من المشروبات والأدوية ويملك الدير حوالى ٣٠٠ راس ماعز وعشرين رأس بقر يوكل أمر العناية بها الى عمال محليين يقودونها كل صباح الى المراعي. وهناك بضعة معابد الى الجنوب والشرق من الدير تدعى «روميتوري» Rumitorii ويقوم في واحد منها تمثال لحنا الانجيلي محفور من خشب.

وعلى بعد حوالى ميلين جنوب الدير يبدأ وادي السياح Wady es Siyeh الذي يتدرج صعوداً، وهناك على المنحدر الغربي لجبل الكرمل آثار معروفة بـ «الدير» The Convent. وهي في جوار «عين السياح» وعلى مقربة من الكهف الكبير والمشغول جزئياً، والذي اعتزل فيه وفق السائد النبي مار الياس وعليه اليوم مقام مقدس عند المسلمين. ولعل الآثار القائمة هي بقايا الدير الذي كان ابتناه بروكاردوس (ثاني الرؤساء الكرمليين) «عند عين الياس» ولم يبق من الدير القديم الا القليل، بعدما ذبح خدمه سنة ١٢٣٨، ولم يحاول الكرمليون استعادة الموقع فأل من ثم وبالتدريج الى الخراب.

وفي موقع آخر من الوادي أعلى قليلاً، مكان يدعى «بستان الياس» حيث تتناثر حجارة مجوفة (او الجيودات geodes عند الجيولوجيين) أو الثمار المتحجرة وفق الاساطير المحلية. وتشبه الحجارة الكبيرة، والتي غدت نادرة الآن، البطيخ من حيث الحجم والشكل، أما الحجارة الاصغر حجماً والتي تعتبر تفاحاً فهي اكثر شيوعاً وتتألف هذه الحجار المجوفة من حجارة صوانية ذات لون شاحب تكسوها طبقة رقيقة من الكلس ذات لون أسمر. أما الداخل فمغطى بزجاج الكوارتزاة والعقيق، والكثير منها جميل وآخاذ. وبالإضافة الى هذين النوعين، هناك حجارة أخرى أصغر حجماً لاختلف كثيراً عن حبات الزيتون شكلاً وحجماً وتعرف بـ ليوباديس فيودايسي Lapidis fudaici ويمكن ان تكون الاساس لاصفورات متحجرة من نوع سيداريس غليناري فارا Gidaris glandifera. وهناك أساطير شائعة متباينة حول مصدر هذه الحجارة، الا ان واحدة منها سمعتها في المكان عينه حين صرفت نهاراً كاملاً في الوادي برفقة اخي

* سفرته هي جنه ذهبي قديم [م]

وصحب كبير من الاصدقاء من حيفا، وتقول الرواية أنه «في ايام النبي مار الياس كان لرجل بستان كبير في الوادي، وكان غناء معطاء كثير الثمر، ومَرَّ مار الياس يوماً بصاحب البستان بينما هو يجمع تلالاً من البطيخ، فسأل مار الياس الرجل اعطاه واحدة لإرواء عطشه. لكن الرجل أجاب «هذه ليست فاكهة انها كومة حجارة» فقال مار الياس «لتكن كذلك» وتحولت الثمار في الحال الى حجارة وغدت تلال الغلال والثمار أكوماً من الحجارة»*

والحج الى هذا المكان ممتع جداً وخصوصاً في اوائل الربيع حين تتلألأ في جنبات الوادي ألوان الزهر الذي يوشك ان يعقد، وتفوح رائحة نباتات تشبه البخور والنرسيس، الى أزهار برية أخرى تكثر في ذلك المكان. ويمكنني أن أضيف، وللإشارة الى درجة برية هذا الوادي، أنني وجدت الى فاكهة بستان مار الياس انياب خنزير بري وقرن غزال جميل ومخلب نمر أو فهد.

اما الوادي الآخر على الجهة المقابلة من الهضبة فهو أحد فروع وادي رشميا، وهو وادٍ جميل يتجه شمالاً قبل أن يتصل «بنهر المتني» على مسافة حوالى الميل من حيفا. كانت ضفتا وادي رشميا مزروعتين في ما مضى بالزيتون والكرمة إلا أنهما اليوم مهملتان ويملاهما الشوك والعليق. وفي موقع مشرف يعلو ٧٧٧ قدماً فوق سطح البحر توجد بقايا حصن قوي مستطيل الشكل مع برج مربع عند زاويته الشمالية الشرقية، وسماكة حيطانه حوالى ٧ أقدام وهي من حجارة كلسية ناعمة. ورغم ان البناء يبدو حديثاً نسبياً الا انه مهجور تماماً ويؤول سريعاً الى الخراب. والى الجنوب من الحصن ضريح منعزل اقتطع من صخر ويعود الى الأزمنة الأولى المبكرة. وعلى مدخله المربع أخدود محفور في الطرفين كان كما يبدو مكان حجر متحرك قطره ٤ أقدام هو بمثابة قفل للضريح، وهو الذي يجعل الضريح جديراً بالاهتمام (راجع مارك xvi.4) لأنه بات نادراً العثور على أضرحة من هذا النوع. وقد قام ليوتنانت كوندور بدراسة دقيقة للضريح ويقول أنه «يحتوي كذلك على ثلاث غريفات صغيرة حفرت في الصخر الصلب».

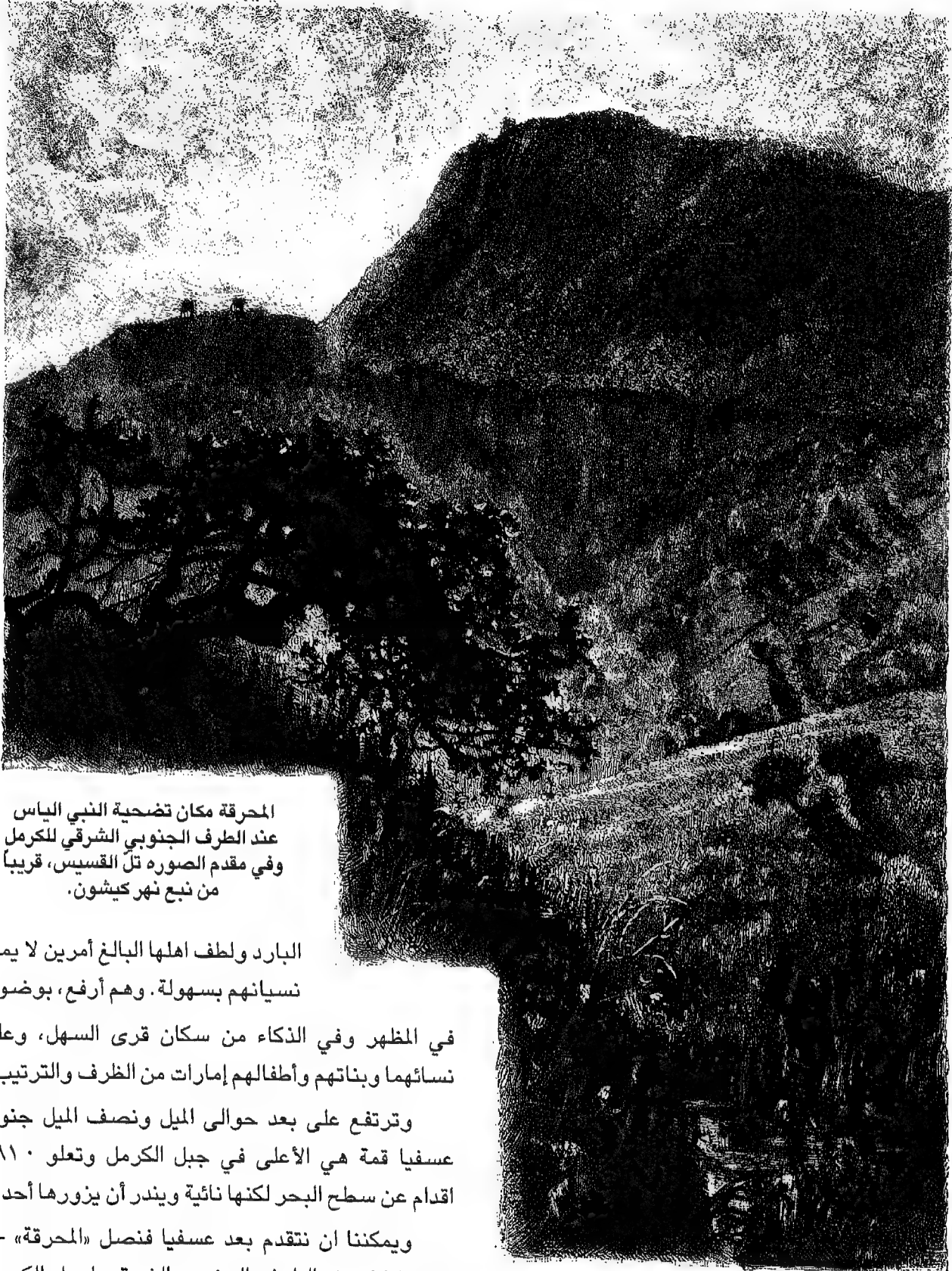
وهناك الى الشرق من حيفا مباشرة واد صغير يدعى وادي الصليب معروف باعشابه العطرية والطبية وخصوصاً القصعين في انواع مختلفة والصعتر البري واللافاندر وإكليل الجبل، الى الهليون البري وغيره.

وكما يقال في الحكواتي العربي حين يضيع خيط روايته فيضيع في هذا الوادي او ذاك، كان صعباً علي تجنب مصير مماثل، حيث لكل وادٍ لكل حنية في جبل الكرمل جاذبية خاصة تشدني اليها فتبقيني عندها ساعات. الا انه كان علي في النهاية ان أسرع الخطى صعوداً صوب سفح جبل الكرمل. يمتد السفح وفق الخارطة الى الجنوب الشرقي بدءاً من الدير الكرمل، والذي يعلو ٥٥٠ قدماً فوق سطح البحر وترتفع تلاله بالتدريج وصولاً الى قرية عسيفيا Asfia الدرزية، على بعد حوالى ١٠ أميال حيث يصل ارتفاعه الى ١٧٤٢ قدماً. ولا يوجد بين المكانين ساكن واحد كما لا أثر للزراعة، بل ينتشر الشوك والعليق والورد البري الى أجسام من شجر السنديان وأنواع أخرى مثل الزيتون البري والصنوبر. ويعرش العليق من شجرة الى أخرى بينما تمتد بعد فصل الأمطار بسط جميلة من الازهار ذات الالوان المختلفة. وتتناثر في غير مكان من هذه الهضاب آثار أو بقايا أبنية ومطاحن ومعاصر زيت أو كرمة تشير كلها الى ان المنطقة كانت مأهولة على نحو جيد في ما مضى كما كانت زراعتها عامرة. ويقال أنه حتى العقد الثاني من هذا القرن كان هناك في المنطقة ١٧ قرية درزية كلها مأهولة، وقد دمّرت جميعها في الحقبة المضطربة التي اعقبت ذلك التاريخ ولم يبق غير قريتين اثنتين على جبل الكرمل، عسيفيا ودالية الكرمل على مسافة حوالى المليون وربع الميل الى الجنوب الغربي من الاولى. وأهمية دالية الكرمل هي أنها تحتفظ بالاسم القديم للجبل، فالدالية هي الكرمة المعرشة او «كرمة الرب». ولا تزال القريتان الدرزيان الى اليوم تحتويان على حقول من الكرمة معتنى بها الى مساحات أخرى تزرع بالحنطة او تنمو فيها اشجار الزيتون وأنواع أخرى من الأشجار المثمرة، ويقوم عدد قليل من المسيحيين هنا، على وفاق وود تأمين مع الدروز إلا أنهم يتميزون، عن سواهم، بثيابهم والتي هي أقرب الى ثياب سكان الناصرة.

والمنازل مبنية من الحجارة وهي نقيض الأكواخ المبنية من الطين والمنتشرة في السهل. وقد اختير، في المسح

*هناك روايات أخرى شائعة بين سكان فلسطين تشبه هذه الرواية من حيث الشكل.

الاخير، سطح أعلى بيت في عسفيا موقع ارتباط لأعمال المسح، كأعلى نقطة في تلك المنطقة وكان الأمر بالتأكيد موضع اعتزاز من أصحاب المنزل. وكان قد قدر لي، ذات صيف حار، أن أقيم في عسفيا لبعض الوقت فبدا هواؤها الجبلي



المحرقة مكان تضحية النبي الياس
عند الطرف الجنوبي الشرقي للكرمل
وفي مقدم الصورة تل القسيس، قريباً
من نبع نهر كيشون.

البارد ولطف أهلها البالغ أمرين لا يمكن
نسيانهم بسهولة. وهم أرفع، بوضوح،

في المظهر وفي الذكاء من سكان قرى السهل، وعلى
نسائهما وبناتهم وأطفالهم إمارات من الظرف والترتيب.

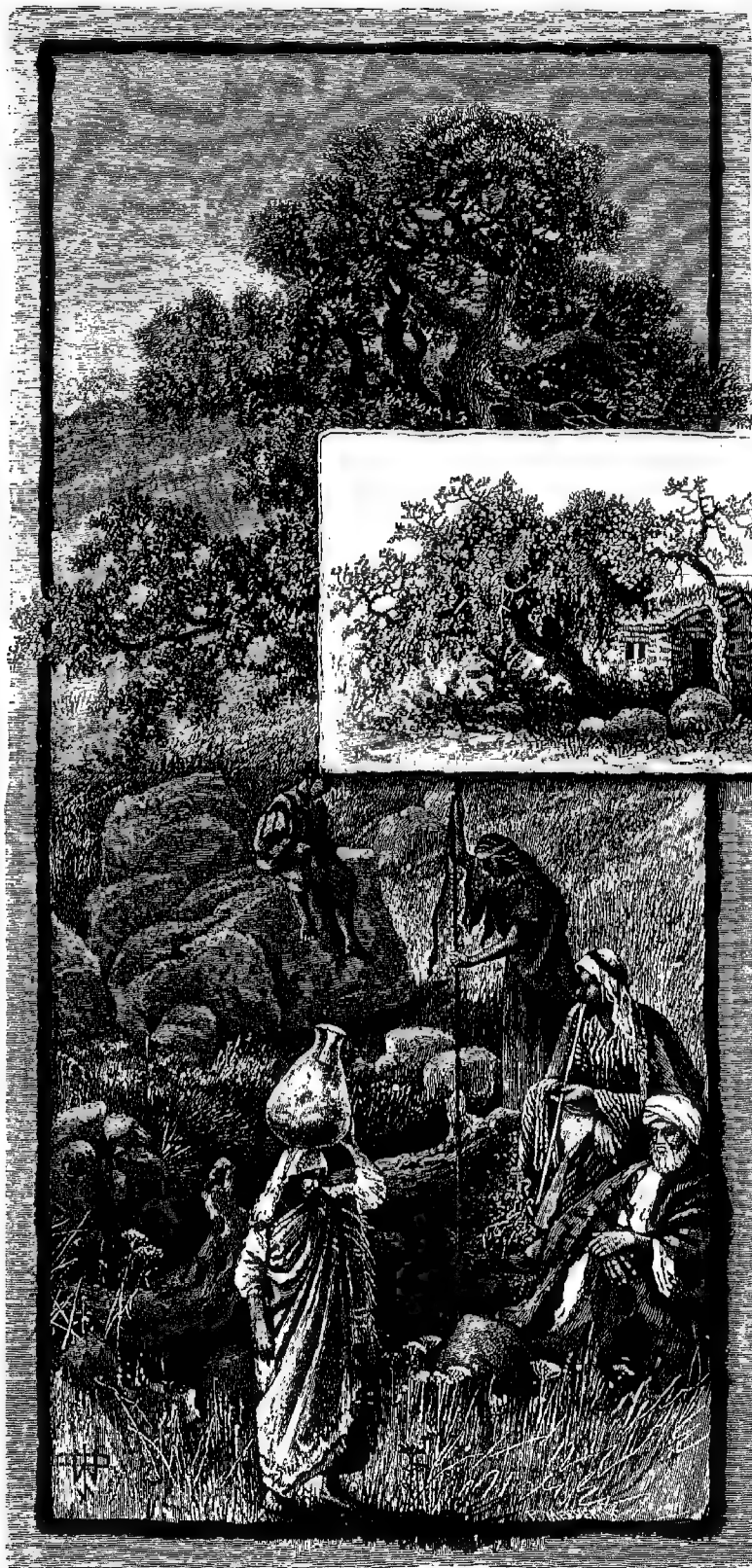
وترتفع على بعد حوالى الميل ونصف الميل جنوب
عسفيا قمة هي الأعلى في جبل الكرمل وتعلو ١٨١٠
أقدام عن سطح البحر لكنها نائية ويندر أن يزورها أحد.

ويمكننا ان نتقدم بعد عسفيا فنصل «المحرقة» Al-
Maharakah عند الطرف الجنوبي الشرقي لجبل الكرمل.

ورغم أنها لا تبعد أكثر من ثلاثة أميال كخط مستقيم فإن الطريق إليها يستغرق عملياً حوالى ٥ أميال، يضيع بين
الهشيم والعليق والتلال الصخرية وهو وبسبب من وحشته غير معين بدقة ولا يمكنك سلوكه من دون دليل مجرب.

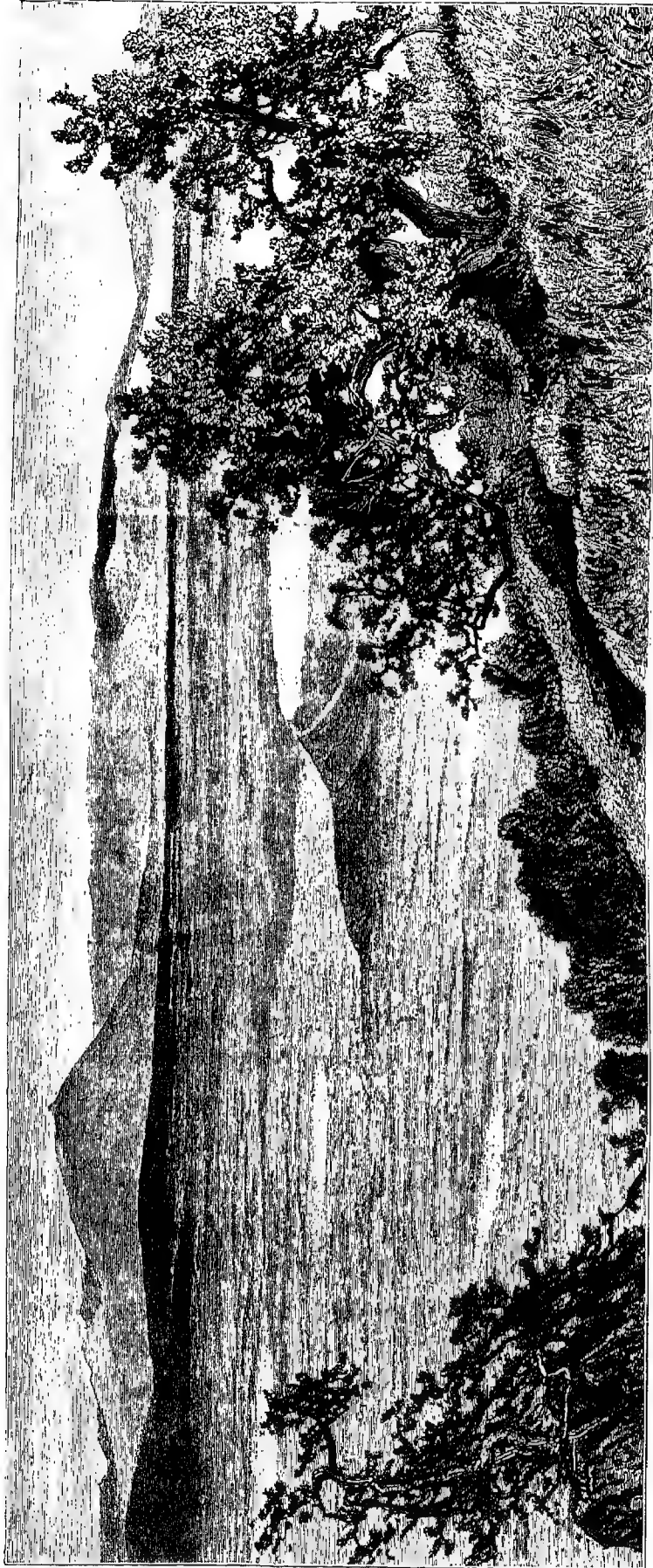
وتقوم «المحرقة» على مسطح صخري على ارتفاع ١٦٨٠ قدماً عن سطح البحر وفي مواجهة سهل اسدرالون . يرتفع فوق المحرقة منحدر حاد يعلو ٥٠ او ٦٠ قدماً تكسوه الاشجار ويقوم على سهل صغير تحته بئر ماء محفور في الصخر ويدعى «بئر المنصورة»، تظله بضع شجرات باسقة إحداها من البلوط التركي .

وبحسب اعتقاد كهنة الدير ودروز جبل الكرمل فان هذا المكان هو الذي شهد حوار مار الياس مع رسل بعل Baal الاربعمئة والخمسين وبحضور الملك أهاب Ahab وأبناء اسرائيل ورسل المهد الاربعمئة . والتحديد الدقيق لهذا المكان يورده راهب ايطالي سنة ١٧٨٠ في تاريخ مختصر لجبل الكرمل . ويؤكد دين ستانلي Dean Stanley الذي



زار المكان سنة ١٨٥٣ أن الاعتقاد المتداول، وبخلاف الكثير من الاعتقادات الأخرى هو صحيح بل لعله الحدث الصحيح الوحيد الذي جرى حفظه في تراث التسميات المحلية فالسائد هو حفظ اسم البلدات او المدن . أما هنا فلا اثر لبلدة او مدينة ، بل مجرد ركام لا شكل له ومع ذلك فله اسم محدد وذو دلالة معينة: المحرقة او مكان الحرق او التضحية ويأتي الدروز من أمكنة بعيدة ليؤدوا أضياعهم في المكان . ورغم الاحتمال الذي يذهب أن المكان قد اكتسب إسمه من هذا التقليد ، فإن الأكثر احتمالاً أن هذا التقليد انما هو استمرار لتقليد مماثل أسبق عهداً ... ويمكن أن يكون قد قام على قمة الجبل ، هذا المكان المقدس ، هيكل يهوا الذي دمره جيزبل

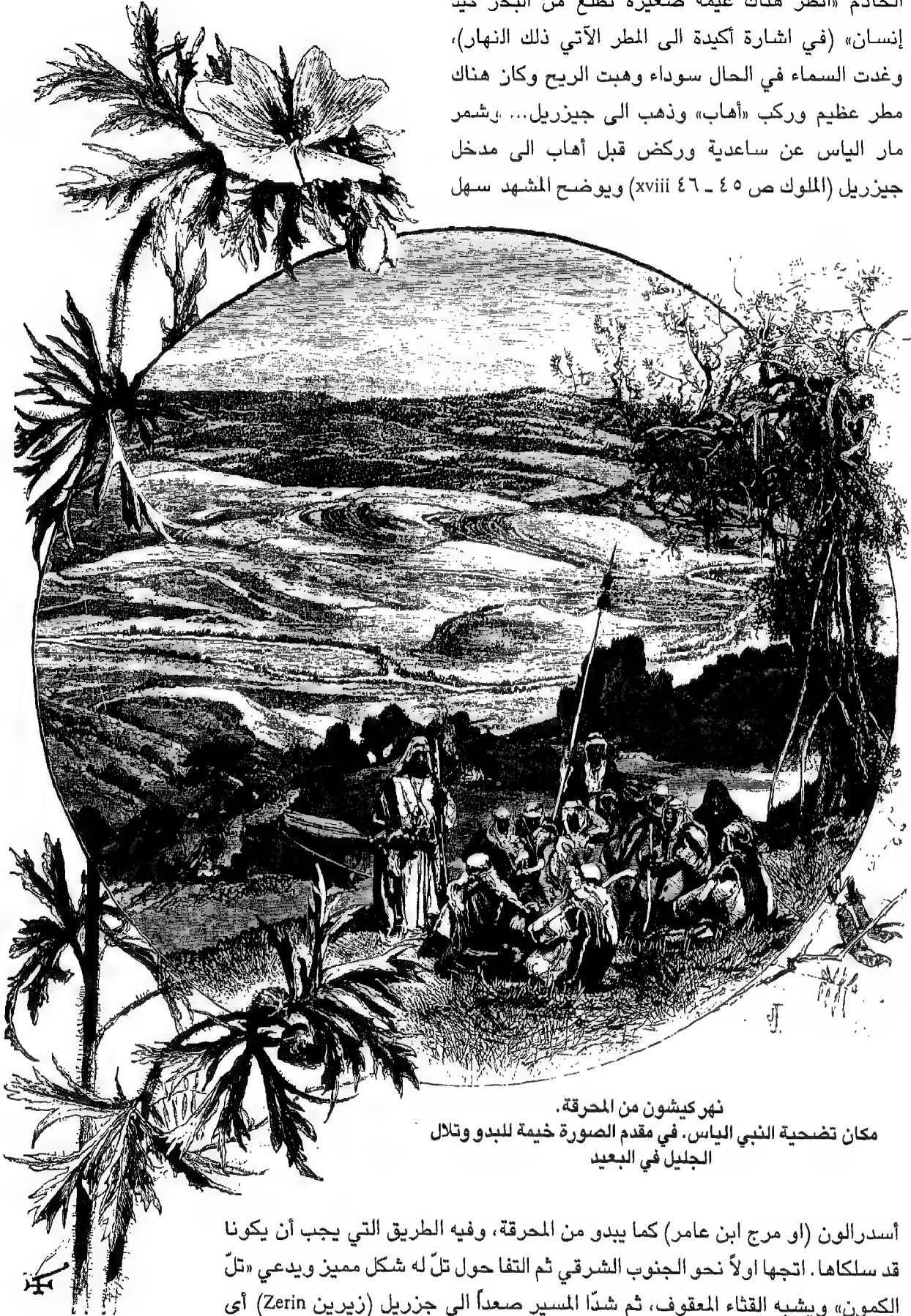
بئر في المكان الذي ضحى فيه مار الياس ومنظر للهضاب القائمة فوقه ، تشرف على خط طويل من الساحل في سهل عتليت وشيء من البحر الأزرق خلفه .



سهول اسدرلون من المرتفعات فوق المحرقة، نحو الجنوب الشرقي وفي البعيد، في الوسط، قرية زيرين (Jezreel) وقعتها البيضاء. وإلى اليسار جبل الضحي (Duby) أو حرمون الصغير، وإلى اليمين مرتفعات جيلبوا Gilboa

Jezebel. وتحت هذه القمة مباشرة في فسحة رحبة في ظل شجرات زيتون عتيقة وحول بئر ماء جلس الملك وشعبه في جانب ومعه رسل بعل وعشتار الثمانمائة والخمسون وفي الجانب الآخر صورة يهوا الأمر الناهي. وينفتح دون ذلك السهل الكبير في أسدرلون Edraslon بينما مدينة جيزريل Jezreel وقصر أهاب ومعبد جيزبل Jezebel على مسافة ليست بالبعيدة. أما أقرب من ذلك فتقوم ضفتا نهر كيشون يتلوى كما الأفعى. كان كهنة بعل يصرخون من الصباح الى الظهر، ومن الظهر الى المساء «يا بعل اسمعنا». وحين غابت الشمس خلف الجبل كانت تضحية مار الياش تقبل بالنار المنبعثة من أطراف السماء. والفصل الأخير انما حدث في السهل عندما جلب مار الياش الرسل المهزومين الى منحدر كيشون، وتخلص منهم هناك. ويعتقد أن المشهد المرعب هذا إنما حدث في جوار «تل القسس» Tell El Kessis حيث يوجد تل صغير مخضوضر عند الجزء الاضيق من الممر يدعى «الكسب» ELKasab يربط سهل أسدرلون بسهل عكا؛ وهو ليس بالاعتقاد الضعيف خصوصاً اذا علمنا أن هناك ممراً ينزل من المحرقة الى نهر كيشون في مقابل تل القسس تماماً. والنهر في هذا الموقع، وعند هذه الفترة من السنة، هو عموماً ضحل بل وجاف أحياناً وما تلا من احداث يرتبط مباشرة بالمحرقة. فقد عاد مار الياش الى المكان العالي على رأس الجبل لكنه طلب من خادمه أن يصعد أكثر وأن ينظر الى البحر ثم صعد الى قمة المنحدر الذي يكسوه الشجر ويخفي الأفق الغربي فنظر ورأى المتوسط خلف سهل عتليت كما لم ير غيماً. فقال له مار الياش

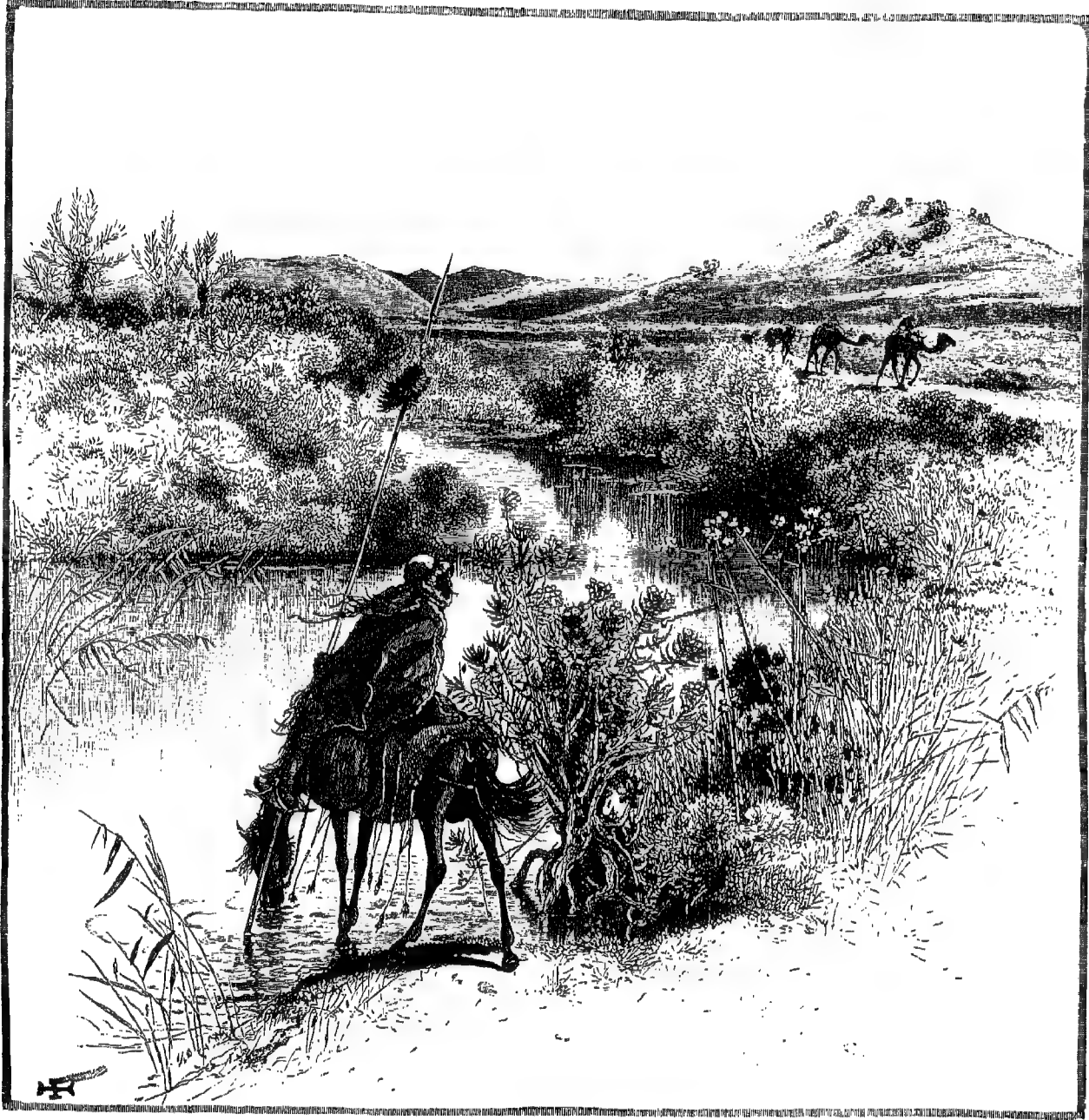
«أذهب من جديد» سبع مرات وفي المرة السابعة صاح
الخادم «انظر هناك غيمة صغيرة تطلع من البحر كيد
إنسان» (في اشارة أكيدة الى المطر الآتي ذلك النهار)،
وغدت السماء في الحال سوداء وهبت الريح وكان هناك
مطر عظيم وركب «أهاب» وذهب الى جيزريل... وشمر
مار الياس عن ساعدية وركض قبل أهاب الى مدخل
جيزريل (الملوك ص ٤٥ - ٤٦ xviii) ويوضح المشهد سهل



نهر كيشون من المحرقة.
مكان تضحية النبي الياس. في مقدم الصورة خيمة للبدو وتلال
الجليل في البعيد

أسدرالون (او مرج ابن عامر) كما يبدو من المحرقة، وفيه الطريق التي يجب أن يكونا
قد سلكاها. اتجها أولاً نحو الجنوب الشرقي ثم التفتا حول تلّ له شكل مميز ويدعي «تلّ
الكمون» ويشبه القنّاء المعقوف، ثم شدّا المسير صعداً الى جيزريل (زيرين Zerin) أي
الى مسافة تقدر بستة عشر ميلاً. وتبدو واضحة القرية الحديثة وقلعتها القديمة.

ومن المحرقة يمكن مشاهدة نهر كيشون للجهة الشمالية، في أحسن صورة حيث مياهه عالية في فصل الامطار كما تندفع سيول قوية من التلال المجاورة الى مجراه. وينبت على ضفتيه الدفلي والورت والعليق والقصب وحشائش ونباتات من أنواع مختلفة. ويبدو خلف النهر «تل القسس» وأبعد قليلاً عند حافة غابة البلوط تلوح في مؤخرة الصورة وراء الشجر، قرية تدعى «الشيخ بريك» وتشتهر بكهوفها العميقة المعروفة بـ«جهنم» وهي تستحق فعلاً الزيارة وتقوم أسفل النهر، عند الطرف الأسفل من الممر الضيق الذي يوصل الى سهل اسدرالون بسهل عكا قرية تدعى «الحروثية»



نهر كيشون
كما يظهر بعد موسم الامطار حيث يمر في وادي القصب وقبل أن يصل الى سهل اسدرالون ثم الى سهل عكا .
والدفلي على ضفتيه وأعشاش عصافير.

وتقع الحروثية فوق تل دائري الشكل تنتشر فيه بقايا ابنية وأسوار قديمة. ومن الواضح ان هذه الآثار هي بقايا صرح قديم مهم يبدو أنه كان مع هاروشث جنتيل Harosheth of the Gentiles (الأحكام ١٦، ١٧)، في حصن سيسيرا Sisera القديم المنيع، وحيث كانت تتجه عرباته وجنوده حين «جرفتهم سيول نهر كيشون». وتقع «الحروثية» على بعد حوالي

نصف الميل من كيشون الذي يقترب في هذه النقط من منحدرات الكرمل الحادة فيضيق الممر الى درجة لا تتسع لمرور أكثر من اربعة او خمسة خيالة معاً. ويعتقد ان في هذا الممر الضيق عند اقدام جبل الكرمل، احتشدت عربات سييرا-Sis-era وخيله وجنوده حيث داس بعضهم بعضاً (القضاة 22 v).

ينبع النهر من الوادي الضيق ويجري بين ضفتين حادتين غزيراً على عمق ١٥ او ١٦ قدماً وهو لا يغدو ضحلاً الا في مكانين اثنين لا غير. وأحد هذين المكانين لا يبعد كثيراً عن «الحروتية» وقد عبرته ذات مرة في تشرين الأول حيث لم يكن هناك غير القليل من المياه الجارية، الا أن الطمي والوحول وبعرض حوالى ٢٠ قدماً كانت اكثر إزعاجاً وقد أمكن لحصاني بصعوبة ان يتسلق الحافة الطينية ويضعني سالماً على طرفها الجاف. اما عند سهل عكا فيذهب مجرى النهر هادئاً اخضر، متلويًا. وعند مصبه يتراعى شريط من الرمل يسهل عبوره عموماً باستثناء الأوقات التي تهب فيها رياح شرقية قوية فتعلو المياه ويغدو عبوره بحاجة الى زورق. ونهر كيشون هو نهر المقطع El Mukutta في تسميته الدارجة الحديثة دلالة على ضحالة مجراه، واذا كان للكلمة ان تترجم عند كتاب محدثين بنهر المقطع او الذبح او «المذبحة» فهي كذلك غير بعيدة عن الصواب.

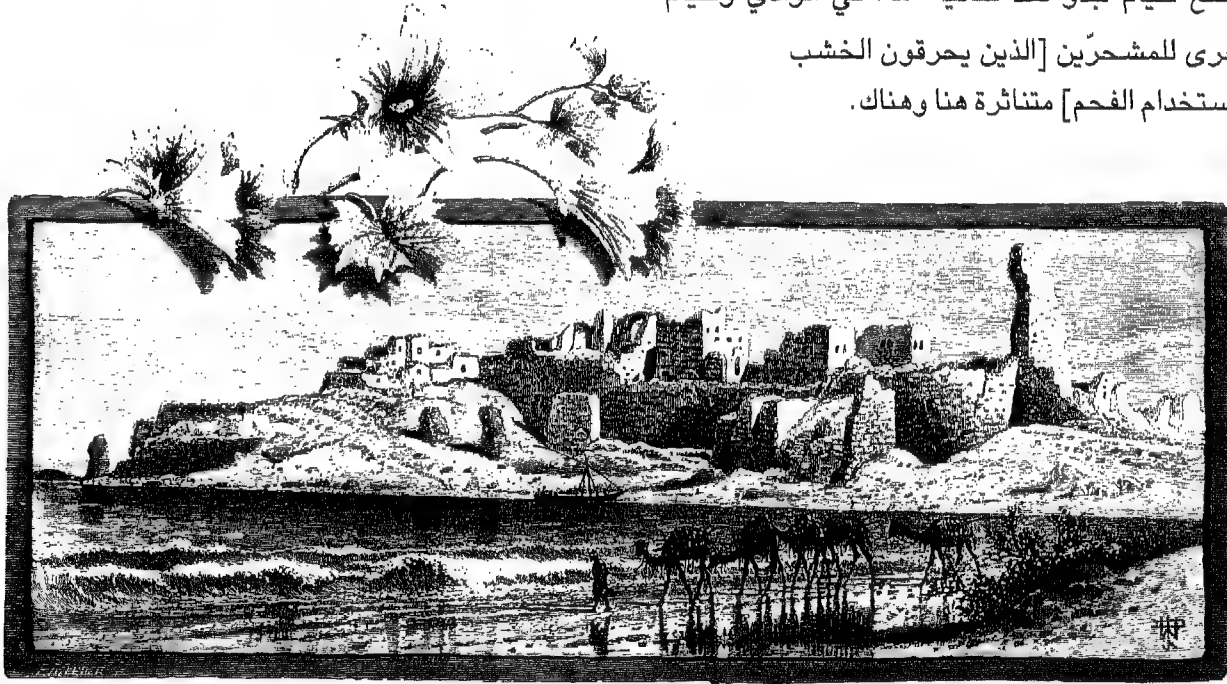
ونعود الى «المحرقة» لنتجه منها غرباً نحو عتليت فوق المنحدرات الجنوبية لجبل الكرمل والتي تبدو الآن منطقة مهجورة رغم تناثر آثار كثيرة تدل على ان عدة قرى كانت موجودة يوماً ما في المنطقة، فالحجارة الكبيرة المقطعة والمشذبة والموجودة في غير موقع إنما تشير الى حال من السكن المزدهر كان قائماً في أزمنة مضت. اما اليوم فإن

مظاهر الحياة الانسانية الوحيدة التي تصادفها هي

بضع خيام لبدو عند ساقية ماء في الوادي وخيام

أخرى للمشحرّين [الذين يحرقون الخشب

لاستخدام الفحم] متناثرة هنا وهناك.



عتليت من الجنوب.

ويبلغ اتساع هضبة الكرمل عند قاعدتها الجنوبية حوالى ٧ أميال بينما يشكل «وادي الملح»، والذي يدخل سهل اسدralون بين «تل الكمون» و «المحرقة»، الحد

الجنوبي لجبل الكرمل (راجع الخارطة) وبعد الوادي تنخفض هضاب الكرمل لتضيع في سلسلة التلال التي تدعى بلاد الريح وهي ذات تربة كلسية وتفصل سهل اسدralون الداخلي (مرج ابن عامر) عن السهول الساحلية المدن البحرية القديمة والسهول في فلسطين.

المدن الساحلية وسهول فلسطين

تشكل المنطقة الساحلية الممتدة من مرتفعات الكرمل إلى ميناء يافا المنطقة الأشد فقراً والأقل سكناً اليوم إلا أنها تحتوي في الان نفسه على الكثير من الآثار والإشارات التي تدل على الماضي المهم والمزدهر الذي كان لهذه المنطقة. لا تحتوي المنطقة اليوم على أي بلدة أو قرية ذات أهمية متميزة بينما مدنها القديمة الرائعة وحصونها الصليبية آلت كلها إلى الدمار ومع ذلك فهذا الطريق الساحلي ملئ بالآثار التي تستحق التوقف والاهتمام.



آثار عند الجانب الغربي من عتليت
بني البرج التامبليرون Templars سنة ١٢١٨ وكان
آخر مكان أخلاء الصليبيون في فلسطين

نبدأ رحلتنا هذه من تلال الكرمل في مواجهة
آثار عتليت ورغم خصوبة السهل الساحلي عند هذه

النقطة إلا أنه ضيق لا يبلغ اتساعه أكثر من ميلين اثنين كما أن الزراعة فيه نادرة؛ أما شمالاً فهو يمتد إلى حوالي ٨
أميال بين السلسلة الصخرية - الرملية الضيقة التي تحاذي الشاطئ وبين المنحدرات الغربية لجبل الكرمل. وتقترب

السلسلتان الواحدة من الأخرى بالتدريج الى أن تلتقيا تقريباً عند «تل السماق» Tell of sycaminum عند اقدام جبل الكرمل وتمتد الطريق من هذه النقطة الى عتليت، قديمة جداً تكاد تتلمس آثار حوافر العربات فيها، وبين تلال السلسلة الصخرية الضيقة بحيث لا يتاح للمسافر الا في امكنة قليلة رؤية «البحر العظيم» عبر شقوق ضيقة أحدثتها السيول في تلك الصخور الرملية. أما القرية الوحيدة القائمة هنا في القسم الشمالي من سهل عتليت، فهي الطيري Tيره، والتي يعرف أهلها بالشجاعة والاقدام، تصطف منازل القرية المبنية بالحجارة والطين جنباً الى جنب عند مصب «وادي العين»، والوادي الأوسط في المنحدرات الغربية لجبل الكرمل، وتحيط بها حقول خصبة وبساتين مثمرة.

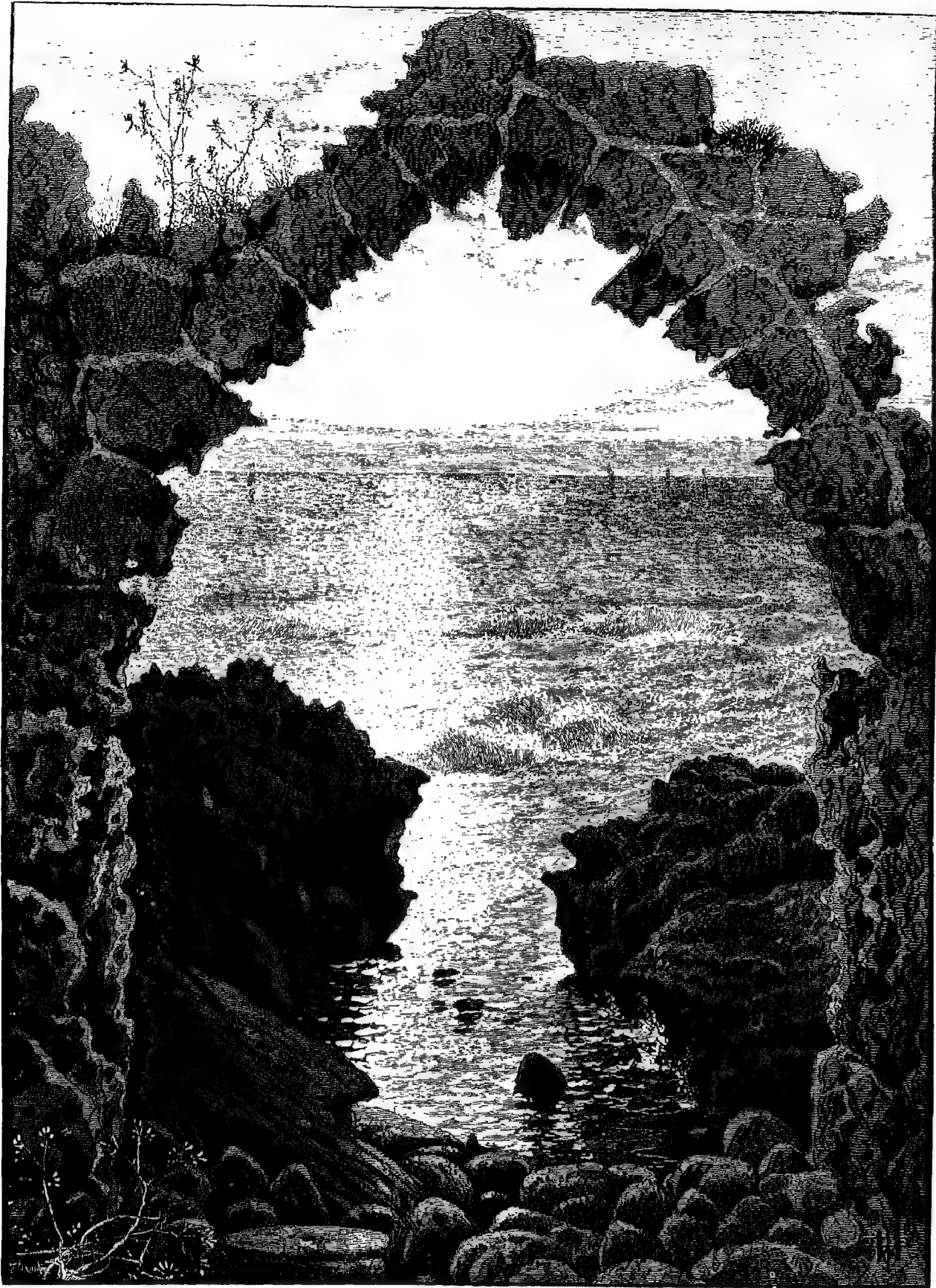
تذهب الطريق الساحلية، في مواجهة عتليت ضيقة، خشنة، داخل خندق في السلسلة الصخرية الممتدة، ولا تتسع لأكثر من خيالين يسيران معاً. وعلى الأرض حفرت عجلات العربات منذ زمن طويل أثلاماً وآثاراً ظاهرة. وتشير الحواجز والحواجب عند طرفي الممر الى أنه كان يقفل بالبوابات، كما توجد بقايا تحصينات على الجرف المشرف على الممر. وبسبب من هذا الممر الذي قد في الصخر إكتسبت عتليت، ربما، اسمها الذي عرفت به في القرون الوسطى وهو «بترا أنسيذا» Petra Incisa. ويخرج طريق العربات القديم من السلسلة الصخرية ويتجه غرباً ليدخل في السهل الساحلي الضيق والذي يتراوح اتساعه بين هذه النقطة والشاطئ بين نصف الميل والميل الواحد.

ويقوم حصن عتليت، الذي بناه التامبلارز Templars من تحصينات وقواعد سابقة لا يعرف تاريخها، على الرأس الصخري الذي يذهب غرباً في البحر لربع ميل. وهناك الى الجنوب منه ميناء ذو مياه ضحلة، وميناء آخر أكثر اتساعاً واعمق مياهاً على الجانب الشمالي يحميه ريف صخري ويدعوه السكان المحليون «البوابة». وتحاذي الرأس فسحة واسعة من الأرض يحميها سور عال قوي جنوباً لثمانمئة ياردة ثم يذهب غرباً باتجاه البحر لحوالي ٣٠٠ ياردة. ولا تزال أجزاء من السور قائمة الى الآن وتتألف من حجارة ضخمة مقطوعة، ويمكن مشاهدة المزيد منها في عكا حيث نقل ابراهيم باشا كميات منها لإعادة بناء أسوار المدينة وتعزيزها. وهناك حول السور خندق عميق كانت تملأه مياه البحر سابقاً فيجعل الحصن جزيرة منعزلة تماماً والى الحد الذي يمكن وصفه بنسخة مصغرة عن صور القديمة بل إن السجلات الصليبية القديمة لتدعوه كذلك.

وتحتل قلعة عتليت شكلاً مستطيلاً في وسط الرأس تبلغ سماكة حيطانها ١٥ قدماً وارتفاعها ٣٠ قدماً، وهي مبنية من الصخر الرملي او الكلسي المنظور الآن والذي أقتطع من مقالع مجاورة. ويلاحظ ليوتنانت س. ر. كوندوران المقالع قد نضبت تماماً وهي تعود كما يبدو، الى حقبة قديمة سابقة على العهد الصليبي، الا أن ممرات الابراج ذات العقود الحادة الأقواس تبدو حديثة وتعود الى الصليبيين، واقتطع الصليبيون من هذه المقالع المتطابقة مع نوع حجارة الاسوار، حجارتهم لإعادة ترميم الاسوار وتعزيزها وفي الزاوية الشمالية الشرقية من القلعة آثار كنيسة مهمة كانت عشرية الشكل حسب سجلات تلك الحقبة ولها ثلاثة ننوات، لم يبق منها غير نتؤ واحد، وهي ذات أقواس محددة وطفن* محفورة. أما السقف فقد انهار في الهزة الأرضية التي ضربت المنطقة سنة ١٨٣٧. وإذا تطلعت من الزاوية الشمالية الشرقية بدت لك بقايا قاعة كبيرة يدعوها السكان المحليون «القرنفة». ولا يزال الحائط الشرقي للبرج الشمالي في عتليت واقفاً، ويرتفع الى ٨٠ قدماً وهو يبدو عن بعد كما لو كان في حالة ممتازة. وتتوزع اليوم داخل اثار المدينة القديمة بضعة منازل وأكواخ ابنتيت من المواد القديمة الموجودة ويسكنها سكان محليون فقراء وتقوم تحت الأرض أقبية ضخمة، يتألف احدها من عدة حجرات، واكتشف مؤخراً أنه يمتد الى مسافة ٢٦٤ قدماً، وآخر ضخماً جداً يغطيه سقف ذو عقود وأقواس، وثالث جوانبه من الطين الكلسي الناعم ويقال أنه كان «مستودعاً للزيت يستطيع استيعاب ٢٦٠ ألف غالون».

وعلى مسافة نصف ميل الى الشرق من الميناء الشمالي في عتليت كان الصليبيون قد ابتنوا، في وقت ما قبل سنة ١١٩١ حصناً صغيراً دعي ديترويت Detroit (بيت الممرات الضيقة) ومن حجارة وقواعد سابقة وعلى نقطة في السلسلة

*الطفن Corbels هي قطعة مسطحة من الحجر او الخشب تصل الاعمدة بالسقف. [م]



مشهد البحر العظيم من عتليت
من تحت قوس عالٍ يقوم وحيداً في المكان بكل صلابة الطين الذي يمسك الحجارة والمستخدم في بناء الحصن.

الصخرية تعلو عن سطح البحر ٧٥ قدماً وعلى مسافة قصيرة جداً من الخندق الصخري الشمالي. ولعل اسم الحصن قد ارتبط أو أخذ من هذا الخندق أي «الممر الضيق». ثم قام التاميلارز* سنة ١٢١٨ بتوسيع هذا الحصن وتعزيزه واستخدم كمخفر أمامي للحصن الرئيسي في عتليت. والمبنى الذي يقع فيه البرج يسمى «خان دستري»، في ما يبدو تحريفاً لدترويت. وعلى الجانب الشرقي شمال البرج، اسطبلات محفورة في الصخر.

وتقوم عند الجانب الشرقي من السلسلة عين ماء تسمى عين الدستري تشكل حوضاً صغيراً قبل أن تجد مجرى لها يصل الى البحر. وحين توقفت للمرة الاولى في المكان كان رعيان ماعز مع مزاميرهم يتحلقون حول حوض ماء فيما كان قطيعهم يبتعد او يشرب. كان ذلك في شهر ايلول وكانت الخضرة حول العين والساقية متعة للنظر وسط الدفلي والخبيزه والعليق والطحلب والاعشاب الطويلة.

لا نعرف شيئاً، في الحقيقة عن تاريخ عتليت القديم، ولا حتى في ما خص الاسم. ويظهر ان عتليت كانت جزءاً من الاراضي التي آلت الى منسى Manasseh والتي لم يستطع اخلاءها من سكانها «حيث كان يسكن الكنعانيون» مع أن اسرائيل تمكنت في فترة لاحقة وبعدها غدت قوية بما يكفي، من اجبارهم على دفع الجزية (القضاة، 28، 27 i).

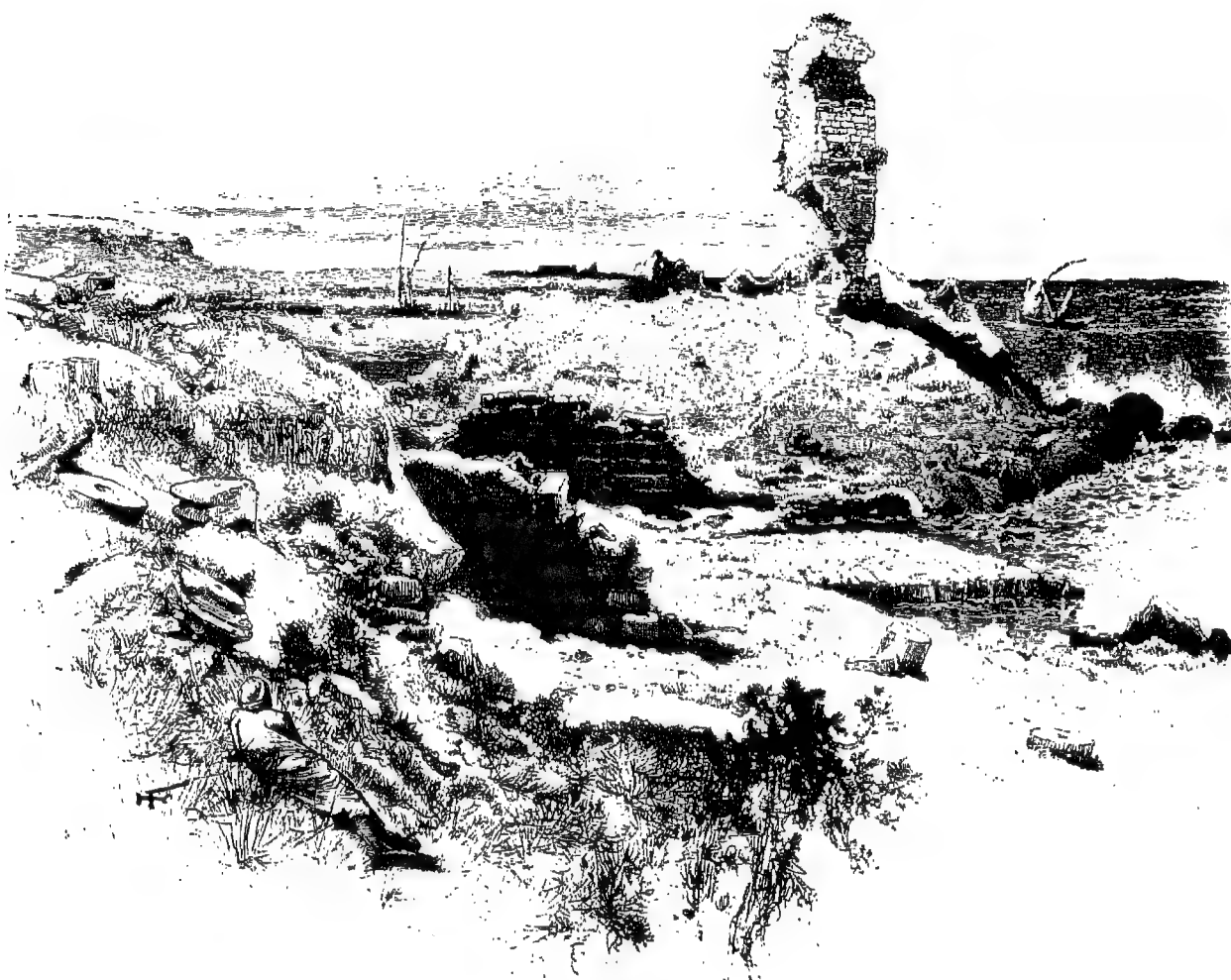
ومن الطبيعي الافتراض أن موقعاً مثل الذي كان لعتليت، من رأس صخري وميناءين طبيعيين وعيون ماء ومقالع حجارة لا تنتهي وسهول خصبة في الجوار، لم يفت الفينيقيين ولا اليونان او الرومان. لكننا لانعرف شيئاً عن ذلك كله، وجل ما نعرفه هو كيف بدأت عتليت، وكيف انتهت في الحقبة الصليبية. وتذكر السجلات الصليبية، مع ذلك أن الصليبيين وجدوا آثاراً قديمة عظيمة في عتليت كما في ديترويت، المخفر الأمامي، وأن البنائين قد عثروا في الثانية على كنز مهم من العملات القديمة التي لم يستطيعوا حل ألغازها أو فك رموزها.

بنى فرسان هيكل سليمان، أو فرسان الهيكل، التامبلارز حصني عتليت وديترويت، كما رأينا وكانا على بأس وقوة ظاهرين. وقد حاول السلطان المزين MUZZIN عبثاً دخول الحصن سنة ١٢٢٠ بعد حصار استمر فترة من الزمن، وكان آخر موقع صليبي في فلسطين أخلي في النهاية. فقد سقط في ايدي السلطان ملك الاشرف خليل، ابن قلاوون، بعد هزيمته لفرسان القديس حنا في عكا سنة ١٢٩١.

وننتجه من عتليت، جنوباً، نحو طنطورا على مسافة حوالى ستة أميال ونصف الميل. ويجري طريق العربات القديم على الجانب الغربي من سلسلة التلال الساحلية لكننا نبقي بعيدين قليلاً عن شاطئ البحر تفصلنا عنه الكثبان الرملية والمستنقعات وعلى حوالى ثلث الميل جنوب عتليت. يدخل الشاطئ غرباً في البحر وليتشكل بذلك خليج عتليت الصغير. ويتسع الشاطئ الرملي الساحلي والذي تكثر فيه المستنقعات، بدءاً من هذه النقطة ولحوالى الميل او أكثر وليصل عرضه في النهاية الى حوالى الميل الواحد. ويمكن عبر فتحة في التلال الصخرية الى يسارنا مشاهدة سهل عتليت الخصب يمتد حتى منحدرات الكرمل يقطعه على نحو عمودي ممر مشاة قديم يقود الى اثار موقع يدعى «المزار» ويجذب المكان بمزاره وبئر وحوض مائه الفلاحين وبخاصة رعاة الغنم والماعز. وتمتد في الجوار أودية كثيرة الشجر بأسماء ممتعة مثل «خلّة الرمان» «وخلة الزيتون» لكننا نتركها كلها ونكمل مسيرنا جنوباً. واذ نتقدم صوب صرغند، وهي قرية صغيرة تقع على بعد أربعة أميال جنوب عتليت مبنية على التلال الساحلية المنخفضة، تبدو مظاهر واشارات تدل على زراعة مقبولة وعناية بالأرض. فبدلاً من كثبان الرمل والأهوار والمستنقعات الى جانب الطريق حقول السمس والجاروس والتبغ مع حلقات من أشجار النخيل هنا وهناك، إلى أشجار مثمرة أخرى. وعلى مسافة نصف ميل جنوب الصرغند، المعروفة بتينها الطيب، تقوم قرية أخرى، وهي «كفر لم»، ورغم أنها مبنية على سفح تلة من تلال الساحل، فإن ارتفاعها عملياً لا يصل الى أكثر من ٥١ قدماً فوق البحر. وكان لي أن أقضي في القرية ليلة، بينما كنت ماراً فيها برفقة شقيقي. وكان ذلك في الاسبوع الأخير من شهر أيار. فكنا نمر في طريقنا الى القرية وسط حقول من الحنطة والذرة او بساتين من الأشجار المثمرة وكلها تكاد تغدو ناضجة وتؤذن بالقطاف. وخرج شيخ القرية وأعيانها للترحيب

*اختصار «فرسان هيكل سليمان»، أو فرسان الهيكل. [م]

بنا بكثير من الود والغبطة، لقد كانوا في انتظارنا وكانوا يعرفوننا تماماً. وبتنا ليلتنا في ضواحي القرية حيث تتراص المساكن المصنوعة من الطوب المجفف، وتقوم قريباً منها حظائر كبيرة مسورة لايواء الماشية او لجمع الغلال والحنطة. وكانت خيمتي جاهزة ومركونة بين جبال من القمح والشعير وعلى مقربة من بيدر، كانت الثيران تدور فوقه وتدور تفصل الحنطة عن القشر والزؤان.



بقايا حصن صليبي في طنطورا.
ويرتفع البرج الوحيد الى ٣٠ قدماً. وخلفه قرية طنطورا في موقع مدينة دورا القديمة.

ومدت السجاجيد والبسط، بسرعة، في الهواء الطلق وأعدت القهوة والنارجيلة. جلس الشيخ والاعيان في مواجهتنا في شكل نصف دائرة، بينما جلس الشبان الأصغر سنأ وراءهم بقليل او استراحوا على اكوام الحنطة القريبة. لم نكن بعيدين عن الشاطئ اكثر من ميل واحد، كان البحر أمامنا وكذا الشمس المائلة الى الغروب. وبين التلال الصخرية واثار طنطورا يلوح ممر ضيق يذهب باتجاه الجنوب، كما كان بالامكان مشاهدة البرج العالي في عتليت بعيداً لجهة الشمال. وحالما هبطت الشمس في البحر نهض إمام القرية ووقف في منتصف بيدر واسع جرى تنظيفه

قبل وقت قصير، تطلع صوب الجنوب ثم دعا الى الصلاة بصوت عالٍ وقور: «الله أكبر، أشهد ان لا اله الا الله . اشهد أن محمداً رسول الله . حيّ (تعالوا)* على الصلاة! حيّ على الفلاح! الله أكبر . لا إله إلا الله .»

نهض الشيخ وكبار السن الذين كانوا قد تحلقوا حولنا على الفور واصطفوا فوق أرض البيدر صفين مزدوجين خلف الإمام الذي بدا لوهلة كما لو كان القائد الفعلي للجماعة الصغيرة؛ والذي كان يفتتح الصلاة بالعبارات والتبريكات المناسبة ويرتل شيئاً من آيات القرآن، فيما الجماعة خلفه تردد قوله وتتبع حركاته بدقة وخشوع راکعة ووجوهها الى الأرض او واقفة وأيديها الى فوق في حركة متماثلة واحدة. وانضم الى الصلاة العمال الآتون من الحقول والبيادر، وكذا خدمنا المحمديون؛ إلا أن بعض شبانهم ممن كانوا يتحدثون معاً بدوا مترددين للحظة في الانضمام الى «دعوة الصلاة». تطلع بعضهم الى بعض، كأنما هم غير مقررین ماذا سيفعلون، ثم تطلعوا صوبنا كما لو كانوا خجلين او يشعرون بالذنب لتركنا. لكننا بقينا صامتين ومطرقين في اشارة تشجيع لهم بأننا لا نرغب لهم أو نتوقع منهم أن يهملوا بسببنا الصلاة. وهكذا انضم هؤلاء الى الجميع في صفٍ عند طرف البيدر وأصواتهم تعلو خلف أصوات ابائهم: «الله أكبر! سمع الله من دعاه»

لم يكن هناك نساء في الصلاة، فقد وقفن بعيداً مع اطفالهن يراقبن الجمع؛ لكنني لا أعتقد أن رجلاً أو شاباً في القرية قد تخلف عن إداء الصلاة التي استمرت لحوالي ربع الساعة وفي خشوع تام.

وبعد الصلاة كان موعد العشاء فوضع على الأرض وامامنا تقريباً قدر خشبي كبير يشبه مسطحاً ويبلغ قطره حوالي الياردة، مملوء بالأرز المغلي مع الزبدة. وتضاف الى الأرض أطباق معدنية فيها لحم وبيض وخضار وكريما؛ ويجلس حول المائدة الشيخ والإمام والأكبر سنًا، وأكل الجميع صامتين وبسرعة يغمسون قطع الخبز الرقيق في صحن البيض المقلي والكريما، ويقطعون قطع اللحم بأصابعهم الى قطع صغيرة، وبكثي أيديهم يرفعون الأرز الى أفواههم مكوراً في كتل صغيرة وحينما شبع الجميع، انسحب الواحد بعد الآخر لغسل الأيدي ثم لاشعال الغليون الطويل. وأخذ الشبان الأصغر سنًا مكانهم على المائدة، وعندما انتهوا جاء دور الخدم، وكان الجميع يتحلقون معاً يأكلون من الصحن نفسها حيث تملأ المرة بعد المرة، بينما توزع أرغفة الخبز بكثرة ودونما حساب. وبينما كنا نحن مازلنا نتكاسل مع شوكننا وسكاكيننا، كان الأهالي قد فرغوا من تناول العشاء ولا يرمى بشيء من الطعام أو الفضلات الى أن يكون كل رجال القرية وأولادها قد أكلوا، وكذا النساء والأطفال في مكان آخر بعيد عن الأنظار.

وبعد العشاء تقدم القهوة والغلايين من جديد ويستمر الحديث مع الشيخ وقرويين آخرين تحت ضوء القمر وفي ضوء المصابيح وإلى حوالي الساعة التاسعة تقريباً. وكان بالامكان مشاهدة اشعال المصابيح في المنازل، الواحد بعد الآخر، إلا أن كل شيء آل بعد هنيهة الى الصمت والهدوء وخلد الجميع الى الراحة خلا المكلفين بالمراقبة الليلية.

كانت الأضواء الخافتة تنبعث من شقوق الأبواب والنوافذ في كل بيت، فالشائع في الشرق هو ترك المصباح مضاء طوال الليل في كل بيت وأحياناً في كل غرفة مسكونة. وانسحبت الى خيمتي بينما نام شقيقي وتابعوه، وقد تدثروا بعباءات سميكة، على أكوام الحنطة غير بعيدين. وعندما استفتت عند الخامسة صباحاً، رأيت من باب خيمتي الشمس ترتفع فوق التلال الشرقية قبل ان تغسل مباشرة، مياه البحر بلون الذهب. وعادت الحياة من جديد الى القرية ودبت الحركة بين القرويين وجيء بالقهوة والحليب والخبز والفاكهة وتجمع أطفال تلمع عيونهم يشاركوننا التين الأخضر الناضج وأخيراً استأذنا مضيفينا المغادرة شاكرين لطفهم وكرمهم وتابعنا المسير.

تركنا بعد «كفر لمّ» طريق العربات القديمة (حيث آثار عجالاتها لم تزل ظاهرة) وتبعنا طريق رجل يقطع السهل الساحلي عامودياً الى طنطورا، على مسافة ميلين ونصف الميل. ونقترب من الشاطئ عبر منطقة من المقالع المهجورة والأضرحة التي لا اسم لها والآثار، إلى الكثير من السبخ والمستنقعات. ووصلنا مباشرة الى رأس صخري خشن يقوم

*كذا في النصّ

فوقه برج يوحى بالصلابة والقوة، مبني من الدبش والمغطى بحجارة مصقولة، ويرتفع الى حوالى ٣٠ قدماً. ويبدو الجزء السفلي منه وقد تفتت وانهار. والبرج، كما يظهر، هو زاوية حصن أكبر كان الصليبيون قد ابتنوه في هذا المكان أما اليوم فهو مهجور تماماً بينما اسواره وتحصيناته قد إنهارت وسقطت كلها.

أما طنطورا القرية الحديثة فهي على بعد حوالى نصف الميل جنوباً وتقوم في الموقع الذي كانت تحتله دور Dor ، المدينة الكنعانية القديمة (يشوع xvii, ii) وتنتشر على طول الشاطئ أعمدة وتيجان مغروزة في الأرض جزئياً الى قطع رخامية، وحجارة مشذبة وبقايا أخرى للمدينة الرومانية دورا Dora . ويمكن مشاهدة نساء وأطفال يجمعون في سلال كبيرة الحجر الملحي الخشن، الذي يتكتف ويتراكم في البرك الطبيعية او الاصطناعية بين صخور الشاطئ، بينما قطعان الغنم والماعز، ثروة طنطورا الرئيسية، ترعى في السهل الساحلي الذي تغطيه في هذه النقطة الأعشاب والزعرور ونباتات شوكية أخرى. تضم قرية طنطورا أربعين أو خمسين منزلاً أبتنيت كيفما كان من قطع الحجارة القديمة الموجودة وأجزاء الأعمدة المكسورة وكتل من الطين والصلصال. وفي أحد أيام شهر أيلول وبينما كنا في طريقنا من يافا الى حيفا في مركب شراعي عربي، اضطررنا للنزول في طنطورا واكمل رحلتنا براً لأن «الرياح كانت معاكسة». وكانت الرياح المعاكسة نفسها وفي الوقت نفسه من السنة تقريباً (في اليوم العاشر من تشرين أو في اواخر سبتمبر) قد تقاذفت القديس بولس وفي البحر نفسه عندما «كان الابرار في ذلك الوقت خطيراً» بحسب قول بولس (الافعال 9, xxvii)

وبسبب من رغبتنا في الوصول بسرعة أجرى اخي الترتيبات اللازمة مع صاحب مركب عربي صغير لنقلنا من يافا الى حيفا، مع خدمنا وحاجياتنا، وعندما أكد لنا أن الرحلة لا تستغرق أكثر من ثماني او عشر ساعات. وكنا جاهزين وننتظر إشارة منه، الى ان جاءت اشارته عند منتصف الليل «ان الريح ملائمة» وهو جاهز للابحار. فهبطنا في ذلك الليل يصحبنا مرافقنا وخادمتي كاترين، وهي امرأه من بيت لحم، وراهبان كرمليان استأذنا السفر معنا. وفتحت البوابة البحرية في يافا خصيصاً من أجلنا، وأهبطت في زورق صغير ذي مجذافين يدفع به اثنان من البحارة. وبعد فترة من الصراخ اجتمع الرهط وتهادى القارب بسرعة فوق الماء وصولاً الى المركب الذي كان ينتظرنا خارج المياه الضحلة للميناء الصخري فانتقلنا إليه من دون أن يكون الأمر خالياً من المصاعب. ينقسم المركب إلى أجزاء ثلاثة الجزء الاوسط وهو العنبر عمقه اربعة اقدام ومساحته ثمانية اقدام وهو غير مسقوف وظهر السفينة حيث احتشد البحارة على المقدمة والمؤخرة والذين لم يتوقف غناؤهم. واخيراً مخزن السفينة ينيره مصباحان، وفوقه خيمة لحماية المسافرين والحقائب. واستخدمنا حقائبنا وسائد للنوم، بينما وضع الراهبان رأسيهما على حقيبتيهما وتدنرا بثوبيهما الفضفاضين المريحين. اما كاترين المسكنة والتي لم تركب البحر قبلاً فقد كانت شديدة التأثر والانفعال فالتفت بعباءتها قريباً مني وأمكن لها أخيراً ان تنام. أما مرافقنا فقد كان يدخن غليون به بصحبة القبطان، عند الدفء، وشخص ايطالي تمكن من التسلل في الظلمة مع حقائبه الى السطح بعيداً عن أعين البحارة. كانت السماء مرصعة بالنجوم، وريح جنوبية تهب قوية ملائمة فتملاً الاشرعة، بينما استغرق في نوم عميق حتى مطلع الصباح، وعندما أفقت كان الراهبان ما يزالان يغطان في النوم، واخي راقد عند قدمي في مواجهة صندوق أغراض، أما كاترين فقد كانت ملتفة على نفسها بحيث يصعب معرفة رأسها من نعليها.

توقف هبوب الريح الملائمة واندفع البحارة ينزلون الاشرعة. وظهرت الشمس فوق تلال الشاطئ المنخفضة بينما غدت الريح غربية تهب عكس اتجاهنا وتهدد بدفعنا الى صخور الشاطئ. تحولت الريح فجأة شمالية عنيفة وهزت المركب بعنف فأضطر القبطان الى إنزال المراسي في بحر عميق قرب شاطئ مهجور ولم يكن هناك من مجال للرسو.

وعند الساعة التاسعة كانت الشمس قد غدت قوية ولا تطاق فعلنا على جعل الاشرعة، التي لم تعد تنفع في شيء، خيمة فوق العنبر حيث كنا جالسين. لم يكن البحارة في المستوى المطلوب لكننا كنا أبناء بحر وساعدناهم في جعل الأمور أحسن قدر المستطاع. بلغ الحر في العنبر عند الظهيرة حده الاقصى، فتسلقت الى السطح وجلست متشبثاً بعمود السارية. انعشتني الريح التي كانت تهب ومنظر البحر وكنا لا نزال راسين. كان الموج يضرب بعنف الشاطئ

المواجه الذي يمتد في تلال رملية منخفضة لا يقطنها غير مجموعات الماعز تقضم أعشاب وأشواك المراعي القليلة على ذلك الشاطئ. ولم يكن هناك من سكنى على الاطلاق ولا حتى منظر انسان عابر ولا زورق أو مركب طوال النهار.

توقف هبوب الريح بعد الظهر لكن المركب الصغير كان عاجزاً عن الحركة بسبب ارتفاع البحر والذي لم يخلد الى السكينة بعد. وقرأ لي شقيقي خبر رحلة القديس بولس كما ترد في الفصل السابع والعشرين من «أفعال الأنبياء». وبدأت لي الرواية كما لم أرها من قبل ولم نكن بعيدين كثيراً عن قيسارية، الميناء الذي سافر منه القديس بولس.

وعند المغيب كانت الريح قد غدت جنوبية لطيفة، فنشرت الاشرعة من جديد وجلس الجميع الى العشاء في معنويات أعلى عما كانت عليه طوال النهار، فتشاركنا والراهبين الفراريج والحساء المحفوظ معنا.

وامضينا الليل قلقين، «نبحر ببطء» وعند الصباح كنا قد أصبحنا في مواجهة طنطورا تقريباً. وحينما تحولت الريح من جديد شمالية شرقية، أصر أخي على الرسو. فاستدردنا صوب الساحل تاركين للريح القوية ان تدفع بنا نحو المرسى على الشاطئ. وكان الموج يضرب الجزر الصخرية الصغيرة المنتشرة وركام الحجارة القديمة التي ترتفع هنا وهناك. وتمكن المركب بعد بعض المناورة من الاقتراب من الشاطئ والرسو بسلام غير بعيدين عن اليابسة. وكان هناك العديد من رجال طنطورا الذين خفوا لالتقاطنا ونقلونا عبر المياه الضحلة الى الشاطئ الرملي الذهبي الناعم.

ابتهجت حينما وجدت نفسي على اليابسة من جديد، وسوف أتذكر بالتأكيد وعلى الدوام نصيحة القديس بولس الى القائد الروماني كما لن أنسى مخاطر الابحار في الشرق الادني في مركب صغير وفي أثناء حركة المد والجزر.

وقدم للقائنا ضابط النقطة الجمركية ابو حبيب Abu Habib (وهو رجل ذكي واسع المعلومات كما أنه سيفدو جارنا في حيفا بعد حين). قادنا الرجل الى منزله الذي يتألف من غرفة كبيرة مربعة الشكل مملسة بالطين الناعم ومسقوفة بجذوع الأشجار التي سودها الدخان، بينما كانت حصيرة تظلل الجزء الامامي من السقف. وكانت النوافذ عبارة عن كوات صغيرة مربعة الشكل، ولوح خشبي بدائي الصنع بمثابة بوابة. وكان في الزاوية ديوان مرتفع نسبياً يستخدم للجلوس نهاراً وللنوم ليلاً. واصطفت أمام الحائط جرار ماء كبيرة وصحون معدنية وأدوات طبخ مختلفة. وكان هناك في إحدى الزاويا مكان الطبخ هو عبارة عن موقد مؤلف من حجارة قديمة مقطوعة ومن قدر طيني، وكان الفحم الخشبي هو المادة المستخدمة فيه، والى جانبها سلال من الملح الخشن المجموع من الشاطئ. أعد لنا حبيب (ابنه الاكبر والوحيد من عائلته المقيم معه في المنزل هنا) القهوة؛ وقد قام في حضورنا بتحميم حبات البن ثم بتنعيمها في جرن حجري. وكان قرب المدخل صندوق خشبي كبير، كما لو كان تحفة أثرية، له قفل مزخرف وأحزمة حديدية مشغولة؛ فجلست فوقه. وجاءت نساء ناحلات، يغطين وجوهن ببراقع من الصوف، وكذا أطفال قذرون، رغم وسامة الوجوه، تجمعوا حولنا، يختلسن النظر اذ يحدقون بنا. وكانت كاترين (التي لم تكن قد ابتعدت هكذا من قبل عن بيت لحم) في هذه الاثناء تجول في القرية فعادت الينا وقادتنا دونما تردد إلى أحد المنازل الذي بدا لها أنه الاكثر نظافة وترتيباً في البلدة. وكانت ثقته بحسن ضيافة اهليه في محلها كذلك فقد استقبلتنا نساء المنزل بكلمات ترحيب ودية وقدننا الى غرفة داخلية، كان الديوان فيها مشغولاً للتو، كما يبدو، وكنت سعيداً أخيراً أن أرتاح قليلاً الى أن تم استحضار الأحصنة التي ستمكننا من اكمال رحلتنا الى يافا.

كانت دور Dor المدينة الكنعانية المهمة (وآخر مستوطنة فينيقية جنوباً كما يعتقد) قد آلت مع مدنها الى أبناء منسي Manesseh إلا أنهم عجزوا عن طرد السكان الاصليين. «فالكنعانيون استمروا يسكنون المكان» (يشوع 12 xvii). أما في عهد سليمان فقد أجبرت منطقة دور على تقديم المؤن للملك وحاشيته خلال شهر كامل في كل سنة تحت اشراف بن ابينداب Ben Abindab، والذي تزوج الاميرة «تابهاث»، ابنة سليمان، وكان في الآن نفسه واحداً من الملتزمين الاثني عشر الذين يزودون سليمان وبلاطه باحتياجاته (١ الملوك، II، IV). لقد كانت تلك جزية باهظة ولم تكن ممكنة التحقق لولا الغنى الذي يجب أن يكون قد توفر لمنطقة دورا في البشر والقطعان والمزروعات إذ أن «مؤونة سليمان ليوم واحد كانت تتألف من ثلاثين كيلاً من الطحين النقي، وثلاثة اضعافها من دقيق الذرة، وعشرة ثيران سمان، وعشرين عجلاً، ومئة

رأس غنم، الى الأيل والغزلان السمر والديوك السمان» (١ الملوك، 23, 22, IV). وهناك على التلال المقابلة لطنطورا، خلف «وادي دور» عين ماء تسمى «عين الغزال» مما يشير الى توافر هذا الحيوان في المنطقة في ما مضى. وامكن للبعض قبل فترة مشاهدة هذا الغزال الأسمر في جبل الكرمل. لم يكن من الصعب اذاً على أهل دور، في الأزمنة الغابرة تلك يوم كانت الهضاب مزروعة أو مشجرة، أن يزودوا مائدة سليمان بما تحتاج إليه ولشهر كامل كل عام. كانت دور، في عهد السلوسيديين Seleucidae، مدينة قوية وروى في «اما كابيز XV»، ان ديودوتوس الملقب بتريفون tryphon (قاتل جوناثان مأكابيز وانتيوخوس السادس ومغتصب عرش سوريا) «قد قرّ بعدما خانه جنوده فطارده الملك انتيوخوس السابع، الملقب بسيديتس، الى دورا الواقعة الى شاطئ البحر»

«ثم لحق به انتيوخوس الى دورا ومعه مئة وعشرون ألف محارب راجل وثمانية آلاف خيال، وجاءت السفن من البحر لإكمال الحصار على المدينة... فجري الهجوم عليها من البر والبحر دونما هوادة» وهكذا دمرت المدينة تقريباً سنة ١٣٩ ق. م. ، و«قرّ تريفون بحراً الى اورثوسياس «شمال طرابلس حيث انتحر بعدها أو جرى قتله على يد الملك انتيوخوس الذي كان يطارده».

وبحسب جوزافس في «أسفار اليهود القديمة»، الكتاب الرابع عشر، الفصل الخامس، فإن غابينوس أولوس قد عمد «حينما أتى من روما الى سوريا قائداً للقوات الرومانية» الى تدمير دورا ومدن أخرى «والتي زالت تقريباً، وظلت خراباً الى فترة طويلة» إلى أن أعيد بناؤها سنة ٦٤ ق. م.

وهناك اليوم مجموعة قطع نقدية تعود الى دورا إلا أنها لا تحمل تاريخاً معيناً. غير أن ما نعرفه حق المعرفة هو أن أهم تلك العملات تعود الى الفترة التي تبدأ من عهد كاليغولا ٣٩ م، الى هليوغابالوس سنة ٢٢٢ ميلادية. والغالب على القطع تلك صورة امرأة، أو تمثال نصفي لها، مع تاج مبرج على رأسها، مع رأس جوبيتر وفوقه إكليل من الغار أو الزهر. وغدت دورا في الحقبة المسيحية الاولى مدينة في مقاطعة بالستينا بريميا (فلسطين الاولى)، لكنها لم تعمّر كثيراً بشهادة القديس جيروم المتوفي في بيت لحم سنة ٤٢٢ والذي يصفها كمدينة أطلال مهجورة تماماً، رغم أنها لا تزال تستحق الإعجاب. ونشأت على هذه الآثار بعد حين محطة صليبية لم يبق منها الكثير اليوم، بينما تزرع الشاطئ بقايا المدينة الرومانية السابقة. وترك طنطورا سالكين من جديد الطريق الساحلي، الذي يحاذي التلال الرملية تفصله عن الشاطئ مسافة ثلاثة أرباع الميل. وعبر سلسلة التلال الرملية تتراعى منحدرات «بلاد الريح» أو «وادي دور» خلف سهل طنطورا، والتي يبلغ عرضها هنا حوالي المليون. لا تعرف الوادي الزراعة بالمعنى الفعلي إلا جزئياً وتحديداً الى الجنوب من «نهر الدفلي»، اما الباقي فتكفلت به قطعان البدو ومواشيهم فأحالتها قفراً خلا شجيرات هنا أو هناك. ورغم ذلك فللمنطقة جمالها، وبخاصة أوائل الربيع حينما تغدو، ولفترة قصيرة، بساطاً أخضر يمتد الى ما لانهاية يعرّش فوقه أو يتشكّل عليه العليق والشوك وأزهار برية ذات ألوان رائعة.

وفي مواجهة طنطورا تماماً تقطع طريق مشاة ضيق السهل عمودياً ويذهب في اتجاه الجنوب الشرقي ليصل الى قرية «الفريديس» التي تقع على فم الوادي الذي يأتي من اتجاه بلاد الريح، ومنها الى قرية أخرى أعلى قليلاً هي «دالية الريح» التي تعلو ٧٢٨ قدماً فوق سطح البحر وتقوم في أسفل الوادي قرية ثالثة تحيط بها البساتين وهي «أم التوت».

ونكمل طريقنا جنوباً مع السهل الساحلي الرملي والذي يبدو غير مزروع تماماً وتغطي أجزاء منه المستنقعات ونمر في طريقنا في مواقع آثار مختلفة لا اسم لها، إنها مواقع «مدن دور» القديمة (جوشوا XV. 11). وبعد ان نعبر «نهر الدفلي» River of oleanders نسرع الخطى قدماً نحو نهر الزرقا، وهو الحد الشمالي للسهل الفسيح المسمى سهل «شارون» (راجع الخارطة). وتضيق وادي دور هنا الى حدها الأدنى بسبب اندفاع إحدى هضاب «جبل القشم» غرباً، فتغدو وعبر نظام التجفيف القديم مجرد مستنقعات. وحينما يتقاطع نهر الزرقا، عند حوالي ميل واحد الى الداخل مع الطريق القديم فان عبوره يجري ببسر عدا فترات الأمطار والسيول؛ إلا أنه حدث لنا، مع الزملاء الرحالة، أن عبرناه في شهر تموز وعند مصبه على الشاطئ مع قدر من المشقة، فقد بدا غزيراً عميقاً وسريعاً ولم يكن معنا دليل خبير

بمسالكه الآمنة . فمصببات الأنهر عند الشواطئ الرملية متحركة، من ساعة الى ساعة، وقد تحرفها الرياح او تغير في عمقها أو حتى في موقعها . وبذل مرافقنا يومذاك جهداً بالغاً في اختبار المجرى كيما يعثر على مواقع آمنه لمورنا، قبل ان نمرّ فرادى، حذرين، وواحد بعد الآخر، ونصل الى الشاطئ الضحل المقابل . والى الجنوب من النهر، قريباً من الشاطئ، تقوم آثار قلعة تسمى قلعة المللات EL MELÂT، وهي كما يبدو في موقع أحد مداخل «قيسارية» القديمة، كما أن هناك الى الشمال من النهر بضع جزر صخرية تحمل الاسم عينه جزيرة المللات .

عرف نهر الزرقا قديماً «بنهر التماسح» ودعاه بليني Pliny حديثاً كذلك . ووفق ما هو شائع فان النهر مازال يحمل الاسم نفسه . ويؤكد أناس عديدون يسكنون الى الشاطئ أنهم رأوا في المكان تماسيح، إلا أنهم يجمعون أنه أمر نادر الحدوث، وقد أروني في عكا واحداً ميتاً من هذه التماسيح يبلغ طوله ثلاثة أقدام وقد عثروا عليه، بحسب قولهم، عند مصب النهر . ويذهب في الاتجاه نفسه الرحالة المعروف ريتشارد بوكوك R. pococke الذي كان في فلسطين سنة ١٧٣٨ والذي يقول أنه «أخبر من مصادر ثقة ان هناك تماسيح في النهر» ويضيف «وهم يقولون ان تلك التماسيح صغيرة لا يزيد طولها عن الخمسة او الستة أقدام، لكنها قادرة على التهام بضعة رؤوس غنم صغيرة تمر في النهر» .

والشائع في الأساس أن المستوطنين المصريين هم الذين جلبوا التماسيح الى نهر الزرقا في زمن قديم جداً؛ أما عرب المنطقة فلديهم روايتهم الخاصة «فقد كان هناك رجل كهل سكن ضفة النهر في أزمنة مضت، وكان معه ولداه، وله قطعان وفيرة ترعى في مراعي السهل الخضراء . ثم مات الرجل تاركاً لولديه كنوزاً وقطعاً» . و «كان الابن الاصغر حرفياً نشيطاً، فازدادت ثروته وتضاعفت . اما الابن الاكبر فقد كان خاملاً وغداً فقيراً، فتطلع في فقره الى قطعان أخيه وثرواته، فأخذ الغضب والحسد ونوى سرّاً تدمير ثروات أخيه . قصد الأخ الشرير مصر وعاد بتماسيح صغيرة وضعها سرّاً في النهر آملاً انها ستلتهم ماشية أخيه حين تشرب من النهر او ترعى على ضفته ثم سافر هو الى بلاد أخرى . لكن رؤيا جاءت الأخ الأصغر في المنام فحذرت من الشر الآتي فمنع قطعانه من ارتياد النهر . عاد الأخ الاكبر بعد حين فجلس الى النهر يرتاح ومدّ رجله الى الماء ناسياً أنه قد وضع التماسيح في النهر، فقدمت تلك بهدوء وسحبت الى النهر ومزقته أرباً . وهكذا قضت إرادة الله أن يسقط الشرير في الفخ الذي نصبه لأخيه» .

في وسعك بالتأكيد ان تستمع الى الكثير من الروايات او الحكايا المماثلة في الاحاديث الدارجة للناس، إما في معرض التدليل على حكمة ما او لتأييد رأي ما، او في معرض النقد غير المباشر لحاكم او متسلط . وتختلف الروايات قليلاً او كثيراً باختلاف الامكنة والظروف .

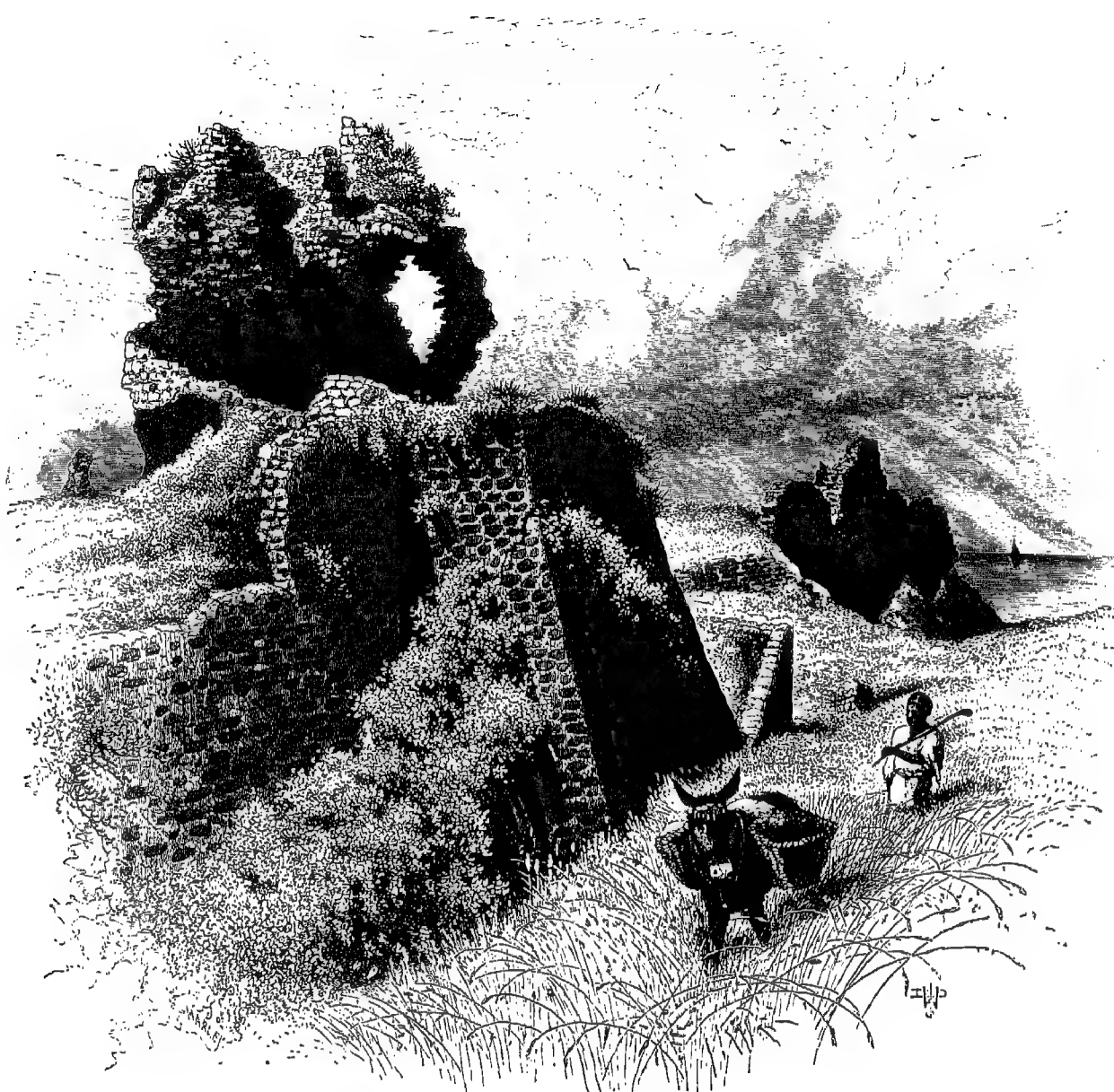
ويحتمل في هذا الاطار أن محيط نهر الزرقا هو موقع مدينة كروكوديلون القديمة [من كروكوديل Crocodile اي تمساح] . وكان سترابو، المتوفي سنة ٤٠ م .، قد ذكرها كواحدة من مدن ساحل فلسطين، والتي لم يكن قد بقي منها في زمنه غير الاسم . وينبسط سهل شارون جنوباً، بعد نهر الزرقا والى مسافة ٤٤ ميلاً ليصل الى ضفاف «نهر الدوبين» (راجع الخارطة) .

أما القسم الشمالي الواقع بين نهر الزرقا ونهر اسكندرونا فطوله حوالى تسعة أميال من الشمال الى الجنوب مع معدل إتساع هو ثمانية أميال والجزء الأكبر منه مستنقعات أو تلال وكثبان رملية، وهي منطقة آثار مهجورة يخيم قربها البدو الذين ربما إستصلحوا قطعة من الارض هنا أو هناك وزرعوها بالقمح والشعير لحاجات موسمية وأنية لا أكثر .

لكن المنطقة المهجورة هذه تحتوي، مع ذلك على مجرى مائي لا بأس به هو «نهر المفجر» Nahr Mefjir، تدانيه من ناحية الشمال عند التلال الشرقية غابة سنديان يصل محيطها الى حوالى تسعة أميال ويحدها شريط من الأراضي الخصبة . وتنتشر في هذه البقعة عدة قرى صغيرة مع القليل من الأراضي المزروعة المحيطة بها .

وتغطي الجزء الساحلي من المنطقة مجموعات نواويس وتلال من الركام والحطام هي بقايا مدن قديمة، او قرى

حديثاً على انقاضها. وفي منتصف الطريق بين نهر الزرقا ونهر المفجر، تمتد على الشاطئ بقعة شاسعة من الأرض تغطيها آثار مدينة هيرود الرائعة التي قامت يوماً هنا، مدينة قيسارية سيبياست Caesarea Sebaste، سميت كذلك



جزء من السور الشمالي والخندق حول قيسارية
سماكة الاسوار ٦ اقدام ولها دعائم أمامية ولا تزال ترتفع الى ٢٠ او ٣٠ قدماً والخندق مبني من الحجارة،
وهناك ثلاثة أبراج، على السور الشمالي يبدو منها اثنان في الصورة.

على شرف أوغسطس. وفي وسط هذه البقعة التي كانت تحيط بها اسوار المدينة الرومانية القديمة تقوم آثار المدينة الصليبية التي أنشئت على انقاض قيساريا الرومانية القديمة.

ابتدأت مدينة قيسارية سيبياست في المكان الذي كان يدعى برج ستراتو Strato's Tower وقد وصفها جوزفس بدقة. صمم المدينة وأنجزها الملك هيرود الأكبر خلال فترة قصيرة لم تتجاوز العشرة او الاثنتي عشرة سنة ثم دشت في احتفالات ضخمة في السنة الثامنة والعشرين لحكمه، عام ١٢ قبل الميلاد. وكان في احتفالات التدشين عروض

موسيقية، وألعاب عامة، وفنون قتالية ومصارعة الوحوش وسباقات خيول وغيرها مما «كان لا يجري الا في روما وعدد آخر من الأمكنة».

وأنزلت الجموع كلها التي جاءت لتتشارك في احتفالات التدشين في نزل عامة، ومدّت لها الولائم؛ وأمر هيرودان يتكرر الاحتفال كل خمس سنوات على شرف أوغسطس قيصر والذي جعلت المدينة على اسمه. «ضمت المدينة القصور الرائعة والصروح الضخمة ابنتيت جميعها من الحجارة البيضاء التي جلبت من البعيد»، أما الآن فهي ركام لا شكل له وأعمدة منكسرة وتلال مهجورة من الحجارة.

كان في المدينة مسرح من الحجارة، «وقاعة تتسع لعدد كبير من الناس في موقع يفتح مباشرة على البحر».

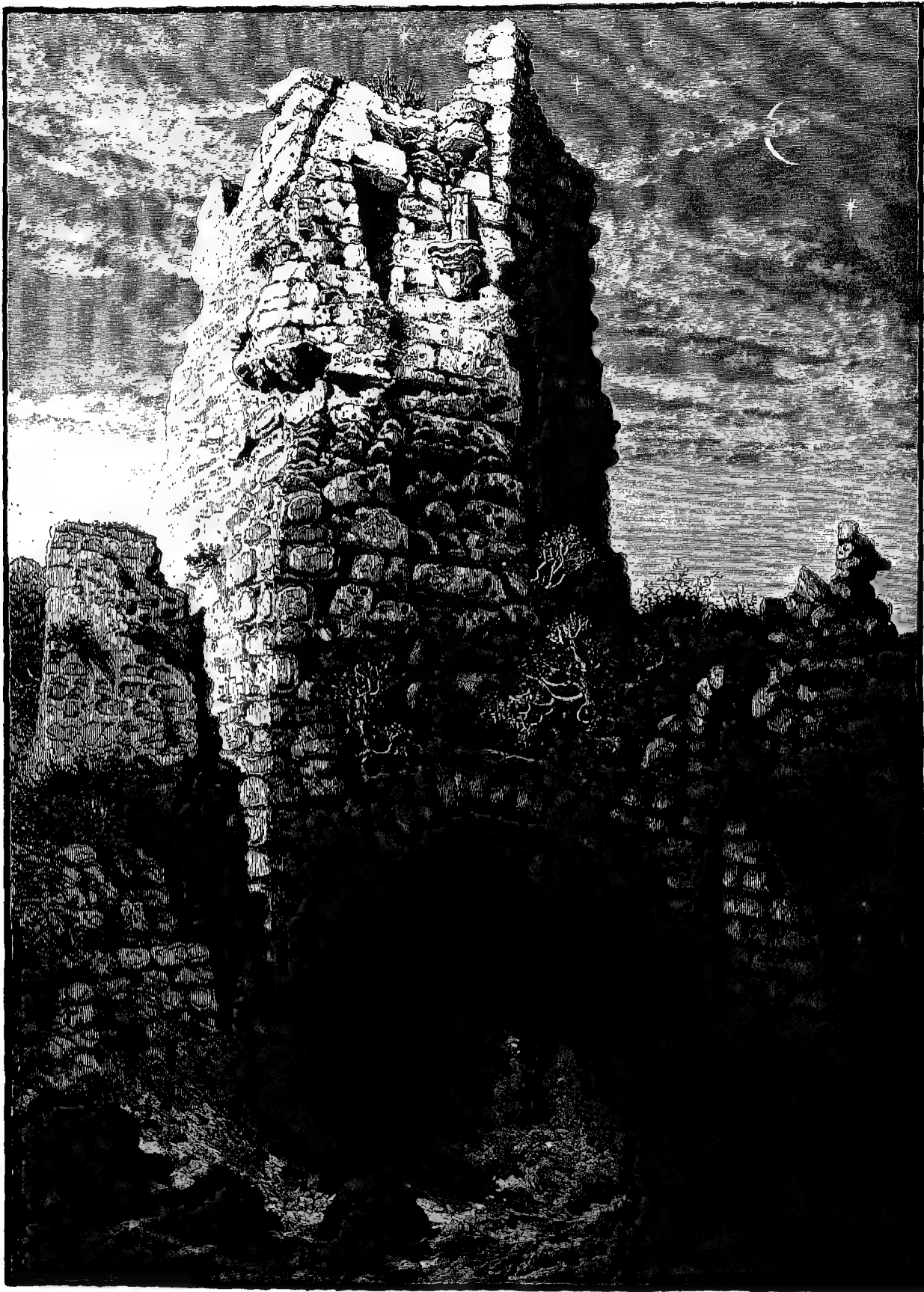
إلا أن أعظم ما كان فيها هو الميناء، الذي احتوى على رصيف مزدوج للسفن، والذي قارنه جوزفس بميناء بيرا أثينا. كان حاجز الموج فيه، ولا تزال آثار منه باقية، يمتد بعيداً في البحر في الجهة الجنوبية من الميناء مبنياً من الصخور والحجارة الضخمة وكان اتساعه في الأصل، بحسب جوزفس، «مئتي قدم». ترك أحد نصفي الحاجز لكسر الموج عن الميناء، أما النصف الآخر فقد جعل فوقه سور فيه عدة أبراج، دعي أكبرها دروسوس Drusus على اسم صهر لقيصر قضى شاباً». وليست القطع الغرانيتية الضخمة والأعمدة الرخامية التي تزرع البحر عند الشاطئ غير بقايا تلك الأبنية والصروح الشاهقة. كان هناك نُزُل ذات قناطر للبحارة، كما كان هناك تراس يمتد حول الميناء حيث كان يرتفع هيكل من الحجر المصقول يمكن مشاهدته من مسافة بعيدة، بالإضافة الى نصبين واحد لروما والآخر لقيصر. وما يزال الى الآن يقف جزء من قاعدة الهيكل حيث «تتناقض حجارتها البيضاء» بحسب ليوتنانت كوندور، «مع الحجارة الرملية البنية للأبنية اللاحقة وتشهد على دقة وصف جوزفس للمواد التي استقدمت من أماكن بعيدة وبأكلاف عالية». ولا زالت الى اليوم اعداد كبيرة من الأعمدة المنكسرة في البحر عند ريف صخري على الجانب الشمالي من الميناء. أصبحت قيسارية بسرعة المدينة الأكثر أهمية في فلسطين والميناء الرئيسي فيها. كما كانت المقر الرسمي للملوك الهيروديين والحكام الرومان.

وذكرت قيسارية كذلك في «أعمال الرسل»، حيث زارها القديس بولس عدة مرات واحتجز في سجن فيها لمدة سنتين وفي قيسارية أعلن قسباسيان امبرطوراً سنة ٧٠ للميلاد فأُنعم على المدينة صفة المستوطنة الرومانية. واستمر صك العملة الامبرطورية في المدينة من عهد اوغسطس قيصر (والتي اشتقت المدينة اسمها منه) الى عهد غالينوس سنة ٢٦٨ للميلاد. ومع بدء القرن الثالث كان لقيسارية مطرانها، ثم اشتهرت سريعاً بمدرستها العامة حيث علّم اوريجون Origen فيها لبعض الوقت.

وكان ايسبيوس، المؤرخ الاكليريكي الذائع الصيت، مطراناً للمدينة عند مطلع القرن الرابع، وزارتها عند نهاية القرن القديسة باولا رفيقة جيروم، وزارات بحسب السجلات ضريح كونيلى الذي كان قد تحول الى كنيسة، وبيت فيليب Philip وغرف بناته الأربع. ودّرس بروكوبيوس، المؤرخ اليوناني، في قيسارية في القرن السادس فن الخطابة.

واستمرت قيسارية بعد الفتح المحمدي لها في مطلع القرن السابع مدينة غنية ومهمة، ويروى ان بلديون الاول الذي احتل المدينة سنة ١١٠١، بعد حصار دام خمسة عشر يوماً، وجد في اسوارها كنوزاً ضخمة. «والساكروكاتيون» Sacro Cation المحفوظ في خزنة لورنزو في جنوا، هو بعض مما كان في قيسارية. والساكروكاتيون هو كأس او كوب أخضر شفاف سداسي الشكل، مزخرف قليلاً ويروى أنه استخدم لتوزيع النبيذ في «العشاء الأخير» واعتبر تبعاً لذلك إناء مقدساً. وكان يظن دائماً أنه من الزمرد، إلا أن أبحاث الخبراء توصلت حديثاً الى أنه نمط متفرد من الزجاج القديم. والبناء هو تحديداً الكأس المقدسة في آداب القرون الوسطى. وأعلنت قيسارية وبسبب من ذلك اسقفية تتبعها عدة أبرشيات.

احتل المسلمون المدينة، ولكن الصليبيين استعادوها بعد فترة فأعادوا بناءها وعززوا اسوارها، ويقال ان الحصن والأسوار يعودان الى العام ١٢١٨، إلا أن لويس التاسع عاد فأصلحها ودعمها وذلك سنة ١٢٥١. لكن المدينة سقطت أخيراً في يد السلطان بيبرس سنة ١٢٦٩، فدمرت واستمرت اطلالاً الى يومنا هذا.



برج قلعة قيسارية
بناه الصليبيون، ويحتل ربما موقع «برج ستراتو»، الذي اعقبه برج دروزوس لهرود

كانت الأسوار معززة بدعائم خارجية إضافية، محاطة بخندق مائي، وكانت حجارته من الصخر الرملي الصلب ولا تزال آثار منها باقية الى اليوم وترتفع في بعض الأماكن الى ٢٠ أو ٣٠ قدماً. وداخل الأسوار فسحة رحبة مستطيلة الشكل تنمو الأشواك فيها الآن بين الأعمدة المنكسرة أو المتآكلة وقطع الحجارة الضخمة، وفي المكان نفسه الذي تعاقبت فيه القصور والمحاكم والهيكل الرومانية والكنائس والكاتدرائيات البيزنطية والجوامع وكنائس العصر الوسيط. ويمكن تبين قواعد الكاتدرائية بوضوح، كما توجد عند حفافي المنحدر بقايا كنيسة تعود الى الحقبة الصليبية فيها ثلاثة نتوءات بارزة وأربعة جدران دعم، لا تزال جميعها في حالة سليمة، أما الجدران الداخلية فقد انهارت منذ زمن طويل. وقيض لي، مرةً، أن أصرف هنا ساعة أو ساعتين، وحيداً بينما زملائي الرحالة، بينما المرافقون نائمون يرتاحون في الظل قرب الشاطئ، فتسلقت عند منتصف ذلك النهار الصيفي الحار المرتفع القريب وتجولت بين آثاره، ولم يكن هناك إنسيّ واحد. ولن أنسى البتة المشاعر والتداعيات التي تركتها في نفسي عزلة ذلك المكان والوحشة والصمت اللذين يسودان فيه. وهناك برك ماء قليلة مع بئر بين الأسوار، قليل العمق ومياهه مالحة قليلاً لكن المدينة كانت حسنة التموين من ناحية المياه، بدليل بقايا قناة جرت على مستوى منخفض كانت تجلب المياه من نهر الزرقا، وقناة أخرى أعلى مستوى كانت تحمل الى المدينة مياه الشرب من تلال بعيدة حيث ينبع نهر الزرقا، عبر المستنقعات وفوق قناطر حجرية جميلة.

وعلى الشاطئ الرملي جنوب حاجز الموج قمت بجمع خشخاش البحر الأصفر الشاحب الجميل واوراق الخبيزة البحرية القرمزية اللون، ونماذج من الاوبريكلا Opercula البيضاء والصفراء، لكنني لم أجد أصداً كاملة رغم العدد الكبير من كسر الأصداً وشظاياها التي تملأ الشاطئ. ويدعو العرب منطقة الآثار هذه «قيصرية» وهم ذلك يحافظون على اسم المدينة في لفظه اليوناني.

ومن قيسارية نتجه جنوباً مع الشاطئ، فنعبر ضفاف وادي المفجر (أو النهر الأخضر كما يدعوه البعض) ونحط الخطي نحو منطقة صخرية تشكل ميناء صغيراً ترسو فيه بصعوبة الزوارق والمراكب العربية ويدعى ميناء ابو زابورا Abu Zabura وهو عند مصب نهر الاسكندرونة، تقريباً، أو نهر ابو زابورا كما يسميه معظم الناس (راجع الخارطة). ويشكل النهر حينما لا يصل في الصيف الى البحر، بحيرة صغيرة ضحلة غير بعيدة عن الشاطئ.

ونترك الشاطئ عند هذه البقعة ونتسلق المنحدر الذي يقع الى يسارنا ويؤدي الى سفح التلال الصخرية الرملية، فنصل الى أولى القرى القائمة في المنطقة وتدعى مخلد* Mukhālid قرب الطريق العالية على مسافة حوالى الميل من طرف التلال، وعند منتصف الطريق بين نهر اسكندرونة ونهر الفالج (راجع الخارطة)، وهي مركز منطقة معروفة بزراعة البطيخ. وكنت مرة، في رفقة شقيقي، في المنطقة عند بدء موسم البطيخ. وصلنا الى المكان عند الساعة السابعة والنصف من صبيحة نهار من تموز، وكان بالامكان مشاهدة صورة حية للحياة العربية على الطبيعة. فعلى طول الساحل، بين الطريق وحافة المنحدر، وعلى مدى العين، شمالاً وجنوباً، كانت هناك اكوام وتلال من البطيخ بأنواع مختلفة، ومجموعات من الفلاحين بوجوههم المغبرة وقمصانهم البيضاء، بأحزمتهم الجلدية وعماماتهم البيضاء الكبيرة، مشغولة بجمع البطيخ وصف بعضه فوق بعض في شكل أهرامات. وكان هناك مئات من الجمال، بعضها قد انطلق محملاً بالبطيخ، والآخر راكع ينتظر بينما يجري ملأ سلاله الكبيرة بتلك الفاكهة الضخمة. وبين الحقول كانت هناك خيام لجامعي الضرائب الذين قدموا لتحصيل الرسوم المفروضة على الموسم.

توقفنا بين هذه الحقول نستريح لبعض الوقت تحت شجرة كبيرة وحيدة تنشر أغصانها، على بعد حوالى الميل من حافة المنحدرات. ووراء سهل البطيخ ناحية الغرب كان بالامكان مشاهدة مياه المتوسط تلفحها شمس تموز وأسطول صغير من المراكب العربية تبحر شمالاً. لم يكن هناك ما يميز حقول البطيخ الواسعة تلك، فأوراق ثمرة البطيخ الخشنة الكبيرة تنتشر أفقياً في كل مكان وتطلع من بين أوراقها ثمار كأنها كرات رخامية خضراء أو صفراء جعلت للعب العمالة. لم يكن هناك سياج أو شجر يقطع رتابة المناظر تلك خلا العمال وحركتهم يبعثون فيها الحياة. أما الحقول فكانت تفصل بينها أثلام عميقة ينبت فيها الشوك والزعرور، وكانت نادراً ما تظهر بارزة فوق الأرض الرملية. وحينما

* إدغام ربما من أم خالد [م]



بقايا خان حصين عند مُخالد
بناء سراسني على بعد حوالي ميل عن الشاطئ بين منتصف الطريق

رغبنا بشراء القليل من البطيخ لم يكن من مراقب العمال إلا أن قدّم لنا ما شئنا من دون مقابل، مشيراً إلى أن البطيخ لا يباع هنا إلا بكميات كبيرة. كان القليل من الجمال يحمل البطيخ ويتجه جنوباً، إلا أن القسم الأعظم منه كان يُحمل إلى ميناء أبو زابورا حيث ينقل إلى المراكب الشراعية العربية. سرنا في حقول البطيخ هذه أميالاً وأميالاً، كانت كل بقعة في السهل لم تزرع تستنبت شجر الحنظل البري Colocynth وبكثافة. ويبلغ معدل قطر ثمرة الحنظل، وهي مرة، ثلاثة انشات وهي صلبة كالحجر وقشرتها ناعمة خضراء وبيضاء وصفراء مخططة كما الرخام الجميل. ولعلّي لا أخطئ إذا قلت أن الكثير من الخرز الفينيقي المصنوع من الزجاج إنما كان يقلّد ألوان هذه النبتة وأحياناً شكلها. ملأنا إحدى جعبنا بثمار الحنظل دونما أن نأخذ بنصيحة العرب حول ضرر هذه الثمرة؛ وإلى الحنظل كانت صفوف من الزنبق تنبت هنا أو هناك، إلا أنه كان ينزع أن وجد في الحقول المزروعة.

ويبدو ان القرية تشتق اسمها، مُخَلد، من ضريح إسلامي مجاورٍ عزيز الشأن موقوف على إسم «ستي سابا أم خالد»

وفي مُخلد خان حصين على النمط المعماري السراسيني Saracenic، إلا أنه أطلال منذ فترة طويلة. وتشير بقايا القطع الزجاجية والفخارية الموجودة بالقرب منه إلى أن المكان كان مسكوناً منذ فترة طويلة، لكنها لا تشير إلى أي تاريخ محدد. وتطل من فوق قوس تلك التلال الصخرية - الرملية، بالقرب من مُخلد، مناظر واسعة وخلابة، تمتد من مرتفعات الكرمل إلى يافا فنري إلى الشرق التلال الجميلة لسمازيّا (Har- Ephraim). وراء سهل شارون حيث تتوسطه هضبة قليلة الشجر، تمتد تلالها جنوباً لتنتهي في غابة سنديان، هي بقايا أحراج أرسوف Arsuf القديمة، المقابلة لآثار

المدينة التي كانت تحمل الاسم نفسه . ويزعم «ان سكان هذه الهضاب سيئو الطباع، الا انهم أصحاب ثروات من الخيل وقطعان الماشية»

تنتهي منطقة إنتاج البطيخ بالقرب من «نهر الفالق» الذي نبلغه بعد ان نمر بهشيم من الأشجار البرية كالبلوط والقطب والزعرور والعليق. «والفالج» او «الفالق» falik يشير في اسمه الى معنى القطع لمجره الذي يقطع منطقة المستنقعات من الينابيع الموجودة شرقي الهضبة الصخرية الرملية. ويظل مجراه شريط من القصب الطويل، الذي يشبه من بعد غابة نخيل، كما تحف به شجيرات الدفلي ونباتات برية أخرى. ويشير الركام القائم قرب النهر الى أن حصناً كان يقوم في المكان في زمن ما. وبعد عبورنا النهر ندخل سهلاً موحشاً لا أثر فيه لبشر أو زراعة أو حتى شجر، خلا الشوك والعليق وشجيرات برية ويمتد جنوباً لحوالي خمسة أميال. ويحد السهل الى اليمين تلال من الرمال المتحركة، أحياناً، تحجب رؤية البحر بينما ترتفع الى اليسار سلسلة تلال تنتهي عند التلال الحرجية لسهل شارون.

ونمر ببضع برك من المياه الراكدة، يعرش فيها او حولها العليق والقصب، وتلفت انتباهنا بضعة كهوف وعدد من الأضرحة المحفورة في الصخر على يسارنا في سلسلة الصخر الرملي ويقودنا هذا الطريق الإلزامي الموحش الى «حرم علي بن عليم» الذي يقف على مرتفع يعلو ١١٠ أقدام فوق سطح البحر. ويتألف المكان من مجموعة بيوت تصطف حول جامع قديم، يقال ان السلطان ملك الظاهر قد بناه سنة ١٢٧٠ على اسم درويش معروف هو علي بن عليم.

وكنت قد صرفت، في رحلة سابقة برفقة شقيقي، بضع ساعات في المكان. وقد بلغناه في حينه آتين من جهة الجنوب بمحاذاة شاطئ البحر وعند غروب الشمس تقريباً. كان النورس يحلق فوق رؤوسنا باسطاً جناحيه البيضاويين الواسعين، بينما أعداد وأعداد من السلطعون قد خرجت من مخابئها على الشاطئ واتجهت صوب الماء والطيور الباحثة في المحار تذرع الشاطئ في كل اتجاه. كانت المنحدرات على يميننا حادة وعالية وهي رملية أو من الصخر الرملي. ارتفع الشفق سريعاً، وصعدت من الأرض غلالة من الضباب الكثيف بحيث بتنا لا نرى، وبصعوبة، الا أعالي الاشياء أمامنا. والتقينا بفاصلة من الجمال تتهادى على كسل، وبدت غريبة طويلة وذات ظلال غير مألوفة بفعل الضباب المتغلغل بينها؛ بل ان مرافقنا الذي كان يسير امامنا ممتطياً صهوة جواد رمادي بدا كأنه يسير في فراغ ولا شيء يصله بالأرض، حيث كان الضباب يحجب حصانه تماماً. وقادنا مرافقنا الى شق بين التلال كان مجرى مائياً فيما مضى، ويقوم في منتصف شير صخري يشق المجرى الذي بات طريقاً الى شطرين أو بالأحرى الى ممرين طبيعيين. وتسلقنا الطريق التي تلتف حول المنحدر على ضوء القناديل في أيدينا، الى أن بلغنا قمة المنحدر وصرنا فوق الضباب المتصاعد من البحر، فصرنا في محيط الحرم المقدس. ودخلنا عبر عدة ساحات وممرات ثم صعداً عبر سلم حجري غير مسقوف الى ترأس عريض حيث اقتعد عدد من العرب الأرض حول قوز من الأرز يلتهمونه بسرعة وصمت تحت ضوء النجوم وقنديل قريب مضاء. رحب بنا شيخ الحرم بكثير من اللطف ودعانا للدخول الى غرفة مخصصة للضيوف عالية ومفتوحة على التراس. واضيئت قناديل خزفية حمراء وضعت في فجوات صغيرة موزعة على حيطان الغرفة، فبدا السقف مقبباً عالياً والحيطان مغطاة مع بعض الزخرفة ذات الذوق الرفيع. في الوسط كانت هناك كتابات محفورة ومزخرفة بالأحمر والأسود تضم أسماء الانبياء والاولياء وابتهالات الى الله. لكن السواد كان يُلَوْن الأرض بفعل الدخان الذي ينبعث من موقد طيني في وسط الغرفة يشتعل فيه الحطب او الفحم شتاء بغرض التدفئة. لم يكن في الغرفة أثاث خلا حصر ممدودة على إفريز عالٍ قليلاً، ويمتد على ثلاثة جوانب من الغرفة وعلى زواياها وكان لا بد بالتالي من استخدام بعض من عدة تخييمنا. وتحدثنا بعد العشاء لبعض الوقت مع الشيخ ثم خرجنا نتمشى قليلاً على التراس الذي أضاءته النجوم وحيث كان خدمنا قد تذرروا بعباءاتهم السميكة يغطون في نوم عميق.

إرتحنا في غرفة الضيوف الواسعة لبضع ساعات، الى أن دعا المؤذن، من المأذنة القريبة، الى الصلاة عند الفجر: «أفيقوا ايها النائمون، الصلاة أفضل من النوم!» استجبنا لندائه وخرجنا الى التراس. كان النهار على وشك أن يبدأ، والساعة تقارب الثالثة، بينما رجع صوت طويل للديكة كان ينبعث من الساحة في الاسفل يذكرنا بالساعة، فالتنبيه

الاول مع الفجر، والثاني بعد ساعتين عند طلوع الشمس. عند الساعة الرابعة كنا جاهزين لمتابعة رحلتنا، فشكرنا للشيخ استضافته لنا في الحرم القديم وانطلقنا من جديد شمالاً.

وعلى مسافة قصيرة من هذا المكان، ناحية الشمال تقوم آثار حصن صليبي هو أرصوف Arsuf (راجع الخارطة) ويعود المؤرخ جوزفس الى المكان في اسم أبولونيا، لكنه لا يذكر شيئاً عن تاريخه القديم خلا انه كان خراباً سنة ٥٧ قبل الميلاد فأعاد الرومان بناءه.

ويفترض أن أرصوف كانت حصناً قوياً في القرن الحادي عشر، إذ يروى ان غودفري بوالون، ملك أورشليم، حاصرها من دون نتيجة؛ لكنها شاركت قيسارية مصيرها، إذ احتلها شقيق غودفري وخليفته، بلدوين الأول وليستعدها بعد ذلك المسلمون.

وبالقرب من أرصوف هزمت قوات ريتشارد كور دي ليون قوات صلاح الدين سنة ١١٩١، بعد مسيرة ١٠٠ ميل من عكا الى عسقلان بهدف إنقاذ المدينة، وأمكن بنتيجة المعركة استعادة أرصوف. ويعترف المؤرخ العربي بهاء الدين ان غابة أرصوف وحدها هي التي انقذت جيش صلاح الدين من الإغناء.

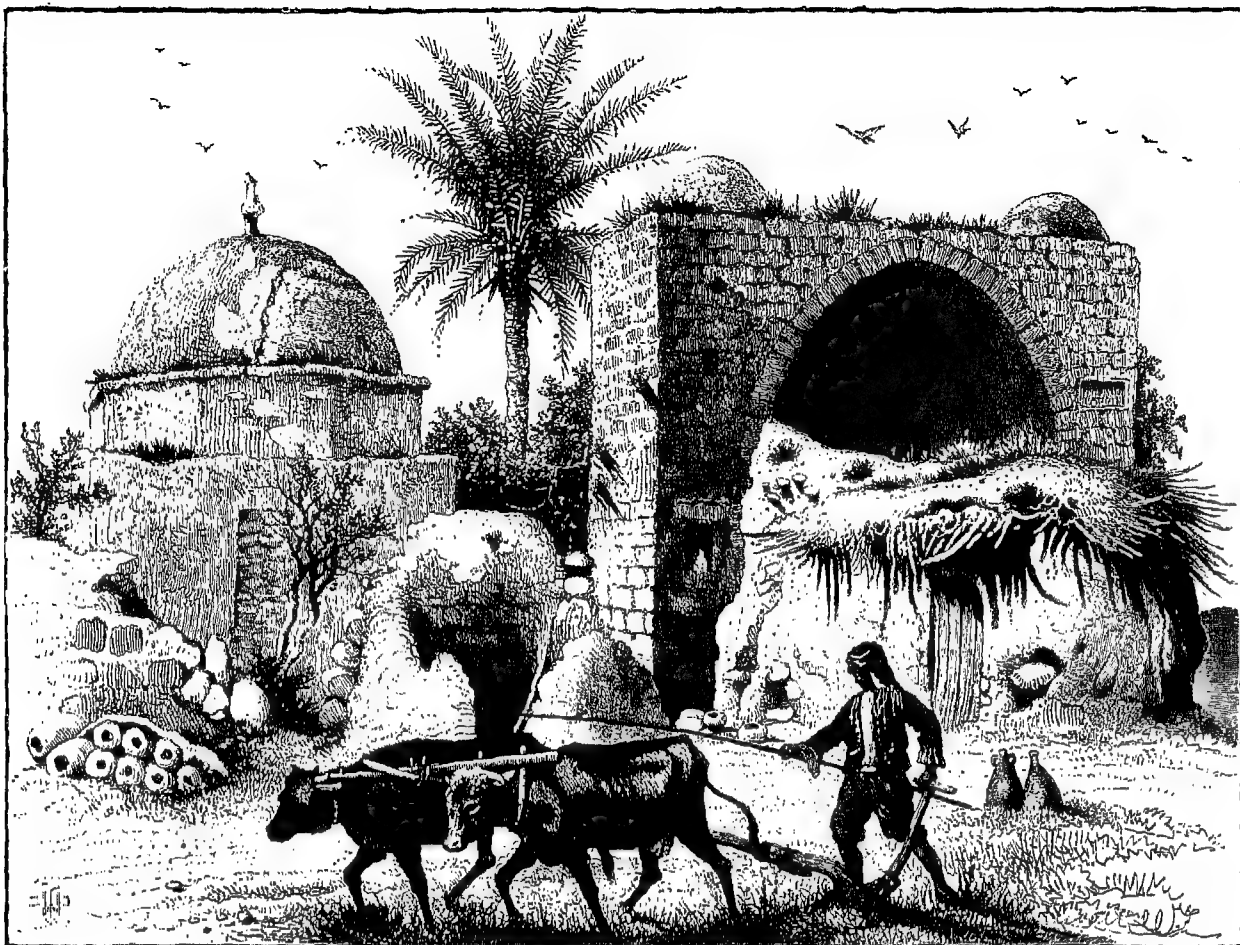
أعاد لويس التاسع تحصين أرصوف سنة ١٢٥١، لكنها سقطت من جديد في يد المسلمين حينما حاصرها ثم دخلها السلطان ملك الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٥؛ فقتل من فيها وبقيت خراباً مذكاً والى اليوم ويقول ليوتنانت كيتشفر، ر. ي. في «مجلة المسح» (١٨٧٧): «تشبه قلعة أرصوف عسقلان (راجع الخارطة) في شكل حجارتها ونوع الطين الممتاز المستخدم. ففي اجزاء معينة من تلك الاثار كانت الحجارة قد أزيلت او سقطت بينما بقي الطين كما كان. أما في امكنة أخرى فقد بقيت العقود سليمة تماماً كما تركها بناؤها. انشئت القلعة على أساس ضعيف هو عبارة عن صخر ناعم على الشاطئ؛ فانهار الأساس وسقطت الأسوار والحيطان كتلاً كبيرة. تحطم الكثير من هذه الأسوار والحيطان لكن اجزاء كبيرة منها سقطت من أماكن عالية وظلت متراسة كما كانت. بل في وسع المرء ان يعتقد، أحياناً، أن تلك الحيطان كأنما كانت تزحلق من عل بلطف لشدة ما تبدو عليه من تماسك. كما أن هناك كميات من سلفات النحاس ملتصقة بالصخور كحبيبات الكريستال». وكان الميناء على اتساع وترتيب يبلغ «٣٠٠ قدم طولاً من الشمال الى الجنوب، و ١٢٠ قدماً من الشرق الى الغرب» مع مدخل يبلغ اتساعه ٣٠ قدماً.

ونترك هذا المكان المهجور خلف آثار أقدام وعربات تقودنا شرقاً، عبر سهل شارون الى كفر سابا على بعد حوالي ٨ أميال. وتمتد الى يميننا سبخ ومستنقعات تغدو مراعي خصبة ايام الربيع، وتستدير الطريق حول منطقة حرجية، هي ما تبقى من غابة أرصوف، ويدعوها المؤرخ الصليبي غيوفري دي فينسوف أسور Assûr.

وكفرسابا للناظر اليها من بعيد جميلة الطلة تحيط بها من الشمال والغرب غابات الزيتون وبساتين الأشجار المثمرة، وترتفع هنا وهناك أشجار البلح. والمنظر المنشور في الصفحة ١١٩ هو للبلدة من ناحية الشرق. تقوم كفرسابا على هضبة في السهل الذي يعلو الشاطئ قليلاً، وترتفع ١٦٨ قدماً فوق مستوى سطح البحر. ويذهب الكثير من البحّاة، ومن بينهم د. روبنسون، أن المكان هو موقع مدينة انتيباتريس القديمة، ولكن ما من شيء يشير، الى أن مدينة مهمة كانت تقوم في هذا المكان. بيوت كفرسابا مبنية من الطوب المجفف في الشمس ومن الحجارة الصغيرة، وفيها أحواض لجمع مياه الامطار صنعت من الطين. وليس هناك من آبار أو عيون في القرية او في جوارها، ولكن هناك على بعد نصف ميل ناحية الشرق بئران فيهما مياه طبيعية عذبة، واحدهما عند مزار النبي بنيامين وترتفع اشجار باسقة قرب المزار (وتظهر إحداها في مشهد كفرسابا)



كفر سابا.
بيوتها مبنية من الطوب المجفف، مع بساتين واسعة الى الجنوب والغرب منها تبعد ١٤ ميلاً عن يافا



نبي بن يمين (ضريح النبي بنيامين)
وضريح مسلم على بعد نصف ميل من قرية كفرسابا، وقربه بئر ماء عذب، وفلاح يقود ثورين على آلة فلاحة بدائي

ويروي جوزفس ان هيرود Herod أمر ببناء مدينة انتيباتريس Antipatris، على اسم والده انتيباتر، «في سهل كفرسابا، السهل الأكثر خصوبة في المملكة» وكان هناك نهر جار يحاذي المدينة. ويمكن عموماً القول إن الركام الذي



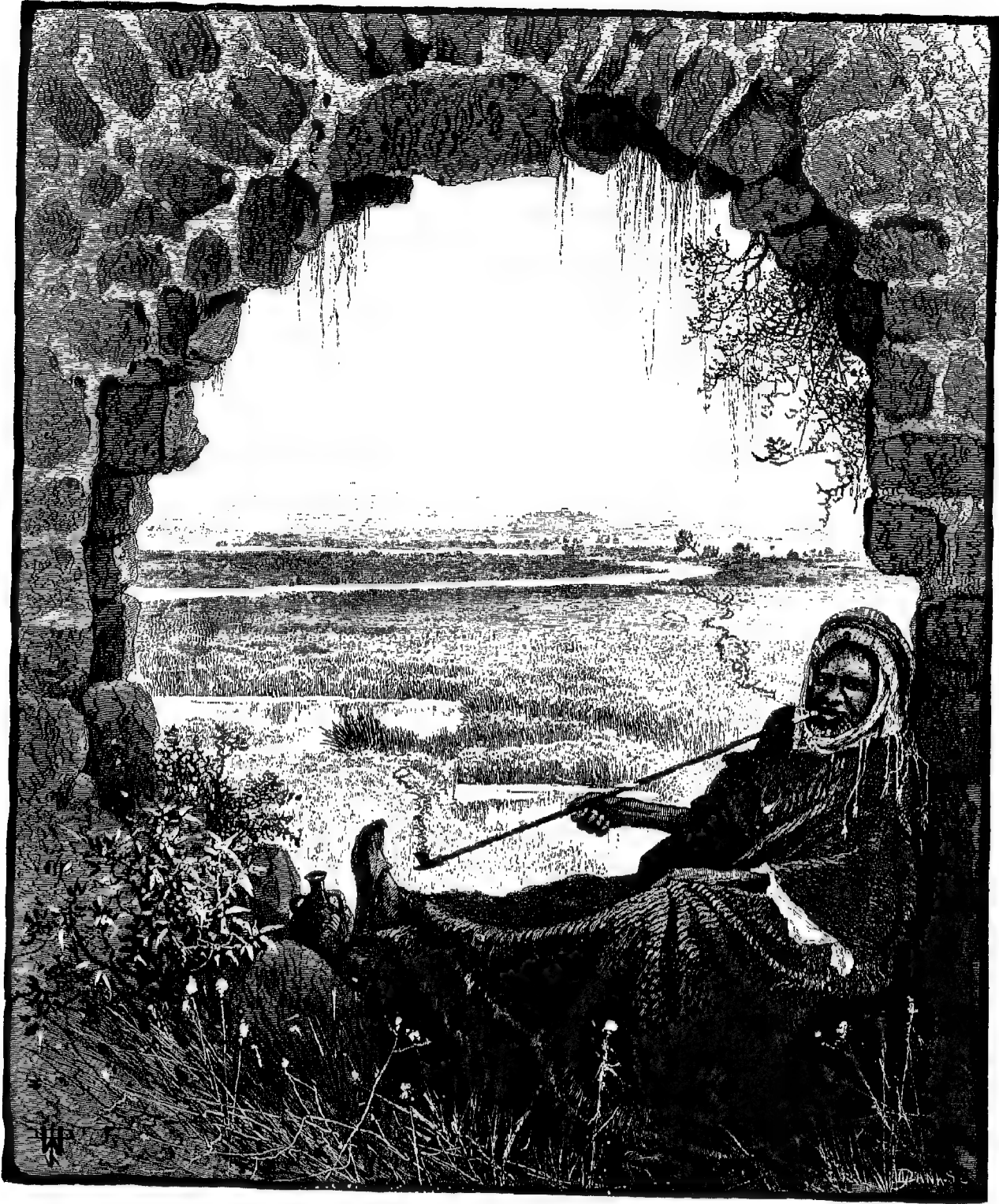
يسمى اليوم «قلعة رأس العين» هو موقع انتيباتريس القديمة. وهي في السهل نفسه الذي تقوم عليه كفرسابا لكنها تبعد خمسة أميال ونصف الميل جنوباً. والموقع مليء بقطع الزجاج والفخار والرخام والآجر الروماني، وتجري بالقرب ينابيع غزيرة هي المنبع الاساسي لنهر العوجة.

وينتهي مستر جايمس فن J. Finn في كتابه «مجاهل فلسطين»، إلى أنه يستحيل تجنب الاستنتاج ان هذا هو موقع انتيباتريس القديمة. ولا تزال قناة

قلعة ميرابل Mirabel.

تدعى اليوم قلعة رأس العين بناها الصليبيون قبل سنة ١١٤٩ م. وتحيط اليوم بارض شاسعة يتوسطها جامع صغير.

ماء تحيط بالمكان، كانت تنقل المياه الى المدينة، ثم يضيف «أن لا مكان أفضل من هذا لقيام محطة عسكرية».



نهر العوجه من قلعة رأس العين.
ينبع النهر من ينابيع غزيرة عن أقدام التل الذي تقوم فوقه القلعة وفي مكان انتيباتريس.

وكان القديس بولس قد نقل من اورشليم الى انتيباتريس، تحت الحراسة، قبل أن ينقل الى قيسارية في اليوم التالي (الأعمال 31, 32, XXIII). وتقوم على الطريق الروماني بين انتيباتريس واورشليم، منطقة واسعة من الركام والآثار تدعى «تبنة» Tibneth، او مدينة تيمنه سير Timnath Sira في التفسير المسيحي، مدينة جشوا ومكان دفنه



شجرة مقدسة تدعى شيخ التيم.
جنوب تل الآثار والأضرحة التي تدعى اليوم تبني Tibneh
ومحل تيمناث سيرا القديمة، مدينة جشوا.

(جوشوا 30. XXIV) ويقوم ضريح متميز وعلى مدفن
محفور في الصخر على منحدر جنوب تلك الهضبة وهو
ليس بغريب عن التفسير المسيحي التقليدي ويسجل
كوندر Lie Conder «أن هناك فجوات لأكثر من مئتي
قنديل على مدخل الضريح. أما في الداخل فهناك غرفة
فيها أربعة عشر قبراً أو كوكم Kokim، وممر يقود إلى

غرفة داخلية فيها قبر واحد. أما شجرة السنديان الكبيرة قرب الضريح فيصل ارتفاعها إلى حوالي ٤٠ قدماً وتدعى

الشيخ التيم Sheikh et teim (خادم الله) ويرى م. غيرون Guirin أن الضريح هو المدفن الحقيقي ليشوع، وأن الفلاحين الذين دخلوا الغرفة الداخلية قبل وقت قصير من زيارته سنة ١٨٦٣ قد وجدوا نوعاً من الثريا ذات ثلاثة قناديل من المعدن الأصفر. ووجد أبي ريتشارد سنة ١٨٧٠ خناجر من الصوان (أما تقليد السماريتيين Samaritan في احترام ضريح جوشوا، فيعود الى صفحة ٢٣٣ ، م أ).



قيسارية.

يافا أو جوف القديمة

تعتبر جافا Jaffa، أو يافا بالأحرى، أحد أقدم الموانئ البحرية في العالم وهي حافظت على اسمها كما كان منذ البدء - يافو yapho «الجميلة» وكان أرز لبنان قد «أرسل إلى ميناء يافا بحراً عن طريق العوم» لبناء هياكل اورشليم (55. 2 chron, ii Esdras v) وحاصر جوناثان ماكبيز يافا «واحتلها» (1 Macc x. 75,76). ثم غدت المدينة يونانية ورومانية، ودمرت وأعيد بناؤها غير مرة، قبل الفتح العربي الذي تم سنة ٦٣٦ ميلادي. واحتلها الصليبيون سنة ١٠٩٩ ثم خسروها واسترجعوها، إلى أن سقطت نهائياً في يد السلطان ملك الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٧، الذي دمرها وتركها خراباً. ولم تنهض المدينة من جديد حتى نهاية القرن السابع عشر. وحين قدم إليها جيش نابليون سنة ١٧٩٩، كانت يافا قد حصنت من جديد وبات لها أسوار وكانت قادرة

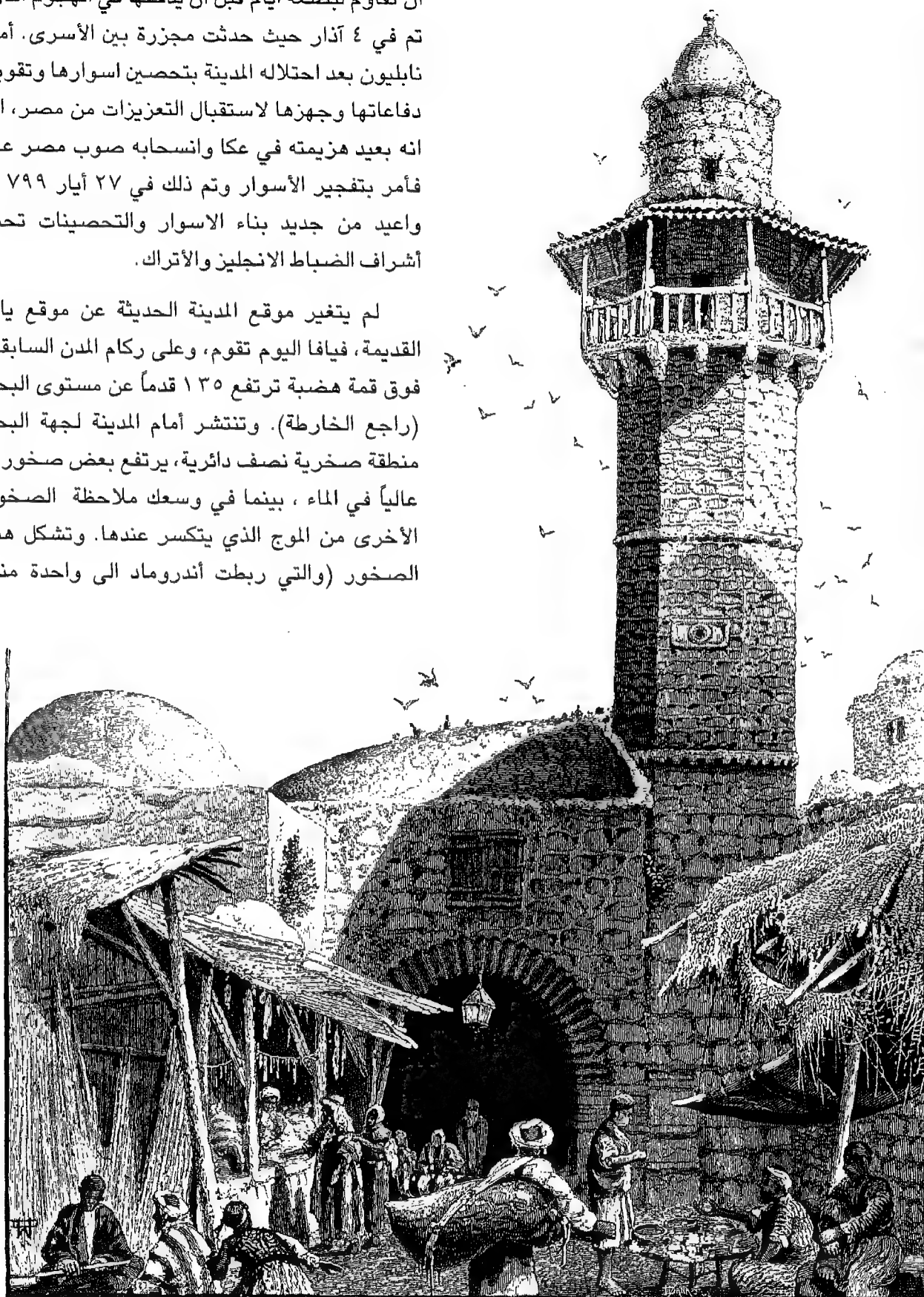


الرسو في يافا

تحفّ به دائماً الصعوبات حيث لا تتمكن السفن من دخول الميناء الصغير، وينتقل المسافرون إلى زوارق عربية صغيرة.

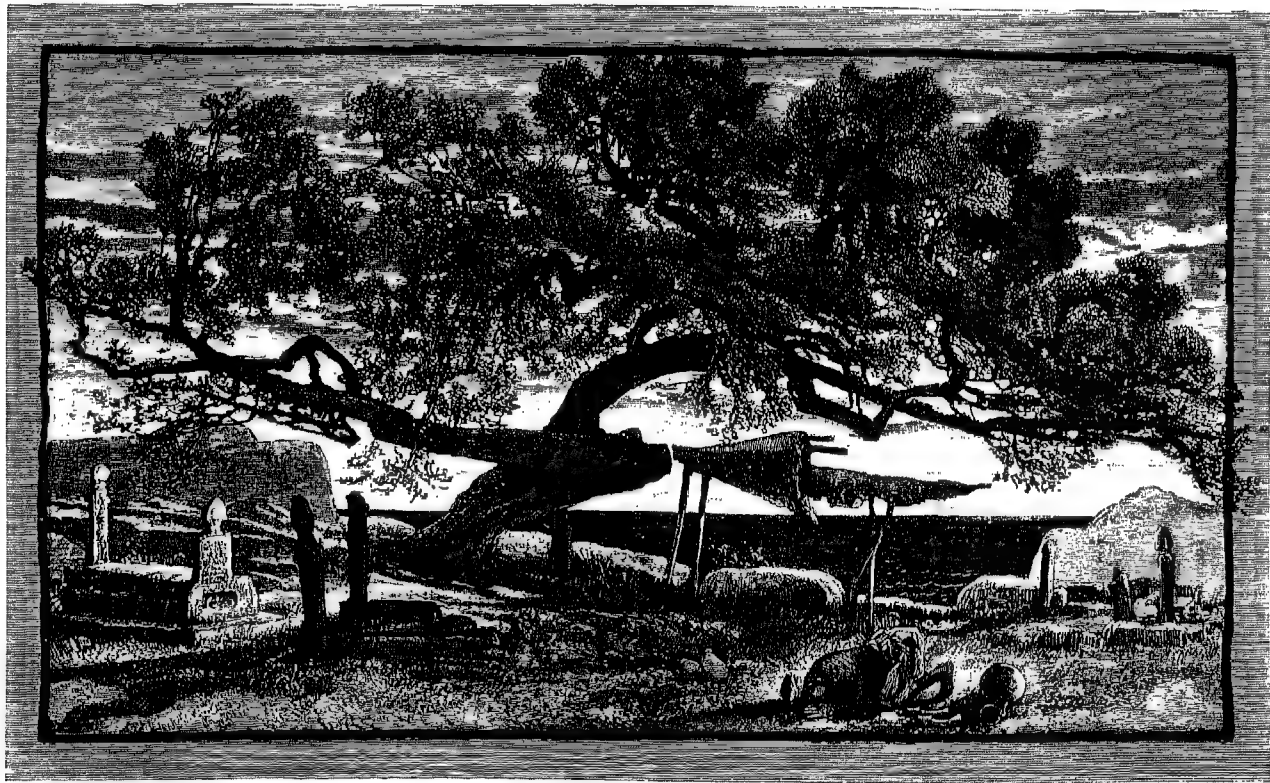
أن تقاوم لبضعة ايام قبل أن يدخلها في الهجوم الذي تم في ٤ آذار حيث حدثت مجزرة بين الأسرى. أمر نابليون بعد احتلاله المدينة بتحسين اسوارها وتقوية دفاعاتها وجهازها لاستقبال التعزيزات من مصر، الا انه بعيد هزيمته في عكا وانسحابه صوب مصر عاد فأمر بتفجير الأسوار وتم ذلك في ٢٧ أيار ١٧٩٩. واعد من جديد بناء الاسوار والتحصينات تحت إشراف الضباط الانجليز والأتراك.

لم يتغير موقع المدينة الحديثة عن موقع يافا القديمة، فيافا اليوم تقوم، وعلى ركام المدن السابقة، فوق قمة هضبة ترتفع ١٣٥ قدماً عن مستوى البحر (راجع الخارطة). وتنتشر أمام المدينة لجهة البحر منطقة صخرية نصف دائرية، يرتفع بعض صخورها عالياً في الماء، بينما في وسعك ملاحظة الصخور الأخرى من الموج الذي يتكسر عندها. وتشكل هذه الصخور (والتي ربطت أندروماد الى واحدة منها

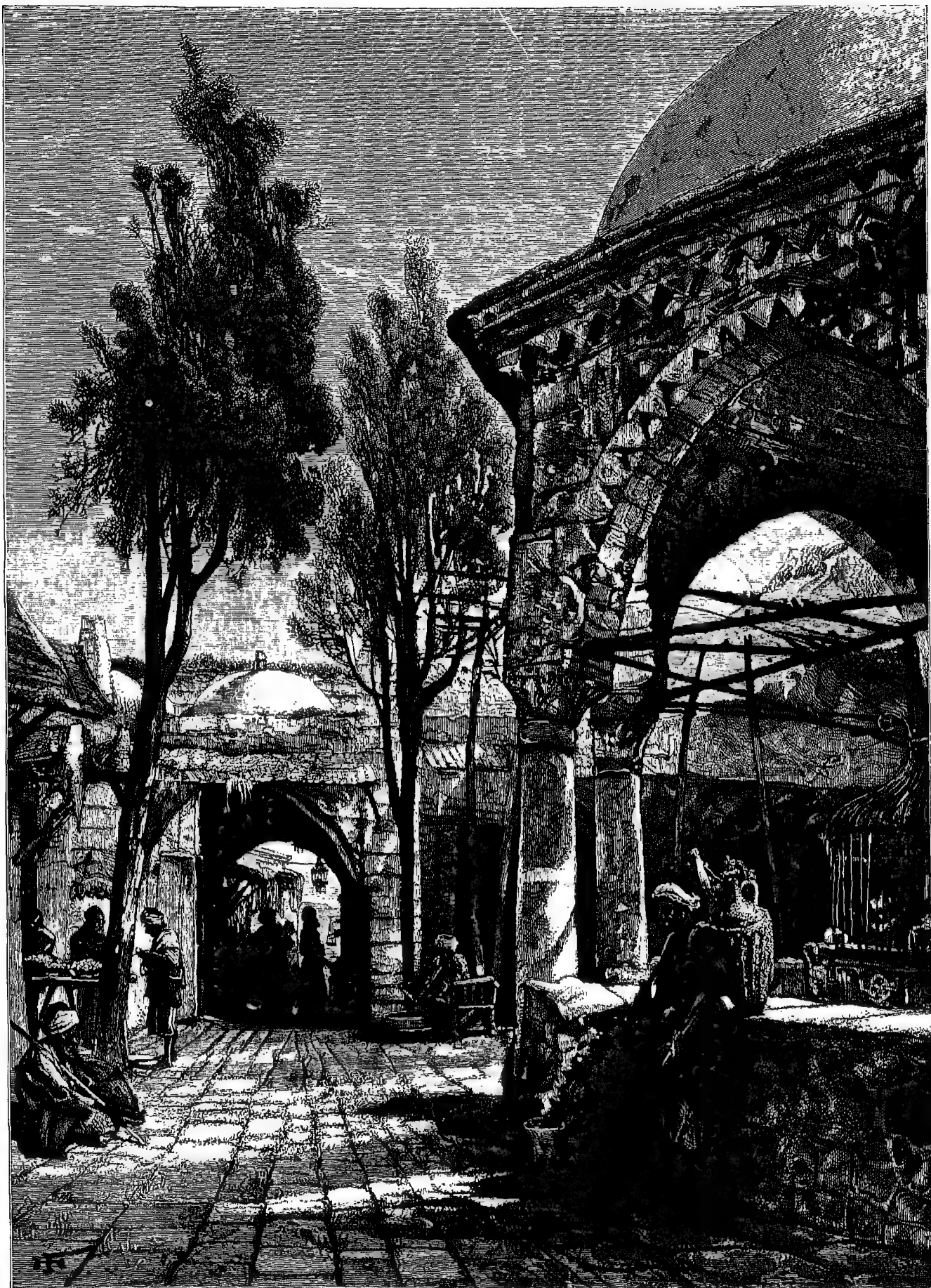


الجامع في يافا
بناء حديث في القسم الشمالي الشرقي من المدينة. وتبدو المدينة والشاطئ من أعلاه وبين الكثير من قوارب الصيد العربية.

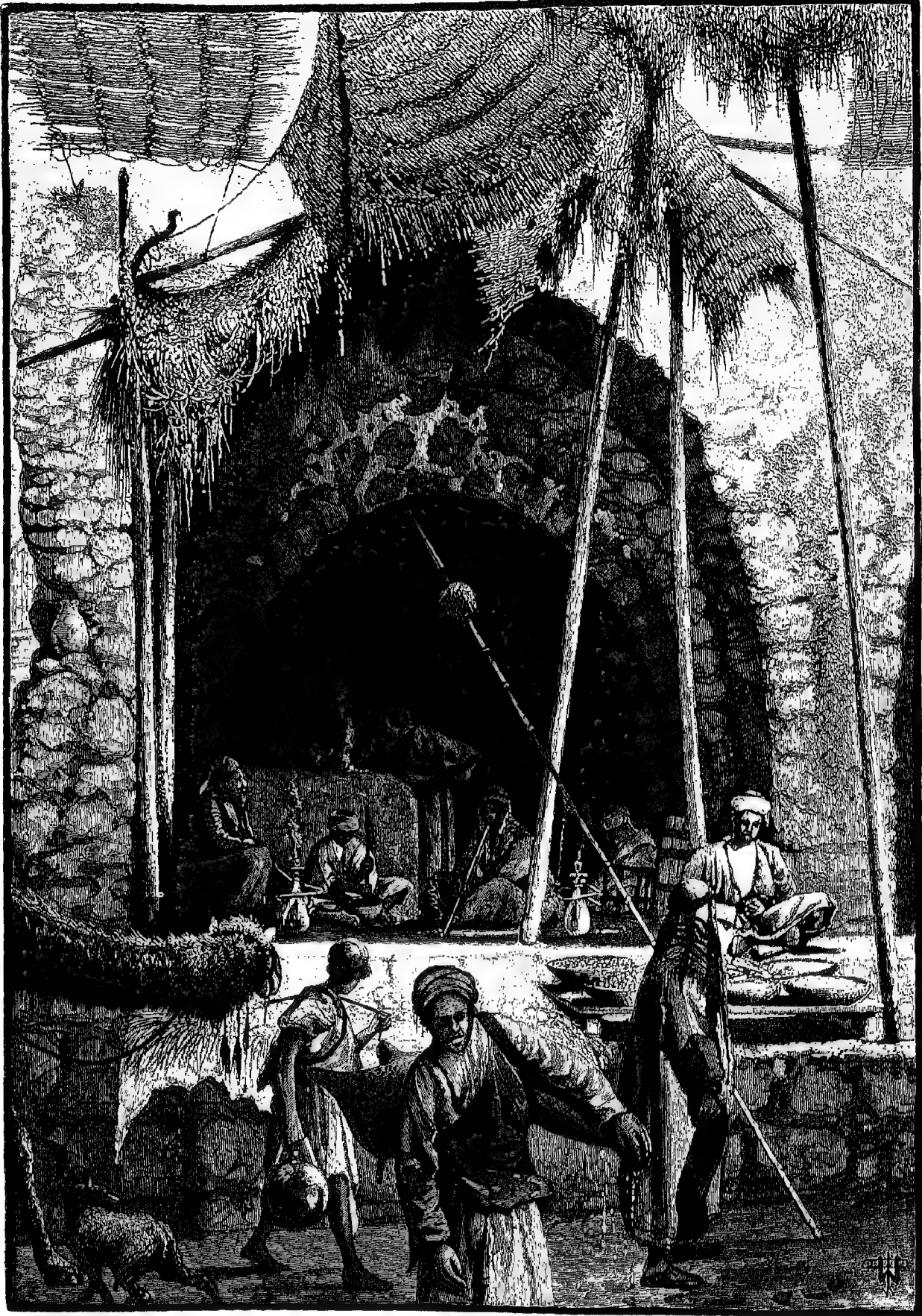
بحسب بليني (pliny) ميناء كبيراً ولكن قليل العمق لا تدخله غير الزوارق الصغيرة. وهناك مدخلان للميناء، واحد واسع ناحية الشمال وآخر ضيق غرباً وعليه فإن السفن البخارية تضطر للرسو على بعد حوالى نصف ميل عن الشاطئ. ثم يجري نقل الركاب في مراكب صغيرة. وتتوسع يافا اليوم باطراد، في ثراها وأهميتها. وسكانها يزدون الآن، كما يقال عن ثمانية الآف، ثلاثهم محمديون. وفي ضواحي يافا عدد آخر لا بأس به من السكان، فهناك مستوطنة مصرية شمالي المدينة خلف المداخلن ومستوطنة جماعة الهيكل تسكن منطقة سارونا Sarona شمال شرق المدينة، كذلك أقام الاميريكيون مستوطنة مماثلة سنة ١٨٦٦ قرب المدينة. كما جرى تقديم منطقة شاسعة وراء بساتين يافا، الى المستوطنة الزراعية التابعة للتحالف الاسرائيلي العالمي Universal Israelitish Alliance .



شجرة شيتيم Shittim في يافا
في المقبرة الاسلامية شمال المدينة ، عند الغروب وقت الصلاة.

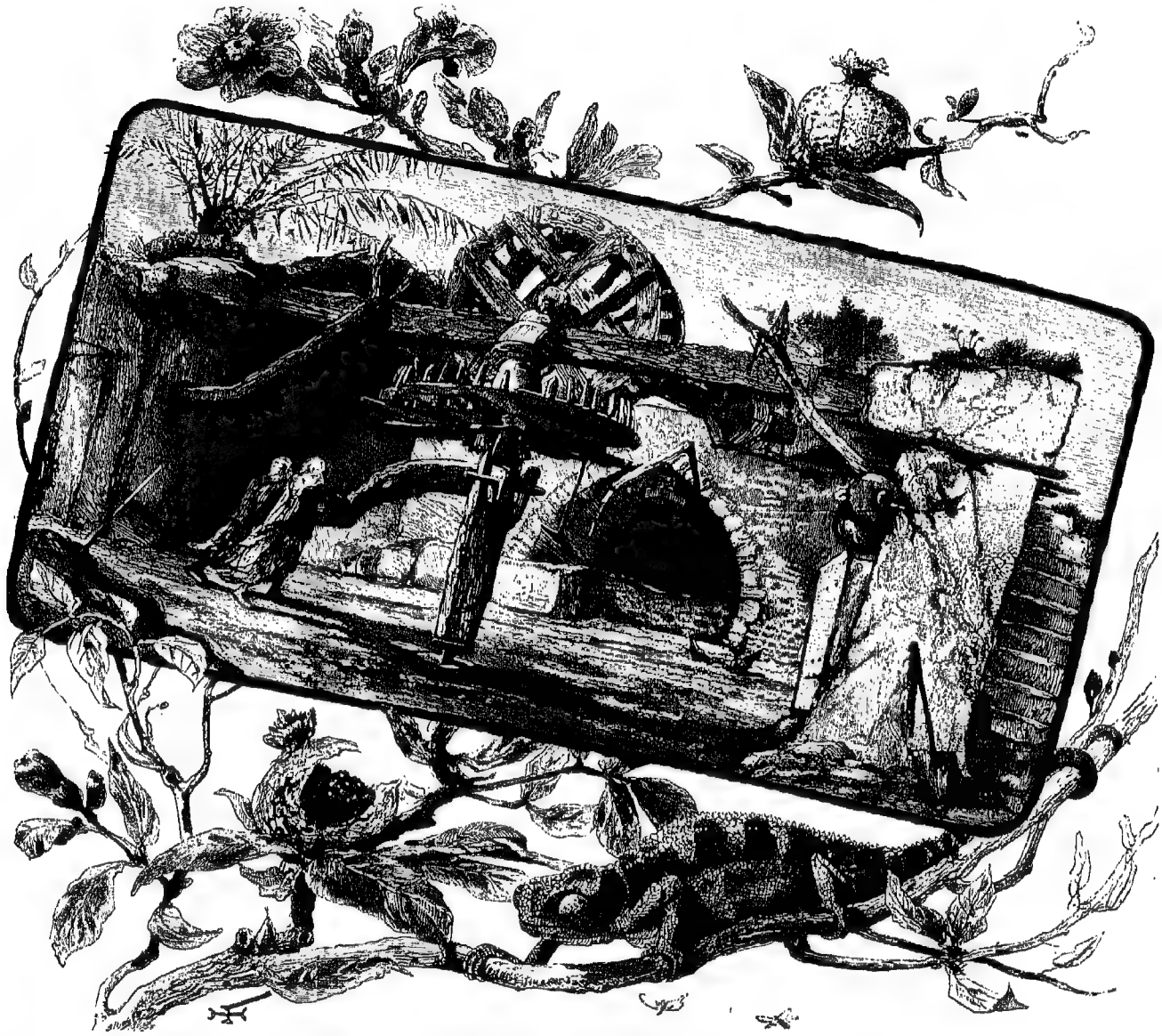


عين ماء للعموم في يافا
وهي قرب بوابة البلدة فوقها بناء مقبب له ثمانى عقود تدعمها أعمدة.



في بازار يافا
مقهى عام داخل عقد وعدد من المدخنين، وخادم يصب القهوة حافي القدمين وآخر يعرض فاكهة،
وثالث يحمل ماء، وصبي يقود جملاً.

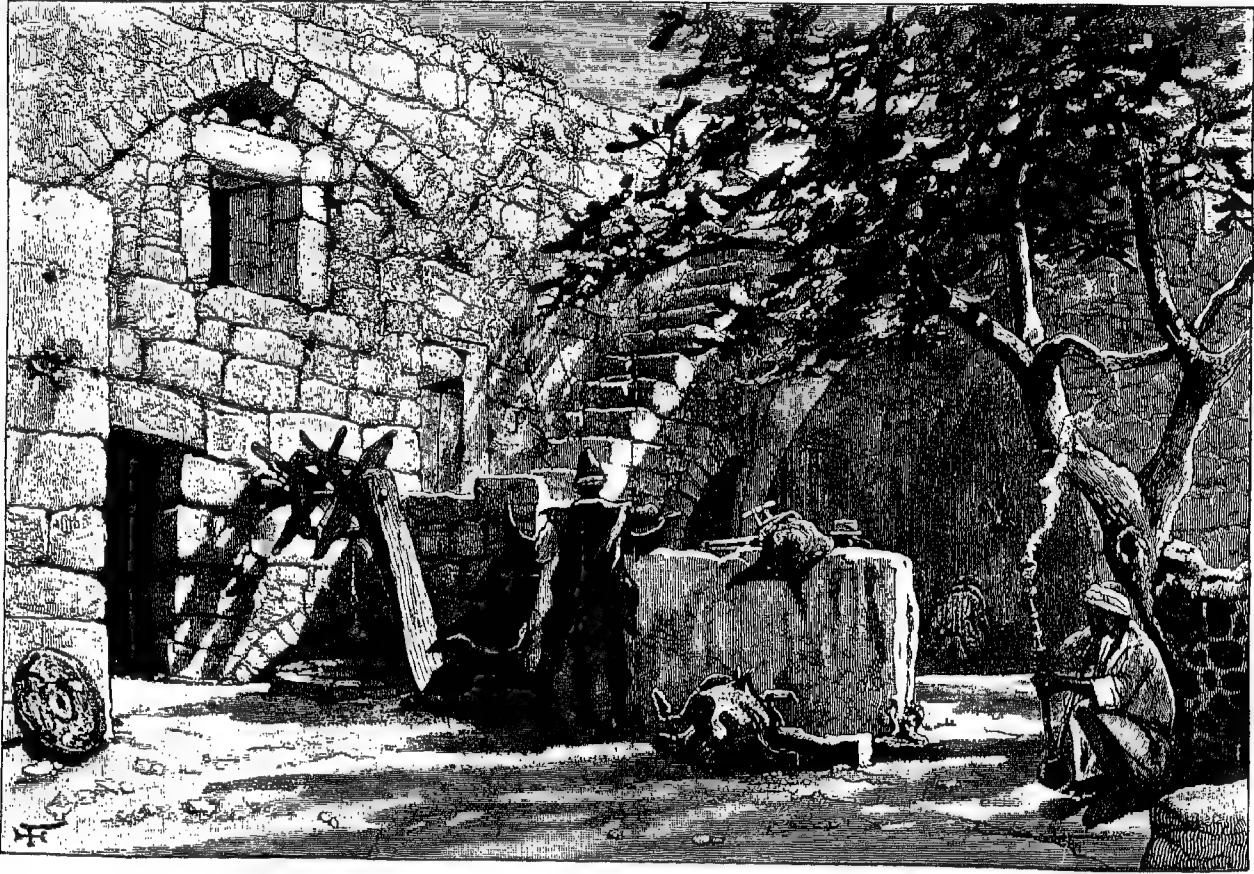
وأسواق يافا عامرة بالبضائع من كل الأصناف ويؤمها اشخاص من مشارب ومظاهر مختلفة. ويصف السرّس. شيك C.sheik، عامل الحكومة لشؤون البناء في اورشليم، التقدم الذي حدث في يافا فيقول: «لقد أزيل السور، وطمر الخندق المائي، وأقيم عدد من المخازن والدور الكبرى». ثم يضيف «وكدليل على تقدم الزراعة نذكر أن بساتين يافا قد تضاعفت أربع مرات في ربع قرن». وهذه البساتين هي أهم ما في المنطقة اليوم. وهي تمتد ميلين الى الداخل وحوالي



منظر في بستان يافاوي
وأمراتان تديران «الساقية» التي تسحب الماء من البئر وملأ الخزان وحرباء على غصن شجرة الرمان.

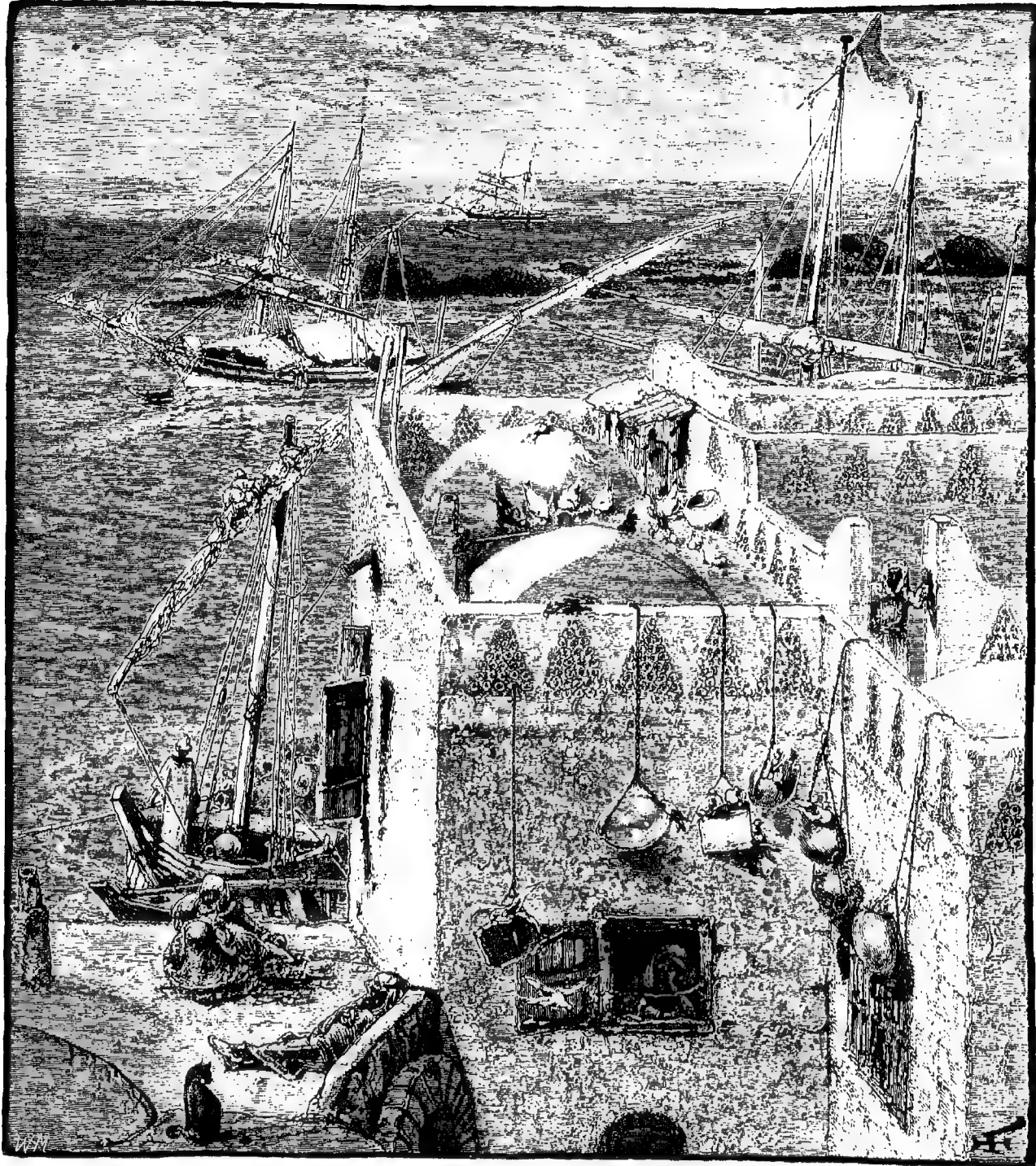
ثلاثة أميال من الشمال الى الجنوب. وسطح التربة رملي، إلا أنها غنية دون ذلك، كما أن الماء متوفر بكثرة. والبساتين محاطة بأسوار حجرية، أو بسياج لا يمكن اجتيازه من نبات القث أو الصبّير. وفي كل بستان بئر ماء مبني من حجارة، وقربه خزان ماء مرتفع يملأ بواسطة «الساقية». وترتفع الجرار الفخارية الواحدة بعد الأخرى تفرغ الماء الذي رفعته من البئر في الخزان المرتفع. وتنتج هذه البساتين المروية انواعاً مختلفة من الفاكهة والخضار. ورغم أن كرماتها تبقى شبه مدفونة في الرمل، إلا أن برتقالها لا مثيل له ويصدر معظمه الى الخارج.

وأحد مصادر الدخل الرئيسية للسكان هنا هي المواسم السنوية لقدم الحجاج في طريقهم الى أورشليم. وهناك نزل مريح ودير لللاتين يقدمان المأوى للمسافرين. ويقوم النزل في مرتفع في احدى التلال وفي المكان الذي كان يقوم عليه «بيت سيمون الدّباغ» Simon the Tinner، إلا أنه يزعم، بخلاف ذلك، أن مكان البيت يقوم فوقه ضريح أو جامع محمدي بالقرب من الشاطئ (الاعمال 6. x) ويمكن من فوق سطح البيت أن تطلّ على منظر جميل للميناء. والبناء المحلي في يافا يشبه ذاك الموجود في اورشليم وبسبب من ندرة الخشب تبني السقوف من الحجارة وعلى شكل قباب أو



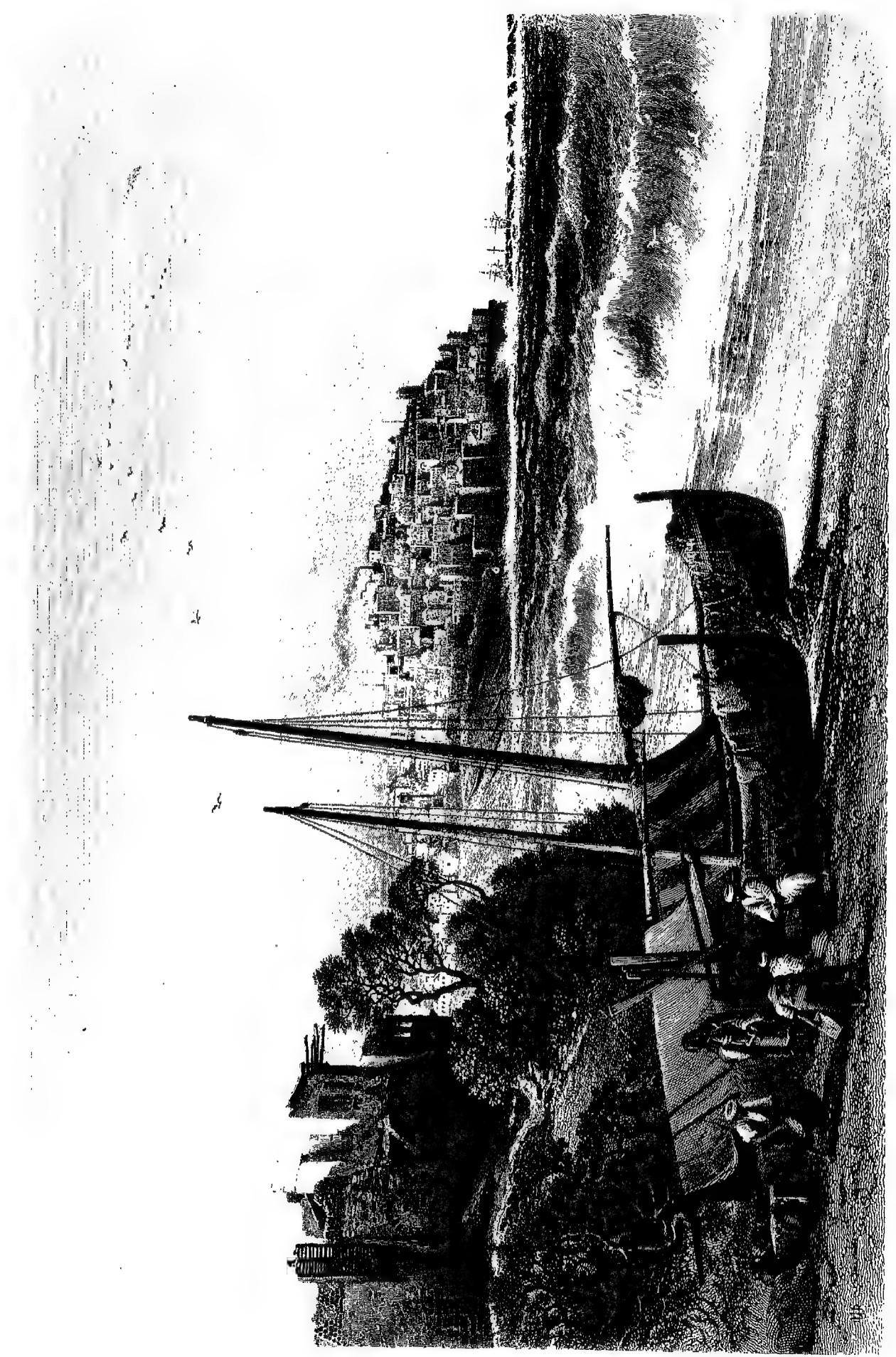
بيت سيمون الدّباغ
وهو اليوم مدفن اسلامي، وبئر ماء وشجرة تين بالقرب من المكان.

عقود. أما قاعدة القبة فيجري في الغالب إخفاؤها كلياً أو جزئياً، فينشأ ممّر مسطح أو ترّاس يمكن المشي فوقه ويحيط بهذه السقوف ذات التّرايس حائط منخفض أو حاجز حماية تمشياً مع قانون قديم جداً: «حين تبني بيتاً جديداً، فيجب أن تحمي السقف، فإذا سقط عنه رجل لا تلحق به الأذية أو ينسال منه الدم» (Deut xxii) وتصنع هذه الحواجز في الغالب من الطين أو الصلصال حيث يبلغ قطر القطعة منه ٥ انشات وطولها بين ٨ و ١٠ انشات، وقد تصنع أو تصفّ وفق أشكال هندسية مختلفة وجميلة؛ كما أن هناك عين ماء حسنة التصميم والبناء بالقرب من بوابة يافا.



منظر لميناء يافا المحاط بالصخور
ومن على سطح منزل سيمون الدبّاغ. والمبنى نمط سائد للعمارة المحلية في بلدات ومدن جنوب فلسطين.

والرحلة من يافا الى اورشليم (راجع ص ١٣٧، ص ١، ج ١) يمكن ان تجري اليوم بواسطة «الأومني باص Omnibu، فلا تستغرق أكثر من اثنتي عشرة ساعة، حيث تنطلق يومياً عربتان في الاتجاهين، تحت اشراف مستوطني «جماعة الهيكل». وتراقب الطريق مراكز مراقبة يفصل واحدها عن الآخر ميلان، كما تستخدم أسلاك ومراكز التلغراف على طول الطريق (راجع ص ١٩٥، ج ١). أما المسافرون الذين يفضلون الخيل فعليهم الانطلاق من يافا في وقت مبكر من فترة ما بعد الظهر، ثم يقضون الليل في الرملة، وينطلقون في اليوم التالي قبل الفجر الى اورشليم ولم يكن امامي حينما وصلت الى فلسطين سنة ١٨٥٥ خيار آخر غير هذا، إذ لم تكن رحلات العربات قد بدأت بعد.

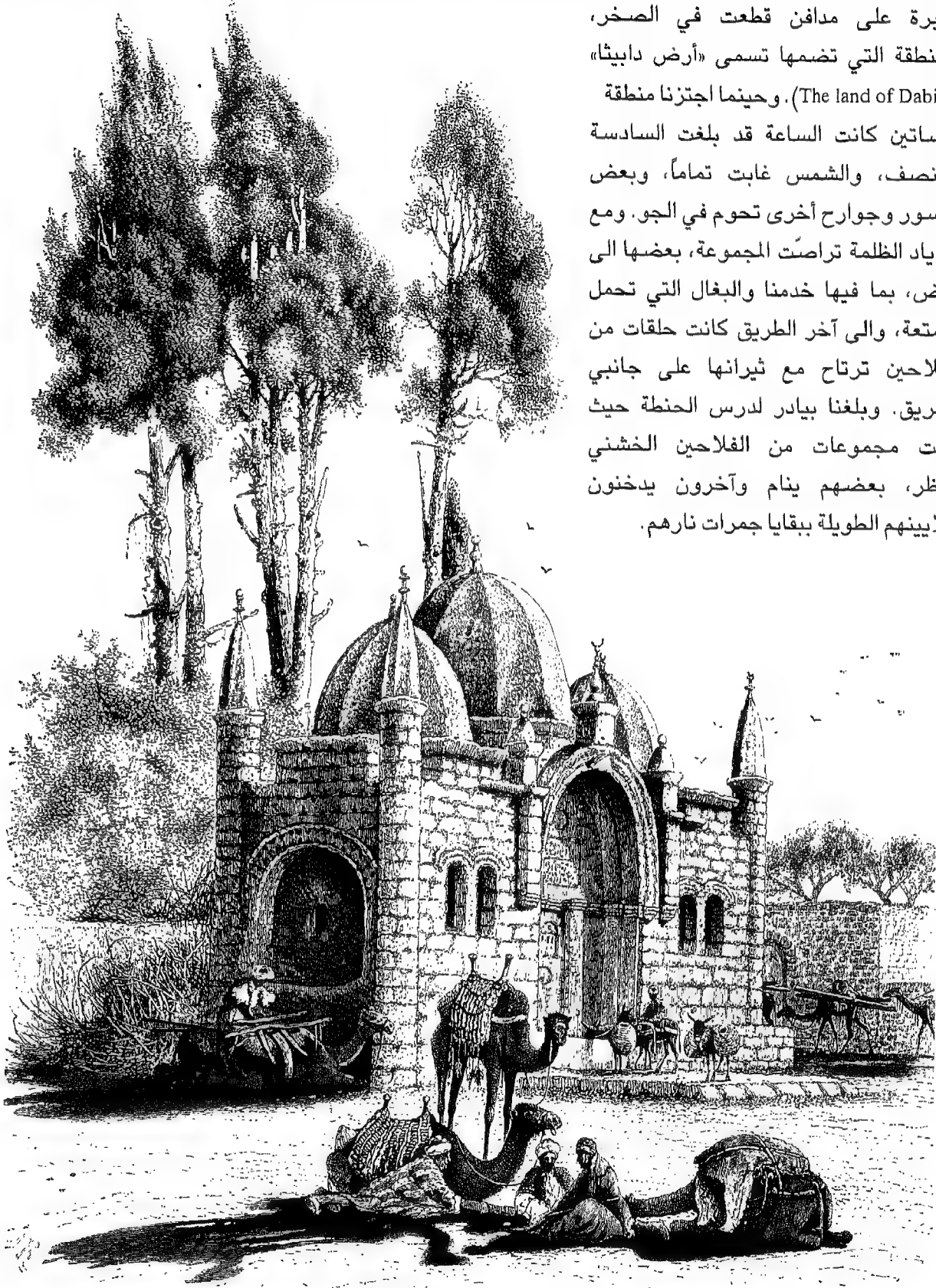


يافا، جوف القديمة

واذكر تماماً رحلتي الاولى على طريق يافا. فقد قضينا وقتاً قصيراً في الحجر الصحي قبل ان يرحب بنا بعد ذلك الدكتور خياط، القنصل البريطاني في يافا، وليستقبلنا في منزله، مع عائلته؛ وكان منزله رائعاً ذا نوافذ مقوسة عالية تطل على البحر. وقبل انقضاء ذلك النهار من تموز كنا قد تحركنا، مع الزملاء الرحالة وسائقي البغال التي تحمل امتعتنا وبدأت رحلتنا للتو. وقادنا رجل كهل فوق طرق وأدراج حادة، وعبر اسواق مكتظة نحو البوابة الخارجية الضخمة وذلك عند الجهة الشمالية الشرقية للمدينة. كانت الساعة قد قاربت السادسة، والظل يغطي الخلاء الواسع خارج البوابة، والشمس قد مالت غرباً نحو البحر، بينما اقتعدت مجموعات من السكان المحليين مصاطب منخفضة أو افترشوا الحصر على الأرض يستمتعون بتدخين غلايينهم، فيما آخرون على خيلهم يروحون ويجيئون. ركبنا فوق طريق رملي واسع، في اتجاه الجنوب الشرقي، قادتنا الى ممر للخيول بين سياجات من الصبير ذات الأوراق الخضراء السميكة الواسعة بأزهارها الصفراء والتي تعد بموسم طيب. وخلف السياجات، على الجانبين بساتين البرتقال والليمون والفسق والشمش واللوز والتوت وقد نضج ثمرها تماماً. اما شجر الرمان فكان لون زهره قرمزيًا، بينما اشجار صمغية وأشجار الصنوبر والزيتون والخرنوب قد أزهرت، وارتفعت هنا وهناك مجموعات من شجر البلح تدلت منها عناقيد من الثمار الذهبية.

توقفنا لبضع دقائق قرب ضريح وعين ماء الى جانب الطريق هو «سبيل أبو نبوت»، الذي كان حاكماً ليافا عند مفتتح هذا القرن. والاسم الدارج للضريح هو «ضريح تابيثا» Tomb of Tabitha (وبدءاً من هذا الضريح) وامتداداً الى الشمال وصولاً الى منطقة البساتين، اكتشفت مقبرة يافا القديمة سنة ١٨٧٤ على يدي م. س. كليرمونت غانو. تحتوي

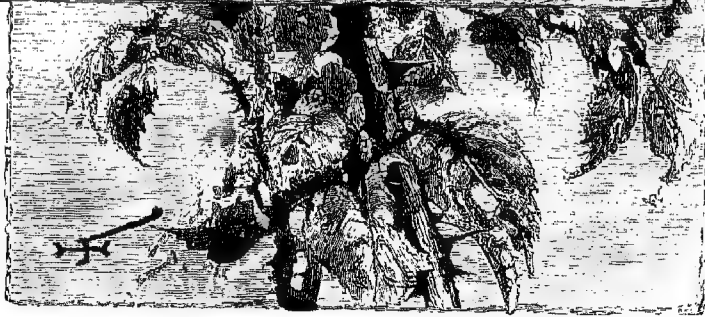
المقبرة على مدافن قطعت في الصخر، والمنطقة التي تضمها تسمى «أرض دابيثا» (The land of Dabitha). وحينما اجتزنا منطقة البساتين كانت الساعة قد بلغت السادسة والنصف، والشمس غابت تماماً، وبعض النسور وجوارح أخرى تحوم في الجو. ومع ازدياد الظلمة تراصت المجموعة، بعضها الى بعض، بما فيها خدمنا والبغال التي تحمل الأمتعة، وإلى آخر الطريق كانت حلقات من الفلاحين ترتاح مع ثيرانها على جانبي الطريق. وبلغنا بيادر لدرس الحنطة حيث كانت مجموعات من الفلاحين الخشني المنظر، بعضهم ينام وآخرون يدخنون غلايينهم الطويلة ببقايا جمرات نارهم.



سبيل ماء على الطريق العام وضريح .
سبيل «أبو نبوت» او ما يعرف بضريح «تابيثا».

ثم بدا الى جانب الطريق مقام الامام علي، ذي القباب التسع مقفلاً كما يبدو بينما حيطانه المدهونة بالأبيض تلمع في عتمة الليل. يقع المقام قرب بلدة يازور Yazur (راجع الخارطة وص ١٤١). وكان يعتقد دائماً ان هذا المكان هو موقع جيزر القديم Gezer (يشوع x33) الى أن تمكن غانو Ganneau، بعد تتبعه أدلة عثر عليها في مؤلف عربي قديم، من تحديد الموقع الصحيح لجيزر، المدينة الكنعانية الملكية القديمة، قرب أبو شوشه Abu Shusheh. وتأكد الاكتشاف هذا من خلال العثور في المكان على كتابات محفورة بالعبرية واليونانية.

وتتفرع الطريق، في مكان غير بعيد عن يازور، يساراً نحو اللد (او ليدا القديمة Lydda) إلا أننا تابعنا طريقنا في الظلمة وخلال سهل غير مأهول ولنظل وقد بلغت الساعة العاشرة على برج الرملة العالي والذي يقف وحيداً فأسرعنا الخطى عبر حقول الزيتون ودخلنا الرملة حيث كان هناك استقبال ودّي بانتظارنا.



ضريح علي اسم الامام علي.
تعلوه قبة كبيرة وثمان أخرى أصغر حجماً، على الطريق بين يافا والرملة قرب قرية يازور.

والرملة كلمة عربية خالصة وتعني الرمل.
وبحسب المؤرخين العرب فان المدينة قد أنشئت سنة

٧١٦ م، على يد الخليفة سليمان بن عبد الملك. وقد وردت أول إشارة لكاتب أوروبي عنها في «رحلة برنار الحكيم» حيث دعاها رمولة Ramula، وقد مرّ بها في طريقه الى إماوس Emmaus سنة ٨٦٧ م، حيث كانت قد غدت كما يبدو

مكاناً مهماً بدليل ان عملات أموية وعباسية عديدة قد صكت هنا. وتصف «مرصد الاطلاع» الرملة بوصفها «العاصمة السابقة لفلسطين» وكانت حدودها تمتد أبعد بكثير من أسوارها الحالية. وتعاقب على امتلاك الرملة الكثيرون ابان الحكم الصليبي. والذين كانوا قد احتلوها بين ١٢٠٤ و ١٢٦٦، الى ان استرجعها السلطان ملك الظاهر بيبرس.



جبل الكرمل



آثار كنيسة القديس جورجوس في اللد، ليذا القديمة.

اللد والرملة

يستطيع المسافر الذي بلغ الرملة بعد المغيب، وقد أنهكه التعب، أن ينال أجره كاملاً إذا تسلق برج المدينة العالي عند الصباح وأطل من الأعالي على لوحات جميلة تمتد أمامه.

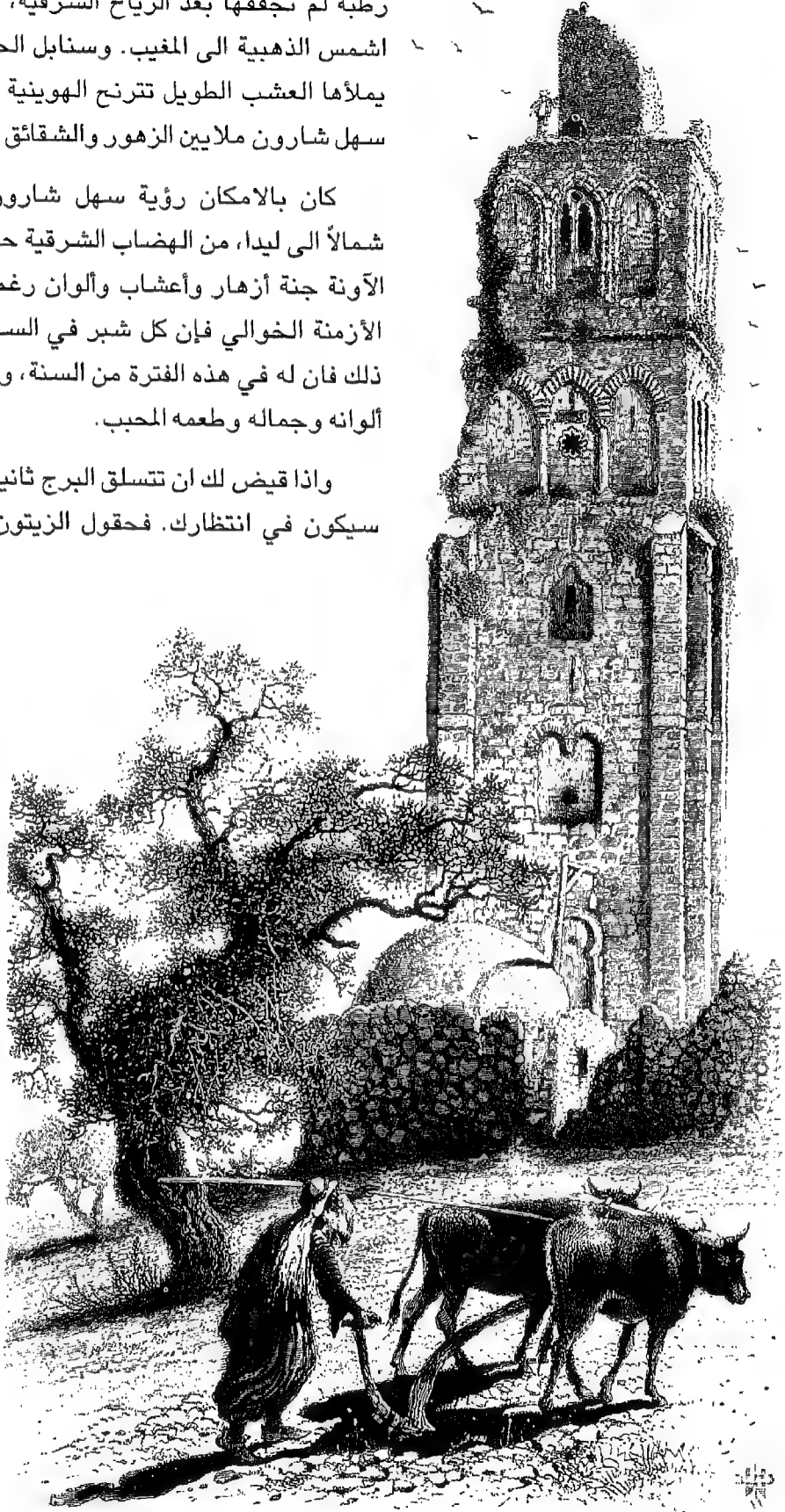
ورغم أن الشتاء كان قد مرّ قبل حين إلا أن الأمطار هطلت من جديد «فانتعشت أزهار بغير لون، وغنت العصفير كان صوت السلاحف مسموعاً في الأرض ووضعت اشجار التين ثمارها الخضراء بينما بدأ أريج دوالي العنب واضحاً». كانت بقايا موسم البرتقال تعطر الجو بالنسيم العليل وكان صوت القطعان تعود الى حظائرها مسلياً

وجمياً بينما العتمة مع نهاية ذلك النهار تزحف ببطء على الحقول والتلال. كانت التربة التي روتها الامطار لا تزال رطبة لم تجفها بعد الرياح الشرقية، بينما برك الماء ترجع انعكاس اشعة اشمس الذهبية الى المغيب. وسنابل الحنطة او حقول شاسعة غير مزروعة يملأها العشب الطويل تترنح الهوينية مع هبوب النسيم بينما تتراقص في سهل شارون ملايين الزهور والشقائق.

كان بالامكان رؤية سهل شارون الخصب بكامله من جبل الكرمل شمالاً الى ليدا، من الهضاب الشرقية حتى زرقة البحر، وكان السهل في هذه الآونة جنة أزهار وأعشاب وألوان رغم ان قليله فقط يبدو مزروعاً. أما في الأزمنة الخوالي فإن كل شبر في السهل كان مزروعاً ويموج بالبشر ومع ذلك فان له في هذه الفترة من السنة، وقبل أن يحو لهيب الصيف خضرته، ألوانه وجماله وطعمه المحب.

واذا قيض لك ان تتسلق البرج ثانية في الخريف، فإن منظراً آخر مختلفاً سيكون في انتظارك. فحقول الزيتون في التلال البعيدة قد غطاها الغبار

فغدت بلا لون واختفت الأوراق عن أغصان أشجار التوت التي استخدمت علفاً للماشية. وجفت الأرض وباتت كقطعة حديد ولم يبق طير في السماء ولا حتى قشة على الأرض أذرتها الرياح. كانت الأشجار والمنازل تميد ببطء تحت وقع الحر الشديد والجمال في البعيد باعدت بين اجسامها وسيقانها على نحو مضحك أو بشع، مع واحات خضراء صغيرة تلطف بها بئر او بركة ماء فظلت اشجارها وأوراق شجرها تلمع خضراء. والقرى التي كانت تعج قبل أسابيع بقرويين من الجبال نزلوا يساعدون في جني المواسم المبكرة قد خلت الان حتى من ساكنيها الذين سعدوا، بدورهم، الى الجبال يساعدون جيرانهم. كانت الحنطة قد جمعت منذ فترة طويلة، فدرست وذرّت، وتكوّمت الأغلال على البيادر فنالت الحكومة نصيبها منها ونال ملاكو الأرض نصيبهم، ونال الدائنون



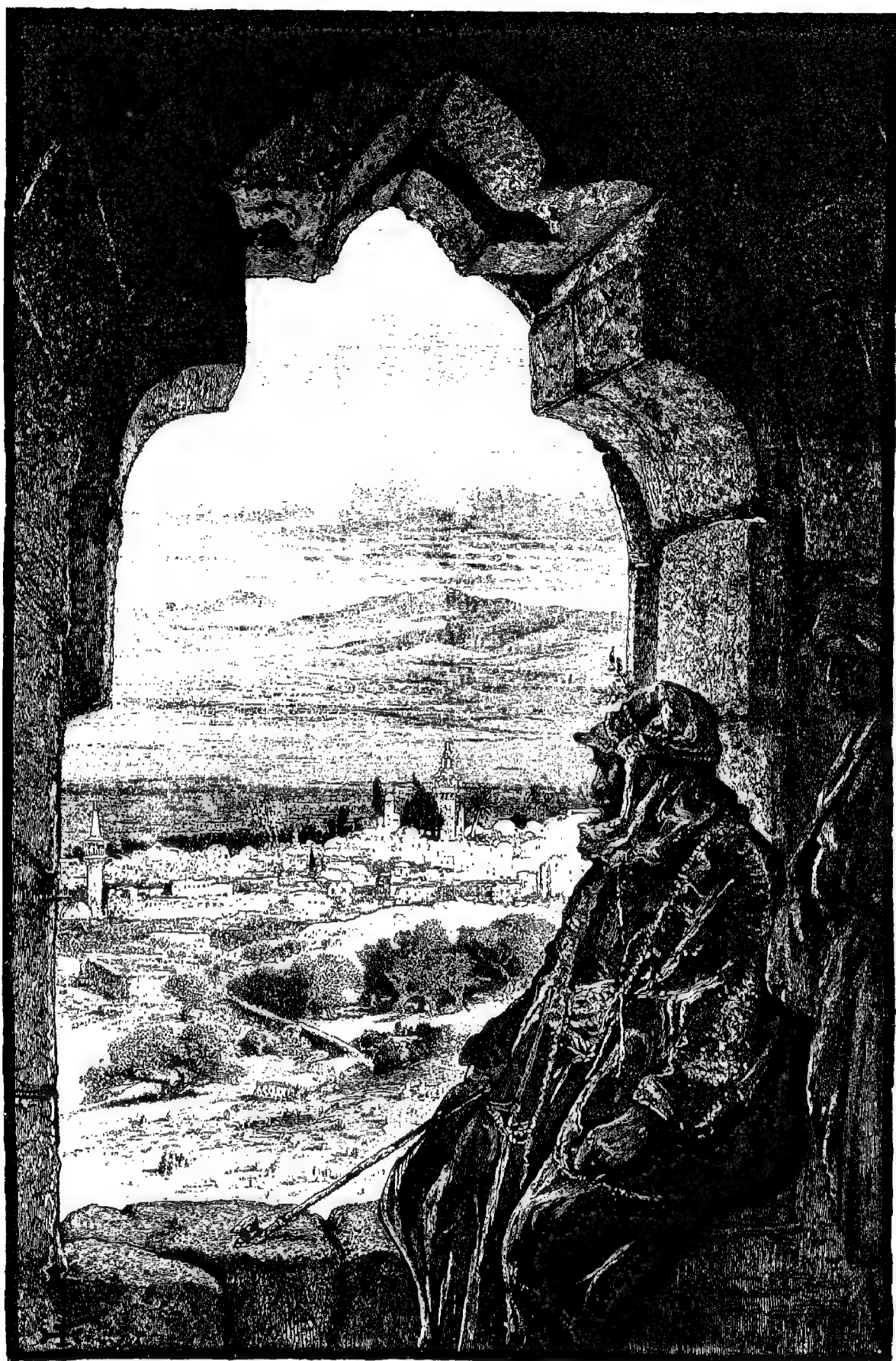
برج الرملة.
يقال انه مثذنة جامع كبير كان في المكان،
وابتني بحسب لوح فوق البوابة سنة ١٣١٨، الجامع الابيض.

نصيبهم أيضاً، وما تبقى جمعه القرويون بعناية في صناديق أو أكياس مصنوعة من جلود البقر وحفظوه في أماكن آمنة، فهم يعرفون تماماً معنى القحط أو القلة في السنوات التي قد تأتي. والناس هنا شعب مقتصد يبذلون ما في وسعهم لتأمين معاشهم وحياتهم. إلا أن الحظ لا يحالفهم دائماً لا بسبب جشع موظفي الحكومة وحسب وإنما بسبب غارات بدو الصحراء الذين يظهرون بغتة من الجنوب فيحملون الغلال من على البيادر ويعودون أدراجهم من حيث أتوا. هؤلاء يتحدرون على الأرجح من سكان البلاد الأصليين وتذهب تقاليدهم بعيداً في إثبات هذه الحقيقة. فعلى هذه المراعي كان رعاة الملك داوود يجرون قطعانهم، ول هؤلاء كانت كلمات النبي إشعيا (xxxv i,2): «سوف تزهر الصحراء كما الورد، سوف تزهر بكثرة وتثمر بكثرة، وسوف يفرح ويغنى: سوف يؤتى بمجد لبنان إلى هنا هي تمام الكرمل وشارون». أما وحشة سهل شارون اليوم وإهمال زراعته فمرده إلى سياسة الحكومة. فهو ما زال مروياً، وفيه غابات لا بأس بها، ولم يزحف الرمل بعد إليه: فتربته هي الأكثر خصوبة، وسكانه راغبون وقادرون أن يملأوه ويزرعوه إذا رفع موظفو الحكومة عنهم وعن غلالهم ضرائبهم وقيودهم التي تتكرر دورياً تحت هذه الحجة أو تلك. وهؤلاء الناس فلاحون وعواطفهم ليست مع الحكام الأتراك، وإنما مع المصريين وبوضوح، والذين لهم معهم، كما في الماضي صلات وثقى، ومن مظاهرها الأخيرة عملهم في شق قناة السويس. وكما المصريين فهم يراعون الأشجار المثمرة التي تحيط بسكانهم بأهداب العيون. الماء الضروري لزراعتهم متوفر من آبار لا يزيد عمقها عن ١٠٠ قدم ومن خلال دواليب الماء يدفعون بها بمساعدة الجمال والأحصنة والبغال والثيران والحمير، وذلك حسب غنى الأسرة واتساع الأراضي.

ونهبط البرج لنزور اللد، ليدا القديمة، في ضوء القمر ونمر في الطريق إلى اللد بمساحات من نبات الحوزان والزعفران وأزهار برية أخرى ذهب موسم تفتحها ونغوص في حقل من الأعشاب والقصب الطويل يعيش فيه مالك الحزين. ونطل على الآثار الجميلة لليدا Lydda، مدينة راعينا القديس جورج، والذي ترفع له آيات التكريم والجلال من المسلمين والمسيحيين في آن. تعرضت الكنيسة التي بقيت آثارها حتى فترة متأخرة مزاراً جميلاً لتقلب الدهور والحكام. وخبر الكنيسة يعود إلى سنة ٣١٥ ميلادية على الأقل، حيث كانت أبرشية على اسم القديس جورج، والتي يقال أن بقاياها لا تزال مدفونة تحت الأرض. هدم السراسنة الكنيسة في القرن الثامن، وأعاد الصليبيون بناءها بعد ذلك، ثم هدمها صلاح الدين وأعاد ريتشارد كور دي ليون بناءها من جديد.

إلا أن أهمية ليذا لا تنتج فقط من كونها موقعاً مسيحياً وإنما هي وبخلاف الرملة مكان تاريخي قديم، وإن كنا لا نعرف فترة ازدهار له كتلك التي كانت أيام الرسل. فهنا شفى القديس بطرس الرجل المريض المشلول، وهنا كان يقيم حينما أرسل بطلبه إلى جوفاً [يافا]، على مسافة ٩ أميال حينما مات تابثياً. وكانت ليذا قد دعت في عهد هرديان Her-dian ديوسبوليس (مدينة زيس) ولم تستعد إسمها الأصلي إلا تدريجاً ومع مرور الزمن.

ثم نجعل طريقنا صعداً، فوق حقول من السوسن والزعرور والتي لا يستطيع المرء الإفلات من أشواكها، فنتسلق هضبة عالية ولنجد أنفسنا وسط آثار أمواس Amwās (إماوس Emmaus القديمة أو نيكوبوليس بعد ذلك) وعلى مقربة من اللطرون. وكانت إماوس Emmaus قد ذكرت في كتاب مাকাيبز Maccabees، وعند جوزافس أيضاً، بوصفها موقعاً ذا شأن في أيام أسمونيانوس، إلا أنه يجب عدم الخلط بين إماوس هذه وإماوس ليوك (xxiv. 13) مع أن د. روبنسون يميل إلى مثل هذا الافتراض. (راجع ص ١٩٨ ومقاطع من الجزء الأول حيث نوقش موضوع موقع إماوس بالتفصيل) أما اليوم «فأمواس» قرية منعزلة مع أطلال كنيسة. ويمكن من هذا المكان مشاهدة طريق العربات الجديد يتسلق المرتفعات إلى القدس.



سهل شارون من برج الرملة



سورا

فيليسيتيا philistia

فيليسيتيا او فلسطين («أرض الغريب») هي اليوم ويا لسخرية القدر «الأرض الموعودة» في زعم ذلك الشطر من الكنعانيين الذي قهره وامتلكه «أبناء اسرائيل».

ويحتمل ان منشأ هذا الإلتباس يعود الى واقع نفوذ الفلسطينيين Philistines في عهد الغراسيين Grecians وسيطرتهم على الساحل الممتد من يافا الى غزة، مع موانئ جبني Jabneh وأشدود وعسقلان وغزه، بل انهم اخضعوا في وقت ما شعب اسرائيل وأكدوا أنفسهم بوصفهم أصحاب الأرض في الداخل والتي يلجأ أصحابها إلى الساحل لتسيير تجارتهم. كانت أراضي الفلسطينيين قد امتدت، في زمن انتصار الاسرائيليين على كنعان، من عكا شمالاً الى

غزة في الجنوب (راجع الخارطة)، ومن شاطئ البحر غرباً الى الجبال شرقاً، وكانت هذه الأرض تسمى عادة شيفيلات Shephelath او الأرض المنخفضة Low Country وبدأت علاقة الفلسطينيين بسكان الجبال وأمم أخرى من كنعان حسنة للغاية وانضموا اليهم في مقاومة غارات الاسرائيليين. أما كون الفلسطينيين قد استمروا في ابداء المقاومة المنتظمة فذلك عائد، ربما، الى امتلاكهم الخيالة والمشاة الذين كون في وسعهم حماية السهول، وبأعداد لم تتوفر للآخرين.

كانت فيلستيا في تلك الفترة مزروعة بالكامل وذات انتاجية عالية وكانت معروفة بقمحها القاسي وبساتين الاشجار المثمرة وحقول الكرمة الواسعة؛ ولا تزال أرضها الى اليوم تتمتع بسمعة طيبة وبانتاج حسن ولا تزال تصدر الحنطة الى البلاد الاخرى، مع أن مدى هذا الانتاج قد تقلص كثيراً بفعل غزو رمال الشاطئ لأميال عدة في الداخل وغمرها مواقع غير مدينة قديمة. وزحف الرمال هذا هو الخطر الاكبر الآن ويهدد عاماً بعد عام المزيد من الأراضي الخصبة. لقد باتت الرمال تغطي اميالا عدة من الأرض الزراعية وليس موجوداً من في يده الحل لهذه المشكلة الخطيرة. فغزة وأشدود مهددتان تماماً وتبدوان عاجزتين عن مقاومة هذا الوحش، أما مرفأهما فقد اختفيا منذ زمن. وطريقة تقدّم وحش البحر الصامت هذا ظاهرة بوضوح. فكل الشاطئ هو الآن عبارة عن كتبان رملية تنحدر بزاوية عشر درجات في اتجاه مهب الريح الجنوبية الغربية، وتنحدر بزاوية ٣٠ او ٣٥ درجة نحو الشمال الشرقي، او الجهة المقابلة؛ وعندما تهب الريح من جهة الجنوب او الغرب يتقدم الرمل الناعم بهدوء تحت ضغط الريح، وحينما يصل الى قمة الكتبان يتساقط ببطء على الأرض التي تليها، ثم يتسلق منحدرأ آخر، متقدماً باستمرار نحو الداخل. وعلى الجانب الشرقي من فيلستيا وحش آخر يعمل تدريجاً على تدمير الأرض الزراعية وتجريدها من خصوبتها القديمة، ويتمثل ذلك في واقع التعرية المتزايدة للتلال بحيث ان الكثير منها هو الان صخور جرداء، وذلك من خلال تساقط مدرجات

الكرمة والفاكهة التي تدعم التربة في هذه التلال مما يؤدي الى إنحراف سريع للتربة. أما في قعر الأودية فلا تزال هناك أحزمة ضيقة من الأرض الزراعية الخصبة وقادرة على الانتاج الوفير، حين لا تتهددها الانهيارات او السيول الزاحفة من التلال المقابلة أو حين لا يحرقها وهج الشمس الضاربة على تلك الصخور المتدلية.



الحراثة في سهل فيلستيا
قريباً من تل الصافي، وتستمر الحراثة حتى نهاية نوفمبر

ليست فيلستيا الآن، على الاطلاق، في الحال الذي يجب ان تكون عليه. يمكن القول عموماً انها تنقسم الى شطرين : الاول هو السهول المتموجة بعرض يصل الى حوالي ١٢ ميلاً وتحاذي شاطئ البحر، وترتفع من ٥٠ الى



١٠٠ قدم فوق سطح البحر وتتألف من هضاب منخفضة متشابهة عموماً وتختلط تربتها بطمي غني جداً. وعلى هذا الشريط نشأت وتوسعت عكا وجبني Jabneh ومجدول Migdol واسترود وعسقلان وغزة، مدنٌ اُبتنيت لمناسبات عزيزة، وجعلت لعبادة الالهة القديمة (إلهة السمك) وتمتد بين هذا الشريط الساحلي المتموج والمنطقة الجبلية في جودا Judah منطقة التلال في فيليستيا تترامى من الشمال الى الجنوب وبعرض يتراوح بين ١٠ او ١٥ ميلاً. يتألف هذا الحزام من سلسلة من الهضاب والتلال ترتفع بين ٥٠٠ و ٨٠٠ قدم فوق سطح البحر تقطعها بين الحين والحين وديان واسعة، لكنها تبقى بعيدة عن المنطقة الجبلية في جودا، حيث ترتفع الجبال، الى ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ قدم وتطل على مناطق واسعة من فيليستيا. ويغلب على هذه الجبال، كما رأينا، المناطق الصخرية التي تعرت من تربتها التي ترسبت في الوديان. ومع ذلك فالمنطقة ليست معرّة أو مهجورة، بل إن الفلاحين وبعيداً عن أعين الحكم التركي قد استصلحوا واعتنوا بالكثير من البساتين والحقول المتناثرة هنا أو هناك.

هذا الطابع الذي يغلب على معظم انواع الحكم التي تعاقبت على فلسطين ولقرون هو الذي سمح لنا والى حد كبير، باعادة اكتشاف الكثير من المواقع القديمة التي تضمنتها الكتب التي تروي عن احتلال الاسرائيليين للبلاد قبل أكثر من ٣٠٠٠ عام.

لقد كانت تلك الارض على الدوام مسرح قتال بين الأمم، ومضى من زمن بعيد العهد الذي كان في وسع البلاد ان تشهد فيه الاستقرار وأن تطوّر مصادر ثروتها وتقدمها، ولم تنته الأمور إلا الى ما هي عليه الآن من فقر وبؤس، مع تغييرات تكاد لا ترى خلا حال التخلف التي تعم البلاد.

وفي وسع السكان اليوم، احفاد السكان الأصليين، ان يشيروا بوضوح الى المواقع والاثار القديمة، كما انهم يحفظون تقاليدهم القديمة، ويستطيع المرء اليوم أن يذهب في طول البلاد وعرضها يحمل الانجيل في يده ويتعرف على الأماكن أو المواقع المذكورة فيه. وهذا الكلام هو أكثر صحة في ما خص الأماكن الثانوية، مثل البلدات القديمة في فيليستيا، والتي لم يلحقها تغيير كبير مثل الذي لحق بالأماكن الأساسية والمدن الكبيرة، مثل غاث Gath وعسقلان وغزة والتي كانت عرضة لأكثر من حصار مع ما يتبع ذلك من تدمير. وفي أماكن كثيرة أخذ الفلاحون حجارة الآثار وأحالوها كلساً، أو نقلوها الى مواقع أخرى، كما في عسقلان، حيث كانت المراكب تحمّل بتلك الحجارة المتقنة التشذيب وتؤخذ لاعادة بناء عكا أو صيدا؛ ومع ذلك فان اثار تلك المدن ما زالت في الأمكنة عينها عموماً ويغطيها الركام أو هي نقلت لبناء منازل الفلاحين.

ويمكن عند اقدام الجبل المطل على جودا* خلف الطرف الشمالي الشرقي لتلال فيليستيا، مشاهدة موقع زورا Zo-rah المكان الذي ولد فيه شمشون Samson ابن مونا Monah ويدعى المكان اليوم سورا Surah وهي على الضفة الشمالية من وادي السُّرار، عند أعالي نهر روبين.

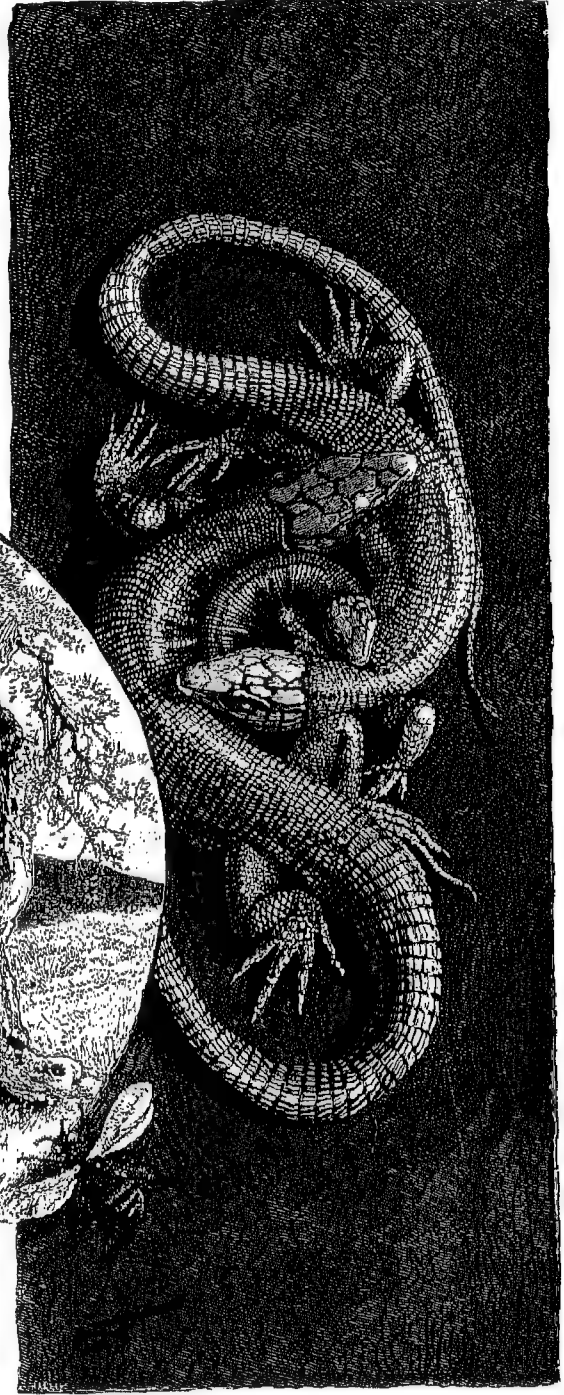
كانت سورا تمثل مركزاً أمامياً للإسرائيليين على رأس القوس المؤلف من التلال المشرفة على وادي سراق (وادي السرار) في مواجهة الفلسطينيين مع انحراف طفيف الى الشمال الشرقي نحو مدن قبيلتي دان Dan وجودا Judah. يصل ارتفاع سورا الى ١١٧١ قدماً عن سطح البحر، وتطلّ على الجانب المقابل من الوادي حيث كان الفلسطينيون يتمركزون ويملكون الاراضى. ويمكن من موقع سورا المركزي هذا اعادة رسم تاريخ شمشون والحوادث اللاحقة. فاذا نظرنا عبر الوادي نحو التلال المقابلة في الجهة الجنوبية الغربية يمكننا مشاهدة آثار تيمناث القديمة Timnath، والتي تدعى اليوم «تبنه» حيث كانت خطيبة شمشون من الفلسطينيين؛ وفي اسفل الوادي نفسه لجهة الجنوب تقوم اثار بيت شاميش Beth-Shemesh والتي جلب اليها تابوت العهد من عكا محمولاً على عربة بدولابين تجرها الثيران؛ واذا تطلعنا نزولاً نحو وادي سراق يمكننا اعادة رسم خارطة الطريق التي جرّت فوقه العربة. كان شمشون، الذي نشأ بين

*هي يهودا لكننا اخذناها كما وردت لفظاً عن الانجليزية (م).

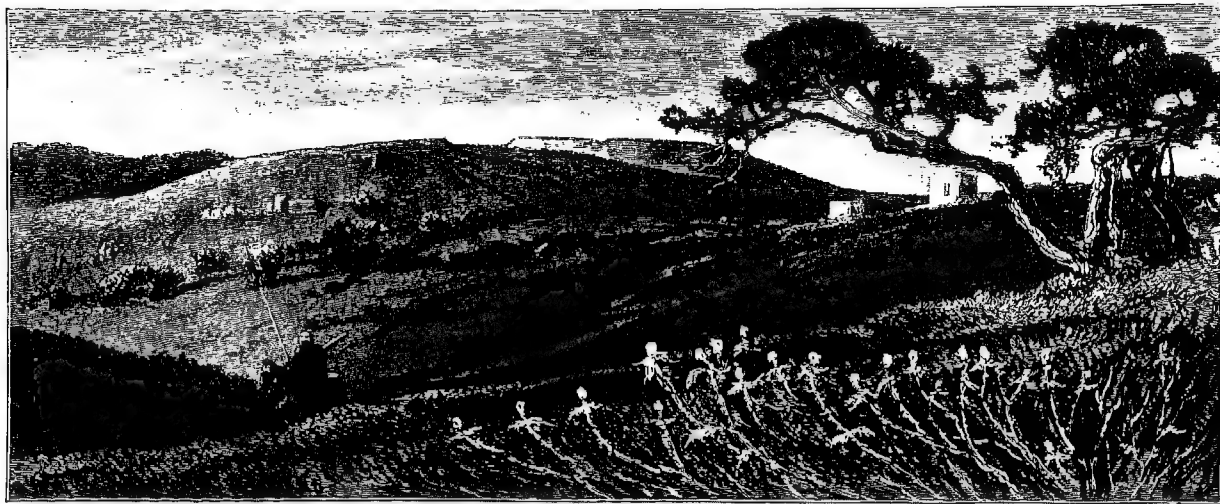
تلال سورا واشكول واوديتهما (يشوع 41, xix)، وعند المنحدرات الحادة لجبال جودا، وفي الوقت الذي كان فيه الفلسطينيون يبسطون سلطتهم على اسرائيل وذهب من زورا Zorah عبر وادي سراق الى الجزء المقابل من الوادي حيث يعيش الفلسطينيون الى تيمناث حيث اختار فتاة فلسطينية زوجة له. وهاجمه اسد في حقول الكرمة في تيمناث فأرداه صريعاً كما أردى حملاً وبيديه العاريتين ووجد في أثناء عودته قفيراً من النحل والعسل في جمجمة الأسد. وبدا ذلك كله لغزاً محيراً للفلسطينيين الذين شاركوه وليمته. لكنهم اهتموا الى السر ومن خلال زوجته. واهتاج شمشون فذهب عبر التلال



تبنى او موقع تيمناث القديمة.



الى عسقلان وذبح ثلاثين فلسطينياً، وسلخ جلودهم، ثم هجر زوجته وصعد الى زورا. ثم جهز بعد حين، وفي اثناء موسم حصاد القمح هدية لزوجته في محاولة لاستعادة الود معها، الا انه وجد ان زوجته قد تزوجت من شخص آخر، فقرر آنذاك الانتقام، فجمع ثلاثمائة ثعلب وربط كل اثنين منها معاً ووضع بينهما جمرأ، ثم اطلق الثعالب بعدما اشعل الجمر، على غلال الفلسطينيين فأحرقتها جميعاً ومعها كروم العنب وبساتين الزيتون. والحنطة في فيليستيا تمتد وفي اثناء الموسم الى ما لانهاية، اميالا خلف اميال في السهول والاودية وفي مدرجات الهضاب، وتكفي جمرة غضب لإشعالها كلها. ويمكن للنار أن تمتد إلى كل أرض فيليستيا وتؤدي بالناس الى مجاعة ويبقى السؤال حول مدى تأثير انتقام شمشون إذاك على شعب اسرائيل. أيمن الاعتقاد أنهم كانوا يعيشون في الهضاب العالية وانهم ربما كانوا قد



عين شمس او موقع بيت شاميش القديمة.

نجوا من تلك الكارثة. وليس بعيداً عن ذلك اتخذ السكان اليوم، وفي أثناء موسم الحصاد، الاجراءات الضرورية كلها لمنع حدوث حريق، أو ما شابه.



وادي سراق



والرواية الثانية التي نوردها حدثت
في القسم الجنوبي من فيليستيا وتتعلق
بنقلات تابوت العهد بعد سقوطه في
أيدي الفلسطينيين عند بن عازر قرب
إفيك Aphek، وبعدما قتل أبناء إيلي. أخذ
التابوت من الجبال عند بنعازر تقريباً إلى
اشدود في السهل، ثم جلب إلى بيت
داغون Dagon. ووجد شعب اشدود في
الصباح ان إلههم، داغون قد سقط إلى
الأرض على وجهه، فأخذوه وأجلسوه

ضريح الشيخ سماط في سورا
على قمة التل، وتحتة الجزء الاعلى من وادي سورا

مكانه، بعدما ادخل الأمر بعض الاضطراب في نفوسهم. وفي الصباح التالي كان داغون مرة أخرى إلى الأرض وعلى
وجهه أمام التابوت، وكان هذه المرة مكسوراً فاضطرب سكان اشدود والمنطقة المجاورة ايما اضطراب ورأوا ذلك نذير
بلاء عظيم. ودعا السكان، وقد رأوا ان ما حدث هو نتيجة وجود التابوت بينهم، إلى مجلس سريع وقرروا نقل التابوت
عبر السهل إلى غاث عند أسفل التلال. جزع أهالي غاث لوجود التابوت عندهم، فأرسلوه إلى عكا ودب الفزع في عكا



اثر حصن اللطرون، من أمواس Amawas .

وكان هناك دمار قاتل في المدينة وكانت يد الله قوية فوقهم. وبعدما بقي
التابوت سبعة أشهر بين أيدي الفلسطينيين، ودعا هؤلاء كهنتهم وسألوهم
ماذا يفعلون بالتابوت وكيف يتخلصون منه؟ فقالوا لهم أن يضعوا عربة
جديدة وأن يأتوا ببقرتين بكرًا لم يأت على كتفيهما نير، وأن يربطوا العربة

بهما ويتركوهما على مفترق طرق. فعل الفلسطينيين ذلك كله، فأخذوا التابوت على العربة من عكا الى مكان تتفرع منه ثلاثة طرق وتركوه هناك. وبدلاً من ان تعود الابقار الى معالفها او تذهب الى سهول فيلستيا، تحولت صعوداً

باتجاه وادي سراق ومرت بين
تيمنات وزورا لتصل الى مقابل
بيت شمس (صموئيل، 12، vi)
عند الجانب الجنوبي من الوادي
ثم الى ايدي الاسرائيليين. وكانت
بيت شميث ضاحية اقتطعت
لابناء هارون Aaron وكان الناس
يجمعون مواسمهم في الوادي
عندما رفعوا انظارهم ليروا



تل الصافي، الموقع المفترض لغاث
وهي تل منعزل يبعد ٦ ميلاً عن الشاطئ، وضريح الخضر
على أعلى قمته، تعلو ٦٩٣ قدماً فوق سطح البحر.

التابوت يقترب، وعندما بلغت العربة حقل جوشوا انزل اللافيتر Levites التابوت فقدموا
الأضاحي والهدايا للإله. تبع سادة الفلسطينيين الخمسة التابوت حتى حدود بيت شميث
وعندما رأوه يقع في ايدي الاسرائيليين عادوا الى عكا على الفور. عانى سكان بيت شميث
ما عاناه الفلسطينيون لأنهم نظروا الى تابوت الرب، فبعثوا الرسل الى شعب كرجات
جيريم، على بعد حوالي ١٠ أميال شرقاً في جبال جودا. أتى رجال كيرجات جيريم ونقلوا
تابوت الرب من بيت شميث. وغدت بيت شمس بعد فترة مسرح صراع بين جيهوش Je-
hoash، ملك اسرائيل، واماذا، ملك جودا، Juduh، وأخذ ملك جودا اسيراً (راجع الملوك XIV.B
وجوزافس Anf chapix) وسقطت بيت شميث بعد ذلك، في ايام الملك أهاز في أيدي
الفلسطينيين (السجلات 18, xxviii). وبيت شميث هي اليوم عين شمس، ولكن لا عين فيها
الآن.

وأحد أكثر الأحداث أهمية في التاريخ الأول للاسرائيليين في فلسطين هو ذلك القتال بالأيدي At arms بين غوليات
غات وداوود الشاب في وادي الإله Wady of Elah. هذا الوادي الذي يدعى اليوم السرّ او السنت، عند بداية جبال جودا،

قرب حيرون Heron ثم يهبط سريعاً الى الشمال فاصلاً جبال جودا عن تلال فيلستيا ناحية الغرب. وبعد حوالي عشرة اميال يستدير غرباً؛ ويمر بالوادي عند هذه النقطة الطريق الرئيسي الذي يصل غزة باورشليم، وهو الطريق



شوكوه، حيث خيم الفلسطينيون

عينه الذي جاء منه المصريون القدامى فاحتلوا المنطقة الجبلية، والتي يأتي منها اليوم البدو لشن إغاراتهم المفاجئة على القرى الجبلية. والوادي عريض الى حد كبير، مع تلال موازية متقابلة على جانبيه لكن الوادي يغدو بعد شوكو (شويكي) الى اليسار، ضيقاً ثم يضيع في وهداث ومنخفضات الى ان يدخل السهل قرب تل الصافي. ويحتوي «وادي البطم» اليوم على

إحدى أكبر شجرات البطم في فلسطين، قرب شوكو (شويكي) وهي ترتفع ٥٥ قدماً وقطر ظلها يصل الى ٧٥ قدماً، ومحيط جذعها ١٧ قدماً. وفي قعر هذا الوادي سهل خصب جداً، قرب شوكو، فيه حقول حنطة وفي السهل هذا حدثت المواجهة بين داوود وغوليات، بينما الفلسطينيون على جانب من الوادي والاسرائيليون على الجانب الآخر، والوادي بينهما. قدم شعب اسرائيل من الجبال وكانوا على الجانب الشمالي الشرقي بينما تمركز الفلسطينيون الذين جاءوا من السهل على الجانب الجنوبي الغربي، وكان الجيشان أحدهما في مواجهة الآخر. وكانت غات، المعروفة بعمالقتها، قد اعطت الفلسطينيين بطلاً اسمه غوليات، طوله ١٠ اقدام. ويحميه درع طويل، وفوق رأسه غطاء من نحاس صلب، وكان رأس حربته يزن ٦٠٠ شاقال حديداً. وظل الجيشان لأربعين يوماً في مواجهة بعضهما البعض، ولأربعين يوماً ظل غوليات ينادي جيوش اسرائيل: «أنا هازم جيوش اسرائيل اليوم، اعطوني رجلاً يستطيع ان يقاتلني» وكانت كل اسرائيل في خوف كبير، لأن الرجل الذي يستطيع مواجهة غوليات غير موجود (صمويل xvii).

وبينما كان شعب اسرائيل «جزعاً يمتلكه الخوف» وصل الى معسكرهم داوود الشاب، الذي سأل، بعدما سمع بتحدي غوليات، عما سيقدم لمن يقتل الفلسطيني ويبعد الخطر عن شعب اسرائيل، فقبل له ان الملك سوف يجعله ثرياً ويعطيه ابنته ويجعل بيت ابيه حراً في اسرائيل. وجلب داوود أمام صول Saul متعهداً بقتل الفلسطيني ولم يكن في ذلك مخاطرة بحياة داوود فحسب، وانما بكل شعب اسرائيل لأنه لو فاز الفلسطيني فسيكتب على شعب اسرائيل ان يكونوا خدماً للفلسطينيين. كانت المهمة جسيمة ونتائجها حساسة، بحيث أن صول لم يكتفِ بتعهد داوود بل طلب دليلاً على قدرته وكفاءته فعَدَّ داوود له مأثره، ومنها قتله اسداً ودباً، فقبل صول دليله واجازه بطلاً لمقابلة تحدي الفلسطيني. يشير هذا الجو بوضوح ان شعب اسرائيل كان على شفا كارثة، وربما مستعداً للاستسلام، والآ فكيف نفسّر قبوله هذه المخاطرة بتسليمه مصيره لبطل غير معروف نسبياً ولا يزال شاباً على التمرس بفنون القتال؛ لكن في الواقعة جانباً آخر كذلك فسماعهم لداوود ان يذهب للنزال دون سلاح انما هو دليل ثقة بآله اسرائيل. من الواضح، اذاً ان الشعب عموماً مازال على ايمانه باللهم، وكانوا على ثقة بأن داوود هو رمز مساعدة الرب لهم: «وأخذ داوود من جعبته حجراً، وبعد ما راوغه قليلاً رماه به على جبهته فخر صريعاً. وعندما رأى الفلسطينيون بطلهم قتيلاً فرّوا، فطاردتهم الاسرائيليون حتى غات وعكا وغنموا خيمهم وما فيها» ويمكن اليوم، وفي نفس الموقع اعادة رسم وقراءة ما حدث ويمكن تعيين كل الامكنة التي شهدت تلك الاحداث، فالمواقع القديمة مازالت قائمة وعادات السكان هي كما في الايام الخوالي. كما انه ليس استثناء ان تجد غير راع اليوم يستطيع ان يرمي بمقلعه العصافير على بعد ياردات.

ويعتقد عموماً ان مدينة غات الملكية كانت تقوم على تل عال يدعى اليوم «تل الصافي»، والذي بنى فوقه الملك فولك Fulke قلعة حصينة، «بلانش غارد»، اثناء الحقبة الصليبية. يقع التل على بعد ١٦ ميلاً عن البحر، عن طرف احد امتدادات تلال فيلستيا، قبل ان تدخل في السهول الساحلية. حملت غات في العصور الوسطى اسم ألبا سباكيولا Alba Specula، بسبب بياض المنحدر الكلسي الذي يحيط بها وبسبب من إطلالها على مسافة أميال عدة نحو الجنوب الغربي، وكانت غات الحصن الأكثر قوة لدى الفلسطينيين وتتحكم بنهاية وادي البطم، حيث يمر الطريق الرئيسي نحو القدس. لا تذكر غات كثيراً الا في ما اتصل بالمدن المهمة الأخرى عند الفلسطينيين، وعرفت بكونها مكان استراحة الملك داوود وبخاصة اثناء فترات الاضطراب. هنا وبسبب الخوف أشيش Ashish تظاهر بالجنون وخربش على بوابات المدينة، وهنا كذلك استقبله بالتبجيل، بعد سنوات، الملك الفلسطيني. ومن غات خرج أكثر تابعي داوود اخلاصاً وصداقة وهو إيتاي الجيتيتي Ittai the Gittite (صموئيل 19-23 xv). وحين اعيد بناء غات تحت اسم بلانش غارد، كان لها الدور البارز في حروب الصليبيين، وكانت شاهداً على بعض أهم أنجازات ريتشارد بلانتجيني R. plantagenet ضد السراسنة* Sar-acens الذين كانوا يغزون السهل. يرتفع التل الذي كانت تقوم فوقه غات ٢٠٠ قدماً عن السهل المجاور والمحيط به وهو من دون شكل محدد أو منتظم، ويقوم فوقه الآن مزار وليٍّ وحوله بقايا القلعة القديمة واحجار ضخمة متناثرة على

*السراسنة هم القبائل السورية - العربية الاسلامية التي كان لها دور دائم في الاغارة على المراكز الصليبية، وقد ابقينا المصطلح كما هو في الاستخدام الغربي [م]

جوانب التل. ويبدو جلياً من ضخامة الركام المتساقط هناك والذي يغطي التحصينات القديمة ان التل كان محاطاً بأسوار وبخندق مائي، وهناك، كما في أمكنة أخرى، أحواض ماء حسنة التصميم، وما زالت الكروم الى اليوم تتمدد فوق المدرجات بينما تتوزع اشجار الزيتون على جوانب التل. وفي الوادي والسهل المحيط مساحات واسعة مزروعة بالحنطة وعلى مدى النظر، بحيث أنك تجد كل السكان في منتصف حزيران، في الحقول يجمعون الحصيد وينقلونه الى البيادر.

واذا عبرنا سهول فيلستيا المرتفعة قليلاً نصل على بعد حوالي ١٨ ميلاً من غات الى موقع جبني Jabneh القديمة، وهي إحدى مدن الفلسطينيين تقوم على بعض ارتفاع عند الجانب الشرقي لوادي سُرّاق (وادي سُرّار) وتبعد حوالي



يبني او جابني القديمة.
على بعد ٤ أميال من الشاطئ تحيط بها البساتين،
وجامعها كان كنيسة قديمة. وكان مرفأها ينافس يافا لم
يبق منه شيء اليوم.

٤ أميال عن شاطئ البحر، وهي تدعى اليوم يبني
Yabneh. وكانت المدينة قد ذكرت حين هاجمها

يوزايا، ملك جودا، وهدم أسوارها؛ وكانت قد ذكرت عند جوزافس باعتبارها مدينة مسورة؛ إلا أن أهميتها إنما برزت مع حصار تيتوس لأورشليم حينما أصبحت مقراً للعديد من افراد السنحادرين* (Sanhedrin)، كما انها كانت خلال القرنين الاول والثاني من عهدنا مدرسة لاهوتية وفقهية كبرى لليهود. كان السنحادرين قد تجمعوا أولاً في «بلاط اسرائيل»، في الهيكل في القدس، ولكن ومع الحصار، سمح لهم تيتوس بالانتقال الى جبني بأمره الغماليل Gamaliel سنة ٧٠ للميلاد. واكتسبت هذه المدرسة، بعد دمار الهيكل سلطة كبيرة على اليهود الذين بقوا في فلسطين وذلك تبعاً لمركز ومكانة الغماليل المثقفين وافراد آخر من السنحادرين الذين بقوا هناك وكان لها الدور الكبير في منع انقراض اليهود كأمة وأبقت في عقولهم حلم عودة المسيح.

كان تأثير الحاخامات Rabbins على عقول الناس في هذه الفترة كاملاً ليس في الشؤون الطقسية واللاهوتية وحسب، وإنما في سائر شؤونهم المحلية. وشعر الرومان بذلك وتيقنوا أنهم لم ينجحوا في استمالة اليهود نحو الامبرطورية او دمجهم في كيانها؛ وعليه فقد صدر في مطلع عهد هديران مرسوم أريد منه قمع اليهودية ونزع كل

*هم أفراد المجلس الاعلى عند اليهود القدامى [م]

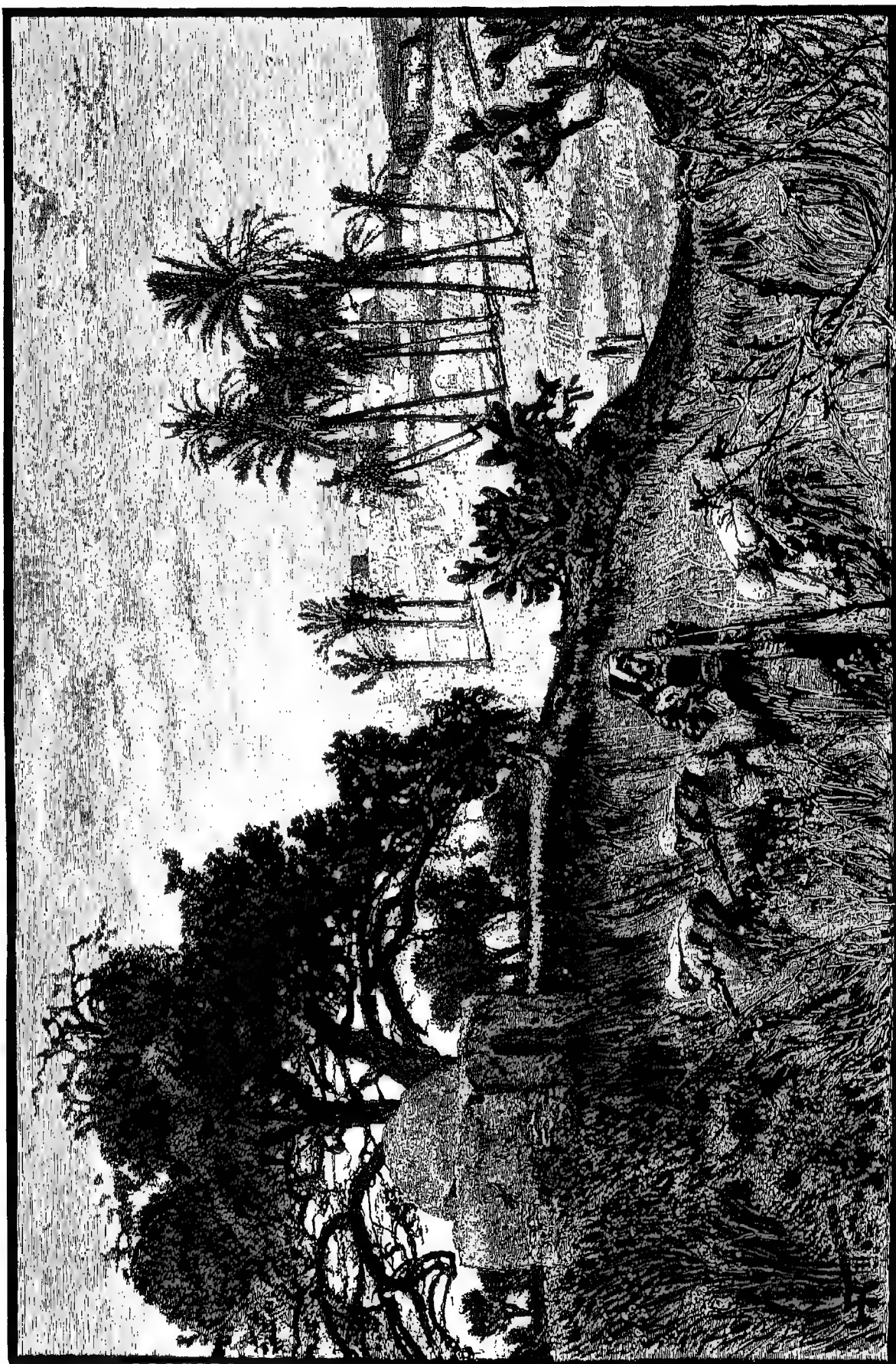
سلطة من ايدي الحاخامات. فقد قيدت كل الاحتفالات والممارسات اليهودية، وأعلنت اورشليم مستوطنة رومانية، وأقيم في موقع «الحرم المقدس» هيكل لجوبيتر.

عاش حاخامو جبني (يبني) الالغاء التام لمدارسهم ولحياتهم الخاصة كيهود، من جهة، لكنهم احتفظوا من جهة ثانية بحلم الفوز على الرومان في صراع الطرفين غير المتكافئ وكانت تلك اللحظة بالذات لحظة اعلان الوعد بظهور المسيح. فالنجم الذي يجب ان «يخرج من يعقوب» قد لاح الآن، وهو سوف يحكم اليهود ويمنحهم القوة والمجد. وكان اسمه باركو شابا Barrochaba (ابن النجم) يحقق الرؤية. كان رجلاً على قدر كبير من العزم، وقد أقر الحاخام الأكبر والواسع الثقافة أكيبا انه المسيح. وبدأ التمرد سنة ١٣٠ للميلاد. واجتمع اليهود تحت قيادته من كل انحاء العالم، وكان كل الجنس اليهودي في حال هياج لإنباء ظهور الرؤيا. وتقدم باركو شابا على رأس جيش كبير من المتمردين، وكان نجاحه في البدء عظيماً، والى الحد الذي تمكن معه من احتلال اورشليم فبقي فيها ثلاث سنوات. ويقال أنه قاد جيشاً قوامه مئتا ألف رجل مقاتل، ومع ما في الرقم من مبالغة، إلا أنه يبقى الدليل على صحة ما يورده سترابو عن عدد السكان العظيم الذي كان يسكن حول جبني ومن أن تلك المنطقة كانت تستطيع، في زمنه، تجهيز ٤٠ ألف رجل. وأما بقية الرواية ومصير باركو شابا فمعروفان، فقد هوى نجم ذلك «المسيح الدجال» بسرعة والى الابد، حتى ان اسمه قد اصبح لدى المتأخرة باكوسبا (ابن الكذاب).

بعد انتهاء التمرد الفاشل تعرض الحاخامون في جابني لقمع بربري من قبل الرومان، باعتبارهم المحرضين على التمرد، فمنعوا من ملأ الفراغات في مجلسهم الأعلى، وهو أمر تمكنوا من المراوغة فيه. وبمناسبة تولي انطونيوس الشاب العرش، بعد وفاة هدرين، سمح للحاخامين بإعادة تأسيس كنسهم وإعادة فتح مدرسة جابني، ولكن وبعد تصرف أحق من الحاخام سيمون بن جوكاي حيث انتقد علناً السلطات الرومانية، أعيد اقفال المدرسة، ونقل اعضاء المجلس الاعلى الى امكنة متباعدة في فلسطين. ويؤكد بنيامين التوديلي Benjamin of Tudela أن آثار هذه المدارس كانت موجودة في أيامه (١١٦٣ م). وقد ابنتي في المكان، أيام الصليبيين، حصن دعي إبلين وكان ذلك لأغراض دفاعية لا علاقة لها بالتاريخ التوراتي.

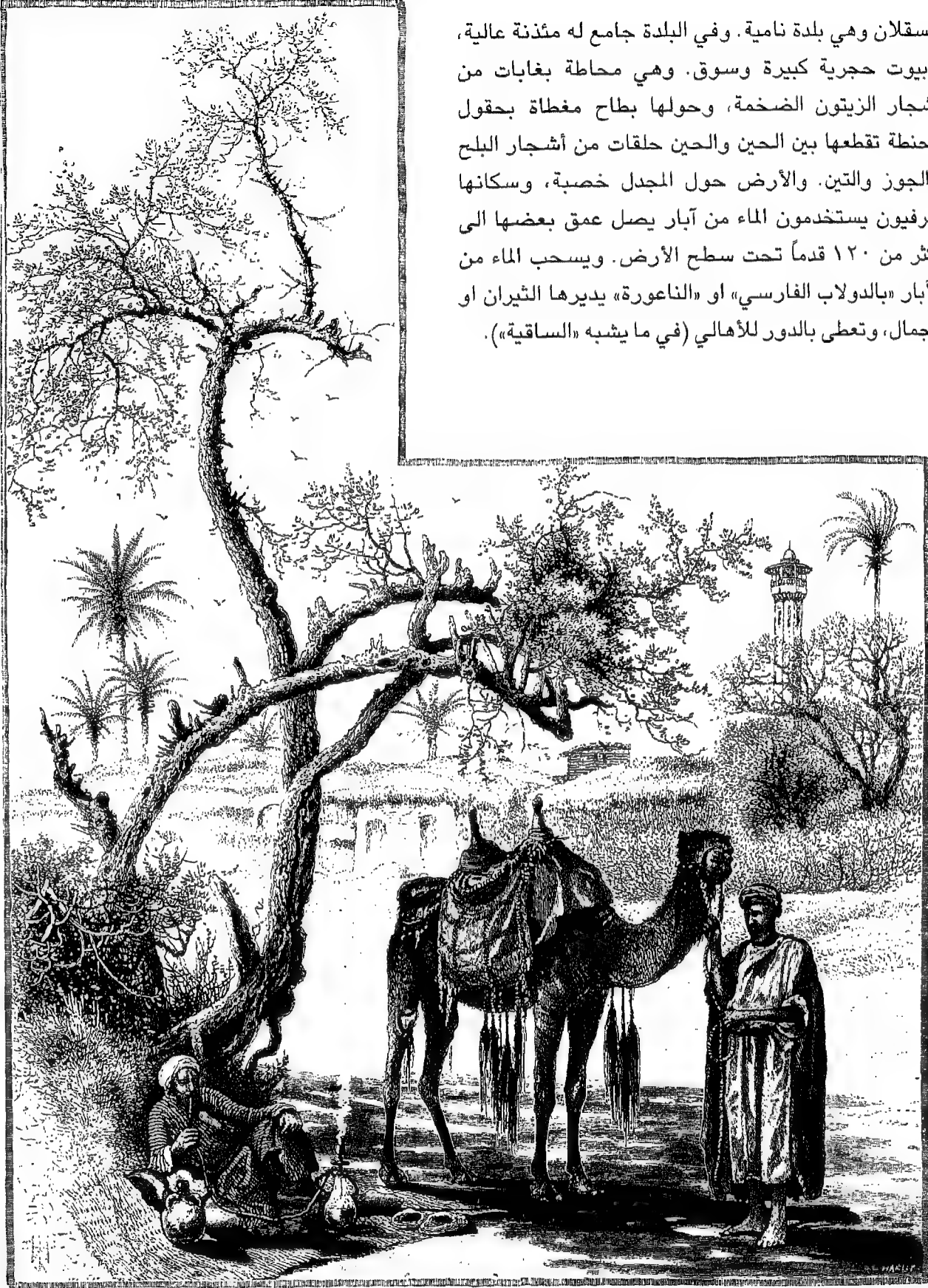
تحولت جابني الى مركز إبرشية، وكنيستها التي تعود للعصر الوسيط هي الآن جامع محمدي. وفي موقع جابني تقوم الآن بلدة عامرة، يبني، يصل عدد سكانها الى حوالى الألفين، ومعظمهم من المحمديين، أما على الشاطئ على بعد نحو أربعة أميال، فلا تزال تقوم آثار مينائها، أو «ما جومها»، القديم الذي ذكره بليني. وإذا تقدمنا من الميناء جنوباً على طول الشاطئ فإننا سنلاحظ شيئاً يلفتنا والى عدة أميال. فإراضي فيلستيا الخصبة، وعلى مسافة ثلاثة أو أربعة أميال، مغطاة بكتبان الرمل الزاحفة أبداً، وبعمق يصل الى ثلاثين أو أربعين قدماً، تتحرك شرقاً بفعل الريح التي تهب من جهة البحر وتهدد مناطق واسعة في الداخل اذا لم تتخذ الاجراءات الكفيلة برد هذا الشر المستطير. وانه الأمر مأساوي حقيقي أن تمر فوق أراض كانت تضج ذات يوم بالسكان ولتجدها الان قفراً بلقياً خالياً من كل بشري خلا كوخ فلاح هنا أو هناك بين الكتبان التي قد تأتي عليه غداً أو بعد غد. لقد كافح من بقي من الفلاحين حتى النهاية إلى ان غلبهم هذا الوحش واحداً بعد الآخر، فتركوا أرض أجدادهم. وقد بلغ طغيان الرمل في حالات معينة كل مبلغ ولم يبق شيء من الارض الزراعية وبات جل شغل الفلاحين حماية بضع شجرات مثمرة من الدمار الكلي. وكأنما الثمار اللذيذة لتلك الشجرات المفردات هي سلوى تلك الكتبان، هنا أو هناك.

ونصل بعد مسيرة حوالى ١١ ميلاً على طول الشاطئ الى بلدة مبنية من حجارة الصخر الرملي تقوم على الموقع الذي كانت تحتله اشدود القديمة ومرفأها، والتي لم يبق منها شيء ظاهر. وإذا تقدمنا خمسة أميال أخرى جنوباً مع الشاطئ فنلاحظ ان الشاطئ المنخفض يبدأ بالارتفاع تدريجاً ليصبح بعد حين شيراً حاداً، يزداد عنفاً كلما تقدمنا جنوباً، والذي تقوم عليه آثار «عسقلان البحرية». إلا أننا وقبل الحديث عن عسقلان، نحول أبصارنا نحو المجلد الحديثة Mejdol، ميجدول القديمة، غاد Gad الفلسطينيين، او حتى مجدالا Magdala التي ذكرها هيرودس (xi 159) في معرض روايته لهجوم فارونيسو برأ على السوريين وانتصارهم عليهم. والمجلد اليوم هي مقر سلطة المنطقة حول



أشدود، أشدود القديمة

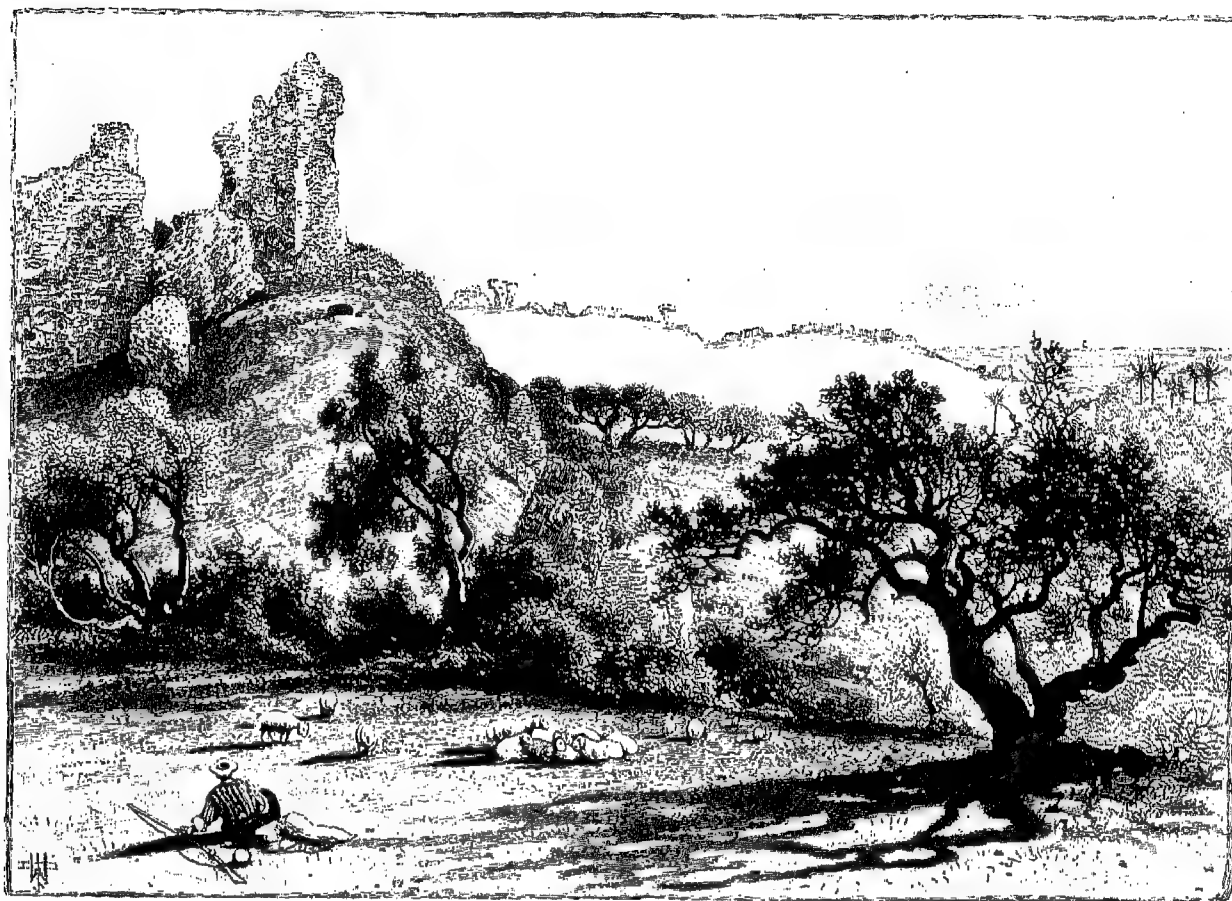
عسقلان وهي بلدة نامية. وفي البلدة جامع له مئذنة عالية، وبيوت حجرية كبيرة وسوق. وهي محاطة بغابات من اشجار الزيتون الضخمة، وحولها بطاح مغطاة بحقول الحنطة تقطعها بين الحين والحين حلقات من أشجار البلح والجوز والتين. والأرض حول المجدل خصبة، وسكانها حرفيون يستخدمون الماء من آبار يصل عمق بعضها الى أكثر من ١٢٠ قدماً تحت سطح الأرض. ويسحب الماء من الآبار «بالدولاب الفارسي» او «الناعورة» يديرها الثيران او الجمال، وتعطى بالدور للأهالي (في ما يشبه «الساقية»).



المجدل، ميجدول القديمة

وهي بلدة مهمة اليوم، فيها حوالي ١٥٠٠ ساكن، وجامعها ومنارته مبنيان من مواد قديمة ويقام سوق اسبوعي هنا.

ويقوم قريباً من المجدل، موقع عسقلان والذي وان كنا نعرف مكانه عموماً إلا أن موقعه الدقيق ما زال غير محدد تماماً. كانت عسقلان إحدى المدن المهمة لدى الفلسطينيين وظلت في أيدي الفلسطينيين إلى أن دخل أبناء إسرائيل «أرض الميعاد» وبدأ الاحتلال اليهودي. ويصفها هيرودس بكونها تحتوي على أقدم هيكل لفينوس أو دركيتو، أم



آثار عسقلان، من الشمال الشرقي

سميراميس. وكانت في شكل امرأة فوق الخصر مع ذيل سمكة، الشريك الانثوي لداغون Dagon. ولإن لعسقلان مرفأها البحري كما الكثير من مدن الفلسطينيين فقد دعت «عسقلان البحرية». برزت أهمية عسقلان في عهد هيرود الأكبر الذي زينها بالحمامات العمومية والينابيع والقصور، ففي عسقلان كانت تقيم شقيقة سالوم. وفي أثناء الحرب التي دارت بين اليهود والرومان، تعرض اليهود لهزيمة كبرى في عسقلان على يد انطونيوس.

كانت عسقلان منذ فترة مبكرة جداً مركزاً لأبرشية، كما كان لها من الموقع الأسوار القوية ما جعلها الحصن الأكثر أهمية في فلسطين في العصور الوسطى، وظلت في اثناء الحقبة الصليبية شوكة في خاصرة المسلمين، مثلما كانت لليهود يوم كان فيها الفلسطينيون. وقد حدثت عند عسقلان المواجهة الكبرى بين الجيش المصري والجيش الصليبي بقيادة غودفراي. فبعد احتلال القدس وانتخاب غودفراي لوراين ملكاً من قبل الجيش الصليبي جاءت اخبار العيون لتقول أن جيشاً مصرياً كبيراً قد عبر الصحراء إلى فلسطين لرفع الاحتلال الصليبي وإعادة حكم الاسلام. اجتمع الجيش الصليبي على عجل قرب الرملة واستعد لرد الهجوم المصري. أخذ ريموند موقعه على الشاطئ وتقدم غودفراي بخمسة آلاف خيال فيما قاد تانكرد والروبرتان الهجوم مباشرة على العدو. وكانت مبادرة شجاعة من الصليبيين في مواجهة اعدائهم الذين تفوقوا كثيراً في العدد. ويقال ان الصليبيين اصطحبوا معهم من الجبال قطعاناً

كبيرة من الماشية مما ضخم حجم القوافل المسيحية وضلّ المسلمون الذين فروا في كل الاتجاهات وخلفهم الصليبيون يطاردونهم. فرّ البعض الى الشاطئ وكان ريموند في انتظارهم واختفى آخرون في الصحراء. وحاول جزء منهم الوصول الى عسقلان لكن غودفراي قطع الطريق عليهم وأجهز على معظمهم. وعلى الفور ألقى غودفراي الحصار على عسقلان، الا انه اضطر للانسحاب سريعاً بسبب الخلافات بين فرسانه وظلت عسقلان في يد الحمديين خطراً يتهدد أورشليم.



وفي العام ١١٢٤ م وبينما الصليبيون مشغولون في حصار صور شن المحمديون غارة غير ناجحة على اورشليم. وظلت عسقلان كذلك الى أن تمكن الصليبيون من احتلالها سنة ١١٥٣ م. فقد ألقى بلدوين الثالث الحصار



عليها مصمماً على أخذها أيّاً تكن الظروف، فهاجم الحصن من البر والبحر وأصلى المدينة لشهرين بكل صنوف الهجوم والعمليات. ثم ألغى احتفالات

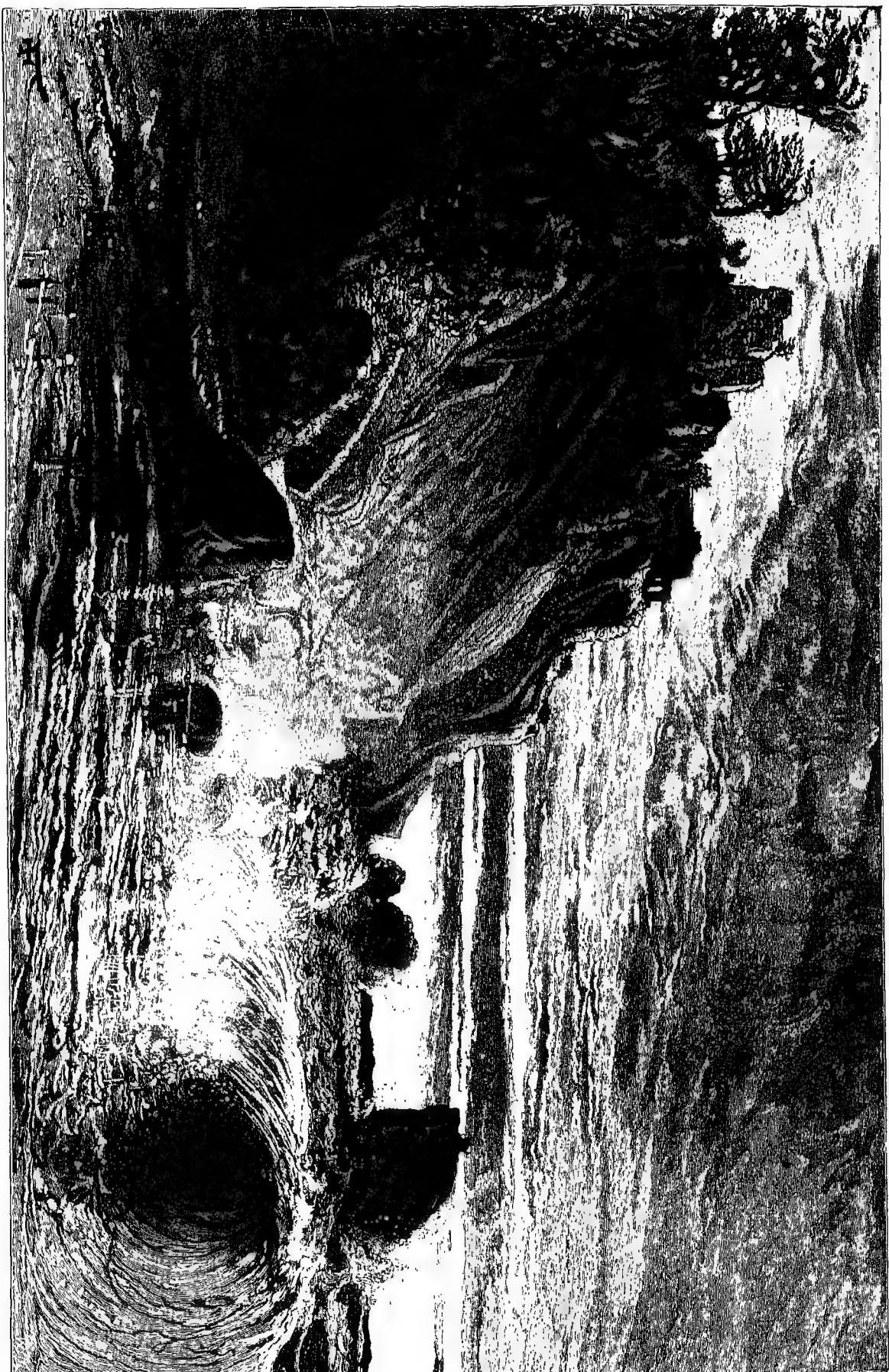
الفصح وأمر الحجاج كلهم في البر للاسراع في مساعدة جيشه. دافع المحمديون عن اسوار الحصن بكل جسارة وشجاعة، وحينما اضطروا في النهاية للاستسلام تمكنوا من الخروج من المدينة بكل اقتدار واحترام.

لكن القضية الصليبية لم تدم كثيراً وتمكن المسلمون بقيادة صلاح الدين وبعد فترة قصيرة من استعادة مدن كثيرة في سوريا. وكانت عسقلان، الى مدن أخرى، بين آخر المواقع التي سقطت قبيل تحرك المحمدين الى اورشليم سنة ١١٨٧ م. وأمر صلاح الدين سنة ١١٩٠ م بتدمير تحصينات المدينة مخافة ان تصير ثانية في ايدي المسيحيين، وهكذا تحول الحصن الرائع في فترة قصيرة الى تلّ من الركام. وخلال الحملة الصليبية الثالثة أعاد المسيحيون بناء اسوار عسقلان، بناء لأوامر

آثار عسقلان من الجنوب الغربي .

ريتشارد بلاتينيني، وتبرع بجزء من التكاليف إكتتاب قامت به سيدات انجلترا. ثم عاد السلطان بيبرس سنة ١٢٧٠ فدمّر الاسوار كلياً بعيد احتلاله المدينة. ولا تزال الى اليوم أجزاء من تلك الاسوار واقفة، إلا أنها قطع صغيرة من حجر الصخر الرملي، بينما تتناثر هنا وهناك قطع صخرية ضخمة كانت تشكل يوماً الأسوار القديمة، والتي نقل

معظمها لبناء مواقع أخرى. ويمكن مشاهدة اعمدة الغرانيت التي يبلغ طولها ١٧ او ١٨ قدماً وقطرها قدمان ونصف القدم تبرز بين الجدران. وما زال في عسقلان ميناء صغير يستخدم لأعمال تصدير العاج والفخار ومحيط عسقلان خصب جداً، وفيه غابات صغيرة من النخيل تضيف جواً جميلاً على المكان. ويزرع اهالي قرية «الجورة» الصغيرة، شرق آثار عسقلان، الكرمة والزيتون وأنواعاً أخرى من الاشجار المثمرة ومن ضمنها التفاح.



البحر
والحصينات عند الزاوية الشمالية الغربية من المدينة واستيلاء ومسيس الثاني على عسقلان مسجل على جدران معبد الكرنك

بلاد جودا (يهودا) الجنوبية

«الدخول في» أرض الميعاد من جهة الجنوب، تماماً «كالدخول في حمات Hamath» من الشمال، أمر يخلو من البهجة أو المتعة. ومع ذلك فإن الطلة الاولى «لأرض الجنوب» قبل ان تضيق في السهل الفلسطيني، هي في الواقع محببة

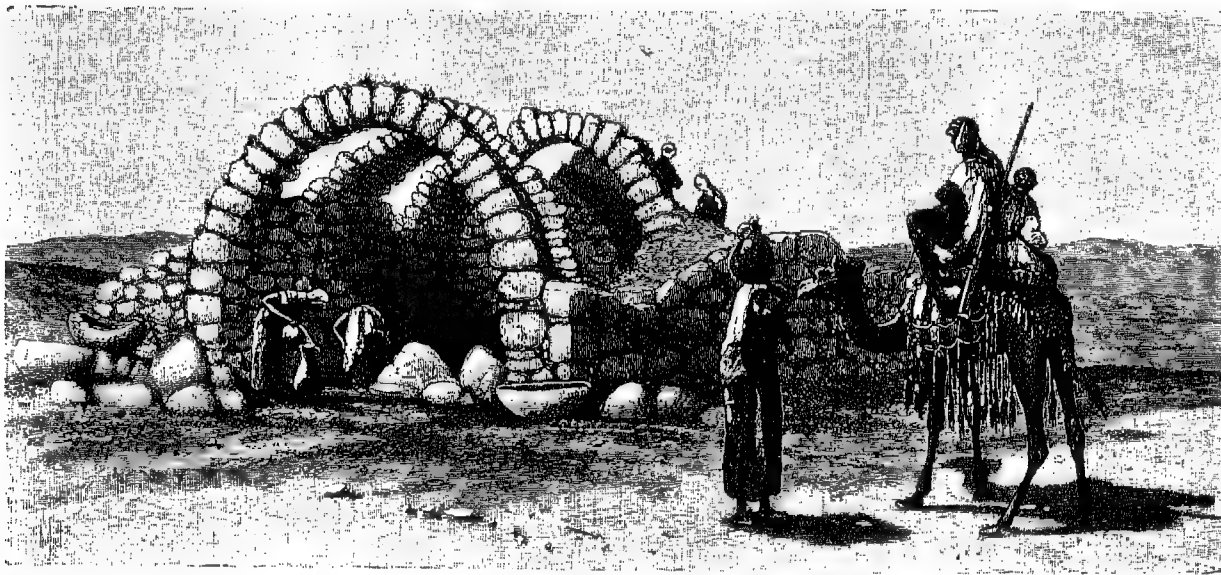


غزة، غازا Gaza القديمة.

والبلدة الحالية، شبه المصرية الطابع، لاآبار فيها ولابوابات والجامع الظاهر في الصورة الجامع الكبير كان كاتدرائية بيزنطية .

وممتعة. ولقد دعوناها «الدخول في»، كما كانت على الدوام، طريقاً للمحاربين وللتجّار والبوابة بين مصر وأشور، الأباطوريثان المتنافستين في الشرق. وقلة فقط هم الذين كانوا يدخلون فلسطين قبل عصر السفن البخارية، من غير هذا الطريق، خلا البعض الذي كان يأخذ الطريق الطويل عبر سيناء والبتراء.

تستغرق الرحلة من النيل الى وادي العريش تسعة أيام في طريق صحراوي مقفر؛ الا اننا دخلنا الآن حدود سيميون Simion، وحيث تقوم بضع قرى قرب الشاطئ تحيط بها غابات من النخيل والزيتون وتوفّر للعين منظراً بهيجاً، فيهما بقع خضراء صغيرة تزين الأفق الرملي الفسيح، وحينما وصلنا الى آخر تلك القرى، وهي دير البلح، فانما كنا في منطقة رعوية للآباء القدامى. وتقطع المنطقة بالأودية المتعاقبة والتلال المستديرة، دونما منحدرات حادة كثيرة، إلا أنها مغطاة بطبقة عشبية رقيقة مع حقول من الحنطة دونما سياج، وترصّعها خيم بدوية سوداء، هنا أو



بئر ماء في سهل فلسطين.

هناك. وهكذا يتبخر تدريجاً الاعتقاد الشائع ان المنطقة الجنوبية هي صحراء تماماً ولكن رغم المساحات الخضراء الممتدة، فما من شجرة تقطع رتابة هذا المنظر، وبحيث يتساءل المرء عما اذا كانت المنطقة قد عرفت الغابات أصلاً، وبخلاف المنطقة الداخلية شرقي بيرسبع. وفي الصيف تجف السواقي كلها، ويغدو اعتماد العرب على الآبار الموهة بمهارة بحيث لا يكاد يعرفها إلا أفراد القبيلة التي تملك المرعى المجاور. ويقوم على مسافة ثلاث ساعات الى الجنوب الشرقي من غزة وساعتين شرقي الطريق الآتي من مصر، مرتفع دونما شكل مميز، شمالي وادٍ قليل العمق ويشرف على مساحات واسعة من كل الجهات، لا يملك البدو في الجوار أي فكرة عنه إلا أنه موقع تاريخي موغل في القدم ويستحق التأمل. ظل اسم الموقع كما هو لأربعة آلاف سنة وهو جرار Girar، جرار سفر التكوين، مكان الإقامة المفضل لدى إسحق. وقبل أربعة أميال من وادي الجوزي Gussih، حيث تلتقي سواقي وادي سبا أو وادي بيرسبع ووادي شريار sheriar الشمالي، نترك طريق العربات لنحو عشرة أميال جنوب غزة، ونضرب قدماً بين صفوف التلال التي تتوالى دونما شجرة واحدة. واذا عبرنا، في مطلع شباط، وادي سبا ثم وادي شريار Sheriar فسنجد في كليهما

مجرى مائياً غزيراً، كما سنمرّ أحياناً فوق بسط من العشب الأخضر القليل الارتفاع، إلى أعشاب برية أخرى، أو حقول حنطة يانعة بين الحين والحين تزينها أعشاب صفراء اللون، وإلى أن نصل إلى تل مستدير ذي سفح مسطح ويطل على منظر بديع من بيرسبع شرقاً إلى البحر غرباً وهو تل أبو جرار. تبدو الآبار كما لو أنها الآثار الوحيدة المتبقية والعشب لم تكسره آثار أقدام، فيما بقايا كسر الفخار المشغول تشير إلى أن المكان كان مأهولاً في الماضي بالسكان. وتتناثر الآبار على قمة التل وعلى جوانبه وصولاً إلى أسفل الوادي. وكل هذه الآبار مطمورة بدرجات مختلفة، وبعضها حتى سطح الأرض ولعلها آبار إبراهيم التي سدّها رعاة أبي ملح Abimelech وبعض تلك الآبار مملوء لعمق ١٢ أو ٢٠ قدماً بحيث يمكن رؤية قعره محفوراً في الصخر، بينما القسم العلوي منه مشغول ومصقول بالطين ويعود كما يبدو إلى زمن متأخر لوجود كسر فخار فيه. وبعضها مسقوف بالصخر مع فتحة عند الوسط. واثنان فقط كانا في حالة سليمة بينما كان الباقي مكسوراً بنسب مختلفة. ومن أصل ١٩ بئراً أمكن فحصها لم يكن هناك ماء إلا في اثنتين منها فقط. والبعض كما يبدو قد أفرغ وجرى تطيينه من قبل البدو لاستخدامه لأغراض التخزين ويبدو أن التل كان مكاناً مثالياً لإسحق يراقب منه شعبه وقطعانه. وعلى التل آثار حصن إلا أنه يعود لزمن متأخر.

ورغم أن الطريق من جرار إلى غزة تخلو من المناظر المثيرة، إلا أنها ممتعة. والمنطقة ملأى بالحيوانات البرية. فالغزلان تمرح على كل تلّ، والثعلب وابن آوى عند كل حنية أو مفرق، وتبدو إحدى الهضاب الملجأ المفضل لغرائق crane كبيرة تعود بالملئات، سنة بعد سنة إلى حيث ولدت، كما الغربان إلى الشجر.

وتطل غزة، أو بالأحرى غابات الزيتون التي تحوطها، بغتة ومن دون مقدمات. لا تتمتع المدينة بأفضليات طبيعية من حيث الموقع، وما من سبب ظاهر يجعلها مدينة منذ أقدم العصور وهي اليوم تكاد تكون من دون أسوار تماماً والكثير من شوارعها يمتد مباشرة إلى خارجها. ويمتد طريق رملي عريض بين أشجار الزيتون، يربط مصر بسوريا، داسته جمال الميديين Midianites قبل إبراهيم بزمن طويل، ومشى عليه ملوك مصر وآشور، والفاثون الاغريق والرومان، السراسنة والصليبيون، وأخيراً نابليون من مصر واليهما ثانياً. وفي غزة اليوم أكثر من عشرين ألف ساكن. ويحيط بوسط المدينة، المبني من الحجارة، حزام من الضواحي ذات البيوت المبنية من الطين والمسقوفة بالاغصان المغطاة بالتراب الرقيق، كما يرتفع فيها عدد من المآذن، يلعب بياضها فوق السقوف الترابية، وتطل بينها أشجار نخيل متفرقات، كما تعبرها أسلاك التلغراف في مزج غريب بين القديم والحديث. هناك تلة واحدة قريبة يمكن أن تعثر فيها على شيء من الماضي، ويقوم في أعلاها مزار يدعى «علي المنطار». تقع التلة جنوب شرق المدينة وتشرف على منظر جميل، ومن المرجح جداً أن تكون المكان الذي أُنْتُقِلَ إليه سامسون Samson فهي التلة الوحيدة في الجوار، وهي على الطريق إلى حبرون. ونزقّب هناك، أيضاً موقع الممر الفلسطيني، ممر هيكِل داغون، وموت سامسون. لا تحتوي ابنية غزة على الكثير من التاريخ. فعِمارة جامع هاشم، جدّ محمد، هي على الطراز الأموي القديم تماماً، ويقوم في إحدى زواياه ضريح هاشم. إلا أن على الجامع الكبير نقوش تحمل تاريخ ٦٧٧ هجري، أي ١٢٧٦ ميلادي؛ وهو في الواقع باسيليكاً هيلينا Basilica of Helena، والذي كان كاتدرائية فخمة مع ثلاث نثوات غير مكتملة، تستخدم إحداها الآن كسَلَم يوصل إلى مؤذنة الجامع التي أضيفت في ما بعد ولا تزال قاعة الكاتدرائية الرئيسية والممر كما هما، وكذا إشارة الصليب على الأعمدة لم تمح، إلى إشارات مسيحية أخرى وقد أضاف المحمديون ممراً آخر في الأسفل يوصل إلى مدرسة ملاصقة للدراويش.

والابنية الأخرى في غزة فقيرة، وكذا شوارعها وأسواقها، وتصطف منازل بسيطة ذات سقوف مسطحة. إلا أن اللافت في غزه هو كمية البقايا والآثار الرخامية المنتثرة في كل مكان، وهي تنافس عسقلان في وفرة الأعمدة الموجودة. فهي في كل بستان وإمام كل بيت وهي تشكّل كل عتبة قائمة في غزة. وفي وسعك أن تخطو من الشارع الضيق خطوة واحدة يساراً أو يميناً لتجد عاموداً رخامياً مرمياً أمام باب منزل. تمر في زريبة أولاً، ثم في فناء ضيق، وإلى يمينه مطبخ بابه واسع ونحو الفناء. ثم تدخل إلى ساحة داخلية، كبيرة ومرصوفة بقطع كسر الرخام، وغرف تطل عليها، على جوانب أبوابها أعمدة رخام، تقف إلى قواعد، مع تيجان كورنثية، رومانية، أو بيزنطية متأخرة، أي

بقايا الهيكل والكنيسة معاً. وتزين قطع او ألواح من الرخام الحيطان المبنية من حجارة رومانية، إنه التقليد الغزاوي للقصر الدمشقي. كذلك وجدت في المكان تماثيل عدة، وقد أخرج أحد هذه التماثيل من مدفن تحت الأرض وجرى نقله الى مجموعة اسطنبول الحديثة، The new National Collection ومحيط غزة في الشمال أعظم اتساعاً بكثير عما هو في الجنوب. إذ تمتد لأميال عدة غابات نخيل جميلة. الكثير من أشجارها عتيق، ملتوي، وفي غير شكل؛ بينما تسرح قطعان الماشية في ظلها. وتذهب الطريق الى حبرون بعد تلك الغابة عبر القسم الأوسع من السهل الفلسطيني الكبير. والمنطقة مزروعة بكاملها اليوم وحول القرى غابات زيتون كثيفة، بينما هي لم تكن قبل خمس وعشرين عاماً غير حقل مهمل من الشوك والحشائش البرية. وبين الحين والحين يقطع سبيلٌ قوي طريقك بين أودية السهل الخصب ويغدو من الصعب ان تجد موطئ حافر لحصانك وهو يعبر نحو الجانب الآخر. وبعد مسيرة حوالى ١٥ ميلاً تتحول الأرض السهلية الى بطاح متماوجة، تبدو تربتها غنية لكنها مهملة ولن تجد ساكناً واحداً في أي جانب منها؛ ونصل اول ما نصل الى لأكيش، او لأكيس Lakis الحديثة، وهي موقع أثري قديم. ولاكيش اليوم هي تل من الركام. ففي موقع يقوم بين فرعين من تلال يهودا Judaeen hills والتي تنخفض تدريجاً لتضيع في السهل الفلسطيني، يقوم الى اليسار تل منخفض تتناثر الحجارة فوقه في كل اتجاه؛ وهو كل ما تبقى من لأكيش القديمة ويغطي الفخار المكسور التل فيغدو كما لو كان من فخار. وتبقى الجدران المهدمة والقواعد ذات الحجارة الضخمة لتخبرنا عن المدينة التي ظل احتلالها هدفاً لحملات سنحاريب المتتالية. كانت المدينة محاطة بالنخيل، اما اليوم والى مسافة طويلة فلا اثر لشجرة او حتى للعليق. لقد كان للموقع الطبيعي المتميز، الذي يشرف على ما حوله ويقيه شر المباغثة، الفضل الاكبر في تحويل لأكيش الى حصن حدودي أمامي قوي.

وبعد ثلاثة أميال أخرى، وعلى تلٍّ مشابه نصل عجلان، او عجلون Eglon القديمة، في نسخة من لأكيش، لكن آثارها باقية على صورة أفضل بكثير. فخطوط الحصن القديم يمكن اعادة رسمها كاملة، يقوم فوقها اليوم حقل من البصل يسيجه نبات الصبير. ومن الآثار المتبقية آبار عدة وحوض ماء، كما أن حفريات حديثة جرت كشفت عن أبنية ذات حجارة مصقولة كان لها شأن في الماضي.

وتأخذنا مسيرة ساعتين، عبر السهل، الى «عرق المنشية» Arak El Menshiyeh، او لبنه Libnah القديمة ونلتف في واد واسع حول تل عجلون لندخل من جديد سهلاً غنياً مزروعاً بالحنطة. وفي البعيد صخر أعزل مع مزار ذي لون ابيض في احدى زواياه يقوم فوق السهل وقرية ذات بيوت طينية عند اسفله، تلك هي لبنه. يقوم صخر عرق المنشية الى الشمال الشرقي من القرية يفصله عنها مجرى ماء ضيق وقربه عدة آبار، مع بقايا منحوتات رخامية متناثرة وتجهيزات سحب الماء القديمة المتخلفة، كما في مصر، وعلى هذا الصخر تماماً كانت تقوم في ما مضى قلعة البلدة اليهودية. والصخر أعزل اصلاً ومهياً ليكون حصناً في وجه رماة النار والمتسلقين في آن. فجوانبه ترتفع عامودياً من السهل لحوالى ١٠٠ قدم، ولا يربطه الا ممر ضيق بالهضبة المجاورة. وترتمي على جانبه الجنوبي بقايا البناء القديم لتشكل منحدرًا حاداً وهو الذي تسلقناه كيما نصل قمة الصخر. وسطح الصخر مسطح تقارب مساحته الاربعة فدادين أجرد تماماً وليس فيه غير شجرة تين تحيط بها نبتة صبير. والسهل حوله مرعى واسع تتخلله حقول حنطة ولكن دونما شجرة واحدة، او منزل، خلال خيم بدوية هنا او هناك ونار تشعل في البعيد وتؤذن باقتراب المساء. والمنظر من على الصخرة مؤثر وفي وسع المرء ان يتخيل كيف تقدّم جيش الأشوريين من هضبة لأكيش البعيدة ثم انتشر فوق السهل، وكيف استحال عليه احتلال هذا الموقع لروعته، ناهيك عن الجوع. وحانت من القوة المحاصرة التفاتة الى السهل في الاسفل فرأت آلاف الجثث يصلّي فوقها ملاك الرب.

«لقد نشر ملاك الموت اجنحته في كل مكان،

ونفخ في كل وجه،

وعيون الموتى غدت ميتة من شمع،

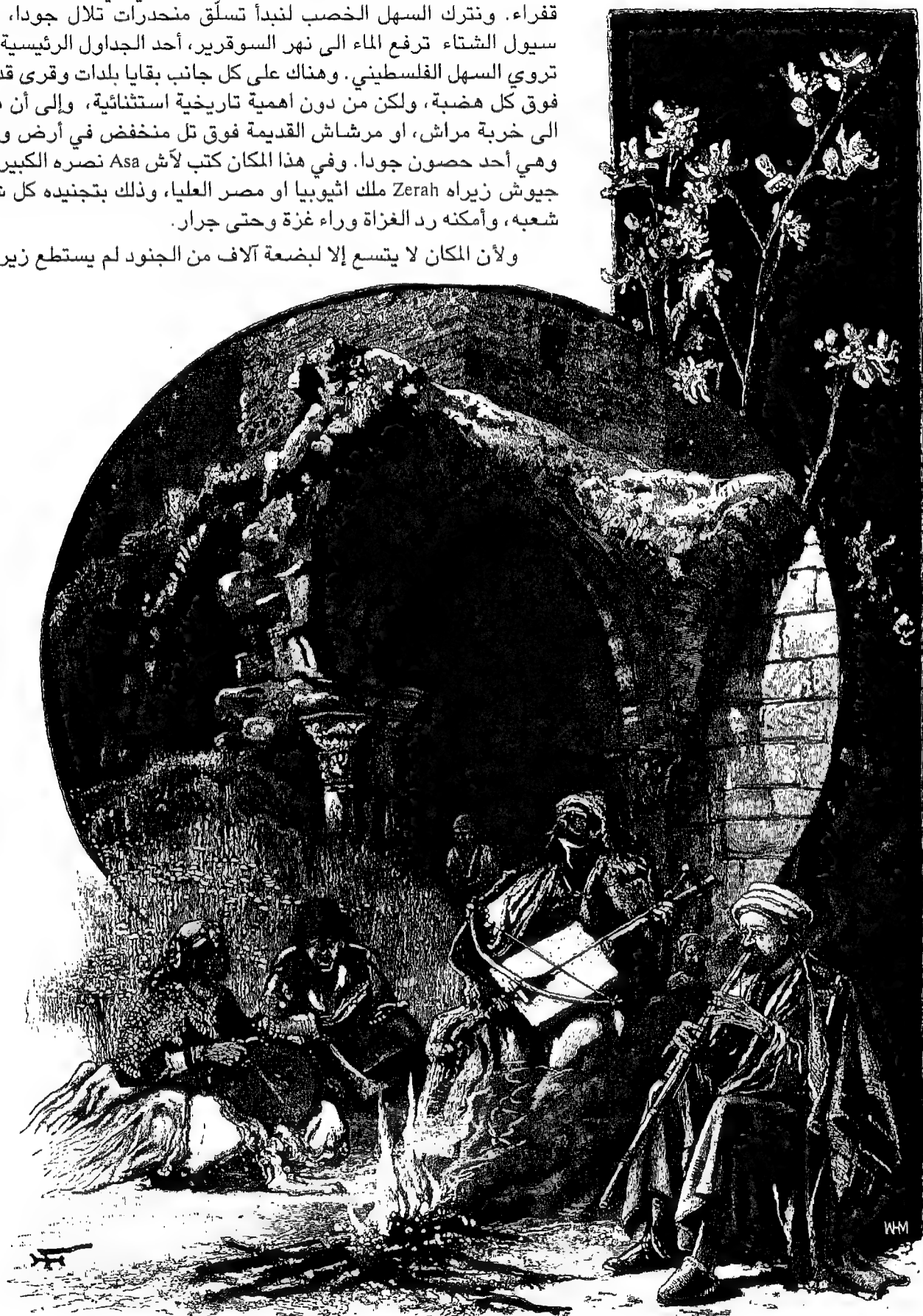
وقلوبهم التي خفقت يوماً، سكنت الى الأبد»



وادي بيت جبرين
البحر من بعيد والشاطئ الرملي، والى اليسار مدخل كهف وراع نائم وقربه كلبه وبندقية ومزمار.

. والطريق من عرق المنشية الى بيت جبرين هي في معظمها موحشة قفراء. ونترك السهل الخصب لنبدأ تسلق منحدرات تلال جودا، حيث سيول الشتاء ترفع الماء الى نهر السوقرير، أحد الجداول الرئيسية التي تروي السهل الفلسطيني. وهناك على كل جانب بقايا بلدات وقرى قديمة، فوق كل هضبة، ولكن من دون أهمية تاريخية استثنائية، وإلى أن نصل الى خربة مراش، أو مرشاش القديمة فوق تل منخفض في أرض وعرة، وهي أحد حصون جودا. وفي هذا المكان كتب لأش Asa نصره الكبير على جيوش زيراه Zerah ملك اثيوبيا أو مصر العليا، وذلك بتجنيد كل شبان شعبه، وأمكنه رد الغزاة وراء غزة وحتى جرار.

ولأن المكان لا يتسع إلا لبضعة آلاف من الجنود لم يستطع زيراه ان



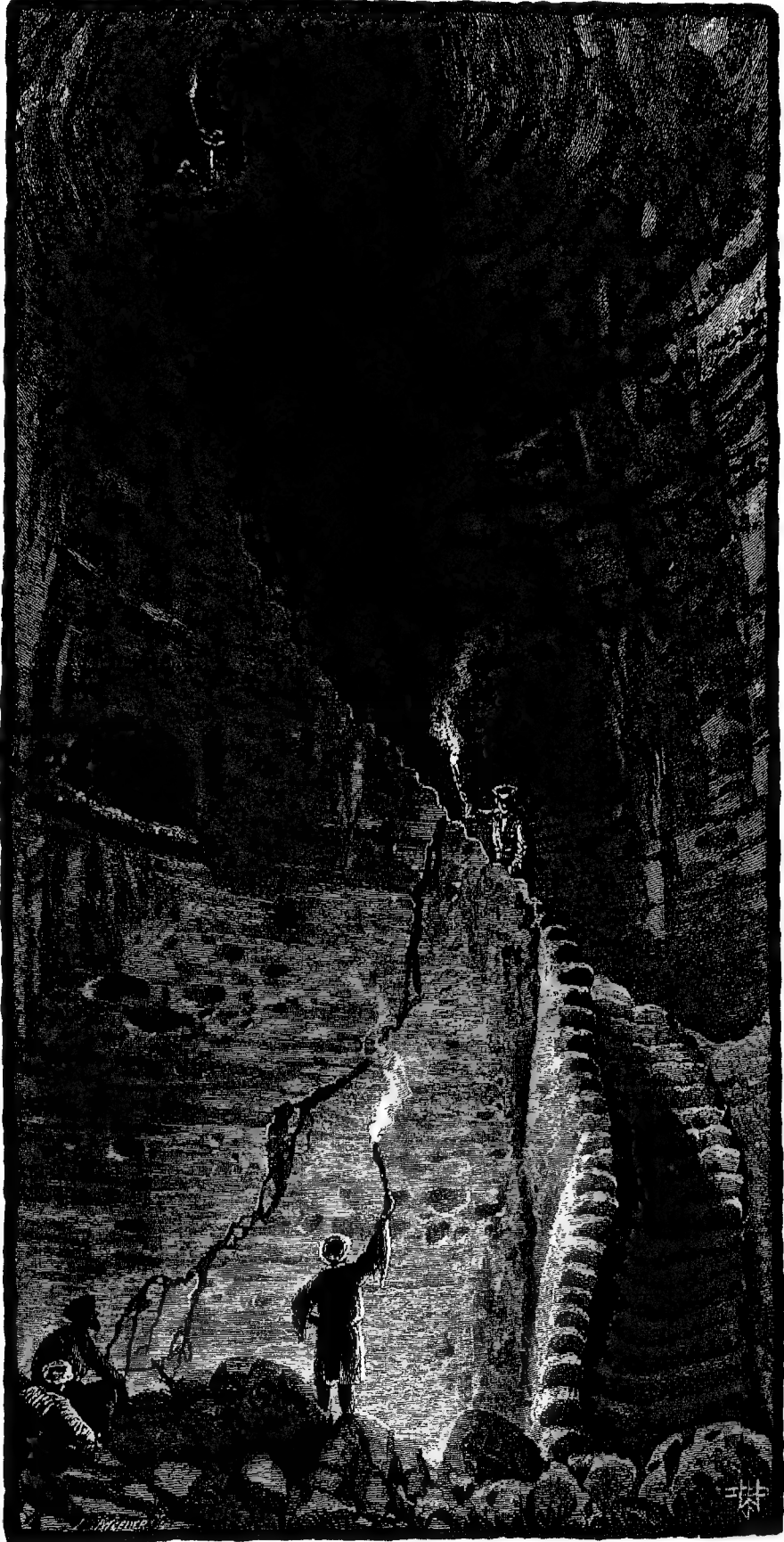
قلعة بيت جبرين تحت ضوء النجوم
وموسيقيون عرب وربة الشعر « التي ترافق المنشد والمزمار المزدوج، الأرغول، يستخدم كباس Pass مستديم.

يستفيد من التفوق العددي الذي يملكه، وحالما انهزمت صفوفه الامامية ارتدت الى الخلف زارعة الذعر في سائر أقسام جيشه. ويغطي المنطقة اليوم عشب قليل العلو، وحجلٌ بغير عدد، ولكن لا أثر لشجرة واحدة الى أن تصل الى ضواحي بيت جبرين. وننعطف شمالاً، لندخل البلدة من تلك الجهة ولنعرج على موقع سوف يساعدنا في تعيين المكان، وهي خربة غات K. Gat والاسم معروف ومتداول بين الفلاحين، وهو يشير الى التلّ الذي يقع الى الشمال الغربي من بيت جبرين، تملأه الاساسات القديمة وهو ملائم طبيعياً ليكون حصناً، كغات. ومعلوماتنا عن هذا المكان هي أكثر مما رأينا قبل قليل. فما من مكان آخر في جودا الجنوبية يحتوي آثاراً وبقايا بقدر ما تحتوي جبرين. وجبرين الحديثة هي على بعض الاتساع مع أنها لا تخرج عن حدودها القديمة. وفي البلدة نحو ألف ساكن جلّهم من الفلاحين، ذوي قامات عالية، أقوياء و عنيدون، لكنهم نشيطون مبادرون وعلى قدر من الغنى. وكان والد شيخ البلدة الحالي، عزازي Azazeh، متسلطاً، تمرّد على السلطات التركية، والقى الرعب في قلوب شعبه والمنطقة المحيطة. وتكاد الجرائم الدموية التي تنسب له تفوق ما للجزّار باشا. فاذا سمع مثلاً عن رجل تزوج من امرأة جميلة، بعث بطلبهما فإذا حدث واستهوته المرأة العائرة الحظ، قتل زوجها دونما شفقة، وجعلها أرملة فأمكن له أن يتزوجها. وبعد موته، فقط، عاد تجار حبرون والمسافرون يدخلون بيت جبرين او يمرّون بها. وكانت قلعة الشيخ قرب حصن قديم ومبنية من حجارته ومواده. والقلعة القديمة، التي تقوم في محيطها جبرين الحديثة، مسورة بحائط صخري، صليبي على الأرجح، إذ ان هناك في الاسوار تيجان أعمدة رخامية مصقولة تعود الى العهد اليوناني، الروماني، كما أن هناك أعمدة مكسورة ما زالت واقفة في ساحات بعض المنازل الحديثة. تقارب مساحة القلعة ٦٠٠ قدم^٢ ويتصل بالاسوار من الداخل صفوف من الممرات ذات العقود والأقواس، لا يزال بعضها سليماً بل ويشغله السكان. وفي الوسط حصن صليبي من حجارة مشابهة، اعاد السراسنة ترميمه بعد ما كان مهدوماً جزئياً، إلا أنه الآن خراب، مع غرفة كبيرة من حجر مع مدفن بديع التصميم لا يزال سقفه المعقود سليماً. ومن أكثر الآثار جمالاً واثارة للاهتمام بئر ذو اتساع غير اعتيادي، وهو روماني على الأرجح، وحوله عمارة جميلة جداً، ويبلغ عمق البئر حوالي المئة قدم ولا يزال مصدراً لمياه وفيرة. هذه هي بقايا بيتو - جبرا، «بيت جبرائيل»، في الإسم السوري - الاغريقي والذي جعلها الرومان أليثرو بوليس، والتي وان بدت اليوم من الماضي فقد ظلت قائمة حتى وقت متأخر من القرن التاسع والى ان دمرها السراسنة. ورغم أن بلانشغارد الصليبيين تنسب دائماً الى موقع تلّ الصافي، الذي يقع على مسافة اقل من مسيرة نهار شمالاً، لكنني كنت دائماً أميل الى الاعتقاد ان هذا المكان هو ليس بيتو - جبرا واليثيرو بوليس وحسب، وإنما هو بلانشغارد، أو الموقع الصليبي الامامي، الذي نسجت حوله الاشعار والكثير من قصص المغامرات وشجاعة ملكنا قلب الاسد. وحول هذا المكان ينعقد معظم الأدب الصليبي الروائي. اما في تل صافي ورغم ملاءمة الموقع الطبيعي، فان حجم الآثار الموجودة قليل، فاذا كانت أسوارها ليست أسوار بلانستي غارد، كما نزع، فماذا عساها تكون؟ لدينا دليل واحد على الأقل، ربما يضيء بعض ما خفي من تاريخ المكان. فعلى مقربة من بئر ماء، قريب من القرية، ترتقي قاعدة عمود كورنثي رخامي في أحسن أشكال ذلك النمط، ولكن بدلاً من ورقة الأكانث في وسط الإفريز حفرت سبع شموع ذهبية ومن النمط نفسه المحفور على قوس تيتوس. وهذا يعني أنها ما قبل مسيحية. ولكن هل هي ماكبائية ام هيروديانية؟ إن صناعة بيت جبرين الأساسية هي حياكة السجّاد، ولقد رأينا على السطوح في محيط القلعة نساء يعملن على أنوال بدائية وقديمة جداً ويستعملن اصابعهن بدلاً من المكوك تلتف عليها خيطان قوية ومتينة. وفي الخارج كان هناك، على جانبي الطرق، نوع من العمل الجماعي على تسريح الخيوط يشترك فيه النساجون والدّباغون معاً، حيث يسرّحون الخيطان ويدبغونها قبل ان تصبح جاهزة للنسج. والقطعان هنا متوفرة وبكثرة، ورعاتها مسلّحون، لا بالبنادق وحسب وإنما بالفؤوس لمواجهة الذئاب، نشالي التلال، تماماً كما البدو في السهل. ولقد التقينا راعياً صبيّاً ينتحب وقد أخبرنا ان ذئباً هاجم قطيعه فاخطف جدياً ولم يستطع انقاذه.

الا انني اميل الى الاعتقاد أن لبيت جبرين تاريخاً أقدم من بلانشغارد، وأنها في موقع غاث Gath القديمة وربما تكون خربة غات قلعتها. فليست القلعة ولا البقايا على سطح الأرض هي التي تجعل السهل مميزاً. وهي ليست في أهمية الكهوف المحفورة والتي ليس هناك ما يدانيها من حيث الاتساع والحجم في اي مكان آخر من فلسطين، خصوصاً

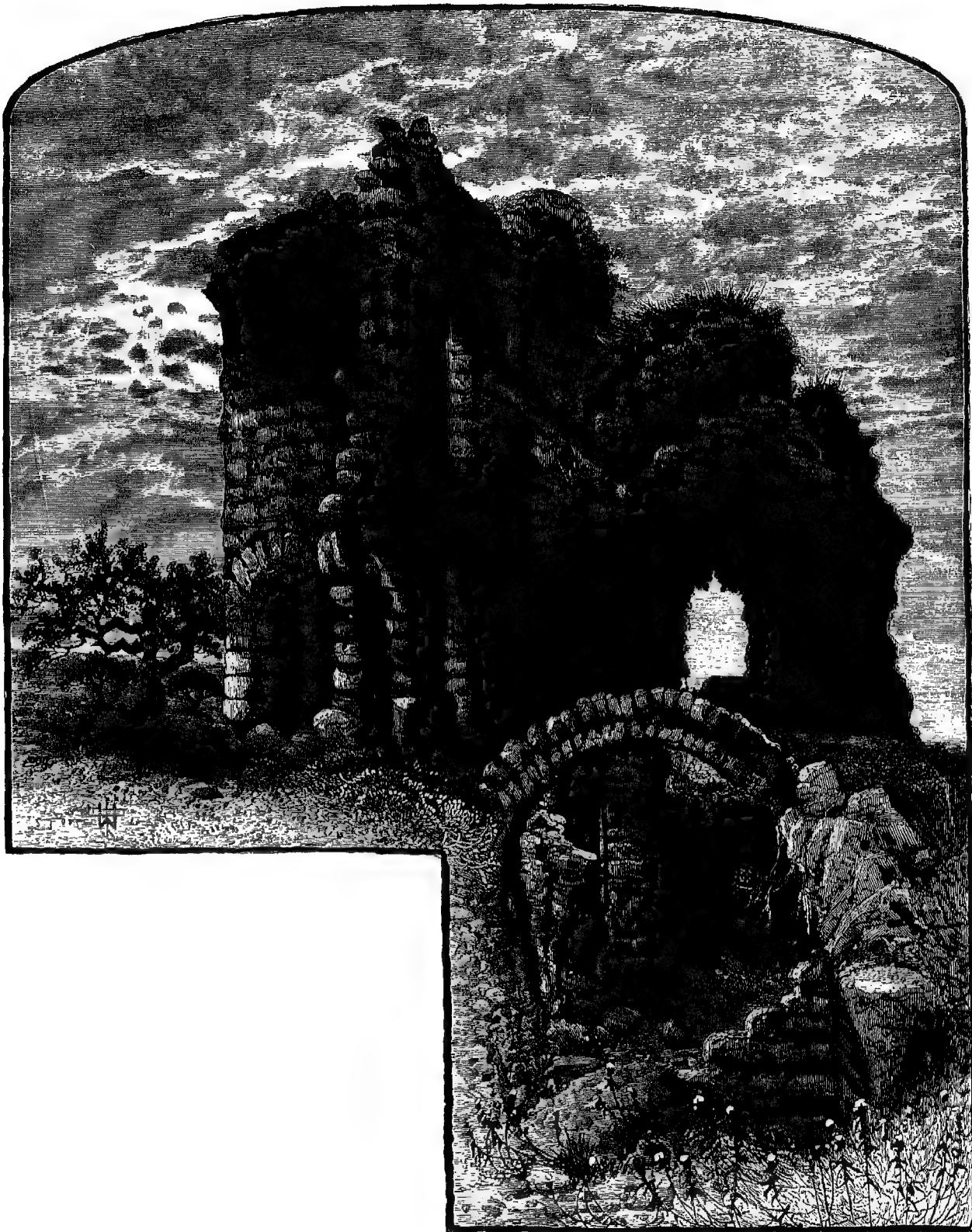
أنها محفورة وليست طبيعية وتعود الى عهد أقدم من العصور الوسطى. وليس هناك من مكان آخر تكثر فيه المدافن اليهودية والكوكيم Kokim، والكوّات في المدافن مثلما هو موجود في وديان بيت جبرين. فهي تكاد لا تحصى وتشير

الى كثافة سكانية سابقة. وهناك كذلك الممرات ذات العقود والتي تحتوي في جانبيها على مئات وقل آلاف الكوّات للجرار التي تحفظ رماد الموتى. ولكن يبقى فوق ذلك كلّ تلك السرايب القائمة تحت الأرض، الاضخم من نوعها في فلسطين كلّها، والتي لا نعرف أصلها او الغاية منها، وهي تحتل أسفل التلّ بكامله. ومداخل تلك السرايب هي الاكثر تعقيداً وصعوبة، وربما كان روبنسون، في حدود علمي، هو أول من اكتشفها. ورغم ان هناك الكثير مما يدعم رأي كابتن كوندور في اعتبار بيت جبرين في موقع غاث القديمة؛ إلا أن ما نراه في بيت جبرين من أدلة مناقضة يستحق التوقف والمراجعة. ولكن ومهما كانت هوية هذه السرايب فهي تغري بالزيارة والوصف. فعلى مسافة حوالى ميل واحد من البلدة، يقوم تحت تلّ سندانته Tell Sandannah نظام واسع من الانفاق الاصطناعية المتصلة. ولا يمكن المجازفة بالدخول اليها من دون قناديل وحبلٍ وادلاء مجرّبين. فالمدخل عامودي وحاد جداً مع ادراج ملتفة تصل بك الى الأسفل. وفتحة المدخل مموهة بالأغصان في شق وسط الصخور. وحينما تدخل تجد نفسك فوراً في ظلمة حالكة، فنضئ مشاعلنا ثم نزحف على الأربعة في ممر ضيق. ويوصلنا ذلك الى كهف كبير، ذي سقف مقبب، يبلغ ارتفاعه حوالى ستين



شبكة سرايب تحت الأرض في تل السندانة
(بيت جبرين)

قدماً ومن دون أي فتحة في السقف. دخلنا عند أسفل الكهف وزحفنا فوق بضع درجات ترتفع عند جانب منه الى ما يقارب نصف ارتفاعه زحفنا من هناك في واحد من شبكة ممرات ضيقة أوصلنا الى كهف آخر مقبب لكنه أصغر حجماً، وبين الكهفين غريقات صغيرة محفورة في الصخر وشبكة من الممرات تتفرع في كل اتجاه. ولا يبدو أن هناك نظاماً معيناً يحكم هذه الشبكة. وأمكن لنا زيارة ستة كهوف كبيرة مقببة، وبقي الكثير غيرها وهو يحتاج الى مهندس مناجم متخصص لسبر غورها وكشف خباياها. كانت السلالم المحفورة في الصخور تصل بعض الكهوف عند السقف ثم تهبط الى الأسفل. ولم يكن هناك مخرج في أسفلها. لا شيء سوى طين جاف قاس او بعض الماء الذي تسرب الى الداخل وتجمّع هناك. ومن غير الممكن ان تكون هذه الكهوف خزانات ماء، وليست مدافن بالتأكيد. وليس هناك نظام إضاءة من فوق، كما لم نعثر على اي نقوش أو كتابات. وسقوف بعض الكهوف الصغيرة مدعوم بدعامات من الصخر تركت واقفة في أثناء الحفر. وليس هناك مستوى واحد للقاعات وللغرف، فالكُل قائم في شكل غير منتظم. أما كيف امكن حفر تلك الكهوف المقلدة فمسألة أخرى. ويحتمل أنه كان هناك فتحات في وسط الكهوف ثم جرى سدها بأحكام بعد انتهاء الحفر. وما من مكان آخر في سوريا او البتراء في حدود ما أعرف، يحتوي على مثل هذه المتاهة تحت الأرض. من هم أولئك الحفّارون؟ وما كانت أغراضهم؟ أسئلة لا نملك في الاجابة عليها سوى التخمين. لا نعتقد أن أولئك هم من الهوريّتين Horites، ولا هم سكّان الكهوف الاوائل، ولا أوائل الكنعانيين، فقاعات هذه الكهوف أكثر تعقيداً وتحتاج الى مهارات غير متوفرة عند أولئك البدائيين. ولكن، وعلى سبيل الاحتمال، فقد استمر الايدومينز Idumoeans بعد ذلك بفترة طويلة يسكنون الكهوف كما كان يفعل الأروميون، سكان البلاد الاصيليون. ولعلهم قد استقوا هذه العادة عن أجدادهم فقاموا، قبيل الحقبة الماكابية بقليل. عندما كانوا يحتلون البلاد وقبل ان ينتصر عليهم جون هيركافوس، يحفر باطن هذا التلّ طلباً للأمان وبالنظر لطبيعة صخره اللينة وانتهى الأمر الى تلك الشبكة المعقدة من الانفاق والتي يستحيل حفرها في صخور بترا الغرانيتية.



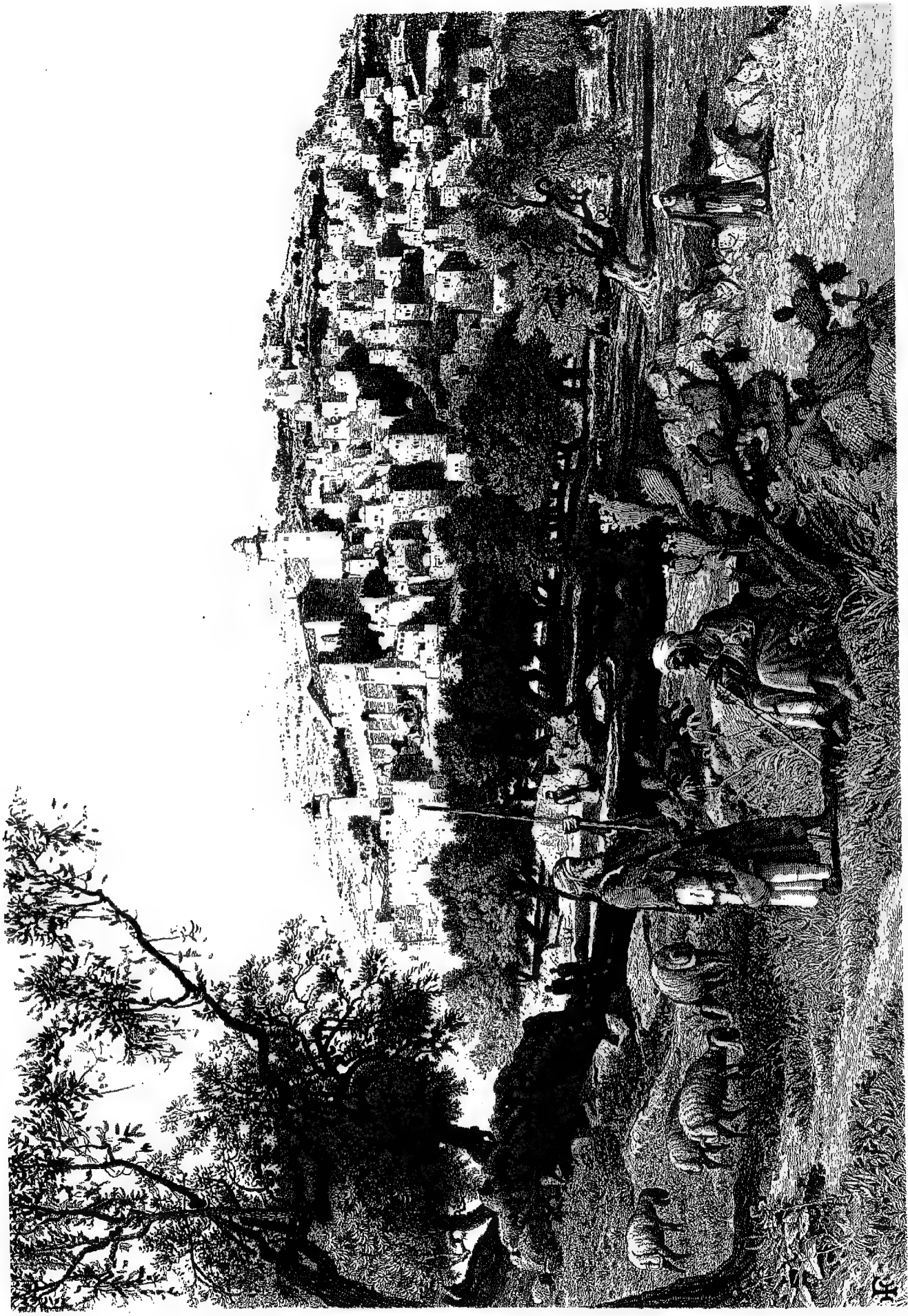
كنيسة سانت آن بيت جبرين
يدعوها العرب الكنيسة وتقوم على علو ١٠٧٢ قدماً فوق سطح البحر
بمواجهة تل السندانة (سانت هنا) وكانت كنيسة بيزنطية أعاد
الصليبيون تحصينها.

وتقوم عند منتصف الطريق بين هذه الكهوف وبيت جبرين آثار مهمة، وهي بقايا إحدى أجمل الكنائس البيزنطية في فلسطين، وهي على اسم القديسة حنّي، أو سانتا آن. ولا يزال الطرف الشرقي من الكنيسة مع نتوأتها الضخمة سليماً، وكذا القواعد وبضعة صفوف فوقها سليمة بالكامل، مما يجعل طول قاعاتها يصل إلى ١٢٠ قدماً. ويذهب جداران في اتجاه قوس النتوء، وكل منهما يبلغ الستين قدماً طوياً، مما يجعل إتساع البناء يصل إلى أكثر من ١٥٠ قدماً، وعند الطرف الغربي هيكلان، مساحة الواحد منهما ٧٥ قدماً × ٢٥ قدماً، مع نتوأت موازية لقاعة الصلاة. وكان الصليبيون، أولئك البناة الرائعون، قد غيروا قليلاً من تصميم المبنى، ويحتمل أنهم وجدوه مهدماً على نحو جزئي. وقد اضافوا دعائم لتمتين جدران القاعة الكبرى ولدعم الأقواس الحادة. والمنطقة التي تلي القوس المركزي مازالت تحتفظ بسقفها كاملاً، إلا أنه أدنى بعشرة أقدام من قبة القوس البيزنطي ذي الحجارة الرائعة والتصميم الرائع، والذي لم يخرج فيه حجر من مكانه. ومظهر الكنيسة الأمامي مع سقف القاعة عند الطرف الشرقي مختلفان قليلاً. والفارق بين البناء البيزنطي والبناء الصليبي جدير بالدرس والمتابعة.

وفي طريقنا من كنيسة القديسة آن الى القرية نمر ببضعة كهوف، بعضها مقبب واسع، مثل تلك التي وصفناها قبل قليل، ولكن جميعها مفتوح اليوم. كذلك فان أجزاء من السقوف فيها قد إنهارت، كما أن الكثير من القباب فيها فتحات من أعلى يبلغ قطر الواحدة حوالي ٦ أقدام، وكأنما هي معدة لتكون خزانات ماء. وهناك نقوش، بعضها عالٍ جداً، لكنها ممحوة جميعاً. ولم نعث على كتابات يونانية او لاتينية وانما عدة إشارات مسيحية تشير إلى أنها تعود الى ما قبل الغزو السراسني على الأقل. والجدران من الداخل عامودية ومشغولة باتقان، وقد تركت دعائم في بعض الاماكن لدعم السقف، كما أن هناك نتوءات في اثنين او ثلاثة منها كانت تستخدم كمعابد. وفي واحد منها فقط أفريز صغير بشكل ترأس يمتد على كل جانب تحت السقف بقليل. وفي وسع المرء ان يقضى أياماً كثيرة في استكشاف خبايا كهوف بيت جبرين، وانما اتجهت في التلال فالأرض محفورة كقفير النحل.

وبدل أن تتجه مباشرة من بيت جبرين الى حبرون في طريق لن تجد فيها الكثير من المواقع التاريخية نلتف شمالاً في رحلة تستغرق نهائياً كاملاً لنزور «وادي السور»، القسم الأعلى من «وادي البطم» حيث اكتشف مؤخراً كهف Adullam (الآدمية) وخيله Kheila. وإينما تجولت في المكان فستجد آثاراً وبكثرة. ويقدم تقرير كابتن كوندور ان هناك ثلاث مواقع أثرية، كمعدل عام، في كل ميلين مربعين الدليل على الكثافة السكانية التي كانت موجودة سابقاً في المنطقة. ونتسلق الطريق الى حبرون صعوداً، فهي تعلو ٢١٠٠ قدم فوق سطح البحر كما أننا نعبر في الطريق اليها أماكن تعلو ٣٠٠ قدم أكثر من ذلك. ويمر الطريق في نحو ميلين قرب الطريق الروماني القديم الذي يوصل الى اورشليم، وبين غابات زيتون ساحرة، ولا يزال الطريق في أماكن معينة سليماً وكما كان. وتدخل الطريق بعد ذلك في وادٍ ضيق، الى جانب الطريق والقناة الرومانيتين وبين شيرين صخريين حادين يطبقان علينا من كل اتجاه. ثم نتحول شرقاً في متهمة من الأودية الصغيرة قعرها مزروع دوماً بالحنطة، إلا أنك عاجز عن النفاذ منها دونما خارطة ودليل فهي تتقاطع وتتداخل باستمرار، ولن تجد على طول الطريق ساكناً واحداً ولا فلاحاً في حقل او حتى عربياً يتجول. وبعد مسيرة ثلاث ساعات بين هذه الودايا الصخرية الصغيرة، والتي بدأت سنابل قمح خضراء تعلو مساحات فيها، نجد أنفسنا مباشرة أمام تلٍ دائري الشكل وعلى مقربة من النقطة التي تنشط فيها الوادي الى فرعين. جوانب التل مزروعة بالكهوف. وللمرة الأولى خلال هذا النهار تلمح نساء وأطفالاً أمام هذه الكهوف أو المغر. إنها قرية ساكني المغر. ويخبروننا بعد استراحة قدمت لنا فيها القهوة ان التل التالي هو «تل الآدمي»، فنكمل طريقنا في وادٍ منعزل تقوم على جانبيه تلال صخرية بنية جميلة تكسوها نبتة مريم وشقائق النعمان مع عدد لا يحصى من الكهوف والمغاور. ويبدو امامنا «تل الآدمي» يغطيه عشب أخضر وتقوم فوقه آثار على علو منخفض. وهي آثار «خربة الآدمي» او بقايا مدينة أدلام Adullam القديمة ونتسلق التل ونجد فوقه، وقبيل القمة التي تطل على الجانب الشرقي، مزاراً دينياً صغيراً مدهوناً بالأبيض هو مقام النبي مذكر. ونجد المنظر من التل جميلاً، حيث يمتد أمامنا وادٍ جميل (وادي السور)، والقسم الأعلى من وادي الإله، أرض سمسون والأودية التي كانت مكان تطواف داود وتجوالة. وينتشر هنا وهناك شجر البطم، إلا أن واحدة منه تبدو غير اعتيادية وتنشر ظلاً واسعاً في الوادي. أما الجانب الآخر فتلال جرداء. وبالقرب من مقام الولي كهف له فتحة منخفضة، حسن التصميم لإخراج الدخان منه ولا يزال مسكوناً. لا يرتفع الكهف كثيراً، إلا أنه متسع جداً من الداخل والكثير من شعبه أو فروعه مبنية، وهناك فتحة في سقف أحد هذه الفروع. لقد كان هناك بالتأكيد مكان هنا للاجئي داود الاربعمئة. ومدخل الكهف مطل على منظر جميل، كما أنه آمن ضد عنصر المفاجأة او المباغته، وهو موقع مثالي للإغارة منه على العابرين في الوادي، والمسافرين نحو السهل الفلسطيني او العائدين منه.

تركنا تل أدلام وأخذنا الطريق التي توصل الى حبرون وتمر بمحاذاة وادي السور. وترتفع في الوادي، عند اتصاله بوادٍ آخر، شجرة لعلها الأكبر في فلسطين Emek Elah - «شمخ البطم»، وتعطي الوادي اسمها أحياناً. وتبدو الشجرة من بعيد وارفة منتشرة الأغصان، والوادي وادي البطم. ويمكن تتبع بقايا طريق قديم، سابق للرومان، يتدرج من الوادي صعوداً نحو حبرون بعدما يمر بكيلا Kheila وحراس. والوادي بعد ذلك ضيق، يعبره مجرى ماء عرضه بضعة أقدام، كما تغدو جوانبه حادة أكثر وتسمح بالكاد لعبور او لعنزة ان تتسلق درجاته الصخرية المكسورة. وعلى الطريق بضعة آبار مياه تستظل شجرة هنا أو هناك، ولا يزال بعضها يطفئ ظمأ العابرين الى اليوم. وتقوم فوق بئر من



حبرون (الخليل)

هذه الابار آثار «كيلا» Kheila ، التي تبدو اليوم منفرة وقفراً بعدما كانت يوماً مركز قيادة لداوود، ثم مدينة مسورة بعد ذلك. فالمكان موقع طبيعي ملائم وفي وسع بضعة اشخاص فقط إشغال ذلك الممر.

ولا يستوقفنا باقي الطريق الى حبرون كثيراً؛ فإلى اليمين حراس Hhrass وتتدرج الطريق صعوداً لتبلغ سفح جبل له شكل غير منتظم وذلك على بعد حوالي ستة أميال شمال شرق حبرون. تذهب الطريق في السفح بين الهشيم والمراعي ومساحات واسعة مزروعة بالكرمة مع القليل من الزيتون وشجر التين. وندخل بعد ذلك ما يعرف بوادي اسكول Escol ، رغم أن اسكول الفعلية هي على مسيرة أيام جنوباً قرب قادش بارنيا *Kadezh Barnea.

وتبدو، حيمان تقترب من حبرون Hebron، وإلى اليسار من الطريق الممهدة والمسورة، بوابة واسعة تقود عبر حقول من الكرمة الى بناء كبير هو النزل الروسي، الذي أقيم في محيط شجرة ضخمة قديمة، تعرف تقليدياً باسم سنديانة ابراهيم وهي ليست من البطم وإنما من السنديان الذي يبقى أخضر طوال فصول السنة. وهي لثلاثمائة عام أو يزيد مزاراً للحجاج باعتبارها سنديانة ابراهيم. أما سنديانة راميت أو مامر، في مكان آخر، فهي ليست من السنديان بل من البطم. عاشت السنديانة تلك رشحاً طويلاً من الزمن، وهي ستستمر كذلك ربما، إلا أنها تنحدر تدريجاً نحو العجز، وقد فقدت أخيراً نصف اطرافها. تنشر شجرة ابراهيم ظلها في مساحة يبلغ محيطها حوالي ١٠٠ قدم، أما قطر جذعها فيبلغ ٣٢ قدماً وارتفاعها فوق الأرض ٦ اقدام.

ونصل بعد ميل واحد الى حبرون، أو قل أمامها، لأن الطريق تعود فتذهب في ضاحيتها، «الشيخ»، في حضن هضبة، ثم تمر الى الجنوب من الحرم بالقرب من المدافن المحمدية، فيما برك حبرون تحتنا وأمانا الجامع الشهير يرتفع خلف أبنية المدينة. ورغم أن حبرون هي أعلى من أي مدينة أخرى في فلسطين، إلا أنها من المواقع القديمة القليلة التي لم تكن على تلة وإنما في حضنها. وربما امتدت المدينة القديمة أكثر قليلاً نحو الشمال الغربي، إلا أن البرك والحرم يبقيان المدينة ضمن الحدود التي كانت لها، تقريباً. وتمتد جنوباً وغرباً، خارج حبرون، مراص واسعة تحفّ بها تلال يكسوها شجر الزيتون. أما الأثر الأهم الذي يميز حبرون فهو سور الحرم الكبير. ويبلغ السور ٢٠٠ قدم وهو يحيط بكهف ماكفيل Macphila مدفن ابراهيم وأسرته لثلاثة أجيال. يقوم الحرم على مرتفع عالٍ وربما كان قبل المدينة التي يقال أنها إحدى أقدم المدن في العالم، قبل زاون، أو تانيس القديمة بسبعة أعوام (وهو أمر لا يمكن الجزم فيه) وفي ما يماثل شيثم دمشق. وتقوم أهمية حبرون لا لتاريخها القديم وحسب وإنما لاحتوائها كذلك أهم الأماكن المقدسة الموجودة في «الأرض المقدسة» وأكثرها موثوقية في آن. وكان قد دار نقاش حول تاريخ السور. فهو بالإضافة الى ارتفاعه وضخامته، عمل معماري رائع بحسب تعبير جوزافس «مبنى من الرخام الجميل وعلى نحو متقن ورائع» وحجم بعض حجارتها ضخمة: إذ تبلغ أحداها ٣٨ قدماً طولاً و ٢ / ١ / ٣ ارتفاعاً، منحوتة على نحو متقن؛ وتحمل حجارة السور كلها الطابع اليهودي الحقيقي من حيث الأطراف الدقيقة، الواسعة، القليلة العمق والجميلة. ويدعم الحائط الطولي ١٦ دعامة وثمانية دعامات للحائط الأقصر. ورغم النقاش والنقد للذين أثيرا أخيراً فلا يمكن أن ينسب ذلك البناء الى ما بعد عهد سليمان. لقد اقيم البناء في عهد جوزافس الذي تكلم عنه مطولاً وباعجاب. فلو كان من عمل هيرود Herod، بطله الدائم، لكان جعله له بالتأكيد، كما يفعل في أعمال معمارية أخرى. وطالما أنه قديم فلا يمكن أن ينسب الى ما بعد الحكم العبري، إذ يستحيل على الامة المنبثقة من جديد أن تعيد بناء مثل هذا العمل الضخم والمكلف، وهو ينسجم مع ما نعرفه عن عهد سليمان. ليس هناك في الواقع ما يكفي من حجج لرد التقليد اليهودي وغير اليهودي السائد بهذا الخصوص لأكثر من ٢٠٠٠ عام.

وسيكون مستغرباً أن يكون صاحب هذا الانجاز واحداً من أمراء هيرود Herod، لكلفته العالية ولمخالفته طابع انجازاتهم الأخرى ذات النمط الروماني والموجودة في غير مكان. وسيكون أكثر غرابة أن ينسب الى أي معماري بيزنطي في الوقت الذي لا يحمل فيه أي من ملامح العمارة البيزنطية، لا في تفاصيلها ولا في زخرفتها - لا شيء سوى بساطة مؤثرة جداً.

*ربما تكون القدس البركانية (م)

وهناك سور سراسني حديث حول السور القديم ومثذنتان عند الزاويتين الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية أضيفتا في وقت لاحق، والمدخل اليه عبارة عن درج حجري والدخول ممنوع على المسيحيين، ورغم اننا تمكننا من تجاوز أمر المنع ذاك الا أنها مخالفة ومغامرة لا تخلو من المخاطر. ولم يتمكن من دخول السور في السنوات القليلة الماضية غير بعثتين ملكيتين او ثلاث، وكانت الاولى لأمير ويلز سنة ١٨٦٢، ودين ستانلي، وله ندين بدخول المكان. وكانت تقوم كنيسة بيزنطية خارج السور الأول وفي الفناء الذي كان خالياً من أي عمارة في عهود السور الاولى. ثم حوّل البناء الى جامع بعدما أزيلت اقواس الكنيسة. يحتل الجامع ثلث الفناء الداخلي، وفيه مدافن وليس أضرحة، للأنبياء الأول الذي يملأ رمادهم الأرض في الكهف. ومزارا ابراهيم وسارا خارج الجامع، أما في زوايا الجامع من الداخل فهيكلي قبري اسحق وريبيكا، ويعقوب وليه Leah، والقبران منفصلان في مزارين متقاربين، كما أن هناك في الخارج غير بعيد عن السور، ما يقول المسلمون انه قبر يوسف الذي نقل حسب قولهم، من شيشتم الى هنا. وهناك جامع على الجانب الشمالي والذي سمح لنا بالصعود الى سقفه حيث أمكن النظر من فوق الى مزارين آخرين ليعقوب وليه. أما الدخول الى الكهف نفسه فأمر لم يسمح به لأحد حتى الآن. وهناك فتحة عند زاوية ضريح ابراهيم كانت كما يبدو مدخلاً للكهف نفسه، لكنها مقفلة منذ قرون. وإذا أمكن الدخول فلن يكون هناك غير رماد او غبار اولئك الأنبياء. ولكن وبما أنه قد تم تحنيط يعقوب بكل مهارات المصريين ومنزلته السامية فمن المحتمل، ولا ندرى مدى دقة هذا الاحتمال، أن يكون صندوق التحنيط مازال كما هو، فما كفيلا لم تصل الى ايدي أخرى غير تلك التي أحببت الانبياء وأخلصت لهم. لم يتولّ امر المكان غير اليهود والنصارى والمسلمين وهم يعرفون تماماً قدسية المكان، اما في خلال الحكم الروماني فقد جرى إخفاء المنافذ بإحكام. ويمكن الافتراض بالتالي ان هذه الاماكن المقدسة ظلت سليمة ولم تعبت بها الايدي طوال أربعة آلاف عام.

ويبقى اثر عبري آخر بارز في حبرون وهو البرك او الخزانات. وهما في الواقع بركتان، أكثرهما أهمية هي تلك التي في الاسفل، وهي مربعة الشكل قديمة البناء من حجارة كبيرة حسنة التشذيب مساحتها ١٣٢ قدماً مربعاً وعمقها في نحو خمسين قدماً وماء البركة لا ينضب، إذ تغذيها بالماء كما يبدو اقنية تقوم تحت الأرض، وتغذي كذلك بركة أخرى تعود الى العهد نفسه، لكنها أصغر حجماً، وتقوم عند الطرف الشمالي من المدينة. وقد علّق داوود على البركة السفلى، بحسب التقليد، قتلة خصمه ايسبوشث Ishbosheth، مقدماً من العدالة الحازمة ما يندر ان تراه في صراعات الملوك الشرقيين.

ويقدم تاريخ حبرون - خلا فترة السبع سنوات ونصف والتي كانت خلالها عاصمة مملكة داوود الجنوبية وقبل أن يمكّنه سقوط ايشبوشث من توحيد اسرائيل في القدس - أحداثاً نادرة تستحق التأمل منذ أيام ابراهيم مع ذكريات تخص المحيط بكامله. ويتصل الأثران اللذان رأيناها، الحرم والبرك مباشرة بذلك الزمن. أما بالنسبة الى اليهود تحديداً فالذكرى أكثر حدة ومرارة. فبالقرب من حبرون وفي مكان ربما كان أكثر قداسة من ماكيلا نفسها - حيث كان ابراهيم ينشر خيمته تحت سنديانة مامر مناجياً الله ويتلقى منه الوعد له ولذريته - تعرض اليهود في بيثر Bether بعيد هزيمة تمردهم الى قمع شامل على أيدي الامبرطور هدرين الذي بعث بعشرات ألوف اسرى اليهود الى اماكن الاستبعاد عدا الذين أرسلوا الى الموت.

وتقع مامر Mamre، او راميت الخليل كما تدعى اليوم، على بعد حوالى الميلىن شمال حبرون والى اليمين من طريق اورشليم. كان ذلك الطريق رومانياً يوماً ما، وكان حسن الرصف ممهداً، وكذا كان ربما في ايام سليمان المجيدة، إلا أنه اليوم اسوأ بكثير حتى مما كان عليه يوم كان ممراً جبلياً. كان ابراهيم يمر فوقه لزيارة اصحابه في حبرون. وكان المكان ضمن سلطة جيروم ومن المؤكد أنه كان معورفاً جداً في أيامه، وكان المكان على الدوام في نظر اليهود بيت



راميت الخليل موقع مامر.
مكان خيمة ابراهيم، وتعرف أحياناً «ببيت خليل».

ابراهيم. لاشيء يشير الى المكان حتى تصل اليه: هناك فقط سهل صغير يمتد حتى اقدام التلال على بعد نصف الميل دونما شجرة او أبنية خلا بعض السياجات الخربة ومساحات صغيرة مزروعة بالخضار. ونجد بضعة آبار ماء عميقة، ثلاث منها حسنة العمارة والتغليف بالحجارة ومن الواضح أنها قديمة جداً. وحول أكبرها جانبان متعامدان من سور لم يستكمل طول أحدهما ٢٠٠ قدم، والثاني ١٦٠ قدماً، ومبنيان من حجارة ضخمة لكنها غير دقيقة الأطراف.

لم يبق من الجدارين غير صفين من الحجارة بارتفاع ثلاثة واربعة اقدام على التوالي. ويصعب معرفة الغرض الأصلي من البناء الذي كان يشاد هنا، اذ لم يتبق منه غير آثار قليلة ويستبعد ان تكون الباسيكا التي انشأها قسطنطين، اذ تقوم ابعد قليلاً صوب الشرق اثار كنيسة بيزنطية ضخمة كانت في المكان. وربما كان سوراً لشجرة بطم ضخمة كانت قبل قسطنطين مكان عبادة للمسيحيين ومن قبلهم للوثنيين، والتي قام هدوريان في ظلها ببيع أسراه اليهود. لقد كان في المكان شجرة بطم ضخمة ظلت قائمة حتى أواخر القرن الرابع، وهي التي يعتقد تقليدياً أنها كانت تظل خيمة ابراهيم، وربما كانت هي الأصل. وتستحق قمة التلّ الواقع على طرف السهل الزيارة، إذ يبدو المنظر منها آخاذاً ومشرفاً على مساحة واسعة، كما أن فيها آثار بلدة قديمة. إلا أن المواقع الصحيحة لمدن السهل القديمة عبر طرف البحر الميت الشمالي تبدو محل أخذ ورد. فالتلّ هذا الذي كان، او يجب ان يكون كذلك، فوق مامر حيث كان يلجأ ابراهيم؛ وحيث رأى دخان المدن في السهل يتصاعد كدخان آتون. والمنظر مقفل صوب الجنوب بسبب تلال قريبة عالية، وبخلاف ما هو عليه الحال شمالاً حيث يمكن تتبع جزء من القسم العالي للبحر الميت، هضبة يهودا والافق البعيد المعتم لجبال موآب Moab وبعيد يغدو سهل الأردن نفسه محجوباً عن الرؤية. ويمكن اليوم ومن اعلى التل مشاهدة اي دخان ينبعث من أي مكان في السهل وهوية التلّ بالتالي لا يرقى اليها الشك.

كذلك هناك في مكان قريب مزار آخر يستحق الزيارة هو مقام النبي لوط في تلّ عالٍ، تل بني نعيم على بعد خمسة أميال جنوب رامة Rameh، حيث يعتقد المحمديون أنه قبر النبي لوط Lût. وهنا وقف ابراهيم كما يروى، متشفعاً

لسودوم Sodom . والمنظر من أعلى الجامع جميل . وهو يطل على مناطق شاسعة بين الاردن والبحر المتوسط، ويمكن منه رؤية كامل الطريق الذي يصعد باتجاه رامه او حبرون . ولعله أحد أعلى المرتفعات الجرداء في هذا الجزء من البلاد . وتطل منه على المنطقة المحيطة بحبرون ولكن ليس على حبرون نفسها؛ ورغم أن المشهد مقفل شمالاً لكنه مفتوح على اتساع صوب الجنوب والجنوب الشرقي وفي وسعك أن ترى منه كامل البراري الجنوبية ليهودا تتدرج نزولاً، وبقوة، من كرم النابال Nabal's Carmel البعيدة ببرجها، والتي تبعد سبعة أميال جنوباً، وتشكل كما يبدو سهلاً متدرجاً وليس أودية كما هي بالفعل .

ويمكن كذلك تتبع الجبال الواقعة شرقي البحر الميت من هشابون heshbon المجاورة جنوباً، كما يمكن رؤية البحر الميت في فتحتين الاولى عبر انجيدي Engedi والأخرى للسان الرملي فيه . وحين يعتبر الحمديون المكان مقدساً فهم انما يحافظون بذلك على تقليد مسيحي، فالمرتفع هو بالتأكيد كفر باروكا kcaphr Baroucha جيرم، الذي زارته باولا باعتبارها المكان الذي التقى فيه ابراهيم بالرب . أما القرية نفسها فهي مبنية بالحجارة وحسنة العمارة، وفيها بعض الآثار ومحيطها محروث على نحو جيد، وهي عملياً على أطراف المناطق الزراعية .



وادي بيركا Berachah .

وادي النعمة لجيهو شفاط وعلى الطريق بين تكوا وطريق حبرون بيت لحم وفي البعيد خلوات البركة وهي اثار تعلقو ٢٨١٥ قدماً فوق البحر.

ويجب عدم الخلط بين باروكا Barouch وبيركة Berchah (Chronicles, xx 26) قرب تيكوي Tekoa وحيث ركع جوشفاط وجيشه يقدمان الشكر للرب الذي بعث الاقتتال بين الجيوش المتحالفة لآمون Ammon ومواب Moab وايدوم Edom وقبل أن تلتقى جيشه، والاسم الذي يعطونه للمكان هو «وادي البيركة»، والاسم الذي يستمر الى يومنا هذا، وادي البركي، وهو واد واسع يقع بين تكوي وطريق حبرون - بيت لحم. وهو لا يقع على طريقنا مباشرة وانما يمكن زيارته باتباع الطريق الروماني شمالاً الى ما قبل ثلاثة أميال من برك سليمان، او بمتابعة

الطريق الجبلي فوق الهضبة حتى تكوا ثم الانحدار مباشرة الى بركي. وتقوم غرب الهضبة منطقة زراعية، بينما المنحدرات الشرقية جرداء في شطرها الأكبر مع مراعى تخص عرب التعميرة، وهي مكان مثالي لاصطياد الغزلان والماعز البري وسواها.

ونصل بعد خمسة أميال من وادي بريكي الى تكوا بعدما نعبر سهلاً صغيراً تحيط به تلال ويسمى بقعة التكوى (او التقوى). ويرتفع أمامنا تلٌّ على بعض طول في أسفله ينبوع ماء وعلى أعلاه آثار. والاسم لم يتغير كثيراً فـ تكوا Teku'a هي امتداد لـ تكوا Tekoa القديمة، وكذا طبيعة المنطقة مجرد مراعى موسمية، جرداء من دون شجر. ونفقد هنا مظاهر المدرجات القديمة التي كانت من على جوانب التلال المتدرجة في كل منطقة مررنا بها وتتناثر على نحو نادر بقع خصبة في قعر الاودية. ولكن التربة جافة وصلبة كذلك مملكة النبات التي كانت تغطي الهضاب الوسطى، وان بنسب

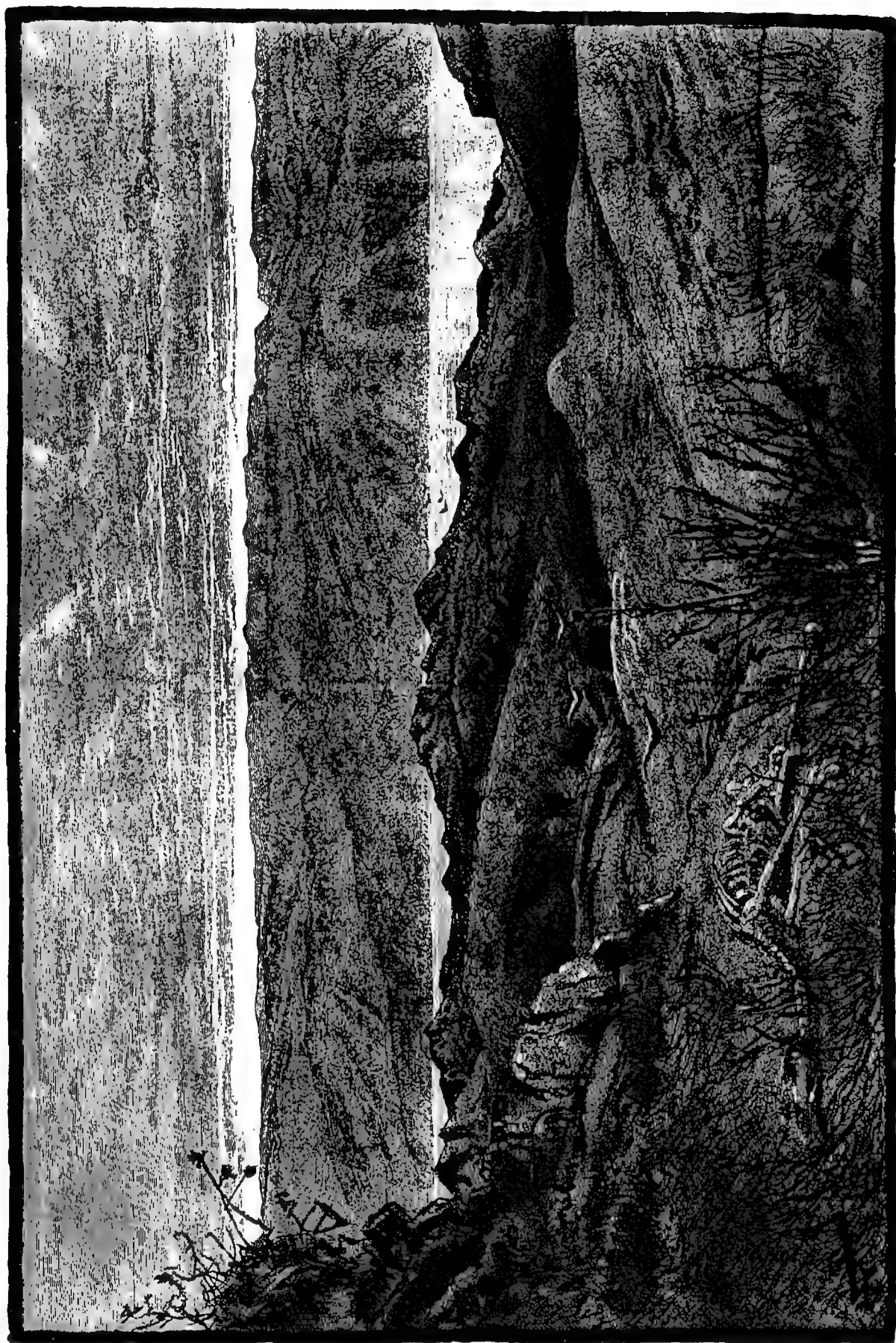


قليلة ويقوم بدلاً منها صخر
كلسي معدني لا أثر للمياه فيه.
وليست النباتات تلك في الدرجة
الاولى غير بعض أثر الغابة التي

كانت في الأزمنة الاولى تغطي كامل منطقة جودا
وجبال الجليل، غير انه ما من أثر لها على المنحدرات
الغربية باتجاه البحر الميت. وهكذا تقف تكوا على تخوم
الحضارة. ورغم ان تكوا هي مدينة، محصنة قوية،
بالنظر لموقعها الاستراتيجي وباعتبارها مركزاً متقدماً
على ممر إنجيدي Engedi، ومع ذلك فهي غير محروسة
بآثار قمم المرتفعات التي كانت تحيط عادة بالحصون.
قامت البلدة وسط منطقة بدوية سكن اهلها الخيام،
مثلما يفعل أحفادهم اليوم من أبناء عرب التعامرة. اما

منظر لآثار كنيسة بيزنطية في «تكوا»

كونها مخفراً امامياً فيتضح من الكلمات: إنفخ البوق في تاكوا واضرم إشارة النار في بيت هكريم (أي في جبل الصرح
وهي القمة التي تقوم امامنا لجهة الشمال). وقد قام راحبوم Rehoboam بتحسين تكوا وجعلها أحد أقوى حصونه
الحدودية. ولم يبق من ابنيته الضخمة الا القليل، الا أن فيها اثراً تعود الى الحقبة المسيحية وأهمها اطلاقاً الكنيسة
البيزنطية مع أعمدة المذبح المكسورة وجرن كبير للمعمودية مشغول من صخر مكسي قاسي. وكانت سانتا سابا Saba
قد أسست ديراً في المكان، ثم سكن الصليبيون المنطقة بعد إخراجهم من البلاد وقبل ان يدمر البدو المكان من جديد.



براري جويتا (يهودا)

لكن أهمية تكوا لا تكمن فقط في تاريخها، وإنما في حقيقة كونها مكان ولادة النبي آموس Amos، صاحب قطع تكوا «وجامع التين البري» وحياته الأولى هي صورة من هذه المنطقة، واتسمت دعوته وكتابات بنزعة شخصية جذبت الكثير من المريدين والنقاد، من سانت جيروم، أب الشراح، ومن جاء بعده.

ومن تكوا الى إنجيدي* لا أثر لطريق عربات ولكن في وسعك ان تعبر مجموعة أودية تنتهي الى ممر، وادي حساسا، وادي الجيهار أو وادي الأريج. وكلها متشابهة في غياب ما يميزها، في خلوها من كل أثر لدراسة نتائج الطبيعة البرية، وخصوصاً النباتات البرية للهضاب العليا بالمقارنة مع تلك التي في الهضاب والسهول المنخفضة. ونهبط من تكوا التي تعلو ٢٧٨٨ قدماً الى إنجيدي التي لا تعلو أكثر من ٦٦٠ قدماً فوق سطح البحر، في منحدرات حادة. ورغم ان انجيدي لا تعلو كما رأينا أكثر من ٦٦٠ قدماً عن المتوسط فإنها مع ذلك تشرف على البحر الميت من على الشير الصخري القائم فوقها على علو ٢٠٠٠ قدم. ونشاهد على الطريق بقايا أبراج قديمة، هنا أو هناك، كانت عبارة عن محطات مراقبة، وربما كانت احداها «البرج - الساعة في البرية» برية جيروم Jeruel، والتي أشار اليها تاريخ جيهو شفاط (Chronicles xx). إلا أننا لم نجد لمفردة جيروم أصلاً في الإشتقاق العربي مع انه اسم المنطقة التي تقع بين تاكوا وانجيدي. اما حازيز Hazziz، شير زين، فلربما كانت تحريفاً لحاسيس إسم السفح الذي يقع قبل الممر.

ولا يبدو الممر متميزاً في شيء إلى أن تصل اليه. وهو عبارة عن ممر متعرج، محفور في الأساس، لكن الطبيعة أضافت اليه، اقتطع من جانب الصخر عند الحافة الداخلية وعلى شكل نصف دائري وليمتد كحبل رفيع متعرج الى نحو ميل ونصف الميل، في ما يشبه نعل حصان، يتدرج بهدوء نحو الشاطئ وليسلك من ثم واحة شبه استوائية. شكل الممر عبر التاريخ، ومنذ أيام شيدورلور وإبراهيم الممر الاجباري الذي كان الغزاة القادمون من الشرق والجنوب يدخلون هضبة جودا من خلاله. وهم يستطيعون الوصول الى إنجيدي من الشاطئ، أما بعدها شمالاً فيضيق الشاطئ الصخري حتى يكاد يتسع لموطئ قدم، وليس هناك من مداخل أو ممرات أخرى، وإذا أريد استخدام الانخفاضات الموجودة جنوب إنجيدي فان ذلك ليكلفهم عناء مسيرة طويلة عبر برية وعرة قاحلة ولا أثر للماء فيها، إلا في ما ندر. ولا تزال التجارة بين اورشليم والكرك تستخدم هذا الطريق وكذا الملح يجلب عبره من جبل اسدوم Usdum.

قليلة جداً هي المناظر المؤثرة التي تشبه مشهد البحر الميت بصفحة مياه الهادئة وجداره الشرقي الشاهق، فمن على قمة ممر انجيدي يمكن التقاط كامل مسافة تلك البحيرة في نظرة واحدة، بينما تحتجب التلال المقابلة وسط الضباب، والبخار المتصاعد من البحر فيجعل لون جوانب الجبال كحلياً شفافاً، والقمم تترنح بين الأبيض والأزرق الشفاف. إندفعا في الممر المتعرج نزولاً لأكثر من ١٢٠٠ قدم، حيث يبرز شق في الشير الصخري. ويغدو الممر ولمسافة الستمئة قدم الأخرى أقل إنحداراً الى أن يصل الى أسفل الصخر، حيث تنبعث عين ماء حارة وسط واحة من النباتات الاستوائية (ص ٢٠٣) «عين الجدي» تقفز كا الجدي من صخرة الى صخرة حتى تصل السهل في الأسفل. وتقوم على مستوى تفجر الماء من الصخر وما دونه آثار نظام ري دقيق يدور حول المدرجات الصخرية على غير مستوى في الايام التي استقدم فيها النخيل وقصب السكر والكافور الى الواحة. ولا تزال الواحة الى الآن موطن نباتات شاطئ البحر الميت وطيوره وحشرات الأكثر خصوصية وتميزاً. والكثير من شجر الكافور لا يزال موجوداً كذلك يكثر الصفصاف والسكالبيا، تحوم فوق أوراقها فراشات نوبية ذات ألوان غنية رائعة، بينما البلابل وعصافير الشمس تغط على الأزاهير اللامعة للبارازيت الهندي. وتبقى عين جدي المكان الحقيقي لأولئك الذين يودون اختبار بقايا مسادا، الحصن والمعسكر الروماني حوله، والتي يجب زيارتها باعتبارها تشكّل في موقعها وفي نوع عمارتها وتاريخها الآثار الأكثر تميزاً وأهمية على جانبي البحر الميت.

* اللفظة من «عين الجدي» القريبة.



وادي التفاح ويعرف ايضاً بوادي اشكول



سنديانة ابراهيم (حبرون) الخليل وهي من البلوط، كسر احد أغصانها السفلى بسبب الثلج في شتاء سنة ١٨٥٠، فقطع الى احمال ونقل الى القدس فكان حموله سبعة جمال وأرسل جزء منه الى انجلترا.

الحدود الجنوبية والبحر الميت

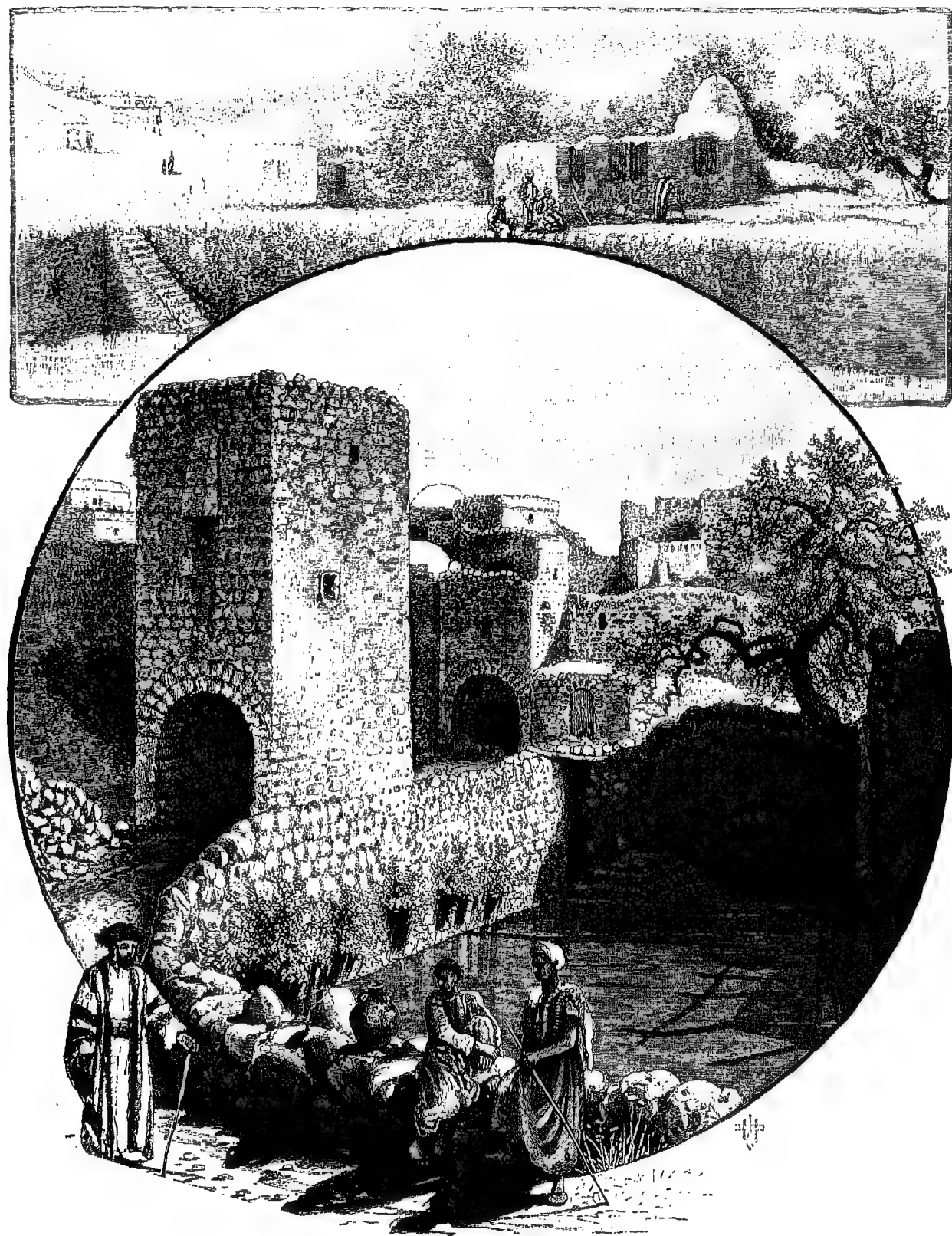
لا مكان آخر في جنوب فلسطين أكثر متعة للتخييم منه في الوادي الذي يقود الى حبرون، وادي التفاح، وبخاصة ايام الموسم وتحديداً في ظل سنديانة ابراهيم. وهذه الشجرة العملاقة، التي يبلغ محيطها ٣٢ قدماً ويدعم تاجها أربعة أغصان رئيسية طول الواحد منها ٥٠ قدماً، هي موضع إجلال باعتبارها امتداداً لسنديانات مامر Mamre، حيث خيم تحتها الأب حينما كان يسامر زائريه من الملائكة وحيث تلقى نبأ انه سيكون له أسحق، الابن الوعد. وتقف السنديانة تلك وسط مساحات من الكرمة الى الشمال الغربي من حبرون، وقد ابنتى الروس حول الجزء الأسفل من جذعها حائطاً من الحجارة، ولهم تعود ملكية الحقل الذي تقع فيه الشجرة. وتعرف الشجرة باسم «بلوطة السبت»، ويعتقد ان عمرها يناهز المئتي عام وكانت الافتراضات المختلفة قد وضعت هذه الشجرة في مواقع مختلفة. ويذكر جوزافس «شجرة بطم كبيرة جداً ما زالت قائمة منذ بدء العالم» وتقع على بعد ستة فراسخ من مدينة حبرون. ويضع القديس

جبروم مكانها في ما يعرف اليوم بـ «راميت الخليل»، الموقع التقليدي لمامر وحيث عثر على بقايا سور حجري ضخّم وجدار ضخّم وآثار أخرى؛ كذلك يتكلم سير جون ماندفيل على «بلوطة ابراهيم» Abraham's Oak الا انه يصفها «بالشجرة الجافة». ويكتب الرحّالة القديم: «وهم يقولون إنها كانت هناك منذ بدء العالم، وإنها كانت يوماً خضراء وإنها كانت تحمل أوراقاً الى حين مات ربنا على الصليب، فماتت وماتت كذلك كل الاشجار التي كانت موجودة آنذاك في العالم» اما البلّوطة الحالية «بلوطة السبت» في وادي التّفّاح، فهي خضراء نامية، ويتناسب الوضع الذي تحتله مع وصف الانجيل لمامر. وسيكون من المنطقي الافتراض أنها متحدرة من الغابة القديمة. والبلوط في العادة لا يتطور إلى أحجام ضخمة لأن الماعز تقضمه وهو بعدُ يانع، ولكن قد تنجو واحدة أسطورية فتبلغ حجماً ضخماً. وفي كل حال فإن عبادة الشجرة هو طقس ديني بدائي انتشر طويلاً. ويذكر الانجيل مرتين غابات في «أماكن عالية» وأماكن عبادة أخرى، ومعبد زيوس داندرايس في دودونا Dodona والذي كان شجرة بلوط. ويكتب مكسيموس تيريس عن دين الدردوس، حيث «صورة زيوس السلتي هي شجرة بلوط عالية». وكانت الغابات متصلة بعبادة الالهة الكذبة، وهكذا منع الاسرائيليون «من غرس اية شجرة قرب هيكل الرب» (راجع Deut 21, xvi) ونجد هوسيا Hosea (iv, 13) رغم ذلك المنع، ينعي ان الناس «ما زالوا يقدمون الأضاحي على قمم الجبال ويحرقون البخور على التلال وتحت شجر البلوط والخور والدردار». ويجب ألا يأخذنا العجب إن نرى الشجر المرتبط الى هذا الحد بالأحداث الأكثر قداسة في حياة «أب الجنس اليهودي» هي دائماً موضع إجلال أحفاده، وأن تبقى ذكرى المكان على الدوام وتغرس شجرة فيه رمزاً لهذا الارتباط الخاص.

وعلى مسافة نصف ساعة أخرى تقع حبرون، او كما تسمى اليوم «مدينة الخليل»؛ «خليل الله» وهو اللقب الذي يضيفه المحمديون على ابراهيم (سانت جايمنس ii, 23). قليلة جداً هي الأماكن التي تعادل، في فلسطين، قداسة هذا المكان. ففي هذا المكان اشترى ابراهيم من إفرون الحيتي Ephron The Hittite كهف ماكيبلا ليستخدمه مدفناً له ولأسرته. ومن حبرون أرسل يعقوب ابنه يوسف الى سيشم Sicheem عندما ألقى بالحالم في البئر من قبل أخيه وبيع الى المدينيين. وخرج يعقوب الكهل بعد ذلك الى مصر عن طريق بيرسبع والى هنا جلبت عظام الأب لترتاح قرب رفاة نسيبه. أهملت حبرون في عهد جشوا، وأعطيت ضواحيها الى كاليب Caleb. بينما جعلت المدينة نفسها ملجأ لأسرة آرون Aaron. لكن داوود وبعد مغامرات الشباب في براري يهودا عاد فاستقر في حبرون لسبعة أعوام ونصف، إلى أن انتقل، وبعد ما أصبح حاكماً على كامل أرض اسرائيل، الى اورشليم مقراً لحكومته. وذبح يعقوب أبner Abner على بوابات اورشليم، وعند برك حبرون أعدم داوود إشيوشيت ابن صول Soul. والى حبرون قصد المتمرّد أبسالوم «ليفني نذره» ويقدم الأضاحي الى هيكل يهوفا بعد نجاح تمرده ضد أبيه، فقد كانت حبرون وكما هي اليوم، الثانية في القداسة بعد اورشليم نفسها. والاسم القديم لحبرون هو «كريات أربع» أي مدينة الاربعة، وهم الالباء الأول ابراهيم، اسحق، يعقوب وآدم. لكن التوراه تحتفظ بتفسير مختلف حين تقول «وكان اسم حبرون من قبل كريات أربع، وكان أربع او أربا رجلاً عظيماً بين الأناكيم Anakims» (يوسف، xiv. 15).

لا تقوم حبرون وبخلاف معظم مدن فلسطين، على تلّ أو هضبة، وانما هي في الجزء الضيّق من وادي الخليل وهو امتداد لوادي التّفّاح. إلا أن البعض يظن أن المدينة القديمة كانت تقوم على تلّ الى الشمال الغربي من المدينة الحالية الحديثة: وربما اتفق هذا مع رواية الكتاب الذي يذهب الى أن ماكيبلا كانت «في حقل قبل مامر وكذا حبرون» ومن السهل بالتأكيد ان نتصوّر كيف تنشأ مدينة حول موقع مقدس، بينما المدينة الأصلية ربما تكون قد اختفت. ومحيط

المدينة خصب للغابة ونتاج الكرمة في الوادي الى زراعات أخرى وافر وطيب. ويحتمل أن الموقع الذي نبحت عنه كان



بركة الخليل (حبرون)
البركة الكبيرة تبلغ مساحتها ١٣٢ قدماً وعمقها ٢١ قدماً، وهناك درجات توصل الى قعرها في كل زاوية، والآخرى ٨٤ قدماً طولاً
٤٤ قدماً عرضاً، والمبنى فوق الكرنتينا.

قائماً على المسطح الجبلي جنوب يهودا، والذي يشكل اليوم جزءاً من «صحراء التيه» بينما كان في السابق خصباً كما فلسطين نفسها. ورغم أن المكان هو اليوم جرد مقفر بسبب النقص في المياه، فإن هناك آثار أعمال زراعية قديمة كبيرة، ومدرجات جنبات التلال مغطاة بركام غير منتظم مازال يدعى «تليلات العنب» وعنب حبرون ينمو في ثريات جميلة



مزار متهدم (حبرون)

البحر الميت، من انجيدي صوب الشمال الشرقي وكان يدعى بحر الملح؛ أو بحر السهل. لكن السائد الآن البحر الميت؛ ولم يذكر الاسم في الكتاب المقدس بل اضافته الكتاب الاغريق والرومان في القرن الثاني ويدعوه العرب احياناً بحيرة لوط.

وبأحجام ضخمة. والتقليد السائد هو أن أبانا نوح هو الذي زرع الكرمة هنا؛ وقبره على كل حال هو في ديورا Dura، أو دورا القديمة، غير بعيد عن حبرون لجهة الغرب.

تتألف حبرون من أربعة أحياء: «حارة الشيخ»، وقد دعيت كذلك نسبة لجامع الشيخ علي البكا، الجميل، والذي يعود الى زمن المماليك. حارة «باب الزاوية»، الى الغرب «حارة الحرم»، الى الجنوب الشرقي، و«حارة المشاركة» لجهة الجنوب ويبلغ عدد سكانها بين ٨ و ١٠ آلاف ساكن، خمسمائة منهم من اليهود. وهؤلاء هم الأجانب

الوحيدون الذين سمح لهم بالاقامة في المكان، وهم لا يمارسون تجارة أو صناعة، وإنما يعيشون على الإعانات التي يرسلها أخوانهم في أوروبا والتي يقابلونها بالدعوات والصلوات لهم في هذا المكان الخاص المقدس*.

وأول ما يقابلنا حينما ندخل المدينة هو مبنى الحرم الذي يشبه قلعة مربعة الشكل بأسواره المهيبة وحجارتها الضخمة، وتحيط هذه الاسوار بالجامع الذي يغطي اليوم كهف ماكفيل. وبحسب التقليد اليهودي فقد كان سليمان

*في حبرون معمل زجاج قديم ومهم ينتج زجاجاً ملوناً جميلاً كما ان فيها مغازل وانوالاً للسجاد بدائية.

أول من أنشأ الضريح، ثم أصلحه أثر Esther وأعادت الامبراطورة هيلينا ترميمه بعد ما كان هدم او آل الى الإهمال والخراب. وجدران الحرم في حبرون هي اكثر نماذج هذا النوع من العمارة كمالات في فلسطين كلها، وتبرز حتى الاجزاء القديمة من جدران منطقة الهيكل في اورشليم. لا تزال حجارة اسوار الحرم مصفوفة كما كانت، بعضها الى بعض. ولا تشي ظاهراً بهذا التاريخ، كما لا يلاحظ نمو نبتة واحدة بين حجرين. أما البناء الذي كان قائماً داخل الاسوار والذي يشغل مكانه الجامع اليوم فقد كان، بناء حجرياً مربع الشكل يشبه كعبة مكّة، وقد أشير اليه في «حجّاج بورردو» سنة ٣٣٣ ميلادية. وكان بنيامين التوديلي، وهو يهودي مثقف زاره سنة ١١٦٠، قد وصف «كنيسة القديس ابراهيم الضخمة» والتي كانت يوماً ما ضريحاً يهودياً، رغم أن أضرحة الأباء فيها قد اعيد بناؤها من قبل المسيحيين. وهو ينسخ عن لوح عبري الكلمات التالية: هذا هو قبر ابراهيم، أبينا، عليه السلام. وتلّف العتمة الجامع، من الداخل، ولا يضيئه غير ضوء يدخل من الجهة الجنوبية، إلا أن هناك قناديل كثيرة تضاء ليلاً نهاراً في محيطه وتلقي ضوءاً خافتاً على الزخرفات الذهبية والفضية القائمة على جدرانه. والدخول الى الجامع ممنوع تماماً الا على المحمدين، وقد أذن بزيارته بفرمان خاص صادر عن السلطان لأمير ويلز سنة ١٨٦٢، وللمركيز دي بوت سنة ١٨٦٦، ولولي عهد بروسيا سنة ١٨٦٩، ولأبناء امير ويلز في السنة الحالية ١٨٨٢.

وبين هذه جميعها، تبقى زيارة أمير ويلز الأكثر إثارة. وكان في صحبة صاحب السمو دين ستانلي، الذي وصف الحدث لاحقاً فكتب: «كان حاكم القدس ساراي باشا قد اتخذ، قبل وصولنا الى حبرون. كل التحضيرات والاجراءات التي تضمن سلامة رحلتنا. وكانت الطريق قبيل الوصول الى حبرون ولاكثر من ميل ملأى بالجنود على الجانبين. إلا أنه لم يكن هناك أثر للسكان المحليين، والذين كانوا يحتشدون عادة في استقبال مثل هذا الضيف، وذلك إما بالاكراه من قبل الحاكم او انه شكل من الاحتجاج الصامت. بلغنا مرجاً أخضر امام المدينة تقوم فوقه كرنيتنا. وكان ساراي باشا هناك في انتظارنا. وكانت الترتيبات تقضي ان يرافق صاحب السمو شخصان من المجموعة هما الأكثر معرفة بالتفاصيل التوراتية، مما يعني ان للزيارة هدفاً آخر غير مجرد الفضول، وأن لها غرضاً علمياً عميقاً. إلا أن الحاكم كان مخوفاً ليعطي الأمر بان يرافق الطاقم بكامله صاحب السمو، فكانوا سبعة أشخاص اضافة الى الامير، وظل الخدم بعيدين. بدأنا جولتنا سيراً على الاقدام، كل اثنين معاً يليهما صف من الجنود، ثم اثنان آخران وهكذا دواليك من بركة حبرون القديمة ثم صعوداً في شوارع البلدة الحديثة، ودائماً بين صفوف الجنود. لم نر وجهاً واحداً آخر، خلا واحد هنا عند نافذة، او آخر على سطح منزل مطل، وذلك بهدف المراقبة وتأمين أقصى درجات الأمان للموكب. لقد كان احتلالاً عسكرياً للمدينة، في الواقع. وبلغنا بعد طول مسير الزاوية الجنوبية الشرقية من حائط السور، وحيث كان الزائر جيلاً بعد جيل يدخل من هذه النقطة الى أحد اكثر الأماكن قداسة في الأراضي المقدسة.

«صعدنا بسرعة فوق الدرج الحجري وهو على انحدار واضح، فيما كانت صفحة الحائط من الداخل مصقولة كما الرخام بحسب تعبير جوزافس. وكان في وسعنا وقد بلغنا رأس الدرج الطويل، مشاهدة صحن الجامع فبدأ أنه أقيم على الجزء العلوي من المنحدر، وفوق مستوى المكان الذي يجب أن يكون فيه الكهف، اذا كان هناك من كهف اصلاً، وهكذا أصبحنا في الداخل وشاهدنا للمرة الأولى السور من جانبه الداخلي وهناك حائط أضيف في العهد المحمدي فوق السور اليهودي والسور من الداخل لا يرتفع عن سطح الأرض اكثر من بضعة أقدام. استقبلنا هنا خمسة أو ستة أشخاص مسؤولين كما في تقليد مسؤوليات الكاتدرائية المسيحية، لقد كانوا ممثلين للأربعين من الحراس المتوارثين للجامع.

«وعبرنا في الحال ممراً مفتوحاً الى داخل الجامع.

«... يحتل المبنى بكامله ثلث المساحة العامة للمكان...»

«وانتقدم الآن لوصف أضرحة الأباء، مع التذكير دائماً أن هذه الأضرحة، وكما في كل الجوامع الاسلامية، وفي معظم أضرحة الكنائس المسيحية كذلك، ليست أماكن الدفن الحقيقية، وانما هي نصب او أضرحة على شرف الميت القابع تحت الأرض. وكل ضريح سور بهيكل منفصل او مزار مقفل ببوابة او بشبكة حديدية في ما يشبه الأضرحة الملكية في وستمينستر آبي Westminster Abbey. وأول اثنين من هذه المزارات يقومان في الرواق الداخلي قبل المدخل المفصلى الى المبنى الفعلي للجامع، مزار ابراهيم في زاوية الى اليمين ومزار ساره الى اليسار، ولكل واحد منهما بوابة من الفضة؛ وطلب منا عدم دخول مزار ساره لأنه مزار امرأة، وقد ألقى فوقه غطاء من القماش. وبعد لحظة تردد فتح لنا مزار ابراهيم، ولم يخف الحرس غضباً ظاهراً. إلا أن رئيسهم التفت صوبنا قائلاً: لا يستطيع أمير دولة في العالم أن يدخل الى هذا المكان الا على جثتي، ولكننا تنازلنا عن ذلك كله من أجل الابن البكر للملكة انجلترا». ثم وقف أمامنا، وأدى

الصلاة امام ضريح الميت: «يا خليل الله، أغفر لنا إساءتنا». ودخلنا بعد ذلك. كانت الغرفة مغلقة بالرخام. وكان هناك بناء صغير يشبه الكفن يرتفع ٦ أقدام مبني من الحجارة المغلفة او الرخام، وتتدلى ثلاث سجاجيد موشاة بالذهب. وقيل لنا أنها مقدّمة من محمد الثاني، فاتح القسطنطينية (١٤٥٣ م) سليم الأول، فاتح مصر، (١٥١٨ م) والسلطان عبد المجيد. شعرنا أمام الضريح المفترض برعشة تهزّ الكيان. بعثها جزئياً هذا الشرف الخاص الذي منح في مناسبة نادرة



جبال مواب من انجيدي.
عرض البحر الميت في هذه النقطة هو تسعة
اميال

للدخول الى هذا المكان والذي لا يمنح «الآ الى
ممثّل إنجلترا»، كما قيل لنا تكراراً.

والآثار الأخرى المهمة في حبرون هي «البركتان». تقوم الاولى
وهي الكبرى، في اسفل الوادي، والذي يبدأ في الانخفاض بعد ذلك
ليصل الى حدود بير سبع. أما الأخرى فهي في أعلى الوادي ويبلغ

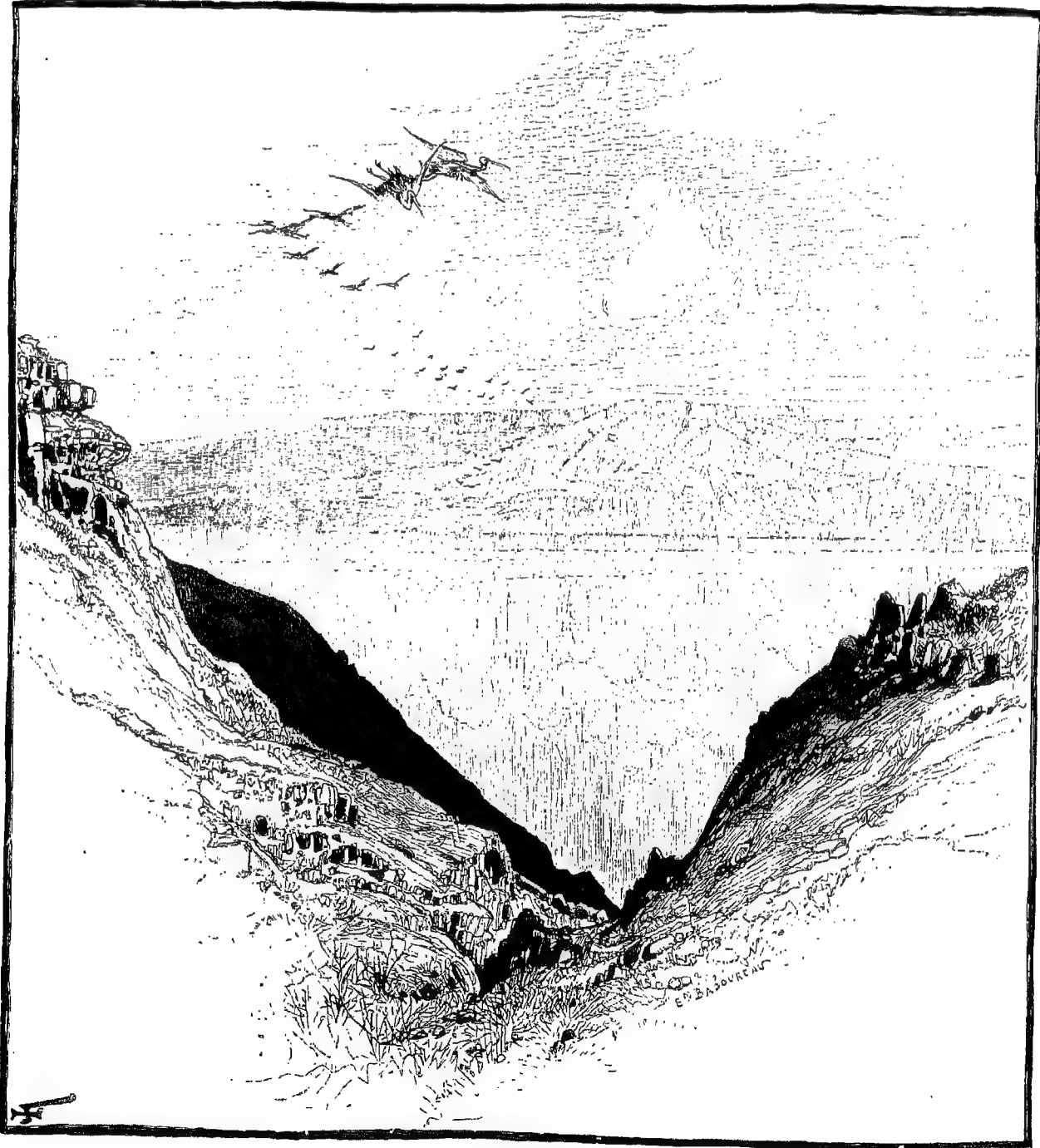
حجمها نصف حجم الاولى. وقد شهدت الاولى إعدام إسبوشث Isbosheth.

ويمكن للمسافر أن يتوجّه من حبرون الى الطرف الجنوبي من البحر الميت في
رحلة طويلة لكن ممتعة تستغرق سبع او ثماني ساعات. واذا تسلقنا منحدرات جبل
جوبار جنوب شرق حبرون نصل بعد ساعة ونصف الساعة الى تل صغير الى يسارنا
يدعى تل زيف Tell Zif. وهو زيف الكتاب المقدس The holy writ وتقوم آثار على تلّ منخفض بين واديين صغيرين
ينتهيان الى البحر الميت. وكان داوود قد لجأ الى جوار هذه البلدة فاخترأ فيها (سام xxiii,24)، وتجوّل كالطريد في
البراري «واجتمع حوله كل بائس، وكل قلق وكل متالم» حتى بلغ عددهم ٤٠٠. حاول سكان زيف مرتين تسليمه الى
جلاّديه وجرى تحصين المدينة بعد ذلك على أيدي راحوبوم Rehoboam. لكن شيئاً لا يذكر عنها بعد ذلك خلا إشارة
جيروم في الاونوماستيكون Onomasticon. ونصل اذا تقدمنا شرقاً لحوالي الساعة الى وادي كبرا khabra، حيث ندخل

للمرة الاولى في القفر العظيم ليهودا. فنمر في سهل واسع يخيم فيه البدو، ونصل بعد طول مسير الى ممر أنجيدي، حين يظهر أمامنا البحر الميت وجبال موآب Moab الوعرة.

إذا كان الفصل شتاءً، والسماء مكدسة بالغيوم، والضباب الخفيف يحجب الجبال وبخار يتراقص فوق الماء، فالبحر الميت يكون حينئذ كذلك فعلاً: لا شيء يشير الى حياة، ولا صوت يقطع ذلك الصمت خلا وشوشات الموج. والشاطئ نفسه صورة أخرى للوحشة القاتلة، تغطيه قشرة من الملح الأبيض لا تنكسر الا عند مستنقع طيني أسود او عند بركة من المياه المالحة هنا أو هناك.

لكن البحيرة المالحة تغدو أيام الصحو والشمس المشرقة شيئاً مختلفاً تماماً. فالمياه الشفافة تتراقص جذلي وتتدرج الى ما لا نهاية كالياقوت الازرق بينما تتوهج ألواناً ألواناً؛ ثم تدب الحياة فجأة فاذا أسراب اللقلاق ومالك الحزين وطيور أخرى تروح وتجيء في الفضاء. ويزخر الغور، او الارض المنخفضة، عند الطرفين الشمالي والجنوبي من البحر بخضار استوائية غنية جداً، والغدران التي تأتي من بين شقوق المنحدرات الصخرية تشق طريقها نزولاً فيصل بعضها البحيرة.



البحر الميت

تمتد جبال مواب Moab كمسطح صخري فسيح قبل ان يبدأ بالتدرج نزولاً في اتجاه الغرب صوب البحر الميت ووادي الاردن في شكل منحدرات صخرية حادة. ويستثير المشهد تداعيات تاريخية عميقة: تنشق تلك المنحدرات، كما تراها من انجدي، عند المنخفض الكبير لوادي موجب Mojeb، أرنون التوراة The Arnon of the Bible، ومن على المرتفعات البعيدة Balaam blessed Israel يمكنك ان تتخيل موسى محدقاً في أرض الميعاد والتي لم يدخلها ربما.

ويدخل في البحيرة في قسمها الجنوبي الغربي رأس رملي يدعى اللسان، وفوقه في البعيد صخر عالٍ مهيب كانت تقوم فوقه في العصر الوسيط قلعة الكرك Kerek وقد ذكرت الكرك في التوراة باسم Hareseth Kir - Hareseth Kir أو Heres وكان الأمر على الدوام موضع حيرة الشراح واللغويين. وحينما عثر على «الحجر الموابي» stone * Moabite في ديبان، أو ديبون Dibon القديمة تبين لي ان كلمة حارس Harith تعني في العامية المحلية «التل الذي تحيط به ابنية» وعليه فحارس في العربية هو مرادف حاريش Hareseth في العبرية، وكيرهاريش تعني بالتالي «المدينة التي على التل» وهو وصف ينطبق على الواقع تماماً خصوصاً حينما تراه من حيث نقف الآن. وفي ذلك إحياء للفظه موابية قديمة جداً ولسياق طويل من الاحداث والعادات واللهجات التي وردت في التوراة. كانت الكرك Kerek المشهد الأخير من الفصل الأخير من التراجيديا المرعبة في تمرد ميشا Mesha والذي سجل بعض من خلفه خبر الانتصار على اسرائيل على حجر موابي. وهنا بعدما فشل الملك الموابي في اختراق خطوط الجيش الذي يحاصره «أخذ ابنه الأكبر والذي يجب ان يخلفه على العرش وقدمه ضحية لتحرق على السور» وفي أواخر العهد الصليبي تولى أمر قلعة الكرك الفارس المشاغب رينالد شاتيون الذي كسر عهد الأمان المتفق عليه مع صلاح الدين وهاجم قافلة حجاج مسلمين أيام السلم، الأمر الذي قاد الى سقوط المملكة المسيحية في فلسطين بعد ذلك.

لا يبدو الشاطئ للعابر إلا حينما يبدأ بالهبوط من الممر الصخري، والذي يوصله بعد مسيرة نصف ساعة الى عين جدي والاسم الحديث لهذه العين، «عين الجدي» يتفق تماماً في المعنى والواقع مع انجدي التي ذكرها الكتاب المقدس.

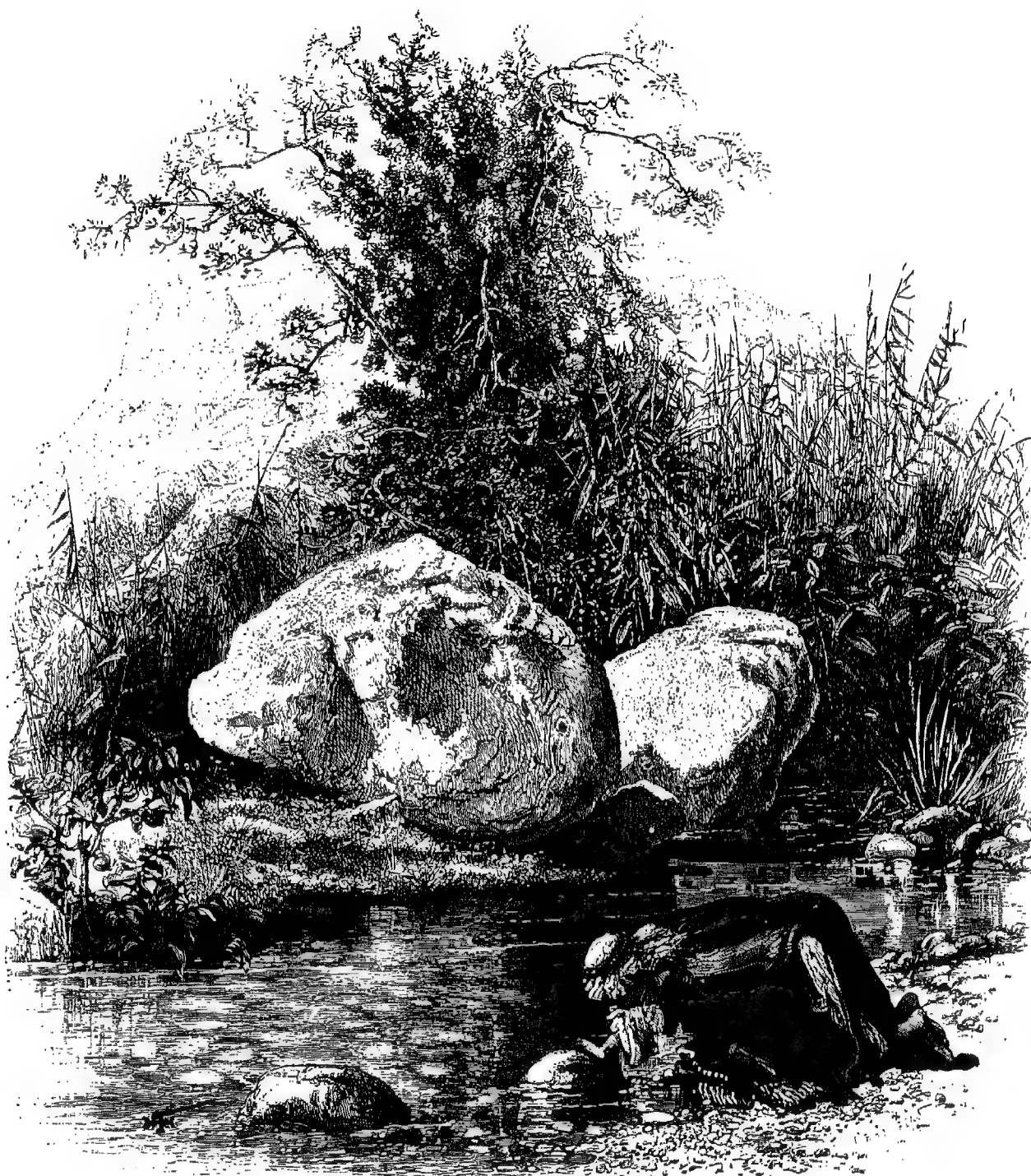
ويتفجر النبع من تحت صخر ضخّم فوق مدرج صخري على ارتفاع ٤٠٠ قدم فوق مستوى البحيرة، وينهمر فوق منحدر عالٍ وتغطي مجراه نباتات استوائية فوق أرض طينية. يتكسر المجرى فوق الصخور الى أن يتجمّع من جديد، أسفل المنحدر، في بركة هادئة تحيط بها الدفلي ونباتات وشجيرات أخرى. وتمتص جذور تلك الغابة الصغيرة مياه المجرى فلا يكاد يصل شيء منها الى البحر. ومياه النبع حارة، (٨٣ درجة فهرنهايت)، طعمها حلو يخالطه شيء من الكلس. وحول النبع مقصبة كبيرة ودغل من الزيزفون والعليق والسيدر Sidr او الدوم Dom عند العرب ومعروف بطعمه الحلو. وهناك كذلك الكثير من «ظل الليل» أو «الببيض» أو «التفاح المجنون»، والهوشر Osher، وهو نبات ينذر وجوده خارج المناطق الاستوائية، ويحمل ما يدعى بـ بتفاحات سودوم.

وتنبت هنا أيضاً وبكثرة الأكاسيا المعرشة، أو «شجرة شيتيم» في الكتاب المقدس. وربما كان موقع المدينة القديمة تحت النبع، إذ يقوم في الجوار آثار أبنية عديدة تبدو قديمة العهد. وكما نصل الى مستوى البحيرة علينا ان نهبط نحو ٣٣٠ قدماً عبر ذلك الدغل مع مجرى النبع ووسط منحدرٍ وعر متعرج. وضفاف الغدير مزروعة بمقدار ما يتوفر الماء وهي لعرب الرشيدة. وهناك الى الشمال عيون ماء أخرى هي «عين الترابية»، «عين الغوير» و«الفشكة» والأخيرة أكبرها وأغزرها ماء، لكن ماءها مالح الى حد كبير، وتبقى عين الجدي المصدر الوحيد للمياه العذبة على الشاطئ الغربي. ونتوقف طويلاً على شيطان البحر الميت تأخذنا الوحشة والعزلة بعيداً في التاريخ وأحداثه المرعبة التي تتصل بشكل أو بآخر بهذا المكان.

وهنا نحن، بالتأكيد، في جيرة مدن السهل رغم الخلاف على تعيين موقعها الدقيق. ويذهب التفسير الرسمي الى انها عند الطرف الجنوبي للبحيرة، وهو ما يتفق مع طبيعة جغرافية المنطقة. ويخبرنا سفر التكوين (xiii.10) ان «سهل الاردن بكامله كان مروياً، قبل أن يدمر الرب سدوم وعموره، كما حدائق الرب، وكما أرض مصر، وفي الفصل الرابع عشر (P.3) يعود فيخبرنا أن الملوك المتحالفين «التقوا في وادي سيديم، وادي البحر المالح»، أو ما أصبح يعرف بالبحر المالح زمن الكتابة تلك. وقد أثبتت أبحاث لينش أن الطرف الجنوبي من البحيرة أعظم بحوالى ١٣٠٠ قدم عن الطرف الشمالي ويشير الى إنخساف حدث في طبيعة المكان.

*نسبه لجبل مواب [م]

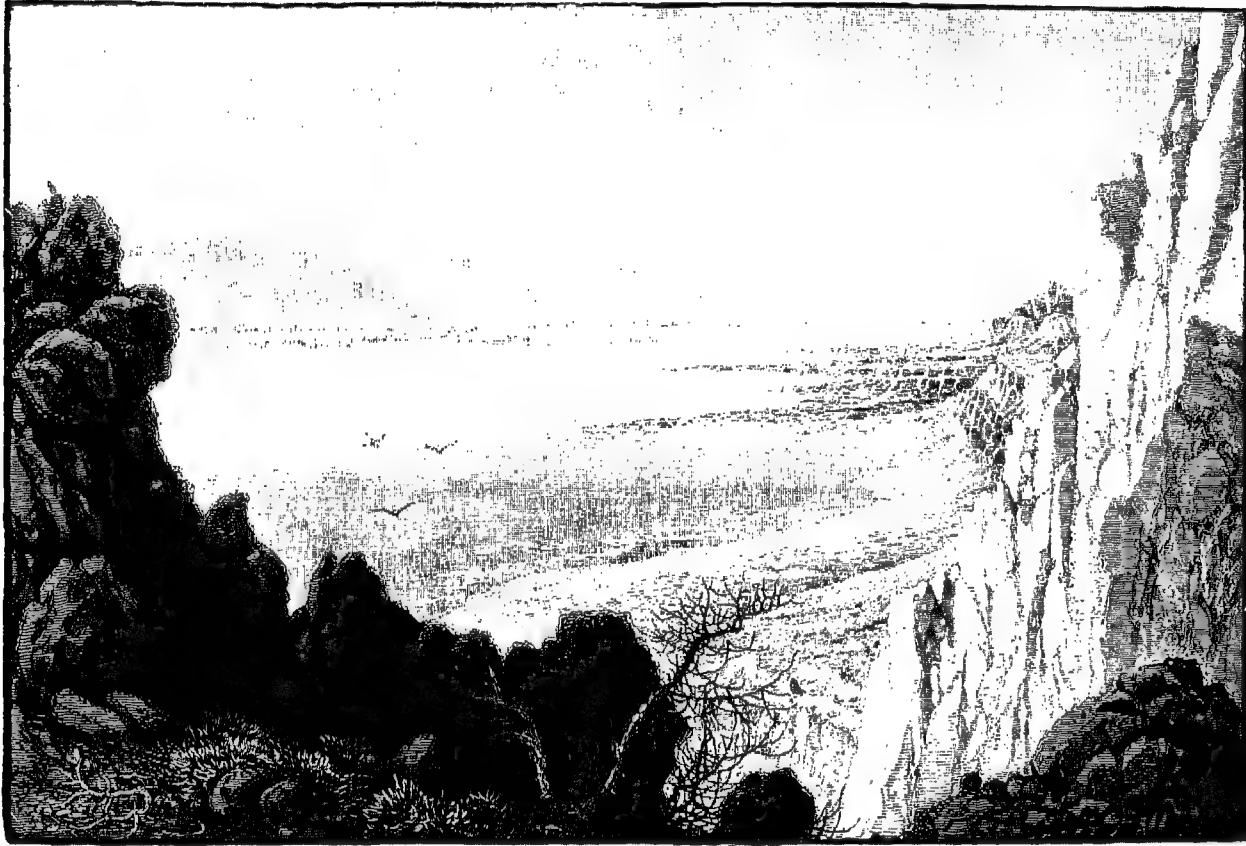
ويفترض عدد من الكتاب أن الذي حدث لسودوم sodom وشقيقاتها من المدن الأخرى هو انفجار بركاني رافقه زلزال أرضي. ويتفق الافتراض هذا مع لغة الكتاب، فذكر سفر التكوين لوجود «بقع لزجة (اسفلتية)» في الجوار، وأن



انجيدي «عين الجدي»

ابراهيم رأى «الدخان يتصاعد من البلاد كما من فرن» هو بعض التأكيد على مثل هذه الظواهر. فالبقع الاسفلتية اللزجة لا تزال تتناثر هنا وهناك، كما أن هناك اتفاقاً على أن في باطن المنطقة نشاطاً بركانياً، ولا يمكن فهم الطبيعة الظاهرة للمكان الا اذا اخذنا برواية الكتاب المقدس وذهبنا الى الأخذ بالافتراض الذي يقول بغرق وادي سيديم siddim حين غمرتها مياه البحيرة.

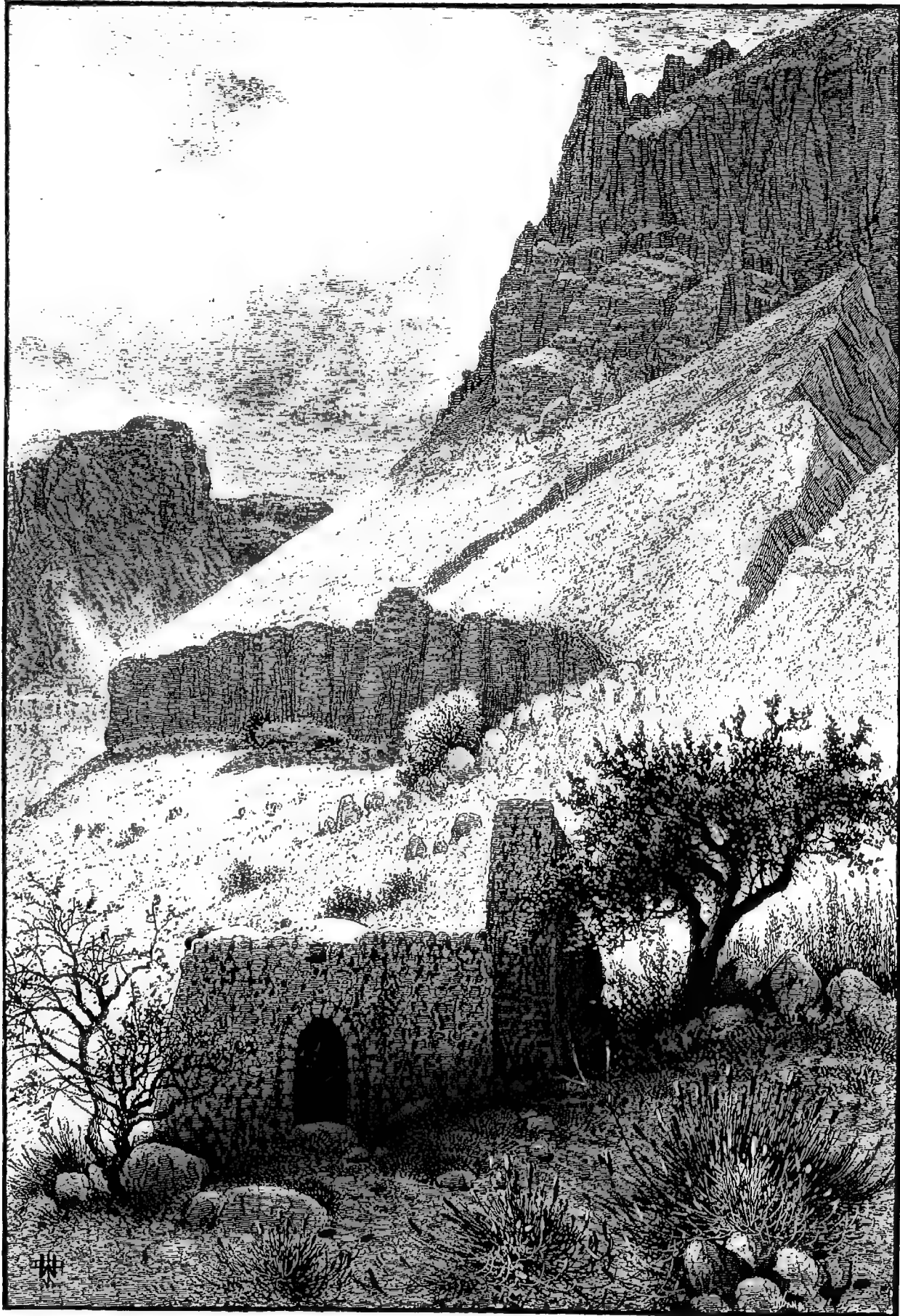
تقفل البحر الميت، الذي يبلغ طوله ٤٦ ميلاً ويتخفّض ١٣٠٠ قدم عن مستوى البحر المتوسط، من جانبيه منحدرات صخرية حادة، والتي تدخل الماء حيناً، أو تترك ممراً صغيراً على الشاطئ حيناً آخر. ويدخل في البحر عند طرفه الجنوبي بضعة رؤوس رملية منخفضة أكبرها «اللسان». ويبدو المكان من عين جدي موحشاً قفرًا، وفي مواجهة تلّال موآب Moab، ويمتد بعيداً إلى الجنوب الساحل الغربي مع عدد لا يحصى من الرؤوس الصغيرة الداخلة في الماء، وتندرج فوقها منحدرات صخرية، صفّاً فوق صف، كما لو كانت التحصينات الأمامية لقلعة قوية. ويقوم عند الطرف الجنوبي الغربي من البحيرة جبل أسدوم Usdum، أو جبل سودوم، يغسل قدميه في ماء البحيرة، وهو عبارة عن تلّ مقفر يتكون كلياً من الملح الصخري الكريستالي (البثور). ويبلغ طول هذا الجبل سبعة أميال وارتفاعه ٣٥٠ قدماً، ويبدو الجزء الذي تغسله المياه في شكل أعمدة ومنارات، مما يستدعي إلى الذاكرة فوراً عامود الملح الذي شاهده زوجته لوط بكثير من الفضول والدهشة. واللافت أن أكبر هذه الأعمدة هو ما يدعوه عرب المنطقة «بنت الشيخ لوط» أو زوجة



الطرف الجنوبي للبحر الميت من انجيدي (عين الجدي)
وتبدو شبه الجزيرة المسماة «اللسان» والتي تبدو من بعيد كجزيرة.

لوط. وقبل جبل إسدوم تقوم بقايا الحصن الذي كان قلعة مكيّة وهو حصن مسادا Masada. وكان جوناثان مأكابي قد بنى الحصن في الأساس، ثم عزّزه وقواه هيرود الأكبر، وقبل أن يصبح الملجأ الأخير لحلم الاستقلال اليهودي بعد تدمير تيتوس لأورشليم.

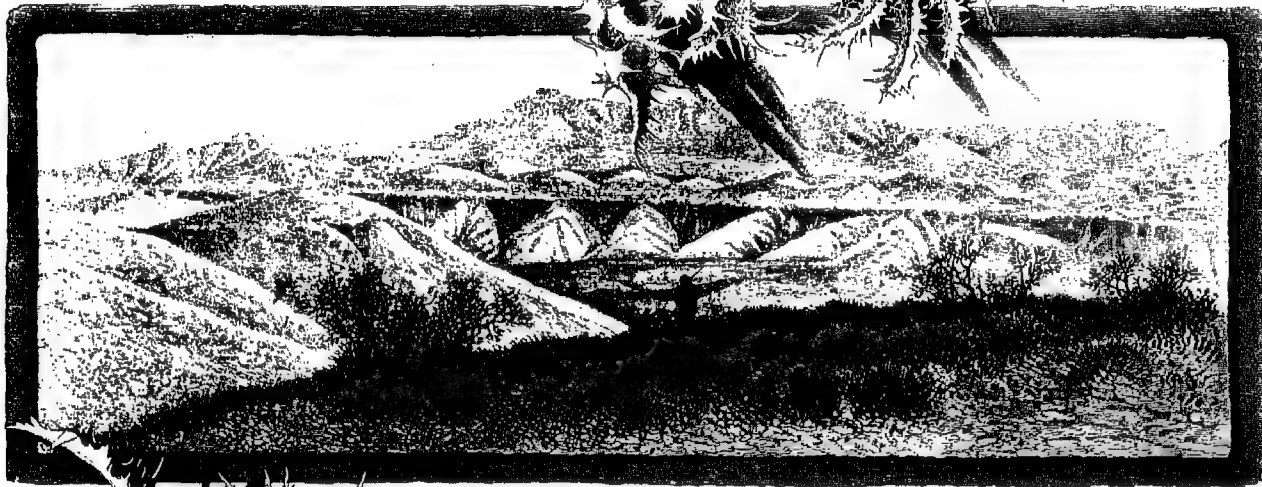
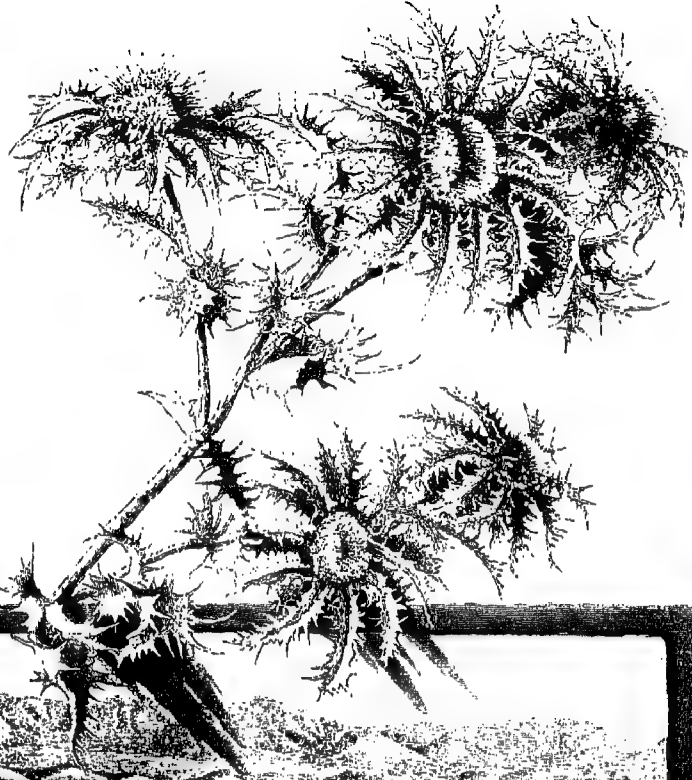
يشكل دغل «عين جدي» عند أقدام تلك المنحدرات الصخرية العارية ووسط هذي الجبال المقفرة، النقيض التام للقفّر المحيط بها من كل جانب. وتضفي الصخور الضخمة المعلقة والشقوق المرعبة على المكان مناخاً من الجلال والسمو. كانت شواطئ البحيرة الصعبة مسكونة في أزمنة مختلفة، بالبدايين الأول في البدء ثم بالاسرائيليين، ثم من طائفة غريبة من النساك اليهود، زهاد ومتصوفة القرون الأولى من الحقبة المسيحية. وتغطّي جوانب الجبال فتحات الكهوف والمغاور والتي كانت مسكونة أيضاً، وبعضها لا يمكن الوصول إليه الآن فالطرق والممرات قد إمّحت منذ زمن طويل.



منحدرات انجيدي (عين الجدي)
وهي تشكل ممرات ضيقة متعرجة، وهي من الصخر الكلسي يشبه بنعومته الرخام.

وتحتوي مياه البحر الميت على ٢٥ ٪ من العناصر المعدنية، وحدة المياه وملوحتها مؤذية وخطرة للعين في ما لو دخلتها، طعمها مقرف والغرق فيها غير وارد البتة. ففي وسع المرء أن يستلقي على ظهره ويطفو فوق الماء كما لو كانت سريراً من ريش وإذا لم يجر الغطس رأسياً فالغرق تحت الماء أمر مستبعد تماماً. لكن السباحة فيها مع ذلك تجربة قاسية للظهر بفعل الهزة التي تحدثها حركة الساقين الطبيعية على سطح أكثر صلابة من المياه العادية. وتصب في البحيرة كل السيول التي يجرفها الأردن، وكذا الجداول والسواقي التي تتأتى من بين منحدرات فلسطين ومواب Moab على ضفتيه الشرقية والغربية، ويبلغ حجم المياه التي تدخل البحيرة يومياً ستة ملايين طن، ولا يبدو أنها تخرج الى مكان آخر، ويأتي حجم التبخر القوي ليبقي على مستوى مياه البحيرة كما هو .

وبراري انجيدي قفر موحش، تتدرج فيها تلال جرداء موحشة الى ما لا نهاية لا يقطعها غير



براري انجيدي (عين الجدي)
حيث عاش داود وصحبه بين «صخور الماعز البري» وفي
المنطقة كهوف وعرة يحتمل انها استخدمت للغارين والمطاردين.

شير صخري مخيف هنا او انكسار مرعب هناك، دونما شجرة واحدة ولا حتى نبتة شوك أو علق. ويمكنك أن تشاهد او تلمح بين الحين والحين مخيماً بدوياً صغيراً، أو اشخاصاً عن بعد، لا يقلون قسوة وبدائية عن المكان نفسه، وتشتت منهم شيئاً من صورة داود وعصبته التي زرعت هذا المكان بممراته ومغاوره وصخوره قبل زمن طويل.

ونتقدم من مدينة ابراهيم الى بقعة أخرى تتصل بتاريخ الأب وهي بير سبع «بئر السبعة»، او «بئر القسم» حيث حفرت البئر واعطى أبيملش Abimelech سبع نعاج مقابل قسم الولاء منه. كان هناك سبعة آبار في المنطقة، إثنان منها مازالتا مملوئتين بالمياه وثالثة في حال سليمة ولكنها

جافة، وكلها مبنية من الحجارة الصلبة. ويمكن العثور في الجوار على بقايا للأبار الأربعة الأخرى. وهناك مثل عربي سائد يروي انه كان «لبنى مرة سبعة آبار، وفي كل بئر سبعة خزانات، ولكل خزان سبعة مشارب، وعلى كل مشرب سبعة أحصنة تشرب منها» وتقوم حول البئرين المملوتين عدة مشارب حجرية خشنة وتبدو قديمة جداً وفي الضفة الجنوبية للوادي بقايا سور حجري متين يمتد الى بضع مئات من الياردات مقابل الأبار مما يحمي الأبار من التربة المتساقطة او الانهيارات. ويغطي جانب التل خلفها آثار وبقايا قديمة، وان تك غير محددة ولا دقيقة، ولا تسمح بتحديد



بيرسبع أو موقع بيرشيبا القديمة
وبقايا الأسوار القديمة لاتزال قائمة لكن المدينة زالت. وخيام لعرب التواهي.
والى الامام امرأة تطلب الصدقة من تابعي الفنان الرحالة.

نوع البناء الذي كان قائماً، ولا المساحة التي كان يشغلها. الا أن هناك في أعلى الوادي أسس كنيسة يونانية. والمنطقة حول بيرسبع هي سهل متدرج يقطعه واديا سبع Seba وخليل. وتغطي السهل بعد موسم المطر، اعشاب وأزهار وعليق وشوك، إلا انه في الفصول الأخرى أرض مقفرة موحشة كما الصحراء نفسها ويستدعي المكان الى الذاكرة افكاراً وتدايعات غريبة ومتفردة. هنا تقوم الأبار التي حفرها الأب والاسم الذي أعطاها آياه مازال مستخدماً وما زال

البدو والذين لم يعرفوا رواية الكتاب المقدس، يشيرون الى الابار بوصفها عملاً عظيماً من أعمال جدهم إبراهيم، ولا تزال الحبال التي تسحب الماء من الآبار كيما يشربوا وترتوي قطعانهم، تنزلق في الشقوق الحجرية العميقة نفسها، والتي ربما انزلقت عليها كذلك حبال خدم الأب، في البدء. والى براري بيرسبع كذلك كان مار الياس قد فرّ طلباً للنجاة من آهاب Ahab، وجيزبل Jezebel (الملوك 3. xix).

ونترك اخيراً حبرون وبيرسبع والتذكارات المقدسة، في رحلة طويلة عبر البراري الى بترّا Petra، المدينة المبنية في الصخر، في أرض إدوم وبرفقة أدلاء من الجعالية أو «عرب الحوطة» Hawtat Arabs. ونمر في الطريق بسموع، اشتيموع القديمة المذكورة في جشوا 50 xv؛ تل العراد Arâd، موقع مدينة «الملك عراد الكنعاني، الذي كان يسكن في الجنوب» والذي حين جاء من يخبره عن أن بني اسرائيل جواسيس، حارب اسرائيل واخذ منهم أسرى (الاعداد 1. xxi)؛ تل الملح، حيث كانت تقوم لفترة مولادح Moladh القديمة والتي ذكرها جشوا وناحميا ثم جوزافس، وهي مالا ط القرن الرابع وربما في المكان الذي كانت فيه «مدينة الملح» المذكورة في جشوا 62 xv؛ ثم عراره او عرار يهودا، (سام 28. xxx) وهي إحدى المدن التي أرسل اليها داوود بعد انتصاره على الامالكين سهماً من الأسلاب - والاثار الوحيدة والمتبقية منها هي بضع آبار مبنية من حجارة خشنة، وبعضها لا يزال يحتوي ماء.

وتبدأ طبيعة المشهد بالتبدل، فبعد السهول الممتدة التي مررنا بها يبدأ الآن فصل التلال المتعاقبة الأودية الصخرية الوعرة، ونتيقن كل لحظة أننا دخلنا «البرية الكبرى والمرعبة» ونصل وسط هذه البراري الى جبل مدحيرا Madherah، وهو تلّ ينسج العرب حوله الأسطورة التالية: «كان هناك قوم يسكنون هنا وجاءهم يوماً عابرو سبيل يطلبون ضيافتهم، لكن هؤلاء أساءوا معاملتهم، فصب الله عليهم غضبه وأمطرت فوقهم حجارة ضخمة دمّرت سكناهم ومحتهم عن الأرض»؛ ويدل بدو المنطقة على الحجارة الضخمة المتناثرة على سفح الجبل وأسفله ليدلوا على صدق روايتهم. وتأخذنا مسيرة ساعات قليلة إلى «عين العربيه» بينابيعها الثلاثة، والتي يعينها روبنسون وآخرون مكاناً لقاديش بارنيا القديمة. الا اني لا اتفق مع هذا الافتراض، واعتقد أن موقع قاديش هو عند عين قادس، على مسافة حوالي ٤٠ ميلاً غرباً. واسم قادس، في معناه واشتقاقه، هو مرادف قاديش في الكتاب المقدس، وتعين هذا الموقع هنا هو المفتاح لمتابعة ترحال ابناء اسرائيل بعد تركهم هازيروت ولأربعين سنة. ويقع النبع الذي يحمل هذا الاسم المعبر في سفح الجبل وعند النقطة التي يتخفّض فيها الى مستوى أدنى فيغدو أكثر انبساطاً وأيسر لبلوغه من جهة العقبة. هو يقع اذاً عند أحد الحدود الطبيعية لفلسطين. تبدو المنطقة من شمال سوريا الى سيناء في الجنوب وكأن خاضعة لتقسيم طبيعي وبخصوبة الأرض في كل منها. فلدينا في سوريا الان أرض خصبة منتجة وحسنة الري وتربة منطقة جنوب حرمون في فلسطين هي قاحلة الآن في معظمها. الا انها تشير الى خصوبة فائقة في أزمنة سابقة؛ والمنطقة الواقعة جنوب جبال يهودا، الى ما دون عين قادس، ورغم أنه لا يتوفر فيها اليوم زراعة عالية، لكن هناك ما يكفي من الآثار التي تشير الى زراعة كثيفة كانت موجودة، وحتى وقت ليس بالبعيد والمنطقة هذه هي النجب Negeb، او بلاد الجنوب بحسب الكتاب؛ وعين قادس هي على حدود المنطقة. والمساحات الممتدة بين هذه وطرف سهوب التيه هي أكثر قفرًا، الا أن فيها بقايا تشير الى أن سكانها الأصليين قد اوجدوا نوعاً من الحياة على تربتها. ويبدو ان المنطقة قد حملت في عهد إكسودس Exodus نفس الصلة بذلك الجزء من النجب الذي غدا خصبياً والذي استمر كذلك مع فلسطين اليوم. ويذهب الناس اليوم من قاديش ثم تعود محملة بالعنب من اشكول Eschol، والتي يضع العديد من الجغرافيين موقعها في وادي الخليل او وادي حبرون. إلا أن حبرون تبعد عن عين قادس مسيرة أربعة أيام على الأقل، ومن المستبعد ان يتحمل العنب والتين المسافة كلها دون ان يفسد، عدا المخاطر والمحاذير الأخرى التي يحتمل أن واجهها كاليب Caleb وصحبه عبر هذه المسافة. فاذا كانت قاديش بارنيا، هي بالتالي، عند عين قادس لوجب أن يكون العنب المحمول من اشكول قريباً من المكان نفسه؛ ومن غريب المفارقات ان اكثر ما يميز «النجب» هو أميال واميال من الوديان والتلال المغطاة بأكوام من الحجارة الصغيرة، تمتد في انتظام وهي التي يدعوها العرب الى اليوم «تليلات العنب». ومن وجهة نظر استراتيجية فمن غير المعقول ان يكون الاسرائيليون قد اختاروا «عين العربية» مكاناً لمخيمهم فيجعلوا أنفسهم تحت رحمة شعوب

معادية لهم من الكنعانيين الى الاموريين والادوميين والموابيين؛ بينما لاشيء يحاذيهم في ما لو نزلوا عين قادس غير البراري الاكثر رحمة وأمناً. ولا يعقل ان يكون ذلك قد فات جنراً ناجحاً مثل موسى، وعليه فكل الاحتمالات تشير إلى أن عين قادس الأبعد غرباً هي المكان الحقيقي لقاديش بارنيا التي ذكرت في الكتاب المقدس.



«عين الوهدة»، على حدود إدوم Edom في «وادي الجيب»، ويعتقد الكثيرون أنه موقع قاديش بارنيا

ونهبط من عين العربية الي وادي عربا Arabah الفسيح، ثم نتسلق جانبها فندخل إدوم Edom عبر ممر نيميل Nemelah فنبلغ بترا عبر وادي بديع يدعى وادي السيق Sik. وإدوم هي ذلك الشريط الضيق الذي يقع بين عرباً ودرب الحج (أو درب الحج الى مكة)، وهي تمتد من العقبة، أو إيلاه القديمة، على البحر الاحمر، الى وادي الكرك شمالاً التي شكّلت الحدود القديمة بين إدوم ومواب. تقسم المنطقة الى قسمين القسم الشمالي الذي يدعى اليوم جبول Jebal، جيبال العبرية، أو جيبالان Gebalene عند الرومان، اما القسم الجنوبي فيدعى «الشرية»، أو جبل سير Mount Sier، في الكتاب.

وكانت العاصمة تسمى بالعبرية سيلا Sela، أو «الصخرة» (الملوك 7. xiv)، وهي المرادف للتسمية اللاتينية بترا، مع أن السكان المحليين يسمونها «وادي موسى».

تتألف ايدوم من جبل من الحجر السماقي يغطيه الصخر الرملي باللون فاقعة متنوعة. وترتفع عن كل جانب تلال كلسية، يشكل الجانب الشرقي منها نهاية المسطح العظيم للصحراء العربية، بينما الجانب الغربي هو الضفة الشرقية لعربا والتي تشكل ضاحيتها الحد الجنوبي للبلاد «ولبادية التيه». والمنطقة خصبة، وتروي الاودية جداول بديعة، كما أنها مملوءة بالأشجار والأزهار، بينما الهضاب العليا مراعى في معظمها مع حقول حنطة. وعندما كانت الصحراء هي الطريق الوحيد الى الشرق، وقبل ان ينتزع المحيط منها هذا الامتياز، كانت ايدوم بلاداً عامرة وعاصمتها إحدى مراكز التجارة في العالم القديم. فمنذ أقدم الأزمنة كان المديانيون Midianites والإشماليون Ishmalities ينقلون منتجات الجزيرة العربية في قوافل عبر ايدوم الى مصر، ويعودون بمنتجات بلاد فرعون وصناعاتها. كانت المنطقة عند القرن الثاني من المسيح مسكونة بالناباثيين Nabathaeans حيث تقدم دلائل كثيرة على تقدمهم في النقوش والعمارة التي تغطي المنطقة. في سنة ١٠٥ ميلادية أصبحت ايدوم مقاطعة رومانية وأصبحت بترا على قدر كبير من الأهمية، وربما أكثر من ذي قبل. ودخلت المسيحية بترا في فترة مبكرة جداً، بحيث تذكر السجلات اساقفة من بترا حضروا مجالس الكنيسة في زمن مبكر. إلا أنه في حدود العهد الرابع انهارت تجارتها، وغزاها البدو، وأرهقتها الصراعات والفوضى الداخلية، فتحققت سريعاً النبوءة ان ذرية Esau التي كانت يوماً «صفوة الأرض وندى السماوات» (التكوين 39, xxvii) سوف تندثر وتحلّ بها اللعنة. ويسكن القسم الشمالي، الجبل، الفلاحون والبدو من قبيلة الهجايا. ويملك اراضي الشريعة، اساساً، عرب الحويطات والعامريون (ولعلم بقايا الأموريين Amorites القدامى)، وقبيلة العالونة Alawin القوية والمشاكسة، والتي تتولى بتكليف من الحكومة المصرية أمن طريق الحجاج والمسافرين في المنطقة. الا ان بترا ومحيطها يقعان تحديداً في منطقة نفوذ قبيلة ذات شأن، قبيلة الليثانة. والليثانة فلاحون أكثر مما هم بدو، ويحتفظون بملامح العرق اليهودي. وهم على الأرجح يتحدرون من إحدى القبائل اليهودية التي هاجرت من الجزيرة العربية بعد انتصارات الاسلام. وهم يحتفظون، بالإضافة الى المحيا العبري، بتقاليد وعادات يهودية واضحة. اختفت بترا بعد القرن الرابع من التاريخ، وظلت طي النسيان حتى وصف بعض عرب الصراح تلك الاثار لسيتزين Seetzen سنة ١٨٠٧. وفي سنة ١٨١٢ تمكّن بوكهارت من الوصول الى بترا، بعد رحلة مضنية، وانجز كشفاً كاملاً بتلك الآثار.

تقع بترا في وادٍ يمتد من الشمال الى الجنوب بطول ثلاثة أرباع الميل. ويبلغ عرضها عند طرفها الشمالي ٥٠٠ قدم وتضيق الى النصف في طرفها الجنوبي. ويدعو العرب الوادي «وادي موسى»، جرياً على التقليد الذي يؤمنون به وهو أن «عين موسى، من حيث ينبع الجدول هي التي خرجت من باطن الارض حينما ضرب موسى الصخر بعصاه. يحيط بالوادي جوانب صخرية من الحجر الرملي فتبدو كما لو كانت بحيرة داخلية. واللافت في وادي موسى هو لون الصخور، فبينما لون الصخر بني غامق، في لون الشوكولا، إلا انه يغدو اذا اقتطع احمر لامعاً، أو يميل الى الأصفر، تلوّنه هنا وهناك خطوط بيضاء هي عبارة عن عرق مائي ناعم.

والانطباع الذي يخالغ الداخل الى المدينة مؤثر؛ فالتماثيل منحوتة في الصخر الصلب، والواجهات والاعمدة والمثلثات في الأعلى، محفورة كلّها في أدق تفاصيلها وفي إتقان واتسجام تامين. كانت المنطقة مسكونة، على نحو واضح، بساكني الكهوف، أو الهورتس Horites الذين تكلم عنهم الكتاب المقدس، ثم جرى توسيع كهوفهم من قبل الشعوب اللاحقة واستخدمت كهياكل واضرحة أو حظائر لخييلهم. وفي بعض كهوف البلدات المجاورة المحفورة في الصخر، الأصغر حجماً، وغير المعروفة جيداً للمستكشفين، تزّين الجدران والسقوف زخرفات ومنحوتات مصبوعة بألوان تبدو كما لو انها دهنت أمس. ورسمت على أحد السقوف في البُريد، والذي اكتشفه مستر درايك Drake وأنا، أغصان معرشة من الكرمة واللبلاب وطفلان مجتّحان (الكويبيدس Cupids) يلعبان بين الأغصان. ومن الواضح أن اللوحة رومانية وهي منجزة باتقان عالٍ. ويتفرع من وادي بترا يساراً وادٍ صغير آخر عند قرية عيرا Aireh تمتد عندها في شكل قوس قناة رومانية. ويسمى العقد الذي يحمل القناة قنطرة بنت فرعون، والمنطقة المجاورة بساتين فرعون:

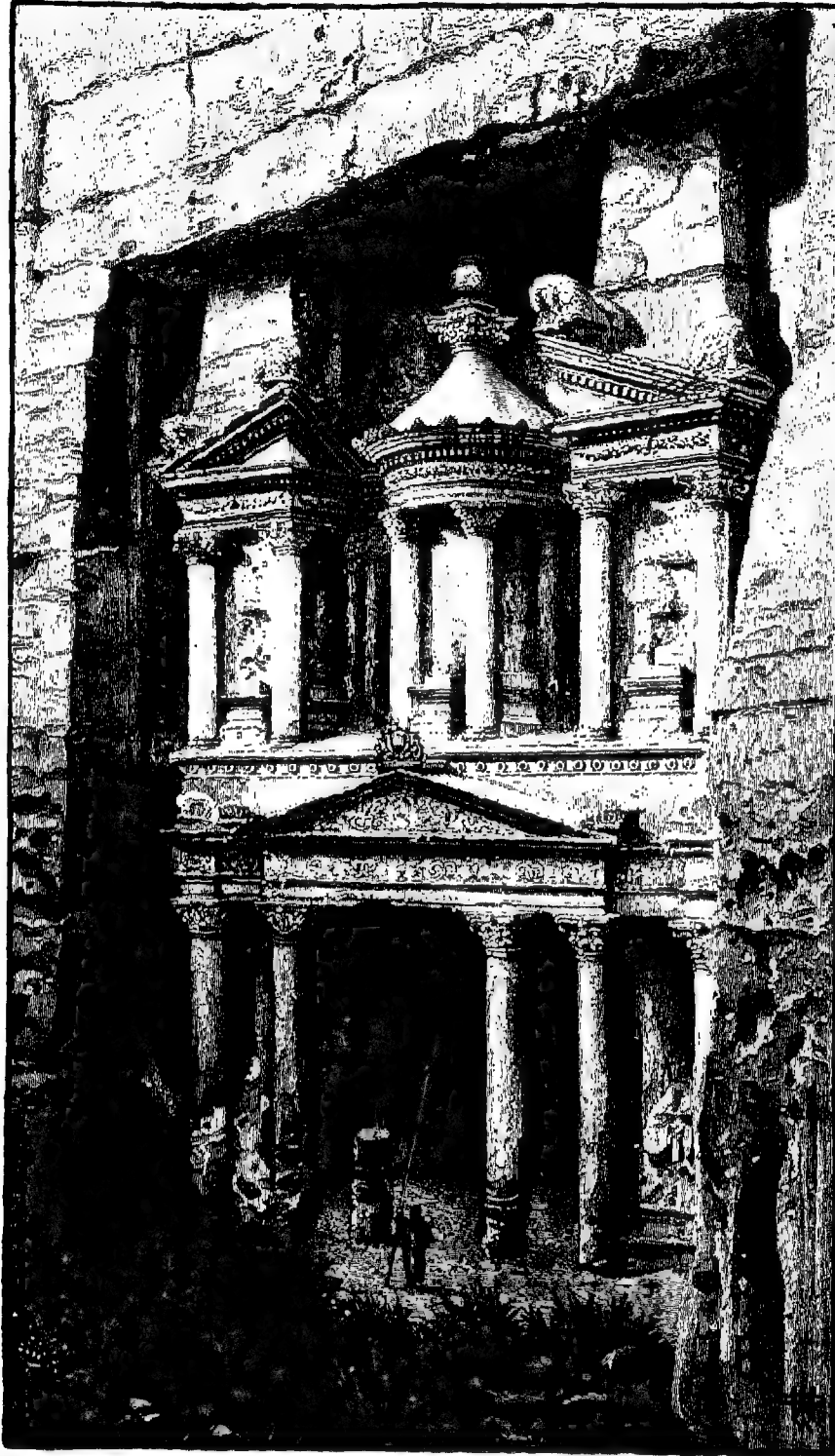
بل ان كل بقعة ذات شأن في المنطقة، وكل بناء مهم، يحمل أو تحمل إسماً منسوباً الى فرعون مصر. وعلى الجانب الجنوبي الغربي من مدخل الوادي أضرحة قطعت من الصخر، وبقي مكانها فيه واضحاً، ناعماً، وتذكر بالقبور الحزينة لوادي جيهو شفاط في اورشليم. لم يبق شيء تقريباً من أبنية المدينة، وأكبرها وأهمها وأكبرها على الإطلاق، الآثار الباقية لما يسمى بقصر فرعون، ويحتمل أنه هيكل، يقع عند مدخل الوادي لجهة الغرب. وفي مكان قريب صوب الشرق يقوم قوس نصر؛ وأبعد منه بقليل، جنوباً يقف عامود وحيد يسمى زيب فرعون، والذي يبدو أنه كان جزءاً من كنيسة لا



هيكل او ضريح في الصخر، بترا
ارتفاع ٨٥ قدماً. ويدعو العرب خزنة فرعون.

يزال نتوء قوسها موجوداً. ويرتفع الى الغرب تل عالٍ تقوم فوق قمته آثار قلعة بترا.

تنتمي عمارة بترا الى النمط الروماني المتأخر، والذي نشأ في القرن الثالث او الرابع لظهور المسيحية، حينما استبدلت بساطة الحقبة الكلاسيكية باتجاه آخر يقوم على الترميق والزخرفة والتأثير القوي. وتعتبر وادي الشق Sîk



هيكل اوزيريج في الصخر، بترا
ارتفاع ٨٥ قدماً. ويدعو العرب خزنة فرعون.

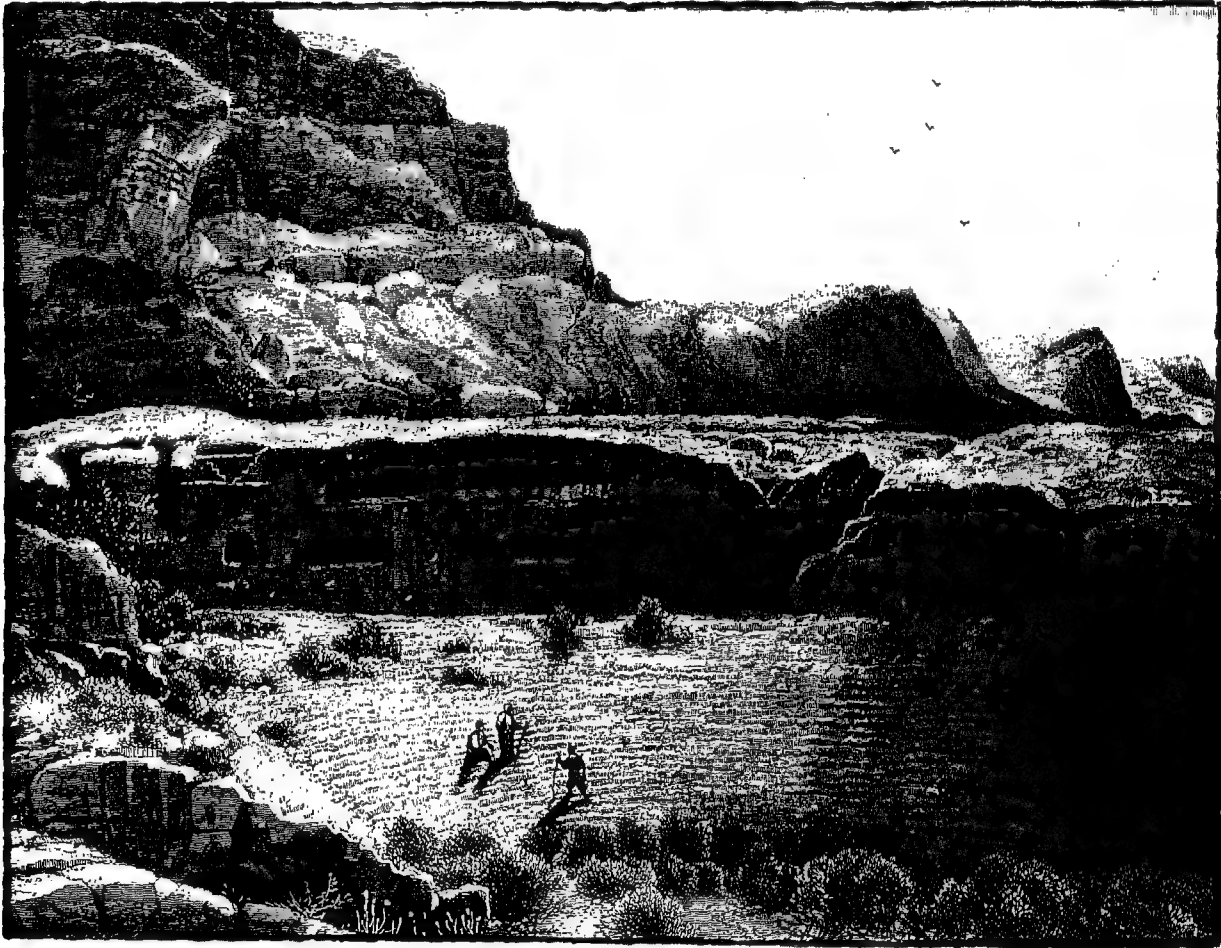
إحدى اجمل الروائع في العالم. ندخل الوادي عبر ممر ضيق بين حائطين صخريين شاهقين، من الحجر الرملي الاحمر البديع، وعلى شكل عامودي، وتمر فوق الوادي قنطرة حجرية، مكسورة الآن ولا يمكن الوصول اليها، كانت تحمل قناء ماء تأتي من أعالي المنطقة. ويتفرق في الوادي الضيق جدول من المياه الصافية العذبة تحف به أو تتدلى من الحيطان، شجيرات الدفلي وعلّيق معرّش ونباتات أخرى.

ويغدو الوادي، كلما تقدمنا اكثر فأكثر أضيق وأكثر مهابة. وتقوم في جوانب الجدران الصخرية العالية فراغات مستديرة كانت كما يبدو أمكنة للوحات غير موجودة الآن، ونوافذ مقفلة محفورة في الصخر كانت تستخدم، كما يبدو، لتقديم القرابين والأضاحي، وهي من النوع نفسه الذي اكتشف في بانياس وأمكنة أخرى. وتقوم تحت هذه الفجوات أو المذابح نقوش يونانية غير مكتملة، ونصل إلى نقطة معينة من الشق Sîk حيث يلتف الوادي الى الأثر الأكثر أهمية في بترا وهو ما يدعى بـ «خزنة فرعون» محفورة في الصخر الصلب وتفوق ما عداها من هياكل وأضرحة جمالاً وروعة وألواناً. ولون الواجهات الصخرية المحفورة وردي عميق، ناعم، يشع قوياً وسط باقي الصخر الاحمر البني غير المحفور حوله والدفلي الأخضر والعلّيق المعرّش في الاسفل. تتألف

واجهة البناء من رواق امامي من ستة أعمدة، أحدها مكسور جزئياً وغير موجود. وتدعم الأعمدة الأربعة الوسطى قوصرة (مثلاً) تمتد فوقها، وعلى قمة القوصرة او المثلث زخرفة وصفت دائماً. الا ان نظرة ثاقبة قريبة توضح أنها في

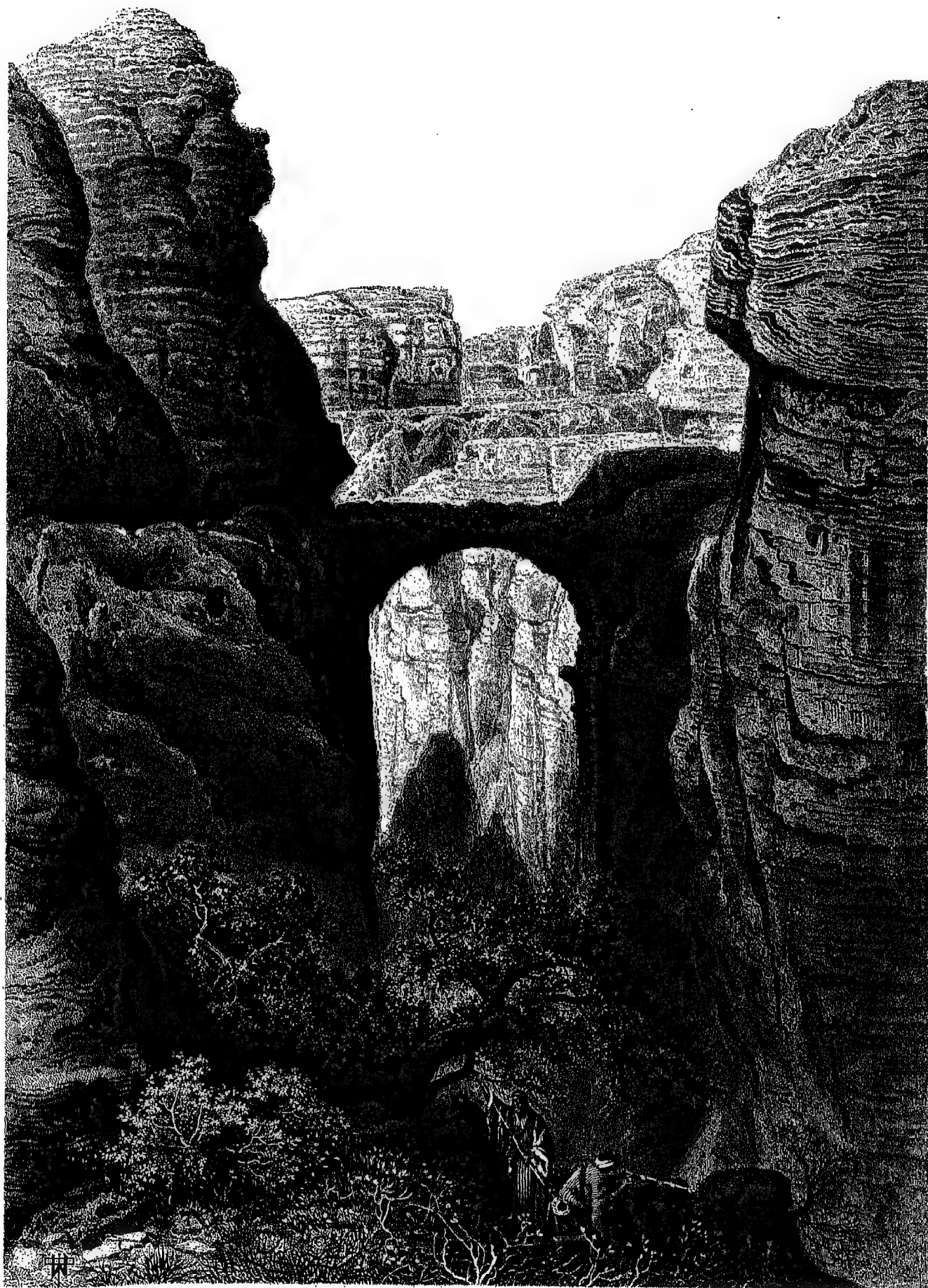
شكل قيثارة. وفي مستوى قمة القوصرة خط من المنمنمات والزخرفات، وفوق الكل قوصرة ثانية مدعمة بعامودين من كل جانب والقوصرة مقطوعة الى ثلاثة أقسام، والقسم الاوسط منها نصب اسطواناني يعلوه في ذروته شكل يشبه الجرة Urn وتتألف القوصرة التي قطعت من تسعة وجوه مختلفة للصخر، ثلاثة في كل جزء، الايمن والايسر والامامي بينما يستند الى الصخر الاساسي ويدعم كل جزء من القوصرة عامودان واحد على كل طرف. اما النصب الاوسط فيرتدي اربعة أعمدة، تزينها وجوه نسائية محفورة يغطيها حفر في شكل قماش فاخر. والعمل بأسره كما يبدو موضوع هندسياً، في نسب الوجوه التسعة وعلاقاتها - وجوه ربما بدت لي، أنا، وجوه موسى التسعة. وربما تضيف القيثارة ورمز أبولو الموجود دليلاً اضافياً على أنه موقوف لأولئك الملائكة التسعة. وبعد، فان هذه الهياكل المحفورة ليست في الواقع غير متحف بترا - وهو ليس بالتأكيد مجرد بيت عتيق في وصف الاتراك بل مؤسسة «فيلهارمونية» كاملة.

والبناء الثاني الذي يلي في الأهمية هو المدرج الصخري، او المسرح المحفور في الصخر الصلب. يبلغ قطره ٣٩ ياردة، ويحتوي على ثلاث وثلاثين صفاً من المقاعد، صفاً وراء صف، ويتسع لثلاثة او أربعة آلاف مشاهد. والمشهد من الصف الأخير في المدرج أخاذ ويتضمن معظم الأجزاء المحفورة في الوادي وقد حفرت في الحائط الصخري خلف المسرح غريقات او صناديق صغيرة، ربما كانت كهوفاً موجودة في الصخر قبل حفر المسرح فيه. وتقوم في مواجهة المسرح مباشرة بعض الاضرحة مع واجهات محفورة جميلة. يحتوي الاول على صف مدافن مثير للاهتمام. فقد قطعت هذه في أرض الكهف وقد ملأت معظم الغرفة دونما اهتمام بجهة اتجاهها. وعلى الحائط الى اليسار أشكال

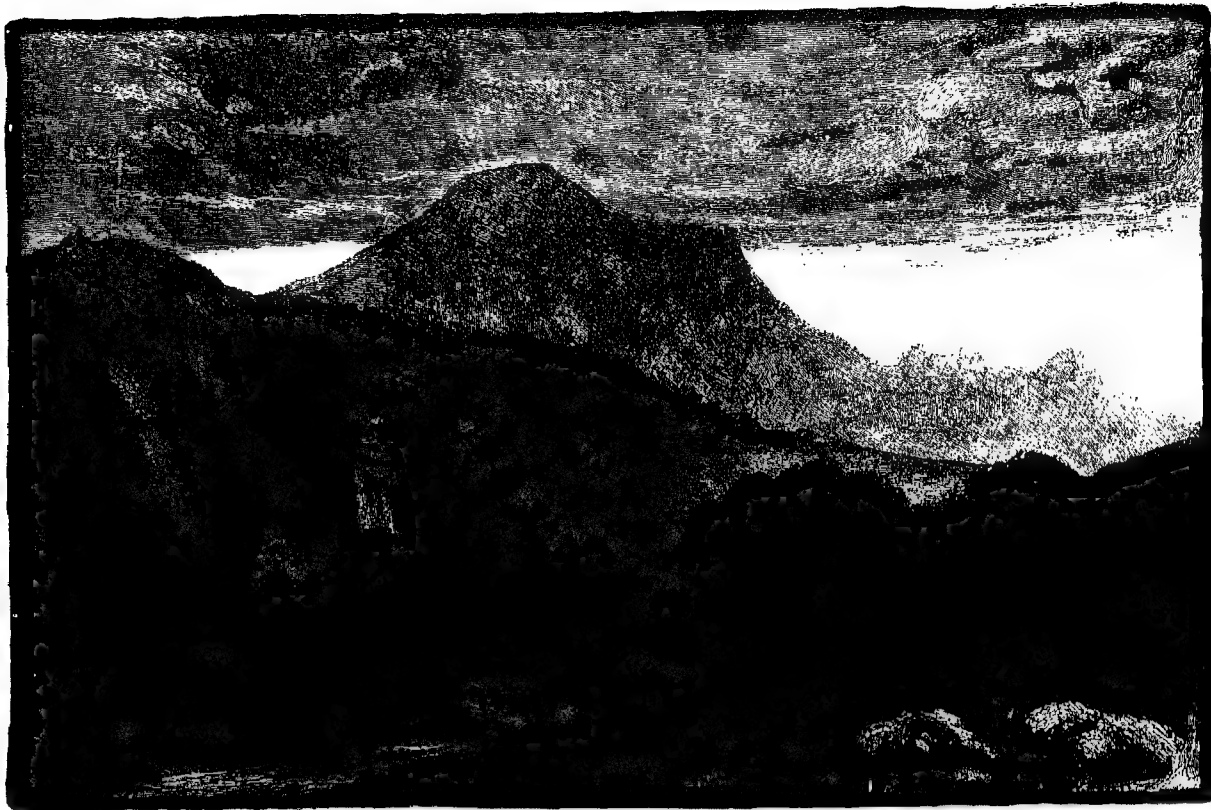


الصخرة المنحوتة مدرجاً (بترا)

نصب أو معابد ناباثانية Nabathaeans خشنة، غير دقيقة، وتتأرجح بين المسلة والهرم، وتحتها نقشان ناباثانيان. وهناك، أبعد قليلاً هيكل مقوس بديع كان يحتوي أصلاً على ستة كهوف او غرف، جعلت ثلاثاً مع قوس ناتئ عند طرفها كيما تكون في شكل كنيسة يونانية عادية. وتقوم كتابة يونانية مصبوغة بالاحمر تسجل حقبة سيامتها لكن التاريخ غير مفهوم مع الأسف. ولكل كهف أو ضريح مالكة، اليوم وهو يسكن فيه مع عائلته في الحر كما في القر.



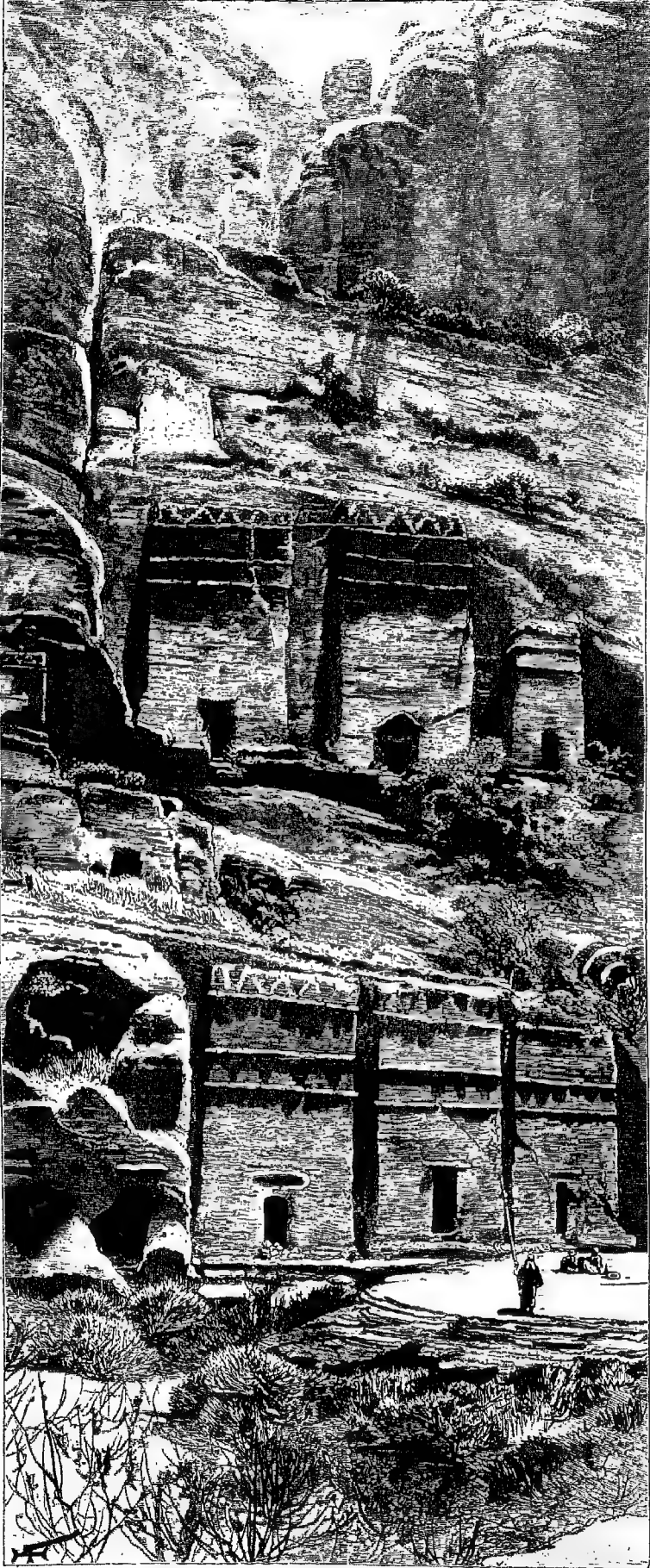
مدخل وادي بئرا



جبل هور
ويصل ارتفاع أعلى قمة فيه ٤٣٦٠ قدماً فوق سطح البحر

جبل هور وجدران إدوم الصخرية

تقدّم اللوحة المقابلة لهذه الصفحة فكرة عن الممر العميق الرئيسي، وربما الوحيد، الذي كان يستخدم في الأزمنة القديمة للوصول إلى الوادي الضيق المختبئ في قلب جبال إدوم Edom حيث كانت يوماً مدينة بترأ، والتي لا تضم الآن سوى موقعها وآثارها وأضرحة وهياكل محفورة في الصخر. ويصل هذا الممر، الشق Es sik وادي بترأ من جهة الشرق، ويبلغ طوله ميلاً ونصف الميل، ثم يشق طريقه إلى الامام متعرجاً، كما لو كان نهراً يتعرج مجراه لا شقاً بين جدران صخرية عالية. وقبل حوالي ٥٠ قدماً من مدخل الوادي تمتد قنطرية حجرية جميلة فوق الوادي، من جانب إلى آخر، على ارتفاع عالٍ (راجع اللوحة المقابلة). وتقوم عند المجرى، وتحت القنطرة مباشرة، فراغات محفورة في الجدران الصخرية كانت أمكنة لثماثيل، كما يبدو، ومحفورة في واجهة الصخر وارتفاع الجدران عند هذه النقطة يصل إلى ٨٠ أو ١٠٠ قدم، ولا يصل اتساعه إلى أكثر من ١٢ قدماً وهذه النقطة هي الأضيق في الشق، لكن الامكنة الأخرى ليست على كل حال، أوسع بكثير. وينحدر الوادي، الذي تغذيه شتاء مياه عين موسى، عميقاً نحو الغرب وتغدو جدرانه أكثر ارتفاعاً من مئة إلى ٢٥٠ قدماً، وأحياناً أكثر. واقترب الصخرين أحدهما من الآخر يجعلهما يبدو أن أكثر ارتفاعاً مما هما فعلاً. ويقدر آربي ومانجلز (Irby & Mangles) ارتفاعهما من ٤٠٠ إلى ٧٠٠ قدم، بينما يجعلهما مستر شيفنز من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ قدم. والجدران عامودية دائماً، ويعطي منظر السماء الزرقاء من الشريط الضيق، كما تبدو من الأسفل، انطباعاً قوياً. لكن الجدران تقترب، أحياناً بعضها من بعض لمئات الياردات، ودونما أن تلتقي، فتكاد تحجب منظر السماء. ثم يغمر الوادي فجأة طوفان من الضوٍ مصدره انخساف في جدران الجانب الشمالي يقابله آخر في الجانب الجنوبي، وخلفه الهيكل البديع الوردي اللون والذي يسمى «خزنة فرعون» (والتي مررنا بها) حيث يبدو على

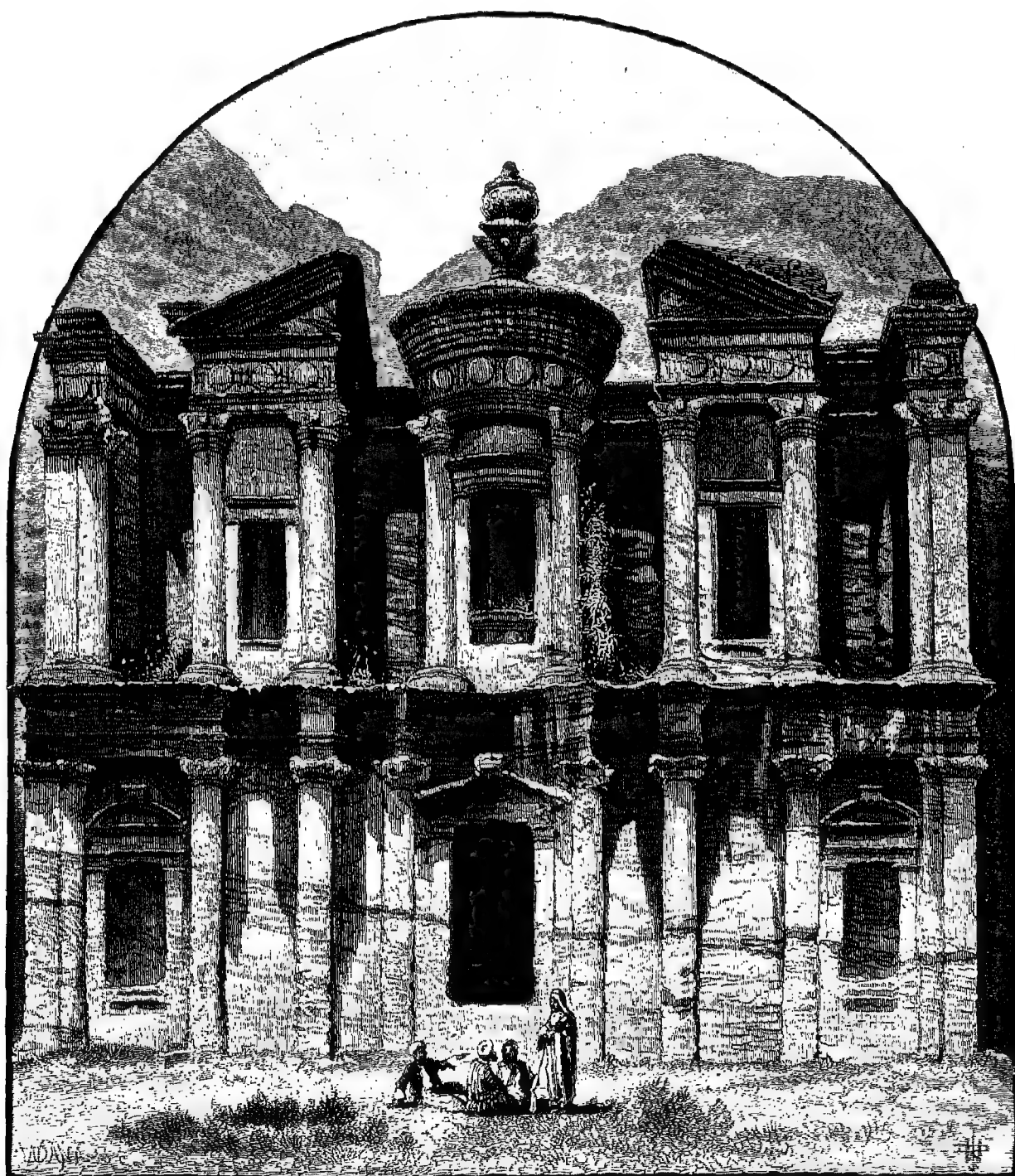


أضرحة في الصخر، بتر. ويسكنها اليوم افراد القبائل المقيمة في المنطقة.

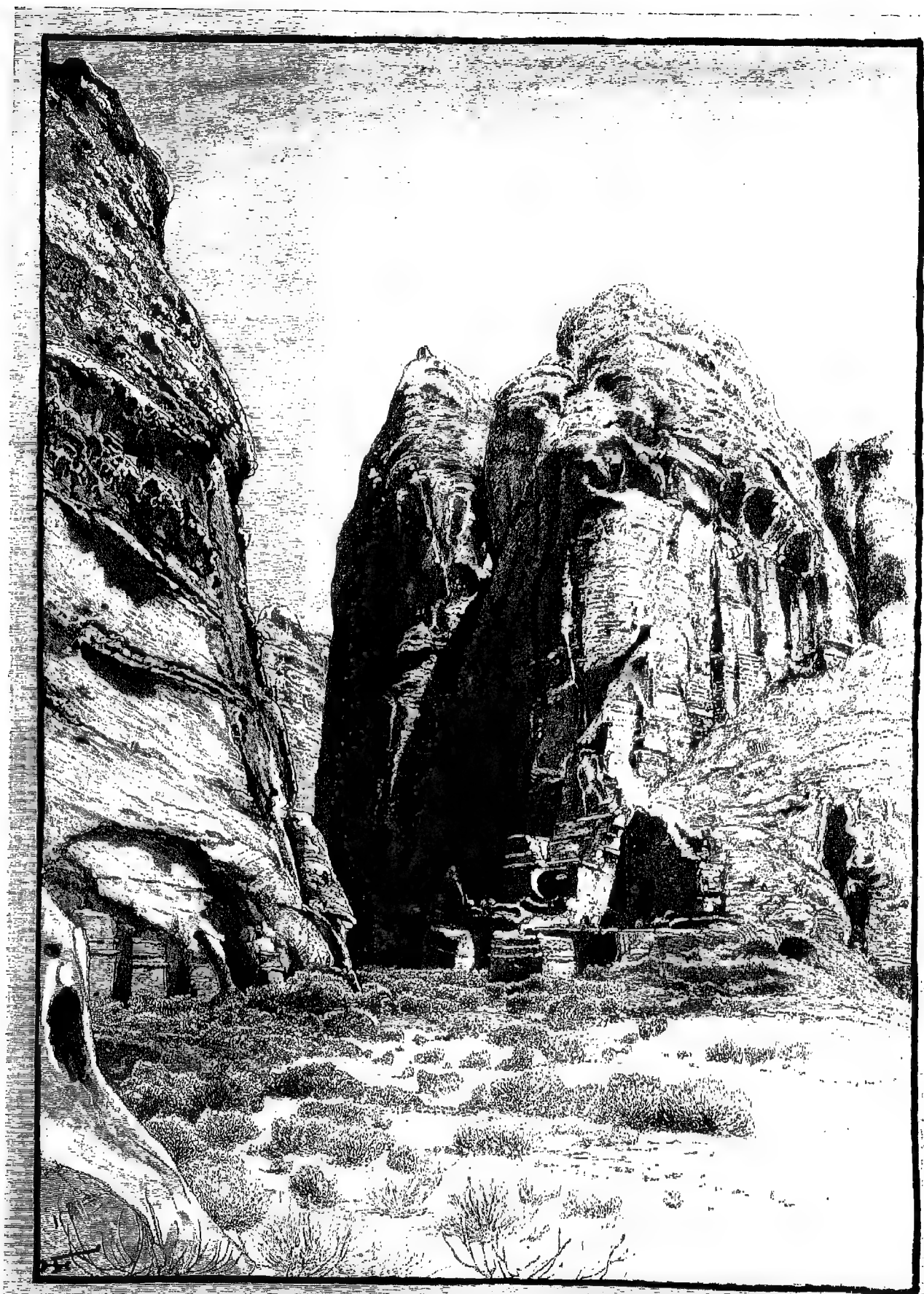
شكل قوس أسفل هذه النقطة. تقوم في الجدران أضرحة وكهوف لا عد لها تتجه الى الشمال الغربي إلى أن تفضي إلى حقل يغطيه الدفلي واللبلاب، يلجأ اليه باستمرار سكان بتر الحاليون، الذين يتخذون من الأضرحة والكهوف المجاورة أماكن سكن لهم. ويقوم الى الاسفل تماماً المدرج المحفور في الصخر ويتجه نحو الشمال. وتملاً الكهوف والأضرحة الجدران الصخرية، يتصل أحياناً بعضها ببعض إلى أن تنتهي شمالاً في وادي بتر، بينما يشق مجرى مياه الأمطار طريقه فيمر بين آثار بتر قبل أن يدخل الوادي بين التلال الغربية.

ويتفرع واد صغير آخر عند الزاوية الغربية - الشمالية الغربية للمنطقة ويعلو تدريجاً إلى أن يصل إلى «الدير»، أحد أهم آثار بتر محفور على وجه صخر عامودي يشكّل واحداً من المنطقة الصخرية العليا لإدوم. ويمر الطريق الطويل الذي نتسلقه للوصول إلى الدير على حافة الصخر، في سلم الدرجات الصخرية التي لا تنتهي، وعلى الكثير منها نقوش تحمل الطابع السينائي Sinaitic. وبعدما تدخل الطريق في أكثر من دغل وتلتف حول غير صخر ضخّم من صخور الحجر الرملي، تصل أخيراً إلى مسطح تبلغ مساحته ٢٦٠ قدماً مربعاً حفر جزء منه في الصخر وجرى بناء الجزء الآخر. ويقوم الدير على الجانب الشمالي منه بين حائطين صخريين عملاقين وهو أضخم حجماً من الخزنة إذ يرتفع إلى ١٠٠ قدم. واللافت أن العمل في الجزء الاسفل منه، وتحديداً الجزء الأسفل من الأعمدة والنوافذ، ليس مستكملاً، كما يبدو. وفي الداخل غرفة، في مواجهة المدخل، ترتفع قليلاً عن الأرض وامامها منصة توصل إليها بضع درجات من كل جانب. وهناك سلم

صخري خشن يقود الى السطح، كما تقوم على المسطح الصخري الذي يتصل به السطح دائرة من الحجارة المنحوتة، وخلفها صومعة محفورة في الجدار الصخري ويتصل بالمسطح ممر صخري ضيق ويقال ان الدير يرتفع فوق وادي بترأ بأكثر من ألف قدم، كما يتحدث العدد القليل من الرحالة الذين زاروه باعجاب عن موقعه المشرف والاراضي الشاسعة التي يمكنه الإطلالة عليها ويمكن من على سطحه الاشراف على الوادي بكامله وبجدرانه الحادة والتي لا يمكن الوصول إلا عبرها، بينما يقف بين يديك كامل الموقع الذي كانت تشغله بترأ في ما مضى. وتظهر الى الجهة الجنوبية الغربية، خلف المنحدرات الصخرية المتداخلة، قمة جبل هوروالذي يدعوه العرب جبل هارون. ويمكن مشاهدة المزار المقام على قبر النبي هارون عند أعلى نقطة في ذلك الجبل المقدس.



الدير، بترأ
بناء منفرد ذو منظر مشرف، وفي مواجهة جبل هور.



جدران الشق Sik ، بترا.

وتوجد عند سفح الصخر المقابل للدير بقايا ما يحتمل أنه كان هيكلاً لم يستكمل، فقواعد اعمدة الواجهات والقوصرات قد تركت وهي لما تنته بعد، كما عثر دافيد روبرتس، الفنان، في حفرة في الأسفل على قاعدة عامود هي، كما وصفها، «من الرخام الأبيض وتكشف عن ذوق رفيع».

تشكل العودة المستمرة لجوزافس (Ant.IV.iv,5, 6, 7) لإدوما وبترا في سياق روايته لموت مريم وأخيها هارون، ودفنهما، أمراً لافتاً؛ كما تلقي رواية الكتاب المقدس بعض الضوء على هذه الأرض المقفرة الآن، وتساعد على إعادة رسم خارطة الشعوب القديمة التي سكنتها، وصورة الجموع التائهة التي قادها صاحب الشريعة.

«عندما بلغ موسى بجيشه حدود إدوما أرسل الرسل الى ملك الأدوميين يسأله السماح بالمرور عبر بلاده، وعارضاً تقديم ما شاء من رهائن لضمان سلامته. وأضاف انه سيأمر بشراء تجهيزات وبضائع، بل وبدفع ثمن الماء الذي سيشرّبونه. لكن الملك أبى على موسى، وعلى جيشه، ذلك، واستقدم شعبه بسلاحه لملاقاة موسى فيما لو أراد المرور عنوة. واستشار موسى ربه فأبى البدء بالحرب، وهكذا سحب موسى جيشه ليستدير دورة كاملة وسط البراري (راجع الاعداد 17-21 xx). وتوفيت مريم شقيقة موسى في اثناء ذلك وقيم لها دفن مهيب، ودفنت على جبل معين كانوا يدعونه سين Sin، وعندما احيوا ذكراها الثلاثين (يوماً) من النواح أعلن موسى شعبه طاهراً....

وعندما انتهت فترة الحداد والتطهر أمر موسى جيشه بالتحرك عبر البراري شمال الجزيرة العربية، ولما بلغوا مكاناً يقال له عرق Arke، ولكن يقال له الآن بترا. وعند ذلك المكان الذي تحيط به الجبال العالية ذهب هارون الى قمة واحد منها، على مرأى من الجيش كله، وكان موسى قد أنبأه انه سيموت وعلى مكان هو في مواجهتهم. خلع هارون جبته الحربية وأعطاهما لولده اليعازر، ثم مات بينما الحشود تنظر اليه وكان ذلك في العام نفسه الذي خسر فيه أخته وفي اليوم الأول من شهر آبا Abba» (الاعداد 38 xxxiii).

ويقال أنه في عهد القديس جيروم كان قبر مريم معروفاً وقائماً قرب بترا (او قاديش بارنيا وفق الرواية الرسمية القديمة)، لكن موقع هذا الضريح وفق الرواية، ليس معروفاً مكانه على وجه الدقة. فقد ورد في «الأعداد 1.xx»، وتحديدًا، أن مريم ماتت في قاديش ودفنت هناك. ويورد جوزافس ان موتها حدث في اليوم الأول من الشهر القمري لكزانتيكوس Xanthicus، وكما يقول دين ستانلي: «فذلك يعني ان إحياء المناسبة كان لا يزال معمولاً به في زمنه»، وان الحج كان يجري الى الضريح، حقيقياً كان أم افتراضياً. ويرى دين ستانلي أن مكان دفن مريم هو على أعلى جبل يتوجه نصب الدير الذي جرى وصفه، ومن المحتمل جداً ان مكان القبر الذي كان معروفاً لسانت جيروم هو في هذا البقعة. ويشير موقعه المتميز وتشعب الدرج الصخري الذي يقود اليه انه كان سابقاً مكاناً سرياً، وتشير الكتابات الى انه كان مكاناً للحج في العصور المسيحية الاولى.

وفي زمننا هذا يقصد الحجاج اليهود والمحمديون، وبخاصة المحمديون، المزار ذي القبة البيضاء المقام على قمة جبل النبي هارون، مكان دفن هارون المفترض. ويبدو موضع اتفاق اليوم ان هذا الجبل المقدس هو «جبل هور على حدود ارض إدوم» مكان دفن هارون. وهو في العبرية «هور، الجبل. وإذا قبلنا تفسير جيسنيوس Gesenius ان «هور» Hor هو تحريف لـ Har العبرية التي تعني «جبل» فانها تعني اذذاك وببساطة «جبل الجبال» وهو يستحق، عن جدارة، هذا اللقب، لأنه يقف أعلى بكثير من الجدران والجبال المحيطة، كما يمكن تمييزه من بعد بقمته التوأمين. ويقوم مزار هارون على قمته الأعلى، وهي هي شكل قمع، يفصلها عن قمته الثانية منخفض صغير تنمو فوقه شجرة سرو وحيدة. ويقال ان ارتفاع أعلى نقطة في الجبل يصل الى اربعة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر.

وبسبب من نزاعات القبائل العربية المحلية، وعدم الاطمئنان اليها أحياناً، يبدو السفر في أرض إدوم صعباً كما يغدو تسلق جبل هور عملاً مستحيلاً.

وكان لمستر جايمس فين J. finn، القنصل السابق لصاحب الجلالة في فلسطين، الفضل في تسهيل عبور بعثات الاستكشاف الى بترا وجبل هور، بزيارته الشخصية للمكانين وبترتيباته مع شيوخ القبائل لضمان أمر الرحالة الانجليز مقابل مبالغ محددة. ويصف مستر فين زيارته لجبل هور فيقول:

« ٤ نيسان - واخيراً بلغنا السهل الكبير لوادي عربا، او «براري زين» وستكون طريقنا فيه مباشرة الى جبل هور.
 « ٥ نيسان - من الصعب أن تحكم على المسافات في مثل هذه السهوب الشاسعة وفي مثل هذا الصحو المستديم.
 وليومين نسير وأمامنا جبل هور، والجبل يكبر تدريجاً ولا نصل اليه وعند الجبال الشرقية كان هناك عدد لا يحصى من
 الحجارة الكبيرة البروفيرية متناثرة على الأرض....

انتقلنا من وادي عربا الى «وادي الطيبة» الذي يتجه الى قلب الجبال، فتسلقنا عدداً من المنحدرات الصخرية، وعند
 الرابعة الا ربع اطل علينا للمرة الاولى ضريح هارون، وعند الخامسة كنا قد نشرنا خيمنا على جانب الجبل بين
 الصخور ونباتات نادرة، يعشش فيها الكثير من الحمام البري وشجو عصفور واحد لا غير. ورأينا خلال الساعات
 التالية بعض الحمام الأزرق وحجلاً واحداً، وعقابين اثنتين كبيرتين، كل على حدة، رأينا ظلهم على الأرض وحينما التفتنا
 كانا قد رحلنا بسلام.

« ٦ - نيسان مع الصباح انطلقنا صعداً صوب ضريح هارون، على أيدينا وركبنا أحياناً. وارتحنا قليلاً في ظل شجر
 العرار. وكان الوزال ينتشر بكثافة وفوقه أزاهير بيضاء جميلة، مع رائحة ذكية، قوية. [تلك هي الرقم المذكورة في
 الملوك 4.5، xix، والتي قدمت الملاذ لمارالياس وهي اكبر شجيرات سيناء].

«ولون الجبل كله أحمر قانٍ، وكلما صعدنا أكثر كلما بات الوصول الى القمة أكثر صعوبة. وبدا الامر مستحيلاً، الى
 ان نظرنا حولنا فوجدنا حفرة بئر، مع محيط حجري حوله، وخلفه درجات حفرت في الصخر حيث تبلغ درجة انحناء
 الصخر خمسين او ستين درجة. وقدم لنا ذلك بعض العزاء والتشجيع. والتقطت في مواقع أعلى قطعاً من الموزاييك
 والرخام والمرمر. وبلغنا بعد طول مسير وتعب اعلى قمة في الجبل حيث تكاد لا تتسع الا للضريح الصغير. [وهو بناء
 حجري فوقه قبة مطلية باللون الابيض]. «وحينما دخلنا كان هناك قرب المدخل ضريح من النوع العادي مغطى برداء
 حريري بالأحمر والأخضر والأبيض. لكنه باهت كثيراً. ومقابل العمود الذي يدعم السقف كانت خرق ملونة معلقة.
 وخيطان من صوف وأصداف برية وبحرية بينها في نوع من الزخرفة. وعند طرف الضريح وعاء خشبي يحتمل انه
 لتلقي الصدقات لإعانة من يقوم على العناية بالضريح، والذي يمارس المداواة بين بدو المنطقة بالرقية والتعاويذ.
 وكانت الارض كما يبدو مرصوفة برخام جميل، زال معظمه، وفوق الضريح بيض نعام صُف كما في الكنائس
 الشرقية، وقربها محراب في الجدار يشير الى جهة القبلة للمصلين المسلمين.

وفي احد زوايا ارض الضريح درج يتجه الى أسفل، وحينما نزلناه مستعينين بضوء قنديل، لم نجد شيئاً غير
 حاجز حديدي يتأرجح دونما قفل، وبعده حائط سقط قسم من تغليفه فسمح برؤية زاوية قبر. لكن القسم المرثي منه لا
 يكفي لتحديد عمره او الحقبة التي ينتمي اليها. وكان سقف السرداب أسود جراء دخان القناديل. خرجت من السرداب
 وصعدت الى سطح الضريح. كان المشهد من فوق عصياً على الوصف، وكل ما في وسعي قوله هو ان صفوفاً من
 القمم والتلال تتدرج أمامك، كما في الخرائط الطبوغرافية، والمشهد اجمالاً يمتد الى ما لا نهاية، مقفر وموحش، لا
 شيء سوى الجبال والصحراء. ولم يكن في وسعي مشاهدة بترا، حيث ترقد في واد عميق بين التلال». [يمكن مع ذلك
 ومن هذه النقطة مشاهدة «الدير» على تل لجهة الشرق والشمال الشرقي، كما يمكن في طقس صافٍ رؤية البحر الأحمر
 والبحر الميت بوضوح].

«هبطنا من الجبل من الجهة المعاكسة التي صعدنا منها، جهة بترا، واكتشفنا ان ممراته أيسر سبيلاً، وان تسلقه
 سهل قياساً بما عايناه. وكان هناك حمام وحجل بكثرة، وإذا التفت الى الخلف كان نسر كبير يحلق فوق الضريح.

ومن تقاليد الحجاج المسلمين أن يضحوا، قبيل صعودهم الى الضريح، بجدي او عنزة او رأس غنم على صخر عالٍ
 مسطح يسمى «سطوح هارون» Aaron's Terrace، عند اسفل الجبل ولكن في مرأى الضريح. وكان بركهارت رائد
 مستكشفي هذه المنطقة قد سافر في رفقة حاج مسلم، ثم استأجر دليلاً شرقي بترا سار به عبر المدينة الى مزار
 هارون، حيث ضحى على اسفل الجبل، وكانت فرصة لمشاهدة عجائب الوادي. سار به الدليل الى «سطوح هارون»،
 وقتل ببركهارت شاة في مكان كانت فيه اكوام من الحجارة. وبينما كان ببركهارت يذبح الشاة، كان الدليل يناجي قائلًا:

«يا هارون أنظر ألينا! جئناك نقدم الاضاحي! هارون إحمنا وسامحنا! ترفق بنا وبأعمالنا! إن هي الا شاة ناحلة! هارون يسر أمرنا، والصلاة على رب الخلق أجمعين!» وأعاد الدليل ذلك عدة مرات، قام بعدها بتغطية الدم الذي سال بكومة من الحجارة. وقدم بعدها أفضل قطعة لحم من الشاة المذبوحة، وكانت الشمس على وشك المغيب، ثم جعل ناراً وقد تملكه الخوف من ان تجذب النار للصوص وقطاعي الطرق.

ومن أسفل جبل هارون يمتد ممر جمل نحو الجنوب الغربي بين أودية خضراء فسيحة وممرات صخرية ضيقة الى «وادي عربا». وتحتاج الرحلة من وادي عربا الى خليج العقبة جنوباً الى ثلاثة أيام.

وتعني كلمة «عربا» بالعربية «النهر السريع» (ومن المحتمل انه كان هناك في وقت قديم جداً نهر سريع، اي جار، يمتد في هذا الوادي من لبنان الى البحر الاحمر)، إلا ان المرادف العبري للكلمة يعني «الصحراء»، وهو ما ينطبق تماماً اليوم على المنطقة من الشرق الى منحدرات إدوم وصولاً الى الهضبة الكلسية الواسعة الأرجاء للتيه Tih. انها حقاً «ارض لا تزرع» (Jerii.2). تتألف تربتها، وكما يصفها مستر فين من «الرمل والحصى»، في نسب مختلفة باختلاف الامكنة، بحيث يكون الرمل طاغياً احياناً، وتكون الحصى طاغية في أحيان أخرى، مع كسر صوان يسهم في اعطاء الارض صلابة حديدية. وتبرز بين الحين والحين، وخصوصاً عند جوانب التلال كتل صخرية ضخمة. وتذري الرياح في اماكن معينة الرمل الناعم من مكان الى آخر كما على شاطئ بحر».

الا انه تنبت، حتى هنا، انواع من الشجيرات والاشواك تجد وسيلة لتعيش، بطريقة او بأخرى، وبخاصة الميموزا (الطحلب البري). ويكثر في المنطقة شجر النبك Nebk، ويستطيع ان يغتذي، لأيام، من ثمره الصغير، الدوم Dom. وتعرش فوق الارض هنا وهناك نباتات الحنظل، «بفاكهته الحادة»، التي تبقى بلونها الذهبي على الارض او الرمل بعدما تموت النبتة، وثمرتها في حجم حبة برتقال، احياناً. وهي لا تؤكل، ولا يستخدمها العرب في شيء. وتنبت في هذه البراري، وبخاصة في المناطق العالية، حلقات من الأعشاب أو الأزهار، هنا أو هناك. ويشير مستر فين الى «أزهار نجمية تسمى «الدبية» Dibbaih، ذات لون برّي غامق يغتذي منها العرب وهي بشكل بتول أو سويق أو كاسية».

ويصف شقيقي إ. ت. روجرز في رسالة من القاهرة، رحلة له في عربا فيقول: «إذا سرت مسرعاً ودونما كبير ضجة فستطالعك قطعان من الغزلان عند الوهاد التي يظهر فيها مرعى أو أزهار، وكذا الأرانب البرية بين الحين والحين. وتفرأليربوع Jerboas بين أرجل الجمال، تركض على سيقانها الاربعة قبل أن تقفز على قوائمها وتدخل مخابئها او تختفي خلف الصخور ويمكن متابعة آثار أقدام الوعل الطويلة على الرمال أو آثار الأقدام الضخمة للضباع. وفي حالة واحدة، كانت هناك آثار أقدام غزال وذئب معاً، وكان هناك رمل متطاير على تلك الآثار، كأنما هناك مطاردة وفر وكراً».

وترتفع أراضي عربا بالتدريج وهي تتجه جنوباً، الى ان تغدو هضبة تسمى محلياً بـ «خرج الریش»، أو الحاجز الجاف بين البحر الميت وخليج العقبة. يبلغ اتساع الوادي هنا حوالى خمسة أميال، لكنها تصبح أربعة حين تتصل بالخليج وتنحدر الوادي غرباً. وتحمل سيول اودية إدوم الشتوية ومياه الجداول التي تتجمع من بين التلال، لتغدو مجرى ماء شتوياً يصب في خليج العقبة عند زاويته الشمالية الغربية ويبلغ ارتفاع الجبال الشرقية بين ٢٠٠٠ و ٢٥٠٠ قدم، وارتفاع الجبال في الجهة الغربية بين ١٥٠٠ و ١٨٠٠ قدم.

وفي السجلات أن «الملك سليمان ابتنى اسطولاً من السفن في هزيون جيبيير Ezion Geber، عند شاطئ البحر الاحمر، في «أرض إدوم» (الملوك ix. 26 Kings). لكن شيئاً من ذلك الميناء البحري القديم لم يبق اليوم، إلا ان موقعه ربما يكون في موقع نبع ماء مالح يدعى «عين الغوديان» مقابل وادٍ يحمل الاسم نفسه ويجري من التلال الغربية الى وادي عربا Araba الكبير، في نقطة تبعد عشرة أميال عن شاطئ البحر والتي ربما كانت في زمن الملك سليمان الطرف الشمالي للبحر الاحمر «في أرض إدوم» (يمكن مشاهدة تغيير آخر في موقع الشاطئ عند رأس خليج السويس) ويتأتى برهان آخر على هذه الفرضية من الاشتقاقات والمرادفات اللغوية للإسم. فاللفظة العبرية هزيون Ezion، في أصلها، واللفظة العربية، الغوديان، تتقابلان حرفاً حرفاً كما أنهما متطابقتان صوتياً، كما يشير البروفسور بالمر Palmer

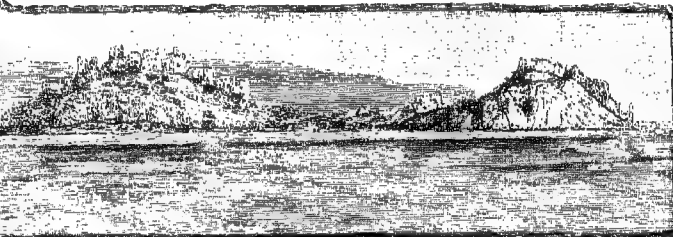
«ديانا»، الصيغة الرومانية للإسم كما يظهر في ألواح بيتينغر Peutinger Table*. ففي هذه الألواح تبعد ديانا (هزيون) ١٦ ميلاً رومانياً أي ١٤ ميلاً إنجليزياً ونصف الميل من «هايلا» (إيلات) وهو موقع يتطابق تماماً مع الغوديان التي مررنا بها.

أما بخصوص (إيلات) فليس هناك خلاف على موقعها فما زال موقعها محددًا بتلال عالية من الركام عند رأس خليج العقبة، وعند التجويف الشرقية للخليج وتاريخ هذا المكان معروف ومتفق عليه منذ استخدمه سليمان كميناء بحري. وكان السوريون في عهد أهاز Ahaz قد سيطروا عليه وطرده منه اليهود (الملوك xvi.6). وذكر المكان تكراراً لدى المؤرخين الاغريق والرومان تحت اسم «إيلا» أو إيلينا AElena، وكان مقراً لفيلق روماني. وكان في عهد جيروم طريقاً للتجارة مع الهند. ومع اقتراب الجيوش المنتصرة لخلفاء محمد سنة ٦٣٠م، استسلم جون (حنّا) الملك المسيحي على «إيلا» دونما قتال ودفع الجزية وبقي المكان مهملًا وتضاءلت أهميته تدريجاً. إلا أنه في سنة ١١١٦ احتله بلدوين الاول مع ٢٠٠ رجل من أتباعه بعدما وجدته مهجوراً. وفي سنة ١١٦٧ استعاده صلاح الدين وبقي كذلك منذ ذلك الحين، رغم أن الفارس المشاكس رينالد شاتيون تمكن من احتلال البلدة، في وقت ما لبضعة أيام.

تمثل إيلاه، أو «عقبة إيلاه» في الاسم الحديث لمدينة إيلات، إحدى أهم المحطات على طريق الحج المصري. أي قافلة الحجاج السنوية من القاهرة الى مكة، تقوم أهمية البلدة اليوم في وظيفتها تلك تحديداً. ولا يقوم في المكان اليوم غير حصن ضخم يسمى «قلعة العقبة»، يحتمل انها ابنتيت في القرن السادس عشر جنوب تلال الركام التي اشرنا اليها. وهي مقر الحاكم ومعه سرية جند صغيرة بهدف حفظ ولاء القبائل المجاورة وتأمين أمن قوافل الحج. والقلعة مربعة



الشكل، وجدرانها سميكة عالية، مع أبراج ناتئة على الزوايا وتقوم في الجوار آبار مياه عذبة. كما تحيط بها غابة من أشجار النخيل. وهناك في الداخل، وحول الجدران صوامع أو غرف صغيرة مع سقوف مسطحة أنشئت فوقها أكواخ من اغصان النخيل ويشتق الاسم الحديث للمكان «العقبة» من العقبة الحادة والطويلة القائمة عند الجبال الغربية على طريق الحج.



جزيرة فرعون.
عند رأس خليج العقبة كما تبدو من الشاطئ الغربي.

وغير بعيد عن موقع العقبة (إيلات)، وتاريخها، تقوم جزيرة فرعون، الجميلة. تبعد الجزيرة عن حصن العقبة حوالي تسعة أميال إلى الجنوب والجنوب الغربي، وحوالي نصف الميل عن الشاطئ الغربي المقابل. ويقول الكابتن ر. ف. بورتن الذي زار الجزيرة أخيراً، ان سكان العقبة يدعونها

* هي بيتينغر من أوغسبرغ، السياسي والاكاديمي، مالكة لفترة من الزمن قبل أن تنقل الى المكتبة الامبرطوية في فيينا، وهي خارطة للطرق العسكرية في الامبرطورية الرومانية والمسافات بينها وتعود بحسب البعض الى الكسندر ساقاريس ٢٢٢ - ٢٣٥م وليست ابعد من القرن الرابع في مطلق الاحوال. إلا ان النسخة الحالية تعود كما يبدو الى القرن الثاني عشر او الثالث عشر: وقد كانت دائماً مهمة في معرفه طوبوغرافيا الكتاب.

ببساطة «جبل القلعة» الا أن للجزيرة في الواقع غير اسم محير؛ «القرى» Elkurey والقرية ويدعوها لابورد laborde «الغراي» ElGraie. وهي عبارة عن جبل صخري من الغرانيت، يحيط به خندق بروفيري متآكل، وفيها عروق من الكوارتز الملون المشع يبلغ طولها حوالى ٣٤٠ ياردة وعرضها ١٥٠ ياردة، وتتألف من مرتفعين يصل بينهما برزخ صغير. والمرتفع الشمالي هو الاعلى، ويرتفع حوالى ١٠٠ ياردة عن مستوى سطح البحر. ويحيط بالجزيرة ريف مرجاني. ويقوم على أقصى الطرف الشمالي برج وعلى المرتفع الشمالي قلعة يحميها سور. وهناك في الجزء الأعلى خزان تحت الارض فيه قنطرتان يفصلهما عامود طويل. وفي الأسفل ميناء صغير، وممر دائري مغطى يسمح لحرس الجزيرة ان يلتف بأمان حول قاعدة الجزيرة. وتقوم في المرتفع الجنوبي انشاءات مشابهة لكنها أصغر حجماً.

وبحسب الكابتن بيرتون، الذي نستمد منه هذا الوصف فالقلعة أوروبية النمط، ابتليت ايام الصليبيين بعدما احتلوا العقبة وبغرض الدفاع عنها؛ ولكن يحتمل أنها تقوم على أسس رومانية سابقة، وكذا الرومانية فوق اسس مصرية اقدم عهداً. أما الانشاءات السراسنية فتعود الى أيام حكم صلاح الدين الذي طرد الصليبيين سنة ١١٦٧ ميلادية. وسنة ١١٨٢ حاصر رنالد شاتيون الجزيرة لبعض الوقت ولكن دونما نتيجة، وكانت الجزيرة في عهد «ابو الفدى» نحو سنة ١٣٠٠ م مهجورة وانتقل الحاكم الى القلعة القائمة على اليابسة، قلعة العقبة؛ مما يعني أن الابنية كلها إنما ابتليت قبل ذلك التاريخ. وظلت الجزيرة لقرون اما مقفرة او ملجأ لصيادي السمك وللقراصنة.

دير سانت كاترين

تمرّ طريق الحج، لحجاج سوريا وفلسطين، الى دير سانت كاترين والأماكن المقدسة المجاورة في وادي عربا ثم حول رأس خليج العقبة وأخيراً على شاطئه الغربي. أما المسافرون الذين يدخلون شبه جزيرة سيناء من الشمال الغربي وبدلاً من أن يأتوا من طريق السويس فهم يدخلون من الطريق نفسه، وعبر الكثبان الرملية عند أقدام جبل الغرانيث الرمادي تقطعها أحياناً أودية صخرية مكسوة بالحصى .

وعند نهاية الوادي الفسيح المقفر، وادي مرقا Merakh في مرأى جزيرة فرعون، يجبر المسافر على تبديل مرافقيه، إذ تنتهي المنطقة التابعة لقبيلة الحويط Hai-wat وتبدأ منطقة نفوذ قبيلة الطوارا Tawarh الكبيرة. وتمر الطريق بعد ذلك ولبعض الوقت، جنوباً، فوق رؤوس ومرتفعات تدخل عميقاً في البحر.

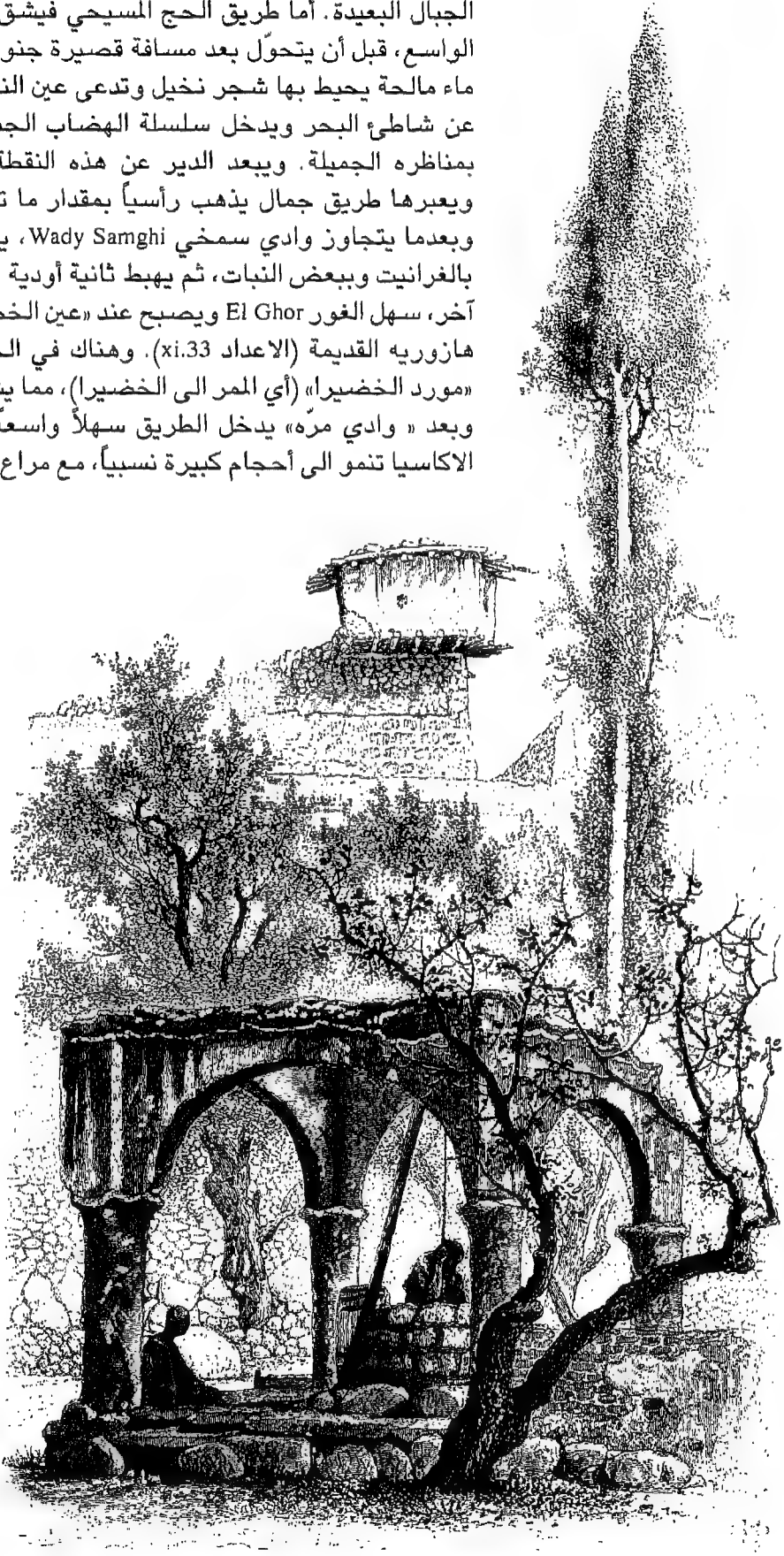
ويمكن بسهولة تبين أرض الميدين Midian عند الجانب الشرقي، المقابل، من الخليج. وبعيداً الى الداخل تظهر سلسلة تلال تبدو من بعد. زرقاء ترتفع كعنق فرس وهي «تلال الشروف Elsharâf، وتنحدر منها هضاب رملية (أو تومات



الصليب والهلال

ماديان حسب البدو) باتجاه شاطئ البحر. ويمر طريق الحج الى مكة عبر هذه الهضاب من «حقل» Haki، وهي محطة للحجيج عند شاطئ البحر، وفي اتجاه الجنوب الشرقي نحو الجبال البعيدة. أما طريق الحج المسيحي فيشق طريقه جنوباً على طول الشاطئ الرملّي الواسع، قبل أن يتحوّل بعد مسافة قصيرة جنوب الوادي الضخم، وادي الوتر مقابل عين ماء مالحة يحيط بها شجر نخيل وتدعى عين النويبية En Nuweibi'a وعلى نحو حاد بعيداً عن شاطئ البحر ويدخل سلسلة الهضاب الجبلية العظيمة، نكب البويب Nekbel Bweib بمناظره الجميلة. ويبعد الدير عن هذه النقطة حوالي ٥٠ ميلاً الى الجنوب الغربي، ويعبرها طريق جمال يذهب رأسياً بمقدار ما تسمح طبيعة الأرض الجبلية والصخرية. وبعدما يتجاوز وادي سمخي Wady Samghi، يطلّ على سهل من الصخر الرملّي المعرّق بالغرانيت وبيعض النبات، ثم يهبط ثانية أودية ويتسلّق منحدرات أخرى ليصل الى سهل آخر، سهل الغور El Ghor ويصبح عند «عين الخضير» Ain EL Hüdhera، والتي تمثل ربما، هازوريه القديمة (الاعداد xi.33). وهناك في الجوار سلسلة من الاودية الصغيرة تدعى «مورد الخضير» (أي الممر الى الخضير)، مما يشير الى انها كانت في وقت ما مكاناً مهماً. وبعد «وادي مره» يدخل الطريق سهلاً واسعاً، وادي سال Sa'al. وتشاهد هنا نباتات الاكاسيا تنمو الى أحجام كبيرة نسبياً، مع مراعي صغيرة وكثير من الأشواك، ويمكن جمع

الصمغ العربي من تلك الشجيرات. ويدخل الطريق بعدها ممراً ضيقاً في وادي سال Saal، بين جبلين عاليين من الغرانيت، مع عروق من حجر سماقي وأردوازي Slate، مع حجر رملّي هنا وهناك، وكلها قفر من كل نبتة أو زرع، عدا شجيرات قليلة ونادرة تنمو في قعر الوادي. ويصعد الطريق، بعد الوادي، في ممر صخري في الهضبة التي تشكّل برأي روبنسون، «حوضاً بين خليج السويس وخليج العقبة» ويلي الهضبة واد يدعى «وادي السورية» فيه بئر، أبو السورية، تحيط به بساتين وحدائق. وينتهي هذا الوادي في «وادي الشيخ» (صالح)، قريباً من مزار ولي محمدي، يعلو ٤٤٧٩ قدماً فوق سطح البحر، على اسم النبي صالح وهو محل إجلال عظيم من البدو. وهو كمعظم المزارات، دائري الشكل تعلوه قبة مدهونة بالابيض وفيه مدفن ورفوف معلقه فوقه، فيها نذورات وصدقات من شرابات وبيض وشالات وورصن جمال ولجامات. ويعتبر بدو الطواري (من طور، سيناء) أن النبي صالح هو جدّهم الأول، ولعله النبي المحمدي الأكرم الذي يحمل الاسم نفسه والذي اشتهر في زمن مبكر ببلاغته، والذي يمتدحه القرآن كأحد الانبياء العظام (راجع سال Sale، القرآن، Ch.vii).

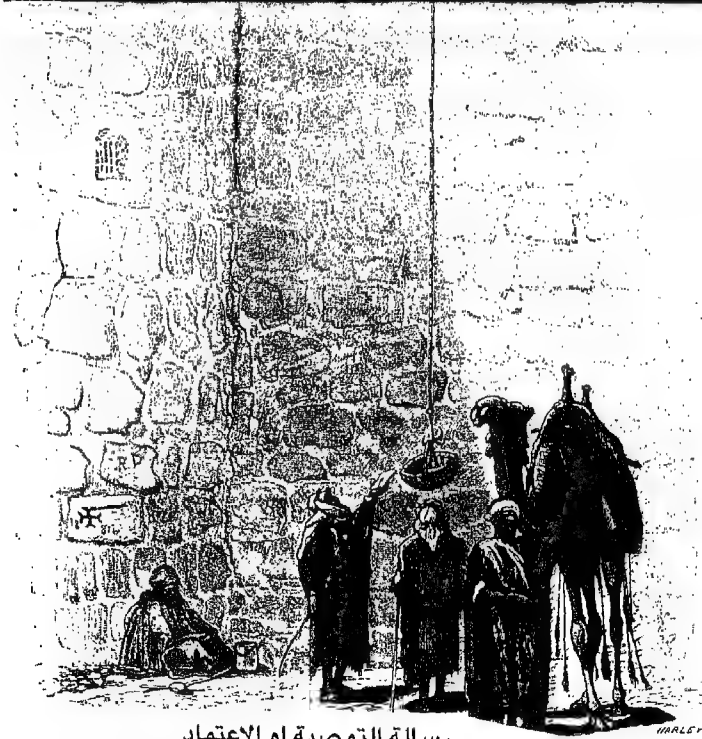


بئر في حديقة دير سانت كاترين

ويقام في شهر آيار كل عام احتفال كبير عند النبي صالح، تصاحبه أضياعي وولاتم ومباريات، تحضره النساء

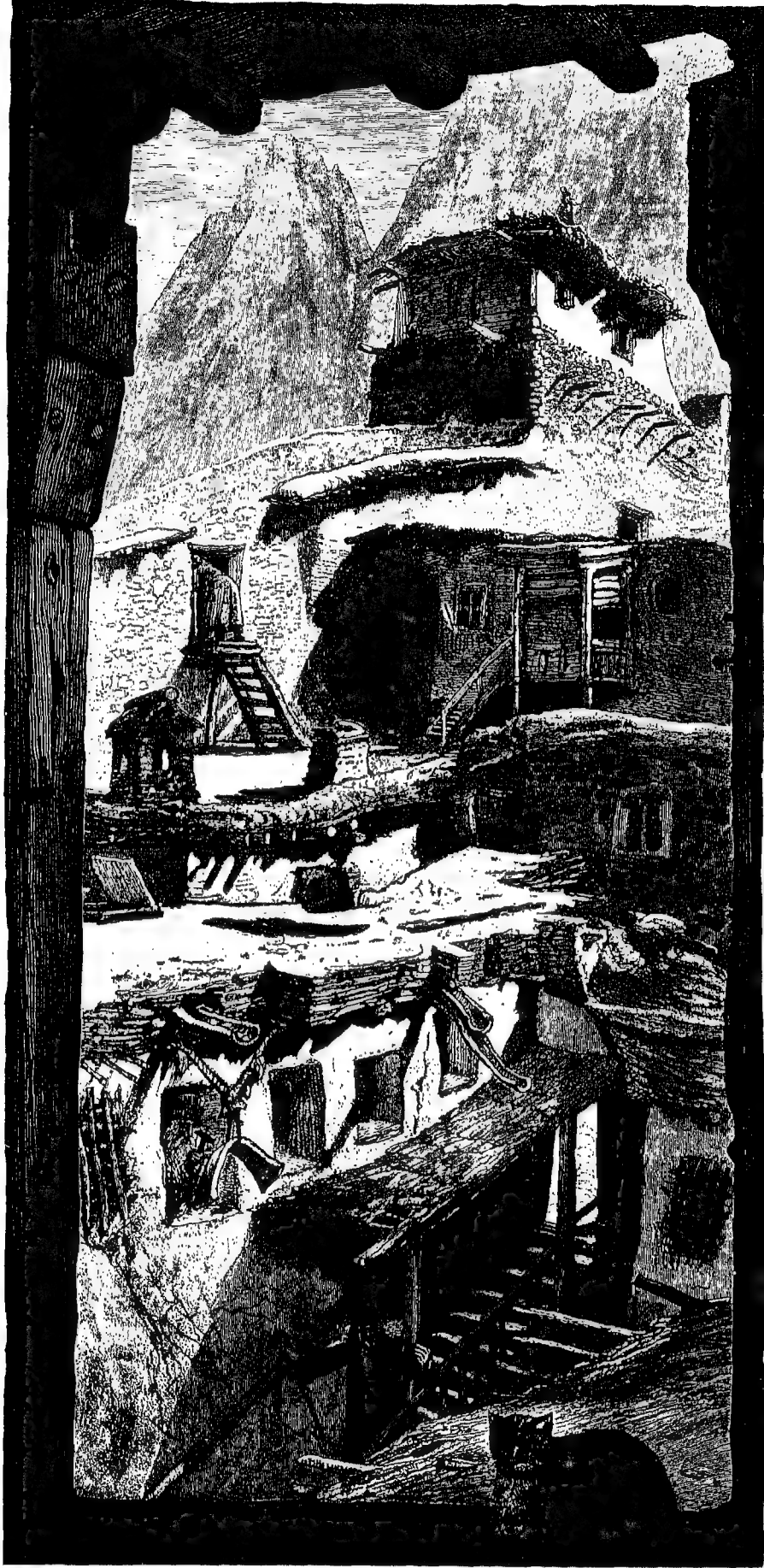
كذلك؛ ويقام احتفال أصغر حجماً بعد موسم قطاف البلح. ويصعد الجميع بعد انتهاء الاحتفالات الى قمة «جبل موسى» حيث تقدّم الأضياعي الى موسى. ويمكن من مزار النبي صالح مشاهدة مرتفعات جبل موسى. وترتفع الطريق تدريجاً، بعدما نعبّر وادي الشيخ، وقبل أن ندخل وادي الدير حين يبرز امامنا فجأة الدير الكبير، ولكن لا يظهر منه عند هذه النقطة غير سوره الشمالي الغربي العالي وحدائقه الواسعة (كما يظهر في غلاف هذا المجلّد).

والدير مربع الشكل، على غير انتظام تحيط به



رسالة التوصية او الاعتماد
يقدمها القادم الى وكيل الدير تسحب الى فوق فإذا قبلت يسمح
للزائر او المسافر بالدخول من باب جانبي.

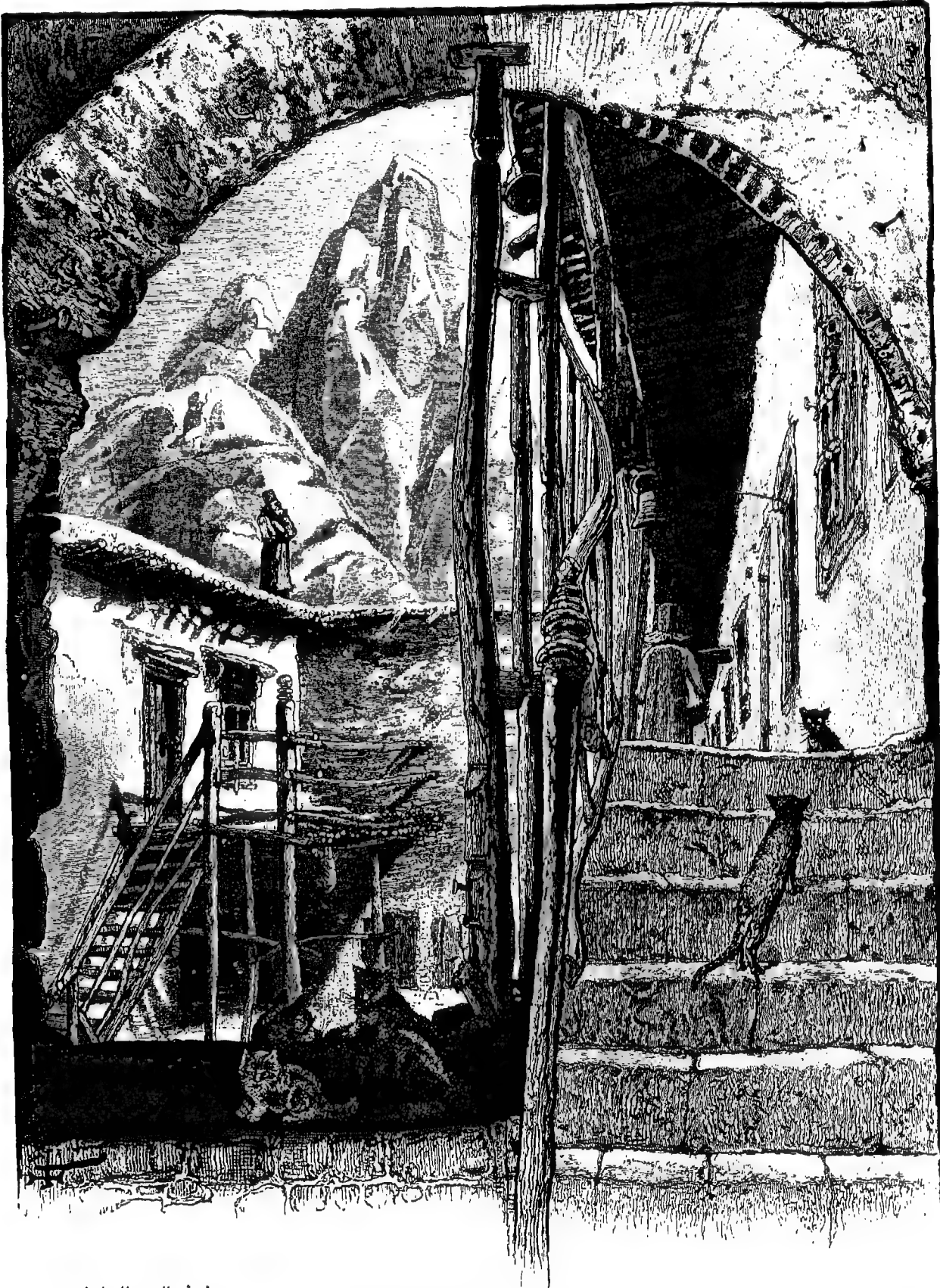
أسوار عالية من الحجارة الغرانيتية، خلا الصفوف الأخيرة فهي خليط من الحجارة الغرانيتية والرملية والحصى، جبلت بالطين واكتسبت صلابة واضحة. وتحمي الاسوار أبراجاً عدة، كما أن هناك منحدرًا يحمي السور الجنوبي الغربي. ووادي الدير ضيق في قعره، وبينما يمتد سوره الشمالي الشرقي مع مجرى المياه، فإن القسم الاساسي من البناء هو على المنحدر الجبلي وبحيث يصبح السور الجنوبي الغربي أعلى بكثير من السور الشمالي الشرقي. وتقوم في أسفل السور الشمالي الشرقي بوابة صغيرة، فوقها سقيفة تعلو ٣٠ قدماً عن الأرض. كان المسافرين في الماضي يسحبون منها الى الدير. فحالما يصل المسافر أسوار الدير يتقدّم تابعوه من البدو وينادون: «يا موسى يا موسى»



منظر من الرواق الشمالي الشرقي.
وتظهر الغرفة العاليه عند الزاوية الجنوبية. وراهب يطل من نافذة غرفة يطرق
بالمطرقة قطعة حديدية وهو التقليد في الدعوة الى الصلاة.

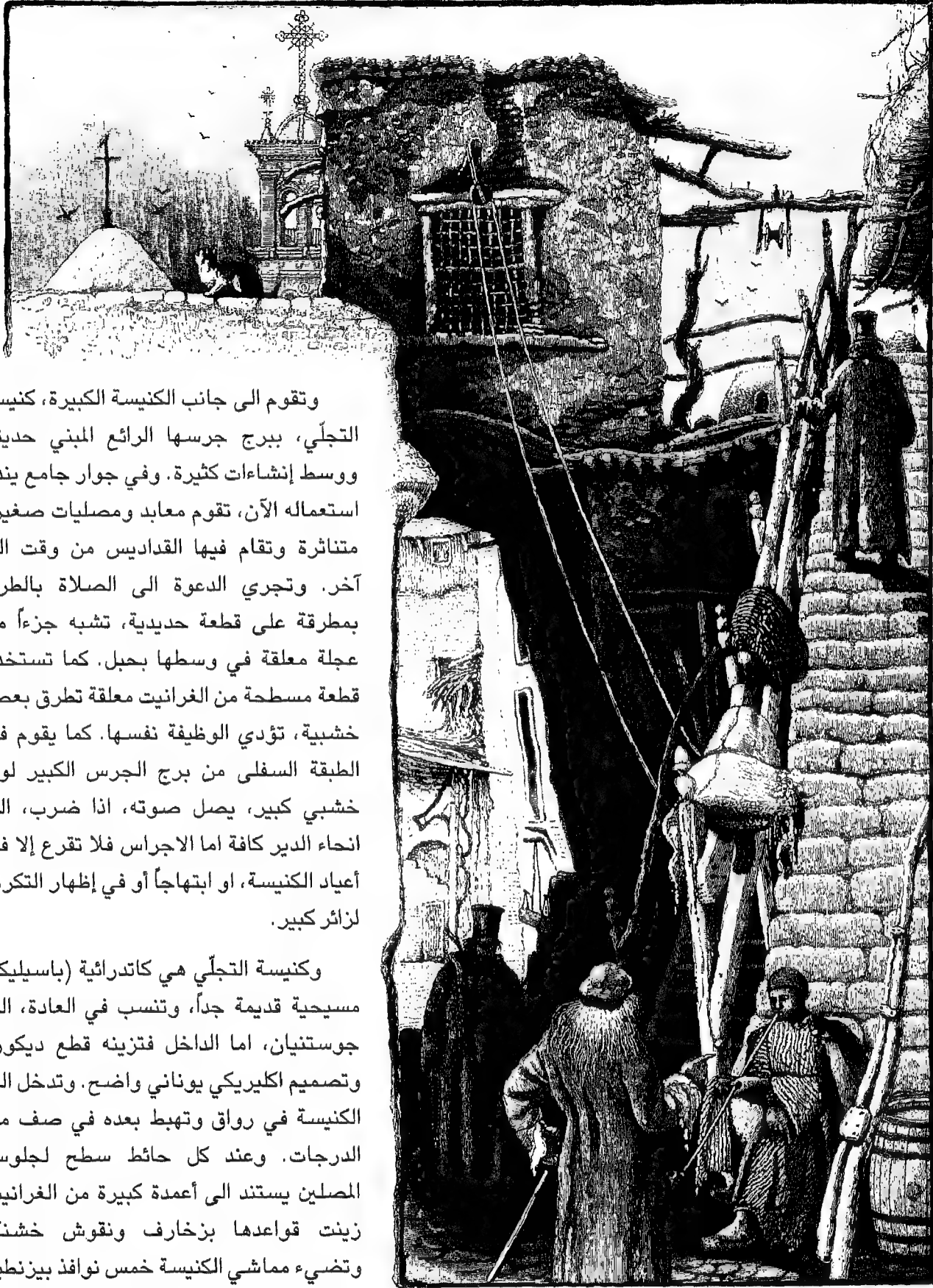
وهو اسم الحاجب في الدير. ويطل رأس فوقه عمامة، ثم يتدلى حبل موصول بسلة يضع فيها المسافر رسالة التوصية التي يحملها، فتسحب بسرعة الى فوق. والدعامات الخارجية القائمة عند البوابة، هي حديثة، وقد ابتليت بأمر من الجنرال كليبر، قائد القوات الفرنسية في اثناء احتلال مصر. وتشير لوحة داخل الحائط الى ترميم القائد الفرنسي لهذا الصرح. أما اليوم فهناك بوابة حديدية تقود الى الساحة الواقعة بين الحديقة والدير؛ والبوابة مفتوحة، يستقبل أوراق اعتمادك عندها، أكونوموس AE Conomos أو أمين الدير بالترحاب وأحياناً بالقبل. أما التابعون من البدو وجمالهم فيبقون في الخارج، يخيمون في الواديينما يدخل الزائر الدير عبر باب منخفض في السور الشمالي الغربي قرب المدخل، الذي ابتني حديثاً. وكان سابقاً باب كبار زائري الدير، ويعرف بـ «باب الرأس» أو «بوابة أبوت» أي «بوابة رئيس الرهبان» وتقطع المسافة المسورة داخل الدير قاعات وغرف في كل زاوية واتجاه وبينها شبكة من الممرات صعوداً ونزولاً. وفي ساحة داخلية يقوم بئر ماء حوله أشجار مشمش، وفي خلاء مجاور خضار وازهار مزروعة، وكروم قديمة تعرش فوق شبكة بدائية بالية. وهناك غرف وصوامع عالية تقود إليها أدراج حجرية متأكلة أو سلالم خشبية، وتشرف هذه الغرف على الاسوار في زاويتيها الغربية والجنوبية. وعلى السور الشمالي الغربي صف طويل من الصوامع، جعل نصفها

للحجاج والمسافرين، ومفتوحة على رواق مسقوف بالخشب وتصله بدرجين حجريين. وفي السور الذي يقابل الصف الاول من الدرجات شرفات صغيرة يمكن أن تطل منها على سهل «الراحه» ER Râhah الفسيح، ويقيم الرهبان



غرف الدير العليا
وقمم جبل موسى خلفها.

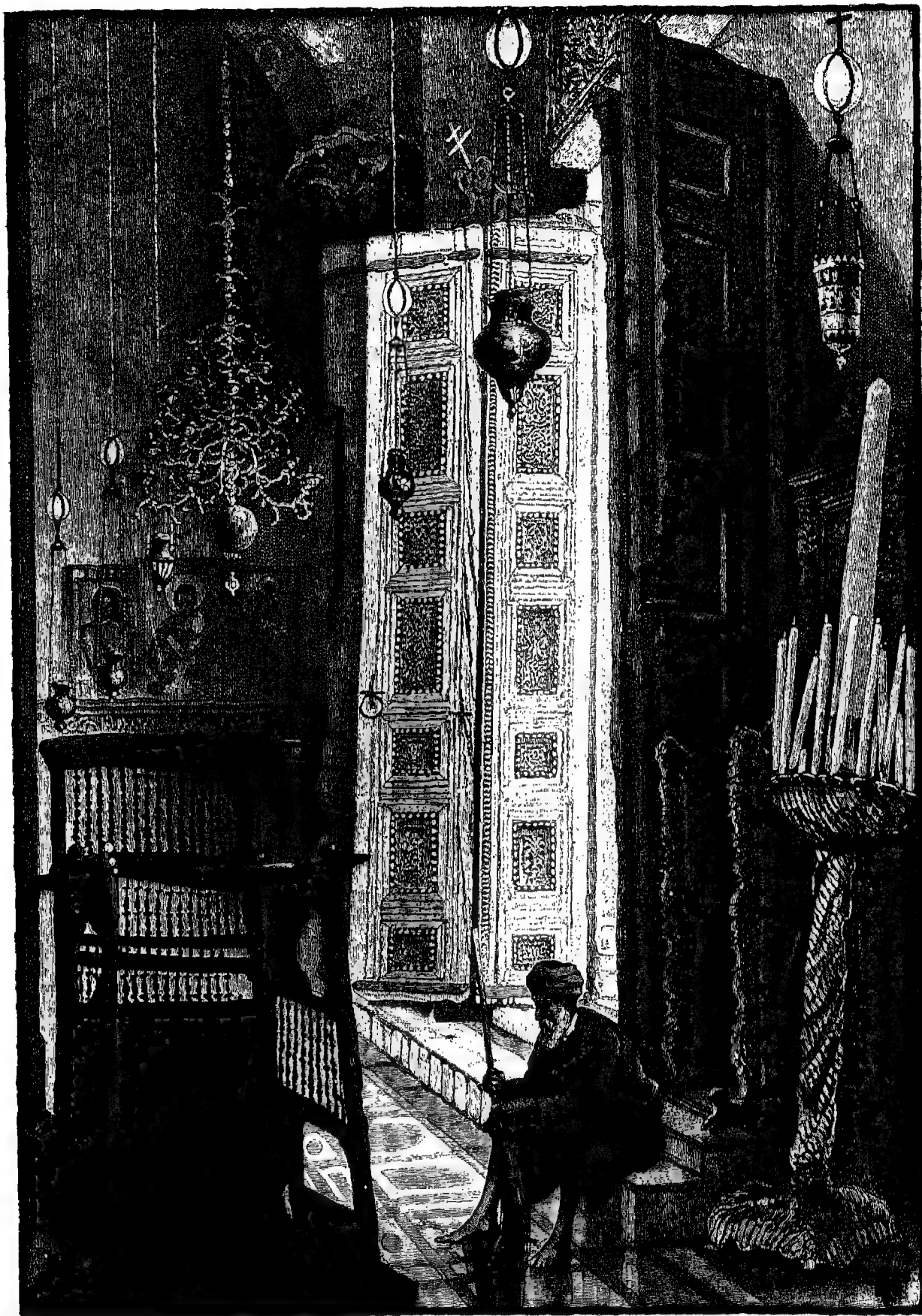
في هذه الصومعات المشرقة على السهل الخارجي. وكل ما في الدير يحمل
توقيع التاريخ، وهو يبدو عمل أجيال وقرون متعاقبة.



وتقوم الى جانب الكنيسة الكبيرة، كنيسة التجلي، ببرج جرسها الرائع المبني حديثاً، ووسط إنشاءات كثيرة. وفي جوار جامع يندر استعماله الآن، تقوم معابد ومصليات صغيرة متناثرة وتقام فيها القداديس من وقت الى آخر. وتجري الدعوة الى الصلاة بالطرق بمطرقة على قطعة حديدية، تشبه جزءاً من عجلة معلقة في وسطها بحبل. كما تستخدم قطعة مسطحة من الغرانيت معلقة تطرق بعصا خشبية، تؤدي الوظيفة نفسها. كما يقوم في الطبقة السفلى من برج الجرس الكبير لوح خشبي كبير، يصل صوته، اذا ضرب، الى انحاء الدير كافة اما الاجراس فلا تقرر إلا في أعياد الكنيسة، او ابتهاجاً أو في إظهار التكريم لزائر كبير.

وكنيسة التجلي هي كاتدرائية (باسيليكا) مسيحية قديمة جداً، وتنسب في العادة، الى جوستنيان، اما الداخل فتزينه قطع ديكور، وتصميم اكليريكي يوناني واضح. وتدخل الى الكنيسة في رواق وتهبط بعده في صف من الدرجات. وعند كل حائط سطح لجلوس المصلين يستند الى أعمدة كبيرة من الغرانيت زينت قواعدها بزخارف ونقوش خشنة. وتضيء مماشى الكنيسة خمس نوافذ بيزنطية في كل جانب، ويغطيها سقف مائل، والنافذة الغربية فوق المدخل هي في شكل صليب. واقواس النتوءات مزينة بموزاييك رفيع المستوى، أنجزه فنانون اوروبيون في القرن

لمحة من إحدى ساحات الدير.
ودرج خشن يقود الى الغرف العليا وقبة الجامع الصغير داخل الدير



داخل كنيسة دير سانت كاترين.



السابع او الثامن. وأهم هذه اللوحات لوحة تجلي المسيح، او «المتيا مورفوسيس» كما يدعوها الإغريق لإلارثوذكس، في ذكرى تشييد الدير. وعلى جانبي اللوحة مداليتان تحملان كما يقال رسمي جوستنيان وثيودورا.

ومذبح الشجر المحترق عند أقصى القوس هو، ربما، الجزء الأقدم عهداً في البناء. وتشير الى المكان، حيث كانت تنبت شجيرات كما يروى، لوحة فضية مزخرفة. ويحتفظ عند هذا المذبح وعلى نحو دائم بضوء يتوهج، ولا يسمح بالدخول إليه الا حفاة. ويقوم في ساحة غير بعيدة عن الطرف الشرقي من الكنيسة بئر مياهه طيبة، يدعى «بئر

موسى»، يشير الرهبان اليه بوصفه البئر الذي سقى منه

موسى قطعان أبنة جثرو Jethro .

وتشغل مكتبة الدير الطابقين السفليين من البناء قرب الكنيسة والكنز الكبير فيها هو «كتاب الأنجيل» Gospels الذي يعود الى عهد يثودوريوس سنة ٧٦٦م. مكتوب على ورق أبيض نفيس (برشمان Parchment)، وعلى كل جانب من الورقة صفان أو عامودان من الكتابة الإنشائية* المذهبة. وقد اكتشف في الدير هذا م. تيشندورف M. Tis-chendorf نسخة من الانجيل معروفة «كودكس سيناء» والنسخة موجودة الآن في بطرسبرج خلا بضع اوراق يحتفظ بها في جامعة لايبزغ؛

باب سانت استيفانوس
البواب وهو موسى على الطريق الى جبل موسى، يعترف
عنده الحجاج.

UNCIAL *

وأوراق أخرى مفقودة. والعهد الجديد كامل تماماً. وقد انتج هذا العمل على نفقة امبراطور روسيا، الذي قدّم نسخة منه الى مكتبة الدير.

وتقوم في الحدائق عند الجانب الشمالي الغربي من الدير مدافن الرهبان. وعند بوابة رواق الكهنة جمجمة سانت



البرج الشرقي لدير سانت كاترين،
وجزء من حديقة الدير وجزء من سهل الراحة والممر الضيق
المسمى «نصب الهوا» في البعيد.

استيفانوس «البواب» The porter مغطاة بالمخمل، وكان
استيفانوس قد توفي سنة ١٥٨٠ ميلادية. ويمكن
خارج هذه البوابة الصعود الى الأماكن المقدسة في
جبل موسى عبر ممر يتألف من ٣٠٠٠ درجة ما زالت
في حالة سليمة. وأول ما يستوقفنا على الطريق هي

«عين موسى» التي تنبع من تحت صخر ضخّم. ويقوم أعلى قليلاً «هيكل العذراء» وينحرف الطريق عند هذه النقطة
يميناً، وبعدما تصعد في درج حاد، تدخل ممراً ضيقاً في الصخر تعلوه قنطرة حجرية تعرف «بباب استيفانوس»،
حيث اعتاد الجلوس هنا، وحيث يعترف الحجاج قبل أن يسمح لهم بالصعود الى الأماكن المقدسة، ولهم أن يكملوا
طريقهم وهم ينشدون: «من يستطيع ان يصعد الى جبل الرب! من يستطيع أن يقف في مكانه المقدس؟ فليكن نظيف
اليد طاهر القلب!» يتبع دير سانت كاترين الى الكنيسة الارثوذكسية (اليونانية) وعليه أسقف غير مقيم يمثله وكيل، إلا
أن شؤون الدير موكولة عملياً الى إمين الدير. وقوانين الدير صارمة جداً، ويعتبر البعض الدير مقر إقامة جبرية.

ومعظم الرهبان غير متعلمين، وكل واحد منهم تقريباً يمارس حرفة يدوية والآتهم بدائية جداً. والعرب المقيمون ويعرفون «بالجبليّة» يتوارثون منذ قرون خدمة رهبان الدير، وعلاقتهم بالدير خاصة متفردة. وهم يتحدرون من مئة روماني ومئة قن مصري، قدّموا مع زوجاتهم وأولادهم من قبل جوستنيان كخدم وحرس للدير. ورغم أنهم مسيحيون في الأصل إلا أنهم لم يمنعوا من اعتناق الإسلام وإشهاره وهم مع ذلك لا يستخدمون الجامع الذي ابتني في القرن الرابع عشر، لاسترضاء حكام البلاد*، الا قليلاً.

* هي كذلك في النص، مع ان الكنيسة القبطية تحتفظ في خطابها المعلن بتفسير مختلف [م]

فهرس اللوحات

ص	
٥	- دير سانت كاترين في جبل سيناء
٩	- الخريطة
١١	- حصرون، قرية مارونية في شمال لبنان
١٨	- وادي قاديشا (النهر المقدس)
٢٠	- دير الملاوية، طرابلس
٢١	- قلعة طرابلس، حصن صليبي قوي
٢٤	- قلعة المسيلحة
٢٦	- خارطة لبنان الشمالي
٢٧	- شير العاقورة، في وادي المغيرية
٢٨	- جسر العاقورة الطبيعي
٢٩	- نبع أفقا
٣٠	- نبع افقا
٣١	- الساحل اللبناني قرب مصب نهر ادونيس
٣٣	- الجسر الطبيعي، لبنان. ويدعى بالعربية «جسر الحجر»
٣٤	- صخور كسبية، عجلتون، لبنان
٣٥	- شق نبع اللبن
٣٦	- جسر روماني قرب جونبة
٣٧	- تحت الجسر الطبيعي، لبنان
٣٨	- لوحات نهر الكلب وجدران صخرية
٣٩	- نهر الكلب
٤٠	- نزل ومقهى لبناني
٤١	- قناة جر مياه حديثة البناء على نهر الكلب
٤٢	- حمام ومقهى، بيروت
٤٤	- قلعة بيروت
٤٦	- صخرتا الحمام (الروشة) بيروت
٤٧	- بيروت من جعيتا

- ٥٠ - صيدا
- ٥١ - قلعة وميناء صيدا، صيدون القديمة
- ٥٣ - خان النبي يونس
- ٥٥ - قلعة صيدا، صيدون القديمة
- ٥٦ - امرأة فلاحه، تخضّ جلدًا لصنع الجبنة
- ٥٧ - موقع سريبتا
- ٥٨ - ميناء صيدا من سريبتا
- ٥٩ - جسر على نهر الليطاني (القاسمية)
- ٦٠ - وادي الليطاني
- ٦١ - صور
- ٦٣ - آثار كاتدرائية صور
- ٦٥ - آثار من صور
- ٦٦ - بوابة صور
- ٦٧ - برك رأس العين
- ٦٨ - قناة رأس العين
- ٧٠ - قبر حيرام
- ٧٢ - رأس البياض، درج صور في الجهة الجنوبية
- ٧٣ - رأس البياض
- ٧٤ - ناحية صور من الناقورة
- ٧٥ - رأس الناقورة
- ٧٦ - مدينة عكا من الجنوب
- ٧٧ - مدينة عكا من الشمال الشرقي
- ٧٩ - بوابة عكا
- ٨٠ - سهل عكا من منحدرات الكرمل
- ٨١ - منظر عام لعكا
- ٨٥ - خليج عكا من منحدرات الكرمل
- ٨٦ - غسل الأيدي بعد الغداء
- ٩٠ - أعلى منطقة في جبل الكرمل
- ٩١ - بئر ماء في بستان في حيفا
- ٩٤ - دير جبل الكرمل

- ٩٥ - الكهف المعروف «مدرسة الأنبياء»
- ٩٨ - المحرقة
- ٩٩ - بئر في المكان الذي ضحى فيه مار الياس
- ١٠٠ - سهول اسدرلون
- ١٠١ - نهر كيشون من المحرقة
- ١٠٢ - نهر كيشون بعد موسم الأمطار
- ١٠٣ - عتليت في الجنوب
- ١٠٤ - آثار عند الجانب الغربي من عتليت
- ١٠٦ - مشهد البحر العظيم من عتليت
- ١٠٨ - بقايا حصن صليبي في طنطورا
- ١١٤ - جزء من السور العالي والخندق حول قيسارية
- ١١٦ - برج قلعة قيسارية
- ١١٨ - بقايا خان حصين عند مُخالد
- ١٢١ - كفر سابا
- ١٢٢ - نبي بن يمين (ضريح النبي بنيامين)
- ١٢٣ - قلعة ميرابل
- ١٢٤ - نهر العوجة
- ١٢٥ - شجرة مقدسة تدعى شيخ التيم
- ١٢٧ - قيسارية
- ١٢٩ - الرسو في يافا
- ١٣٠ - الجامع في يافا
- ١٣١ - شجرة شيتيم في يافا
- ١٣٢ - عين ماء للعموم في يافا
- ١٣٣ - في بازار يافا
- ١٣٤ - منظر في بستان يافاوي
- ١٣٥ - بيت سيمون الدباغ
- ١٣٦ - منظر لميناء يافا المحاط بالصخور
- ١٣٧ - يافا، جوف القديمة
- ١٣٩ - سبيل ماء على الطريق العام
- ١٤٠ - ضريح على اسم الإمام علي

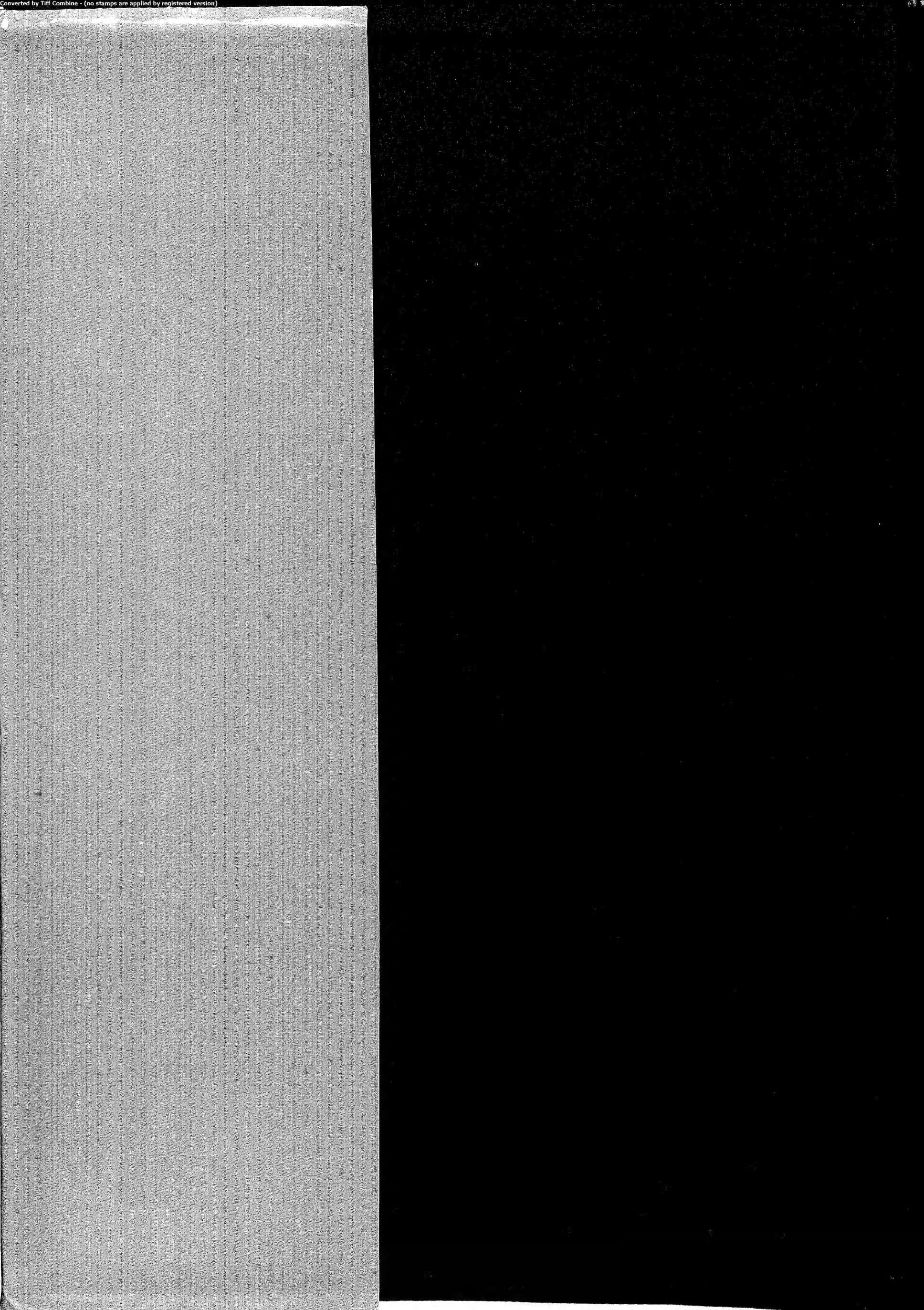
١٤٣	- آثار كنيسة القديس جورجيس في اللد
١٤٤	- برج الرملة
١٤٦	- سهل شارون من برج الرملة
١٤٧	- سورا
١٤٨	- الحراثة في سهل فيليستيا
١٥٠	- تبنى أو موقع تيمنات القديمة
١٥١	- عين شمس
١٥١	- وادي سراق
١٥٢	- ضريح الشيخ سماط في سورا
١٥٣	- آثار حصن اللطرون
١٥٤	- تل الصافي
١٥٥	- شوكوه، حيث خيم الفلسطينيون
١٥٧	- بينى أوجابني القديمة
١٥٩	- أشدود
١٦٠	- المجدل
١٦١	- آثار عسقلان من الشمال الشرقي
١٦٣	- غزة
١٦٤	- آثار عسقلان من الجنوب الغربي
١٦٦	- آثار عسقلان من الشمال
١٦٧	- غزة، غارا القديمة
١٦٨	- بئر ماء في سهل فليستيا
١٧١	- وادي بيت جبرين
١٧٢	- قلعة بيت جبرين
١٧٤	- شبكة سراديب تحت الأرض في بيت جبرين
١٧٦	- كنيسة سانت آن (بيت جبرين)
١٧٩	- حبرون (الخليل)
١٨٢	- راميت الخليل
١٨٤	- وادي بيركا
١٨٥	- منظر لآثار كنيسة بيزنطية في «تكوا»
١٨٦	- براري جوديا (يهودا)
١٨٨	- وادي التفاح

١٨٩	سنديانة ابراهيم (الخليل)
١٩١	- بركة الخليل
١٩٢	- مزار متهدم (الخليل)
١٩٤	- جبال مواب
١٩٥	- البحر الميت
١٩٧	- انجيدي (عين الجدي)
١٩٨	- الطرف الجنوبي للبحر الميت
١٩٩	- منحدرات انجيدي (عين الجدي)
٢٠٠	- براري انجيدي (عين الجدي)
٢٠١	- بير سبع
٢٠٣	- عين الوهدة
٢٠٥	- مقابر معزولة (بترا)
٢٠٦	- هيكل أو ضريح في الصخر (بترا)
٢٠٧	- الصخرة المنحوتة مدرجاً «بترا»
٢٠٨	- مدخل وادي بترا
٢٠٩	- جبل هور
٢١٠	- أضرحة في الصخر (بترا)
٢١١	- الدير، بترا
٢١٢	- جدران الشق، بترا
٢١٦	- جزيرة فرعون
٢١٩	- الصليب والهلال
٢٢٠	- بئر في حديقة دير سانت كاترين
٢٢١	- رسالة التوصية أو الاعتماد
٢٢٢	- منظر من الرواق الشمالي الشرقي
٢٢٣	- غرف الدير العليا
٢٢٤	- لمحة من إحدى ساحات الدير
٢٢٥	- داخل كنيسة دير سانت كاترين
٢٢٦	- باب سانت استيفانوس
٢٢٧	- البرج الشرقي لدير سانت كاترين

الفهرس

ص

١١	فينيقيا ولبنان
٤٩	صيدا أو صيدون
٥٧	السهل الفينيقي
٧٩	عكا أو بوابة فلسطين
٨٨	مقاطع من تاريخ عكا القديم
٨٩	جبل الكرمل ونهر كيشون
١٠٤	المدن الساحلية وسهول فلسطين
١٢٩	يافا، أو جوفاء القديمة
١٤٣	اللدّ والرملة
١٤٧	فيلستيا أو فلسطين
١٦٧	بلاد جودا (يهودا) الجنوبية
١٨٩	الحدود الجنوبية والبحر الميت
٢٠٩	جبل هور وجدران إدوم الصخرية
٢١٩	دير سانت كاترين





هذا الكتاب

ليس بجمال إغماضة عين ... وتذكر

ولا بمتعة فتح عين ... ونسيان

إنه بين الاثنين وحاصل جمعهما.

نص يشدك، ولوحة تريحك ... إلخ

نبيل سليمان حيدر

